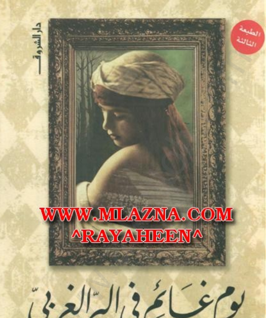
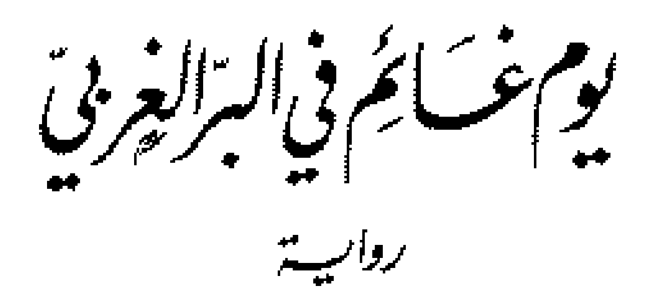


يوم غائم في البر الغربي

رواية

محمد المنسي قنديل

محمد المنسي قنديل



رواية

دار الشروق

الطبعة الأولى ٢٠٠٩
الطبعة الثانيـــة يناير ٢٠١٠
الطبعة الثالثـــة مارس ٢٠١٠

رقم الإيداع ١٤٢٨٣/ ٢٠٠٩
ISBN 977-09-2049-5

٨ شارع سيبويه المصرى
مدينة نصر القاهرة مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢) +
email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

أسيوط

ظهرت حافة النهر أخيراً، متعرجة ومليئة بأعواد البوص والأشواك الجارحة، أصبح الهواء بارداً ورطباً، وأخذت أسراب من الطيور البيضاء تهيم في دوائر متصلة، لكزت الأم الحمار الذي تركبه لتوقفه عن السير، تأملت موجات النهر الرمادية الداكنة، قالت:

ـ لا أحد هنا، لقد أرشدونا إلى المكان الخطأ.

تقدمت عائشة بحمارها قليلاً، لمحت القارب المربوط إلى جذع شجرة وهو يعلو وينخفض مع الموج، لم تقل شيئاً، قطعت رحلة طويلة دون أن تعرف سببها، ظل الحمار يخب ويتعثر في أحجار الطريق حتى آلمتها مؤخرتها، شاهدت بضع حمائم مستكينة من البرد في جوف إحدى الأشجار، تمنت لو أنها تجد مثلها مخبأ بعيداً عن وجه أمها الجامد.

هبطت الأم من على الحمار، انحدرت مع ضفة النهر، اختفت خلف أعواد البوص، سمعت «عائشة» صوت لهاث، أحست بالخوف، هل يمكن أن تتبعها الذئاب من نجعها البعيد إلى هذا

المكان؟ لم تستطع أن تألفها رغم كثرة ما رأتها وهي تحوم حولها، أو حتى وهي تتسكع طوال الليل تحت نافذتها، كانت أشبه بكلاب ضخمة، غبراء اللون، ألسنتها متدلية ولا تكف عن اللهاث، كيف يمكن أن تألف رؤية مخلوقات بهذا الشكل؟

ظهرت الأم من بين الغاب، أشارت إليها أن تهبط، ربطت عائشة الحمارين معا إلى إحدى الأشجار وسارت خلفها، دائما تسير خلفها، تنحدر في ممر ضيق بمحاذاة الماء وهي تحاذر أن تجرحها الأشواك، ظهرت «العشة» المبنية من القش والطين، سمعت عائشة صوت «كركرة الجوزة» وشمت رائحة دخان «المعسل»، صاحت الأم:

ـ يا مراكبي.

لم يرد عليها أحد، تقدمت بثبات حتى وقفت أمام فتحة العشة، كان داخلها رجل نحيل داكن الجلد، يجلس مسترخيا و«الجوزة» في يده وأمامه جذوات مشتعلة من الحطب، كان واضحا أنه لم يجب عليهما متعمدا، لم يكن يريد من يعكر عليه مزاجه أو يخرجه من مخبئه في هذا الجو البارد، توقف عن شفط الدخان، نظر إليهما في صمت، قالت الأم:

ـ نريد أن نعبر النهر.

نظر إليهما مستغربا، أطال النظر قليلا إلى وجه عائشة، هاله اتساع عينيها، والبريق الأخاذ الذي يشع منهما، قال:

ـ من الجنون أن نحاول ركوب النهر وهو بهذا الغضب، عودا في الغد.

قالت الأم في إصرار:

ـ لابد أن نعبر اليوم، لقد جئنا من سفر بعيد.

ـ النهر غدار يا ست، وفي جو مثل هذا تستيقظ كل أرواح الغرقى وتخرج من شقوق القاع، لا أحد يعرف ماذا يمكن أن يحدث؟

ارتعدت عائشة، تخيلت هذه الأرواح وهي تخرج باردة وشاحبة وحزينة وتحيط بهما، قالت الأم:

ـ لو كنت بارعا كما يقولون فلن تأبه بهذه المخاوف، لن تعطيك هذه «الجوزة» سوى الدخان، ولكني سأعطيك ريالا سلطانيا.

ولكن «المراكبي» كان يفكر بشكل مختلف، لو أنهما انصرفتا الآن فستختفي هذه الصبية من أمامه سريعا، ولن يتأمل هاتين العينين كما ينبغي، ولن يستمتع برؤية هذا الوجه على راحته، أمسكت المرأة بكم العباءة التي كانت تغطي جسدها، فكت عقدة في طرفها وأخرجت من طياتها ريالا من الفضة، نظيفا ولامعا من الصعب أن تعثر على مثيل له وسط هذه النجوع المنعزلة، كانت معظم العملات يغطيها الصدأ والأوساخ، لا يعرف أحد إن كانت قد ضربت في عهد سلطان هذه الأيام أو في عصر محمد علي الكبير، مد «المراكبي» أنامله مسحورا بالضوء الذي يشع منه، لم ير من قبل سوى القطع النحاسية الصغيرة، وفي أغلب الأحيان لم يكن يراها، لم يتعد أجره بضع حبات من الطماطم أو الخيار، أو بيضة واحدة، وضع «الجوزة» جانبا، وزاد من الحطب حتى تبقى النار مشتعلة، ونهض واقفا، بدا طويلا، عريض الكتفين رغم نحافته، سار نحو الشجرة وجذب الحبل أصبح القارب

أكثر قربا وثباتا إلى الشاطئ، التفتت الأم إلى عائشة وقالت لها في حزم:

ـ اصعدي!

انكمشت عائشة وهي ترتعد من الهواء البارد، انتهز «المراكبي» الفرصة ومد يده وقبض على يدها، كانت باردة وصغيرة ويده خشنة وطويلة الأصابع، رفعت قدميها وخطت إلى القارب المتأرجح، التفت ناحية الأم ولكنها لم تمد يدها نحوه، أمسك بحافة القارب حتى استطاعت أن تصعد هي أيضا، فك الحبل، دفع القارب قليلا ثم قفز فوقه والماء يقطر من سرواله الواسع، أخذ القارب يعلو ويهبط، وزاد هذا من فزع عائشة، مالت على حافة القارب وهي توشك على التقيؤ، نظر إليها «المراكبي» في إشفاق وهو يقول:

ـ لا تنظري إلى الماء، انظري للشاطئ الآخر، سيشعرك هذا بالأمان.

رفعت عائشة رأسها، الشاطئ الآخر مازال بعيدا، تظهر عليه قمة الجبل الغربي، وقد أخفى الضباب كثيرا من تضاريسه القاسية، استدارت عائشة نحو «المراكبي» وعلى وجهها ابتسامة حزينة وممتنة، فكر في نفسه: ياربي، كيف خلقت هذا الجمال، من بطن هذه المرأة المتجهمة؟ ترى ما عمرها؟ اثنا عشر.. ثلاثة عشر.. أقل أم أكثر؟ كان جسدها يستعد لاستقبال سنوات النضج والتفتح، ونتوءا صدرها بدآ في الظهور، تمنى «المراكبي» في نفسه أن تسقط الأم في الماء وأن يظل هو يجدف مع هذه الصبية حتى منبع النهر.

ومن بعيد تناهى صوت عواء غريب، قادم من الضفة الأخرى،

كان هو الذئب نفسه الذي تبعها عبر هذه المسافة يقف على ضفة النهر، قال المراكبي مستغربا:

ـ لا ذئاب في هذه الناحية، وهي لا تظهر في النهار هكذا، من حظنا أن النهر بينه وبيننا.

اهتز القارب فجأة، وبدأت الموجات في دفعه للدوران حول نفسه، تشبث «المراكبي» بالمجداف، وظهر على سطح الماء دوامات متتابعة، قال «المراكبي»:

ـ تشبثا بحافة القارب، كان يجب تجنب النهر في لحظات غضبه.. لقد حذرتكما!

أصبح القارب خفيفا تلعب به الأمواج، والتقت عينا عائشة بعيني الذئب، رأت فمه المفتوح ولسانه المتدلي، وظل «المراكبي» يضرب الأمواج، يحاول أن يبعد القارب عن مسار الدوامات، صاحت الأم مرعوبة:

ـ سوف تقتلنا.

ودفع المجداف مرة أخرى، كأنه يحاول أن يبعد الأرواح التي تدور مع الموجات، وحافظ القارب على توازنه وفق معجزة ما، دفعته موجة مفاجئة إلى مخاضة من نباتات ورد النيل، تشابكت حوله الجذور وحدت من حركته، غرس «المراكبي» مجدافه فيها وهو يلهث، قال لهما:

ـ يمكنكما النزول هنا.

قالت الأم في استنكار: تريد أن تغرقنا؟!

ـ الأرض أقرب لكما مما تتصوران، لو بقينا في القارب فسوف تتسع الدوامة وتبتلعنا جميعا.

نهضت عائشة، كانت خائفة من النهر ومن تجهم أمها، قفزت للماء بحركة مفاجئة، وجدت نفسها تقف على أرض رخوة وزلقة، أزاحت الأوراق المفلطحة وبدأت تشق طريقها للشاطئ، سمعت صوت أمها وهي تقفز خلفها، ظلت تنزع قدميها من الطين لتضعها فيه مرة أخرى، قبضت على بعض الأغصان المتدلية لشجرة صفصاف عتيقة، نصفها في الماء والآخر في اليابسة، هي التي قادتها إلى الشاطئ، وتبعتها الأم، وظل «المراكبي» واقفا خائفا ممسكا بالمجداف، هتفت الأم فيه بصوت عال:

ـ ستبقى هنا بانتظار عودتنا.

قال «المراكبي»: وإلى أين أذهب؟ في النهر الدوامات وعلى الشاطئ الآخر الذئاب.

التفتت الأم إلى عائشة، كانت ترتجف، قالت لها بنفس الحزم:

ـ فلنواصل السير، وسيقوم الهواء بتجفيف ثيابنا.

كان الجبل قريبا من الشاطئ، سارتا وسط درب صخري موحش، استطالت الرحلة حتى لم تعد تفضي إلى مكان، اصطكت أسنان عائشة، وحين ضمت ذراعيها حول نفسها اكتشفت أن البروز الذي في صدرها يؤلمها أيضا، سبقتها الأم وأخذت تحث السير أمامها، وتعجبت عائشة: من أين جاءت بكل هذه القوة؟! وصلا إلى ساحة المقابر المقامة في حضن الجبل، خليط من شواهد القبور والصلبان

والأعمدة المهشمة التيجان، فتحات غائرة تؤدي إلى سراديب خفية داخل الجبل، كانت الريح تمرق من شق الجبل، وتحدث صوتا كالعويل، طافت الأم بعينيها تبحث عن شيء ضائع، وظهرت عدة بيوت ضيقة محفورة في الصخر، توقفت أخيرا أمام بيت صغير عليه قبة باهتة الطلاء، دقت على الباب الخشبي بكف قوية، كأنها توقظ أحد الموتى، بعد فترة طويلة فتح الباب، ظهر رجل عجوز محني القامة، يرفع رأسه بصعوبة كأنه غير قادر على مواجهة ضوء النهار، كان النساج الأسود عالقا بلحيته وثيابه، قال مستغربا:

ـ الجو بارد من أجل زيارة كهذه!.. ادخلا..

ترددت عائشة، أحست كأنها ستدخل إلى جوف مقبرة، ولكن الأم دفعتها من جديد، دخلت وسط عتمة خانقة، وسط عبق أدخنة الحطب والروث المحترق، جلستا تحت القبة التي كان يتسلل منها شعاع ضئيل من الضوء، نظر الرجل إلى ثيابهما المبللة، والتراب العالق بهما، قال:

ـ أنتما قادمتان من سفر بعيد، هل الأمر يستحق؟...

قالت الأم وهي تشير إلى عائشة:

ـ أريدك أن ترسم وشما على ذراعها.

قال الرجل: مادام الأمر كذلك، دعيني أشعل بعض الضوء.

نهض ببطء، أمسك بعلبة من الصفيح يطل من قمتها طرف ذبالة محترقة، أشعلها بواسطة عود من الحطب، لم تضئ المكان كثيرا ولكنها بعثت فيه الحياة، قال:

- لماذا تجيئان إلى باطن الجبل من أجل وشم صغير كان يمكن دقه ببساطة في سوق الثلاثاء؟!

قالت الأم في اقتضاب:

- قالوا لنا إنك الأفضل، وعليك أن تثبت ذلك، ارفعي ذراعك يا..

وعضت على شفتيها قبل أن تنطق اسمها، وظلت عائشة ترتجف، ولكنها أزاحت الشال من على رأسها وكشفت عن ذراعها، كانت بيضاء بضة، لم تدمغها الشمس، قال الرجل:

- وماذا تريدين أن تضعي على هذا الذراع الصغير؟

قالت الأم: ضع علامة الصليب المقدس، واكتب تحتها الاسم «ماري».

شهقت عائشة ونظرت لها بعينين واسعتين مليئتين بالذعر، لم تبال الأم بها، وواصلت إعطاء تعليماتها للوشّام:

- أريده كبيراً وواضحاً، ولكنه باهت، كأنه كان مرسوما على جلدها منذ سنوات، حقيقياً كأنها قد ولدت به..

- هذا يتطلب كثيراً من الدقة، ولكنك جئت للرجل المناسب، من أين أنتما؟

قالت الأم في سرعة: من «البياضة»!

كانت تكذب، ولا بد أن الرجل قد أدرك ذلك، ظل يفحص ذراع عائشة، ليبحث عن أنسب موضع للوشم وهو يهمهم:

- أنا أعرف أهل «البياضة» جميعا، أنا الذي رسمت كل صلبان التعميد على جلودهم، وأعرف أيضا أهل «البداري» و«دير الجبراوي» وحتى «شطب»، من ملامحكما أستطيع القول إنكما من «بني عدي» أو «بني خلف» أليس كذلك؟!

حدقت عائشة في عيني الرجل فوجدتهما تشبهان عيني الذئب المترصد على الشاطئ، تحاول اختراق العباءة التي تغطي جسدها، قالت الأم:

- أنت تكثر من الأسئلة أيها الوشّام، ابدأ عملك وهاهو ذا أجرك.

مرة أخرى أخرجت له قطعة الفضة السحرية، وتعجبت عائشة: من أين أحضرت أمها كل هذه القطع البراقة؟! عض عليها الرجل بأسنانه ليتأكد أنها ليست مزيفة، وضعها في جيبه بعناية، أحضر لفافة فيها أدواته من أحد الأركان، قطع من المعدن يغلب عليها السواد، أطرافها المسنونة هي فقط التي تبرق، فتح علبة صغيرة فيها مادة داكنة نفاذة الرائحة، خليط من التوتياء ومساحيق مستخرجة من معادن الجبل، كان وحده يعرف سر خلطتها، أمسك ذراع عائشة في إحكام، التفتت إلى أمها بعينين ممتلئتين بالدموع، وهتفت للمرة الأولى منذ الصباح:

- يا أمي....!!

ولكن الأم نظرت إليها بوجه جامد، أحست عائشة بسن الإبرة وهو يخز جلدها، لم تصح ولم تبك، ولكنها كانت ترجو أن يخفف قبضته من عليها قليلاً، قال الرجل:

ـ حاولي الاسترخاء، كلما استرخيت قل إحساسك بالألم.

حولت عائشة وجهها بعيدا عن رائحة أنفاسه العطنة، تأملت الجدران المكونة من عروق الصخر، والسناج الذي يغطيها، زاد الألم فحاولت أن تنزع ذراعها، ولكن أصابعه ظلت قابضة عليها، اشتعلت نيران الألم في جسدها كله فأخذت تبكي في صوت خافت، ولم يتوقف الوشام، ظل يواصل قتل الخلايا بطرف مخرزه ويضع بدلا منها مزيج التوتياء ومعادن الجبل، احمر ذراعها، وبدأ اللون الأزرق يتسلل وسط تلافيف الخلايا، تذكرت عائشة فجأة لحظة الألم التي شعرت بها وأبوها يحدق فيها بعينيه الجامدتين، شهقت وتجمدت في مكانها، فطن الرجال متأخرين إلى وجودها في غرفة «الغسل» قبل أن يجروها بعيدا، كان سن الوشام المدبب قد أيقظ كل مكامن الألم في داخلها، رحيل الأب، افتقاد حضن الأم، دخول رجل آخر إلى فراشها، سرى نوع من الشلل في ذراعها وكتفها وجانبها الأيسر كله.

أخيرا ترك الوشام ذراعها، ولكن الألم ظل متواصلا، قال للأم:

ـ تأملي بنفسك، صليب رائع، في أطرافه ثلاثة صلبان أخرى، سيتورم قليلا، ولكن بعد أن يزول الورم سيبقى الصليب مدى الحياة.

قالت الأم في إيجاز: حان وقت الانصراف.

نهضت عائشة خائرة القوى، أوشكت أن تسقط على الأرض، استندت إلى الحائط، نظر إليها الرجل في إشفاق وقال:

ـ إنها في حاجة إلى قليل من الراحة.

ـ لا وقت لدينا.

عاد الهواء البارد يلفح وجهيهما، سارتا ببطء، كانت الأم تسندها في صلابة. لم يكن هناك وقت للسقوط، ولا فرصة للراحة، عبرتا الصخور والفتحات الغائرة، بدت المياه الرمادية مرة أخرى، ولم تشعر عائشة بأي شيء وهي تسقط على الأرض.

هرع «المراكبي» نحوها، كان قد نجح في جر القارب وربطه في شجرة صفصاف، كانت الأم تلطم خدها بجوار الجسد المسجى، انحنى «المراكبي» دون استئذان رفع الجسد الهش بين ذراعيه، واتجه للقارب:

ـ هذا يوم قاس، قاس علينا جميعا.

تأمل وجهها الشاحب، كأنها على حافة الموت، حملها باعتزاز، كانت الظروف قد أتاحت له فرصة أكثر مما كان يحلم، خاض الماء، وصعد القارب، ووضع جسدها المسجى، والتفت إلى الأم بنظرة لائمة، وجد الدموع تغطي وجهها، أخذ يجدف في سرعة، من حسن الحظ أن الذئب كان قد انصرف، وخفت دوامات الماء، ظل يجدف في حماسة، كان يدرك أن إنقاذها يعتمد على الوصول السريع إلى حمى العشة الدافئة التي يقيم فيها، هبط المراكبي وحمل عائشة مرة أخرى وخاض في الماء حتى وصل إلى باب العشة، وكان الحماران ينتظران في صبر، ولم يكن حولهما ما يؤكل إلا الأشواك والعشب البري، راقبته الأم في صمت دون أن تجرؤ على الاعتراض، راقبته

وهو يسجيها بجانب النار، زاد من إشعال الحطب، وحرص على دفع الدخان بعيدا، وعندما رأى انعكاس لهب النار على وجنتيها الشاحبتين ابتسم في رضا، وخرج من العشة وهو يقول للأم:

ـ لن تستطيعا الذهاب بعيدا ياسيدتي وهي في هذه الحالة.

قالت الأم: كنت أود أن نكمل طريقنا إلى أسيوط..

قال «المراكبي»: أين نحن من أسيوط ؟ لقد أخطأت التقدير، محطة القطار بعيدة عن هنا، والحمير لن تتحمل هذه الرحلة.

توقفا عن الكلام لبرهة وبدأت الأم تعيد حساباتها، تركها الرجل وأخذ يدور حول الشاطئ يبحث عن بعض الأغصان الجافة، وبعض الخشب الصالح لإطعام الحمارين، تحرك في صمت متجنبا نظرات الأم التي تحدق في الفراغ، كانت «العشة» تحمل رائحة رجل وحيد، كومة من الثياب المتسخة، ووعاء فخاري فيه بقايا قطع من الخبز، وفراش من القش كانت عائشة تنام عليه، وضع المزيد من الحطب، التفت للأم قائلا:

ـ هناك قطار القصب.

أفاقت الأم من شرودها وانتبهت له: أي قطار؟

ـ موقفه قريب من هنا، إنه يسير وسط حقول القصب حتى «الحوامدية»، وهو يتوقف في كل فترة ليجمع المزيد من عيدان القصب، المشكلة أنه قطار بطيء وحمولته خشنة وجارحة، وغير مسموح بالركوب فيه.

ـ وكيف أستطيع الركوب فيه إذن؟

ـ أنت سيدة الإقناع، يمكنك التفاهم مع الخفراء، ومع السائق، المهم أن تتحملا مشقة الرحلة.

نظرت الأم إلى جسد عائشة المسجي، كانت ماتزال مغمضة العينين، ولكن الزرقة انسحبت من خدها وحل بدلا منها حمرة باهتة، كانت الحياة تدب فيها بسكون، قال «المراكبي»:

ـ لن يأتي القطار قبل الصباح، تأخر الوقت وأصبح الجو سيئا، يمكنكما البقاء داخل العشة، وسأبيت في الخارج.

نظرت إليه الأم في استغراب، لم تتوقع تلك الإيماءة من الكرم المفاجئ، نظرت نحوه بمكر فلاحي:

ـ ليس معي المزيد من الفضة.

لم يرد عليها، مد يده تحت الفراش الذي تنام عليه عائشة وأخرج قرطاسا صغيرا من الشاي وآخر من السكر، كأنه يخرج كنزا ثمينا، وبدأ يدس «كوز الصفيح» المسود في النار وهو يقول لها:

ـ ما أخذته منك ياسيدتي يكفي ويزيد، أنتما الآن ضيفتاي.

تأوهت عائشة وفتحت عينيها لبرهة، حدقت فيهما باستغراب، ثم عاودت إغلاق عينيها مرة أخرى، ولكنها كانت لمحة مبشرة، أعادت الطمأنينة إلى قلب الأم، دق قلب «المراكبي» وهو يرى هذا المس من السحر، ناول الأم كوبا من الشاي الثقيل، وأعد لنفسه آخر، وحاولت الأم أن تهز عائشة لتشاركهما ولكنها أدارت ظهرها لها، أخذ الاثنان يرشفان الشاي في صمت، ثم قال «المراكبي» وهو يحاول أن يسلك صوته:

- من الواضح أنكما من كرام الناس، ما سبب هذه الرحلة الشاقة؟ لا أعتقد أنكما هاربتان من شيء.

قالت الأم وهي تتنهد: الأمر معقد، أكثر من أن أشرحه لغريب عابر.

- ربما كان من الأفضل أن تخففي عن صدرك مع غريب عابر، ولا يوجد أفضل من «المراكبي» الذي يعيش دائما بين شاطئين، لا أرض تخصه، ولا أهل يأوي إليهم. الماء هو موطني، والسمك هو أهلي.

قالت الأم وهي تتنهد:

- كل ما استطيع أن أقوله إنني أبحث عن مكان آمن، حياة جديدة..

لم تقل له عن الترع والرياحات التي عبرتها هي و«عائشة»، ولا النجوع المنسية التي تجنبتاها، ولا شقوق الجبال التي مرقتا منها، لم تذكر له عن حليها التي باعتها لتوفر تكلفة هذه الرحلة، فقط وضعت كوب الشاي الفارغ وأسندت ظهرها لجدار العشة وأغمضت عينيها، ولاحظ «المراكبي» أنه رغم الغضون التي تملأ الوجه والجلد المدبوغ الذي يغطي الجلد فإن الأم والابنة متشابهتان إلى أبعد مدى، نهض في بطء - كما وعد - وجلس خارج العشة، وتأمل أضواء بقايا النهار وهي تهبط وتذوب في مياه النهر.

الليل في مصر هو الأشد ظلمة من أي مكان آخر، خصوصا عندما يغيب القمر الشاحب، فالظلمة دائمة والضوء طارئ، تراكمت ذراته

الداكنة على ضفاف الوادي عبر آلاف السنين، من حرائق أعواد الغاب لإبعاد التماسيح وأفراس النهر الجائعة، ومن قمائن الطوب التي تحرق الطمي، ومن توهج الفخار لصنع آنية الطعام والدفن، وأبخرة الشعير المتصاعدة عند تخمير الجعة، وشذرات الصخور التي يتم تقطيعها لبناء البيوت وسراديب المقابر، من ركام الجير الحي، والصهد المتصاعد منها على مدى الليل والنهار، ومن اشتعال سعف النخل والقش بحثا عن الدفء وطهي الطعام، وحرائق غيطان القصب لتتشرب الأرض بقايا رماد الخصوبة، وإشعال البخور في المعبد عند تقديم الأضاحي، وأدخنة المر والعطر واللبان، والمشاعل التي كان بناة الأهرام يشعلونها طوال الليل على مدى عشرين عاما، كل هذا صبغ الأرض بلون السواد، وجعل الليل كثيفا، حتى إن ريح الخماسين لا تقدر على إزاحته.

جلس «المراكبي» ضئيلا أمام رياح النهر الباردة، تأمل السحب الداكنة التي أخفت خلفها القمر والنجوم، استند إلى جذع نخلة، أحس بأليافها الخشنة وهي تغز ظهره، هناك شيء ما قد تغير، أحس فجأة بالوحدة والجوع كما لم يحس بهما من قبل، ضياع أيام العمر، وبؤس «العشة» التي يسكنها، وفقر الطعام الذي يتناوله، كأن وجود هذه الفتاة العديمة الحيلة، مجرد وجودها، قد غير كل شيء من حوله، تحسس القطعة الفضية في جيبه، كانت هي تميمته، لن ينفقها أبدا لأنها ستذكره دوما بوجهها الصبوح، ومن المدهش أن هذه الخواطر ساعدته على احتمال البرد حتى الصباح.

كانت عائشة أول من استيقظ، رأت الأم النائمة، والنار الخامدة، أحست بالألم في ذراعها فتذكرت ماحدث بالأمس، نهضت وهي

تترنح من الجوع، خرجت من العشة فرأت «المراكبي» وهو مكوم عند جذع النخلة، أحس بوجودها ففتح عينيه، وجدها واقفة تتأمله في صمت، بدا وجهها شاحبا وجميلا وحزينا، لم تكن تدري أنه حملها على ذراعيه، وأنه انتهز الفرصة وضمها إلى صدره قليلا، خفية عن عين الأم، قال لها:

ـ هل أنت بخير؟ هل نمت جيدا؟

أومأت برأسها وأعطته ابتسامة صغيرة، خرجت الأم من «العشة» متعجلة وهي تقول له:

ـ في أي اتجاه يوجد قطار القصب؟ هل هو بعيد؟

أشار «المراكبي» إلى الاتجاه المطلوب وهو يشعر بالخيبة، قال:

ـ إنه ليس بعيدا عن هنا، مسافة بسيطة.

قالت الأم وهي تشير إلى الحمارين:

ـ سأترك هذين الحمارين أمانة عندك، وسأرسل لك مرسالاً لاستعادتهما.

ـ على عيني ياست.

أخذت عائشة من يدها، وسارتا مبتعدتين، ولوح «المراكبي» بيده في حزن، وظل الهواء يحرك عباءتيهما السوداوين حتى اختفتا عن أنظاره.

لم تكن غيطان القصب بعيدة عن شاطئ النهر، كانت جرداء، تم

قطع الأعواد المسكرة، وظلت جذورها متشبثة بالأرض، في انتظار أن يتم إحراقها لتتحول إلى رماد أسود مشبع بالأملاح، ويشهد الرماد معجزة صغيرة حين تبرز من بين طبقاته رءوس خضراء جديدة، القصب الذي تم جزه كان مربوطا في حزم متفرقة، كل واحدة مربوطة بأوراق القصب الطويلة الخشنة، كان يتم جدلها قبل أن تجف، جلستا وسط الحزم المتراصة، كان المكان خاليا من الناس، والقضبان الحديدية النحيفة تسير متعرجة عبر الحقل وتختفي عند حافة الأفق، ولم يستيقظ الخفراء بعد، وكانت هناك أشعة ضعيفة من الشمس وبعض من الدفء، قالت عائشة:

ـ أنا جائعة يا أمي، وأحس بالدوار.

شدت الأم أحد أعواد القصب ونزعت الأوراق التي تحيط به في قوة، وكسرته إلى عقل صغيرة، لم تبال بالجروح الصغيرة التي أحست بها في يدها، واستخلصت اللب الناصع البياض تقدمه لعائشة التي همست:

ـ ماذا لو رأونا؟؟!

قالت الأم وهي تنزع اللحاء بأسنانها : سأتصرف معهم.

بدأت «عائشة» تمص القصب، أحست بالعصير المسكر في حلقها، انتفض جسدها كأن مددا من الحياة ينساب داخل مسامها، بدأت الحركة تدب في المكان، أمسكت الأم بيدها واختفتا خلف دغل صغير، ظهر بعض من عمال التراحيل وهم يتصايحون بعضهم على بعض، أخذوا يحملون حزم القصب ويضعونها قريبة من القضبان، ظلتا تراقبانهم في صمت، وأخيرا دوى صوت صفارة حادة، ارتجت

الأرض الساكنة، وحمل الهواء رائحة الدخان، ظهر القطار، لم يكن كبيرا كما اعتقدت «عائشة»، تتقدمه قاطرة سوداء اللون تتنفس كمية كبيرة من الدخان تفوق حجمها، ويجر خلفه عددا من العربات محملة كلها بالقصب إلا العربتين الأخيرتين، توقف القطار، وقفز السائق منه وأخذ يتحدث مع العمال في صوت عال، بدأت عملية التحميل، كانت «عائشة» تتأمل كل هذا وهي مفزوعة، هل يمكن أن يكون لها مكان وسط هذه الحزم الجارحة؟

بدأ المكان يخلو تدريجيا من حزم القصب، أنهى السائق حواره الصارخ مع العمال وبدأ يستعد للعودة إلى القاطرة، أطلق صفارة تحذير حتى يبتعد الجميع عن القضبان، بدأت العجلات تزأر فوق القضبان الصدئة، نظرت «عائشة» إلى أمها في يأس، ولكن الأم كانت على استعداد لأي نوع من المجازفة، جذبتها من يدها وأخذتا تعدوان معا نحو العربة الأخيرة، نظر إليهما العمال في دهشة، صاح واحد منهم في دهشة:

- ماذا تفعلان؟! ممنوع ركوب هذا القطار.

وقف بعض الرجال في طريقهما، فردوا أذرعتهم ليقطعوا عليهم الطريق، في هذه اللحظة ظهر الذئب، لا يدري أحد من أين جاء، ولكنه أخذ يعدو بين سيقان الرجال كأنه هو أيضا يريد اللحاق بالقطار، ابتعد الرجال في فزع، حتى الذين كانوا يسدون الطريق أخذوا يتقافزون مبتعدين، وزادت عائشة وأمها من سرعتهما، أمسكتا بالعربة الأخيرة، قفزت الأم أولا، ثم مدت يدها وانتزعت «عائشة» من الأرض، ضربتهما الأوراق الخشنة وملأت وجهيهما بالخدوش، ترك الذئب

الرجال وأخذ يعدو بجانب القطار، ظل يواصل العدو حتى أصبح بجوار السائق، نظر إليه السائق في فزع، وزاد من سرعة القطار، توقف الذئب وقد أنهى مهمته، وظل واقفا مفتوح الفم، متدلي اللسان، حتى بدت «عائشة» وهي تطل عليه وتلتقي بعينيه الحزينتين.

لم يتوقف السائق، لم تكن هناك حمولات إضافية من القصب، وظلت العربة الأخيرة تقعقع وهي ترتفع وتنخفض بهما، لم تكن الرحلة مريحة، وكان فزعهما يزداد كلما عبر القطار إحدى الترع أو الرياحات، لحظتها كانتا تشعران بأنهما معلقتان بالفراغ، لا توجد أي معالم تحيط بهما، كان فزع عائشة يزداد وهي تراقب المصارف المالحة أسفل القطار، وتتمنى ألا تموت مختنقة في أي منها.

بعد سير طويل، بدا كأن النيل يتسع والجبل يقترب، وأصبح القطار يسير وسط حيز ضيق من الأرض المزروعة، زادت سرعته وهو ينحدر إلى أسفل، ظهرت البيوت الطينية و المآذن الحجرية من بعيد، وتنفست «عائشة» الصعداء أخيرا.

في أسيوط يضيق الوادي، ويقترب الجبل ويمتلئ بالمطاريد، وتتشكل الصخور فتصبح أشبه بعمود فقري، يربط الشمال بالجنوب، لذا فليس غريبا أن تبدأ في أسيوط أولى محاولات الوحدة بينهما، وتغرس فيها أولى بذور الفتنة، مثلما انطمرت المومياوات، وقطع الفخار، وبقايا القلعة التي بناها الملك مينا.

لم يدخل القطار أسيوط، توقف في ساحة واسعة خارجها، تتجمع فيها كل حزم القصب القادمة من مختلف مدن الصعيد، وتنتظر لتأتي قاطرة أكثر قوة، تحملها كلها إلى مصنع السكر في الحوامدية، وسط

زحام التدافع والتحميل، استطاعت الأم وعائشة أن تتسللا مبتعدتين، وظل السائق المذعور جالسًا في مكانه خوفًا من أن يظهر له الذئب مرة أخرى.

سارت الأم بثقة في شوارع أسيوط، هذه هي المرة الأولى التي ترى فيها «عائشة» مدينة بهذا الاتساع وكل هذه الحركة، وكانت الأم أكثر خبرة ودراية بالشوارع، تعرف المكان الذي تقصده وتتجه إليه من دون تردد، رغم التعب والإنهاك بدا أنها تسابق الزمن، سارت وهي قابضة على ذراع «عائشة» كأنها تخشى أن تضيع منها وسط زحام المارة والدكاكين والذباب والشحاذين، كانت الشوارع ترابية، غير مرصوفة، ممتلئة بالعربات التي تجرها الحمير والبغال، ويسير فيها الفلاحون والصعايدة والخواجات وجنود الإنجليز بملابسهم الكاكية اللون.

توقفتا أمام مبنى ضخم، من حجر ناصع البياض، يحيط به سور من أعواد الحديد، ويعلوه برج عال داخله جرس نحاسي متألق، كانت كنيسة، ولكنها فخمة ونظيفة وليست مثل الكنائس الطينية الموجودة على أطراف النجع، تنهدت الأم في ارتياح، وظلت عائشة تحدق في المكان وهي مبهورة الأنفاس، كانت هناك لافته مكتوبة بخطوط سوداء، ولكنها لم تكن تعرف القراءة ولا الكتابة، هرعت الأم في لهفة إلى البوابة الحديدية، كانت مغلقة، تشبثت بها وأخذت تهزها، صرخت تنادي: يا من هنا! ولكنها لم تتلق ردا، وفكرت عائشة هل هذه نهاية رحلتنا؟ هل نعود؟ ولكن الأم لم تكن لتستسلم بسهولة، ظلت تدور، تبحث عن ثغرة تنفذ منها، شاهدت في الركن من داخل البوابة حبلا متدليا، أدخلت يدها بين الأعواد الحديدية وجذبته

بكل قوتها، رن صوت جرس معدني، أشبه بصرخة استغاثة وسط هذا الصمت، جذبته أكثر من مرة، وظل الجرس يواصل الطنين، توسلت عائشة إليها:

ـ هذا يكفي يا أمي.

قالت الأم: يجب أن يعرفوا أننا هنا، وأننا نحتاج إليهم.

وأخيرا ظهر من آخر الفناء شخص قادم، شاب طويل القامة، له شارب كث، ويضع على رأسه عمامة صغيرة، بدت على وجهه علامات الانزعاج.

ـ ماذا تريدان؟

قالت الأم: أتوسل إليك، لقد جئنا من سفر بعيد، وكل ما نريده هو أن تقابل الأم الرئيسة.

ـ إنها مشغولة، ومن المستحيل أن أزعجها، ثم إنها لا تقابل أحدا من دون ميعاد.

وقبل أن تقول الأم أي كلمة إضافية استدار ووضع حبل الجرس بعيدا عن متناول يدها وانصرف مبتعدا، تقافزت الأم، وأخذت تنادي عليه، لم يلتفت خلفه حتى اختفى عن أنظارهما، صاحت الأم في حنق وضربت الباب بقبضتها، قالت عائشة في خوف:

ـ هل سننصرف؟

قالت الأم من بين أسنانها:

ـ من الذي تحدث عن الانصراف؟ سننام أمام البوابة.

جلستا على الأرض وظهرهما إلى القضبان الحديدية، وتأملهما بعض المارة بنظرات عابرة، ظلت «عائشة» تنظر إلى وجه أمها، تنتظر منها تفسيرا لهذه الرحلة الشاقة، صعدت الشمس عاليا، ثم بدأت في الهبوط، أحست عائشة بالجوع والعطش ولكنها لم تجرؤ على الشكوى، وكان المبنى صامتا، لا يصدر منه حس ولا حركة.

سمعتا صوت أحد الأبواب وهو يفتح، نهضتا معا، لم يكن الصعيدي هو القادم هذه المرة، كان شخصا ضئيل الحجم، يرتدي عباءة سوداء، ويسير بطريقة غريبة، كانت امرأة، ثوبها الواسع منسدل على جسمها ويحف بالأرض، تضع ذراعيها أمام صدرها وقد أدخلت يدها في كم اليد الأخرى، توقفت أمامهما ورفعت وجهها، تأملتها عائشة في دهشة، كانت «خواجاية» ترتدي زي الراهبات، وجهها مستدير، مشرب بحمرة خجولة، وعينان زرقاوان واسعتان، نظرت إليهما من بين القضبان في امتعاض، ولابد أنها حسبت أنهما شحاذتان قالت بلهجة عربية متكسرة:

ـ ماذا تريدان؟.. لا يوجد ما نقدمه!

أمسكت الأم بالقضبان وهي تهتف في توسل:

ـ نحن في عرضكم، جئنا من سفر بعيد ولا نستطيع العودة، سدت من خلفنا كل الطرق، ولابد أن أقابل السيدة الرئيسة.

ـ نحن لا نستقبل عابري السبيل.

تراجعت الأم قليلا، ثم أشارت لعائشة وهي تقول:

ـ لا أفعل هذا من أجلي، ولكن من أجل هذه الصغيرة.

أدارت «الخواجاية» رأسها وتأملت عائشة، رأت علامات التعب والجوع وخيبة الأمل بادية بوضوح على وجهها، واصلت الأم القول:

ـ إنها مهددة بالموت، ولو رددتنا من أمام هذا الباب فسوف تموت حتماً.

بدا الفزع على وجهها وهتفت: صدقا؟...

ـ أقسم بالمسيح على ذلك

ترددت «الخواجاية» قليلا، أدخلت يدها في فتحة ثوبها وجذبت خيطا مربوطا فيه مفتاح كبير، لا يمكن تصوره معلقا في رقبة أحد، أدارته في الباب، وساعدتها الأم بدفع البوابة من الخارج، وقفزت قبل أن يدعوها أحد للدخول. سارت «الخواجاية» في المقدمة، وجذبت الأم عائشة حتى تلحقا بها، اتجهتا إلى المبنى الضخم الذي يعلوه البرج، دخلتا من الباب إلى قاعة رطبة معتمة، بدأت عائشة ترتجف، أشارت «الخواجاية» إلى مقعد خشبي مستطيل وهي تقول:

ـ انتظرا هنا.

استندت عائشة إلى ظهر المقعد، كانت الجدران عالية، لا توجد فيها إلا نافذة قريبة من السقف عليها زجاج ملون، هي مصدر الضوء الوحيد، مرسوم على الجدران صور غريبة، أشخاص، وبلدان وسفن ضخمة، كل شيء كان يترقبهما في جمود وصمت، أمسكت الأم بكتفيها حتى تتوقف عن الارتجاف، قالت بصوت بارد:

ـ تماسكي يابنت، وصلنا إلى نهاية رحلتنا، فلا تفسدي كل شيء.

أوشكت عائشة أن تبكي، قالت في صوت مرتعد:

ـ لا أدري ماذا تنوين أن تفعلي بي؟

ـ سأقول لك بعد أن ينتهي كل شيء.

توقفت عن الكلام عندما سمعت صوت خطوات قادمة، ظهرت «الخواجاية» وأشارت إليهما أن يتبعاها، سارا فوق أرض خشبية، نظيفة ولامعة كالمرآة، كانت الجدران أيضا مكسوة بخشب لامع، وكانت عائشة ترى انعكاس ظلها وهي تسير، توقفت أمام باب آخر مغلق، وطرقت الباب بلطف، ثم دخلت وهما خلفها، كان في الغرفة أيضا نافذة وحيدة، وصليب ضخم معلق وصورة لامرأة تحمل طفلاً، ومكتب ضخم يتوسط الغرفة، تجلس خلفه امرأة عجوز ترتدي هي أيضا زي الراهبات.

فوجئت عائشة بأمها تترك يدها وتنبطح بكامل جسمها على الأرض، ظنت «عائشة» أن جسد أمها قد خانها أخيرا، وأن تماسكها المؤقت قد انتهى، ولكن الأم فردت ذراعيها وضمت ساقيها ونكست رأسها حتى أصبحت على هيئة صليب، أصيبت الراهبة الموجودة خلف المكتب بالفزع، نهضت، بدا جسدها أكثر ضخامة، قالت بلغة عربية تشوبها لكنة غربية:

ـ هذا لايليق.. ارفعي رأسك وانهضي.

قالت الأم ووجهها مازال منكفئا:

ـ لا أستطيع ياسيدتي، ليس قبل أن تستجيبي لطلبي وتنقذي ابنتي.

ـ نحن لا نفعل ذلك إلا أمام المذبح، لا أحد يسجد للبشر، انهضي وأخبريني ماذا تريدين.

نهضت الأم ولكنها ظلت جالسة على الأرض، كانت الدموع الغزيرة تغطي وجهها، لاتدري عائشة من أين أحضرتها، أشارت الأم إليها وهي تقول:

ـ أريدك أن تنقذي حياة ابنتي، الموت متربص بها..

نظرت المرأة إلى عائشة بوجهها الذي يشبه الوجوه المرسومة على جدران المقابر، قالت:

ـ أي موت؟

ـ نحن من أسرة مسلمة عريقة، ولكننا تنصرنا، اخترنا طريق المسيح..

شهقت الراهبتان، الكبرى و الصغرى، فلم تسمعا شهقة عائشة، الأم وحدها هي التي ظلت متماسكة وهي تواصل الحديث:

ـ كانت لحظة من نور ياسيدتي، جاءت سيدتنا العذراء ما بين الحلم واليقظة، وتجلت لي، ولم يكن أمامي إلا أن أتبع طريقها.

بدا القلق على وجه الراهبة العجوز، كانت القصة مبتذلة إلى درجة لا يمكن تصديقها، وشعرت الأم بذلك فالتفتت إلى عائشة وهي تقول في حزم:

- اكشفي عن ذراعك.

كان صوتها قد استعاد بعضا من نبرته المسيطرة، شمرت عائشة الثوب فبدا ذراعها المتورم، وبدت نقاط الصليب مغروسة في الجلد، كانت بشعة ومؤلمة خصوصا بالنسبة لهذه الذراع الصغيرة..

ولأول مرة تدخلت الراهبة الصغيرة، قربت وجهها من الذراع الملتهب وهي تهتف:

- ما كل هذا التورم والاحتقان؟!..

قالت الأم: لقد حاول أهلنا سلخ الصليب من على جلدها، ولو لم نهرب لكانوا قد قطعوا الذراع كله.

تراجعت الراهبة الصغيرة في رعب وهي ترسم علامة الصليب على صدرها، ضمت يدها لصدرها وأخذت تبتهل في صمت، وعيناها الواسعتان تلمعان في شدة، قالت الراهبة الرئيسة:

- أنتم فعلتم هذا الوشم بطريقة وحشية أيضا.. احفظنا يارب..

وعلى الرغم من أن عائشة قد غطت ذراعها إلا أن تأثير المنظر ظل باقيا، لمست الأم ركبة الرئيسة بلمسة خفيفة وقالت بصوت خافت:

- أنقذيها ياسيدتي، ضميها إلى مدرستك، أعطيها الفرص لتتعلم وتنقذ حياتها في الوقت نفسه.

قالت الرئيسة في ضيق:

- ليست هذه مهمتنا، إننا مجرد مدرسة أمريكية في أرض غريبة لا

يجب أن نقحم أنفسنا في المشاكل الداخلية، لا يوجد هنا إلا بنات الأسر القبطية، لا مكان عندنا لهاربات.

نظرت الراهبة الصغيرة إلى عائشة في وقفتها الذليلة المنكسرة، لم تكن تعلم أن الأم قد أضنتها جوعا وسيرا حتى تبدو على هذه الهيئة، تقدمت الراهبة الصغيرة من الأم الرئيسة، تحدثت معها بلغة غير مفهومة، نظرت إليها الأم في استنكار، خفضت وجهها في خجل بالغ وعادت إلى ركن الغرفة، ولكن الأم أحست أن شيئا ما قد تغير، تنهدت الرئيسة وأشارت إلى عائشة وهي تقول:

- ما اسمها؟

قالت الأم في سرعة: أطلقي عليها أي اسم، لم يعد اسمها القديم لائقا.

- ألا يوجد معكما أي أوراق؟

- في نجعنا النائي لاتوجد أي أوراق، نحن نولد ونموت دون أن يدري أحد بوجودنا.

نظرت الرئيسة حولها في حيرة:

- أليس معكما أي حقائب أو ملابس؟

- نحن هاربتان ياسيدتي، لم نستطع أن نحمل أي شيء حتى لا نلفت الأنظار إلينا.

سكتت الأم الرئيسة، تأملت وجه الراهبة، والصليب المعلق، وأيقونة العذراء، ثم قالت:

- لا أدري ما أفعل (أشارت إلى الراهبة الصغيرة التي كانت تعض على شفتيها في خجل) الأخت مرجريت تقول إننا يجب أن نساعد الأرواح الهائمة، ولكننا جئنا هنا لنساعد المسيحيين، ولا نريد أن نكون طرفا في أي نزاع أو فتنة، وليس لنا شأن بالمتحولين ولا الهاربين، لانريد أيضا أن نثير المسلمين ضدنا، هذه الابنة المسكينة قنبلة يمكن أن تقوض مهمتنا هنا.

قالت الأم:

- جئت لأنقذ ابنتي، وليس لإثارة الشقاق، وجودها هنا سر.. سوف أحمله معي إلى القبر.

- هذه القصة التي رويتها لي، كم واحدًا يعلم بها؟

- أنا وهي فقط.

استدارت إلى الراهبة الصغرى التي أصبحنا نعرف الآن أن اسمها هو الأخت مرجريت، تحدثت معها، وأدركت الأم أن الحوار قد طال بحيث لم يعد هناك مجال للتراجع أو الرفض، نهضت الرئيسة، توقفت جامدة أمام الأيقونة، كأنها تنتظر كلمة أو إشارة ما، التفتت إلى الأم، كأنها تبحث عن مبرر، قالت: هل تقسمين على حفظ السر؟

قالت الأم في سرعة: أقسم بالقر... (توقفت وعدلت نفسها) بالإنجيل.

هل فطنت الأم الرئيسة لزلة لسانها، أم أنها اتخذت قرارها بالفعل؟ قالت وهي تتأمل وجه الفتاة:

- إنها زهرة حزينة بالفعل، ستأخذ اسم سيدتنا «ماري»، فليكن مباركا عليها.

أحست عائشة بذعر حقيقي وقد فقدت اسمها، وبذعر أكبر لأنها سوف تبقى في هذا المكان، وسوف تفقد أمها وكل مايربطها بعالمها القديم، قالت الأم الرئيسة:

- يمكنك أن تذهبي مع الأخت مرجريت، لتجد لك مكانا في السكن الداخلي.

حاولت عائشة أن تتمالك ولكنها قالت بصوت مرتعد:

- أريد أن أتحدث مع أمي أولا.

قالت الأم في سرعة حتى لا تتكلم عائشة أكثر:

-يجب أن نودع بعضنا بعضا، الله وحده يعلم متى يمكن أن أراها مرة أخرى.

أومأت الرئيسة للأخت مرجريت التي قادتهما خارج الغرفة. عبرن القاعة الصامتة المعتمة، ودخلن إلى ممر جانبي قادهن إلى كنيسة صغيرة، كانت هي أيضا معتمة وباردة، لدرجة أنهما تبينتا الأشكال المعلقة على الجدران في صعوبة، أشارت لهما فجلستا متجاورتين فوق أحد المقاعد الخشبية ثم تركتهما وانصرفت.

ظلت «عائشة» صامتة حتى اختفى صوت أقدام الراهبة، ثم التفتت إلى أمها، وهي تحاول أن تحبس دموعها، بينما كان وجه الأم جافا تماما، قالت:

- لماذا فعلت بي هذا؟! ولماذا تريدين أن تتركيني في هذا المكان؟

قالت الأم في حزم دون أن يبدو عليها أي بادرة من ضعف أو تراجع:

- ماذا كنت تتوقعين مني أن أفعل؟ هل كنت أتركك للعار والموت؟

- لقد ألصقت بي العار بالفعل، كل هذه الأكاذيب التي رددتها حولي.

- بل أنقذت حياتك، أنقذتك من ذلك الرجل الذي كان يحوم حول فراشك كل ليلة.

- كان عمي.. بمثابة أبي..

- ولكنه لم يكن كذلك.. مات أبوك وأنت صغيرة، وضغط علي الجميع، أقاربي وبقية أهل النجع، حتى أتزوج أخاه، هكذا جرى العرف، ولكن جسدي لم يطقه من اللحظة الأولى، ولم يستطع أن يحمل منه، بقيت أنت فقط ابنتي الوحيدة، كان من الممكن أن أتعود على حياتي معه، لولا الطريقة التي ينظر بها إليك، أو يحاول أن يتحسس بها جسدك، لم تفهمي قصده لأنك كنت صغيرة، ولكن الرعب أصابني..

تناهى صوت الجرس وهو يرن في دقات واهنة، هل كان هذا بفعل الريح، أم أن هناك صلاة قد حان وقتها؟ هربت «عائشة» من عين أمها وتطلعت من حولها، استطاعت أن ترى الجدران والصور المعلقة

عليها، شيوخ ذوو لحى مسترسلة وعباءات فضفاضة، يحدقون فيها مباشرة، كأنهم غير راضين عن وجودها في هذا المكان، عادت تنظر إلى وجه أمها الذي كان قد تخلى عن صلابته، بدا كأنها لم تعد معها، غاصت في زمنها الخاص، واستيقظت في داخلها كل الأحزان القديمة، عندما جاء الأب مقتولا فوق حمار أغبر، كان النجع صامتا، والجبل متواطئا، وأول ما فكرت فيه أن تأخذ «عائشة» وتهرب بها إلى أسيوط، بلدها الأصلي، قرار تأخر ثلاثة عشر عاما كاملة، لم تواتها الشجاعة لأن تترك بيتها وأرضها، لم يعرف أحد من قتل الأب، أو لعلهم عرفوا ولم يجرءوا على الكلام، اجتمع كبراء العائلة وقرروا أن يحل الأخ الأصغر مكان أخيه، ووقع الخبر عليها وقوع الصاعقة. كان «عمران» بالذات هو الأسوأ، ثور هائج، كما كان أخوه المقتول يطلق عليه، لم يترك امرأة في النجع إلا وسعى خلفها، ولم يترك زوجا إلا وقع معه في متاعب، كانت فحولته التي لا تهدأ هي الحديث الخفي لنساء النجع، ولكنها كانت تكرهه، خصوصا بعد فضيحته مع تلك الفتاة الغجرية، كان أهلها قد اتهموه باغتصابها رغما عنها، وحاول أهل زوجها أن يلموا الفضيحة، وأعطوا هؤلاء العابرين الذين لا يهتمون بالشرف كثيرا مبلغا من المال، إلا أنهم كانوا غاضبين، وكان أهل النجع مشمئزين من أفعاله، وبعد أيام وجدت جثة الفتاة ملقاة على حافة المصرف الذي يسير على أطراف النجع، كان جسدها منتفخا وفمها مليئا بالملح والطحالب، ولم يدر أحد ماذا حل بها، هل انزلقت من تلقاء نفسها؟ هل قتلها واحد من أهالي النجع حتى لا تحمل فضيحتهم إلى كل مكان، أم أن أهلها الذين قبضوا المال قتلوها ورحلوا بعيدا وتركوا جثتها لتدفن في مقابر الصدقة؟ المهم

أن «عمران»، بكل ما يحيط به، كان هو خيارها الأخير، بلعت الأم ريقها وقالت في صوت خافت:

ـ أحسست بخطره عليك منذ أن كنت في الخامسة من عمرك، وربما لم تكوني قد بلغتها بعد، تركتك نائمة وذهبت مبكرة إلى سوق القرية، قدرت أنني سأعود قبل أن تشعري بغيابي، ولكني وجدتك مستيقظة، وجسدك الصغير عاريا تماما، مثل فرخ حمام قد ولد للتو، وكان «عمران» واقفا أمامك، وهو يقوم بصب الماء على جسدك العاري المرتعد، كان قد وضعك في طشت من الصفيح، يتظاهر بأنه يقوم بتحميمك، بينما كان يحاول في الحقيقة أن يكتشف هذا الجسد البازغ أمامه، يضحك مستمتعا بسيطرته عليك، وبعريك البريء، كان يصدر صوتا كفحل البقر حين يثار، يصب الماء بيد، ويدخل يده في شعرك، وأنت جالسة مقرفصة أمامه من شدة الرعب، اختطفتك من أمامه، لففتك بكل ما عندي من أغطية، كان جسدك مازال صغيرا ونحيفا ويغري بالافتراس، تذكرت كل القصص المرعبة التي تتردد عن مطاردته للصغيرات، وتلك الفتاة الغجرية التي وجدت مغتصبة ومقتولة على حافة المصرف، كان يضحك من فزعي قائلا: أين ستخبئينها مني؟ منذ ذلك اليوم وأنت تنامين بجانبي في غرفتي، أتحسسك كل ليلة عشرات المرات لأطمئن على وجودك بجانبي، لم يهنأ لي طعام، خصوصا وأنا ألاحظ جسدك وهو ينمو، وعندما استطال شعرك واستدار وجهك، وبدأ صدرك في البروز، أصابني الفزع ولم أعد أستطيع النوم، وظل هو يحوم حولنا كصقر جائع، لم يكن يبالي بي، ولا يأبه بتهديداتي، ولا برعبي وخوفي، كان يدرك

أنني أضعف من أن أقدر على منعه، ولم يكن هناك حل إلا أن أهرب بك إلى هنا، وأخترع كل هذه القصة الغريبة.

ظلت «عائشة» صامتة والأم تلهث ولا تكف عن الكلام، كانت تدرك ما تتحدث عنه أمها، تتذكر أشياء فعلها العم، لم تعرفها أمها ولم ترها، لمساته الخشنة، وهو يرتقها بجسده في حظيرة البهائم، وهو يقبض بأصابعه على صدرها الصغير، كانت بلا حيلة تقريبا، تحاول فقط الإفلات بجسدها بأقل الخسائر، كانت تدرك أن أمها على حق، ولكنها قالت في ضعف وخوار:

ـ ولكني تركت ديني، وغيرت اسمي ؟

ـ أنت الشخص نفسه مهما تغيرت الأسماء، أما الدين فهو في القلب يا بنتي، مهما كان المكان الذي أنت فيه فسوف تعبدين نفس الإله.

ـ وماذا ستقولين لهم في النجع؟

ـ أي كذبة، لن يصدقوها في البداية، ولكن عندما أصر عليها لن يجدوا غيرها.

ـ وكيف سأراك؟

ـ أنت قطعة من قلبي يا عائشة، سأراك حتى لو لم تريني، المهم أن تنتهزي هذه الفرصة وأن تعيشي حياتك من دون عار أو دنس، لأنك تستحقين ذلك.

بدأت عائشة في البكاء، أحست كم هي صغيرة وضائعة وجائعة، ولكن الأم احتضنتها:

ـ لا تبك، ابتسمي من أجلي، أريد أن أتذكرك وأنت تبتسمين لي، غير غاضبة مني أو حانقة علي.

جففت عائشة دموعها، وحاولت أن تبتسم، كانت مقهورة وفي حلقها غصة، ونهضت الأم وهي تقول:

ـ أنت في أمان الآن.

قبلتها على خديها وجبينها، وقبلت عائشة يديها، سمعتا صوت الباب وهو يفتح، دخلت الأخت مرجريت، لم تتجه نحوهما، مرقت مثل فراشة طليقة، وقفت أمام تمثال العذراء التي تحمل طفلها وحنت رأسها، ثم سارت إلى المنضدة الصغيرة، وأوقدت الشمعتين الموضوعتين فوقها، امتلأ المكان بالضوء وفطنتا إلى أن العتمة كانت قد حلت عليهما دون أن تشعرا بذلك، ثم ركعت الراهبة على ركبتيها وبدأت في الصلاة، نهضت الأم واقفة، لم تلتفت خلفها، لم تطق أن ترى عائشة وقد فقدت تلك الابتسامة الزائفة، صفقت باب الكنيسة الصغيرة كأنها تؤكد خروجها، وانتهى كل شيء، وأحست عائشة بوحدة بالغة، وأحست بالحاجة إلى وجود أي أحد بجانبها حتى ولو كان ذئبا، وظلت تتأمل ظهر الأخت مرجريت وهي تواصل صلاتها الصامتة......

* * *

..... «يا عوف الله...يا عوف الله»

كان هناك رجل عجوز، نحيف الساقين، يتقافز على طول شاطئ النهر وهو يصرخ بهذه الكلمات، كانت عائشة تراقبه من خلال النافذة

وتراقب النهر، لم تدر إن كانت صرخاته تعبيرا عن الفرح أو الخوف، ولكن النهر كان غاضبا، سطحه النحاسي متلاطم الأمواج، ومياهه تواصل الارتفاع، يوشك أن يعلو على الضفاف التي تحيط به، وكان الرجل يتوقف كل فترة، يلتقط حفنة من الماء المشبع بالحمرة، وينثره في الهواء، ثم يعاود الجري والصراخ من جديد: «ياعوف الله....» وكانت الريح تهب ساخنة من البر الغربي من فوق سفوح الجبل، كانت «عائشة» كعادتها قد استيقظت قبل كل البنات، ورأت النهر يعلو ويزداد حمرة داكنة مع ارتفاع الضوء، لم تخرج مراكب الصيد، كان الصيادون يعرفون أن النهر في لحظة غضبه يجرف أمامه التربة الحمراء وأسماك البلطي والقوارب، اختفى الرجل في اتجاه المدينة وهو ما زال يواصل الصياح، راقبت عائشة طيور النهر وهي تدور في فزع، كانت هذه رحلتها الصباحية، ولكنها في هذه اللحظة كانت تطير بشكل مهوش، كان هناك شيء يفزعها ويمنع انتظامها في شكل رأس السهم الذي تعودت عليه.

كان النيل نهرا من أغرب أنهار الدنيا، في الصيف عندما تجف كل الأنهار يخالف النيل الناموس وتفيض مياهه على الضفاف، وتهب عليه رياح متجهة للجنوب ولكن أمواجه تعاكسها وتنساب نحو الشمال، ينحدر من تلال إفريقيا البعيدة، مهيبا كملك، لا يأبه بالغابات الكثيفة، ولا بحرقة الصحراء الممتدة، يخترق جلاميد الصخور البالغة الصلادة، ويواجه ستة من الشلالات العنيدة، يملأ الغابات الصامتة بالصخب والهدير، يفور بالزبد، وينثر الرذاذ ويخلق أقواس قزح لاتبدد، يجتاز أشجار السنط والأبنوس والصفصاف والجميز، ويمضي متفردا مثل شاعر حزين وسط مجاهل الصحراء،

لا توقفه الهضاب ولا كثبان الرمال ولا جبال من حجر صوان، يهبط بعنف من شلالات عنق الجمل، وتفور مياهه عند شلال المرجان، ويتمهل ليلتقط أنفاسه قبل أن يقتحم شلالات بيت العبد والمغفور والحارك، وطوال هذه الرحلة الجافة لا يتلقى أي مدد إلا القليل من مياه نهر «عطبرة» السوداء، لا تجود عليه السماء بقطرات من المطر، ولا تذوب الثلوج من أجل إنعاشه، لا يحيط به إلا جلاميد حجرية داكنة، تشاركه أسرار الأبدية، ويحرص النهر بدوره على ألا يمحو ما عليها من نقوش وجعارين وخراطيش، يندفع وهو متقلب المزاج، حاملا طمي الخلق الأول، فيه شيء من رعونة النيل الأزرق، وبعض من حكمة النيل الأبيض، يعلو ويهبط، ويتفرق ويتبدد أحيانا ليضيع في مسارب المستنقعات، ثم يجمع شريانه الرئيسي المتوحد، لا يهدأ ولا يأخذ سمة الوقار والعبوس إلا عندما يلمح رؤوس النخيل في جنوبي وادي مصر، أقدم نخيل عرفه بشر، يقف مزهوا على ضفاف النهر منذ آماد بعيدة، غرسه الفراعنة وشذبه الأقباط وأكل من بلحه جنود الرومان وعرف الفاتحون العرب أسرار فسائله فنشروها.. تتناقص مياه النهر كثيرا وتفقد قوتها، ولكن السواقي تلاحقه، والثيران المغطاة الأعين لا تكف عن الدوران، وخلف كل ثور يجلس طفل صغير يمسك عصا مربوطا فيها حبل، أشبه بمفتاح الحياة، وهو يصيح : «عا.. عا» فترتفع القواديس إلى أعلى حاملة دفقات سحرية من مياه النهر، ثم تلقي بها إلى القنوات التي تتفرع وتتفرع على وجه الأرض كشرايين الجسد، في وقت الفيضان تكون حمراء كالدم، والأرض سوداء كالمسك، والزرع أخضر كالياقوت، والقمح أصفر كأحجار اليشب.. تحتشد الغيطان المروية بالفول والذرة والشعير والعدس

والقرع والبطيخ والفلفل والطماطم والباذنجان واللوبياء، ويصعد النخل كأذرع الآلهة القديمة، جذوره في رطوبة الطمي، بينما رأسه في وهج السماء، يواصل النهر مسيره وسط صمت الوادي حتى ترتفع التراتيل، وتظهر أعمدة المعابد والمسلات وأبراج الكنائس والمآذن، وتنفرط عقود الحمائم كي تملأ عيونها من مشهد المياه الزمردية قبل أن تؤوب إلى أعشاشها في كل مساء.

سمعت «عائشة» من خلفها أصوات الصباح المعتادة، كان عنبر البنات المليء بالأسرة المتراصة قد بدأ في الاستيقاظ، ارتفعت أصوات التثاؤب، والصرخات الخافتة والمشاكسات الصغيرة، كن يعدن ترتيب ملاءات الأسرة، ويتهامسن عن الأحلام التي لم تكتمل والأسرار الخفية، أحست عائشة بيد صغيرة توضع فوق كتفها، وسمعت صوت إيزيس وهي تقول لها في رقة:

ـ لا تذهبي بعيدا، مازالت صلاة الصباح في انتظارنا.

استدارت إليها، إنه وجه إيزيس الأسمر المستدير، وشعرها الخشن الذي يعلو رأسها كأنه تاج قديم، وعيناها الواسعتان، وعلى شفتيها نفس الابتسامة الودودة، مدت «عائشة» يدها ولمست وجنتها، كانت «إيزيس» هي الصديقة الوحيدة التي ظفرت بها منذ دخولها المدرسة، لم تحاول أن تسألها كثيرا، ولم تدقق في إجاباتها المقتضبة، ولم تستغرب عدم مغادرتها المدرسة أو محاولة السفر إلى بلدتها في الإجازات الطويلة، منحتها مودتها الصافية دون تحفظ أو تردد. قالت إيزيس وهي تشير إلى الشمس التي بدأت في الصعود عند حافة النهر الغاضب:

- علينا أن نشكر الرب لأنه في كل يوم يمنحنا شمسا جديدة.

قالت «عائشة» وهي تبتسم:

- ألا يجب عليه أن يغير في هذا النظام قليلا، يوما للشمس، ويوما للقمر؟

- أيتها الكافرة الصغيرة، هيا بنا نستعد.

بدأت البنات في الانتظام في صفين متقابلين بجوار الأسرة كن جميعا يلبسن زي المدرسة، قميصا أبيض عالي الرقبة، وثوبا سفليا باهت الزرقة، وحذاء بأزرار معدنية، ولكن الأخت مرجريت لم تأت كعادتها مثل كل صباح حتى تقودهن للصلاة، جاءت الأم الرئيسة بدلا منها، وقفت بالقرب من باب العنبر وهي ترمقهن جميعا بنظرة صارمة، تنتظر في مضض حتى تستعد آخر البنات المتلكئات قبل أن تصرخ فيهن، همست إيزيس في أذن عائشة وهي تقف بجانبها :

- يبدو أن الأخت مرجريت قد اعتزلتنا للتعبد مرة أخرى.

كن جميعا قد تعودن على تصرفات الأخت مرجريت، كانت روحا هائمة في أروقة المدرسة، في لحظات سعادتها تتحرك في كل مكان مثل فراشة، توزع الكلمات والابتسامات على الجميع، وتسهر بجوار أسرتهن حتى ساعة متأخرة، تتسع بسعة صدر لكل أنواع الاعترافات، أما في أوقات كآبتها، عندما تنطفئ تلك النظرة المتألقة في عينيها، فإنها تعتزل الجميع وتهبط إلى مكانها المفضل في القبو، وتبقى فيه دون طعام أو شراب لأيام طويلة، لا يجرؤ أحد على الاقتراب منها، كانت فتاة بالغة الجمال والرقة والطول، عرفت

عائشة من الأحاديث المتناثرة أنها فتاة لواحدة من أرقى الأسر في نيويورك، وأن أباها ملك لشيء ما، صابون.. عطور.. قهوة.. موز، المهم أنه ملك وفاحش الثراء، ولكنها زهدت في كل هذا والتجأت إلى هذا الركن المتقشف من العالم، لم تكن عائشة تنسى أبدا أنها أول من استقبلتها، وأول من وقف في صفها، وربما لم تقبلها الأم الرئيسة إلا بناء على إلحاحها.

سارت إيزيس بجانب عائشة، كانت أصابعهما متشابكة، عبرتا العنبر إلى الرواق، ووقفتا في انتظار هبوطهما على الدرج، كان الدرج متآكلا، صدرت عن البنات نفس الصرخات النزقة وهن يخشين الانزلاق، يتماسكن وهن يتضاحكن، قالت إيزيس :

- سوف تأتين معي إلى قصرنا في «المنيا»، سيتحدث أبي الباشا مع المديرة وستكونين ضيفتنا.

قالت عائشة بسرعة : لا أستطيع أن أغادر...

- هيا يا ماري، إنها مجرد مدرسة، وأنت لست سجينة هنا، ستفوتك رؤية العالم في الخارج، وبالأخص رؤية «مينا» أخي الأكبر.

صاحت الأم الرئيسة تطالب الجميع بالتزام الصمت، اتجهن إلى الكنيسة الصغيرة، ولكن قبل ذلك عبرن الفناء الخارجي، كان «رزق» يقف وهو يرفع الماء من البئر الموجودة في منتصف الفناء، قامته عريضة، وثيابه رثة، أول وجه رآه عائشة حين قدمت للمدرسة، عرفت اسمه فيما بعد، وهو الصعيدي الوحيد في المكان وهو يقوم تقريبا بكل الأعمال، كان هو الحارس والبستاني والفراش، ورغم ثيابه الرثة فقد كان يحافظ على كل شيء نظيفا، ظل واقفا وهو يمسك

أحبال البئر، منخفض الرأس، متوجها بنظراته للأسفل حتى يمر صف البنات من أمامه، كان من المحرم عليه أن يحدق فيهن أو يكلمهن أو يلقي عليهن أي تحية، كأنه غير مرئي بالنسبة لهن، بالمقابل لا تذكر أي من البنات أنهن سمعن صوته وهو يتكلم، من المؤكد أنه لم يكن أخرس، ولكنه كان يتكلم في مكان آخر.

ساد الصمت وهن يأخذن أماكنهن داخل الكنيسة، وحرصت إيزيس على أن تجلس بجانب «عائشة» كعادتها وأن تتلامس ركبتاهما، تلتمسان الأمان، بدأ الأب «جورج» يتلو الصلوات، كان يمسك الكتاب المقدس في يده دوما رغم أنه لم يكن يفتحه، كان يحفظ آياته كلها عن ظهر قلب، كن جميعا ينتظرن إنهاء القداس حتى تبدأ الإجازة السنوية وينصرف الجميع، ولعل الأب «جورج» قد أحس بذلك فأخذ يطيل في عظته وهو يتحدث عن غضب الطبيعة ويقارنها بغضب الإنسان، وكان مشهد النيل الغاضب خارج أسوار المدرسة في ذهنه في هذه اللحظة، سيذهب الجميع وتبقى «عائشة»، لن تجرؤ على الذهاب مع إيزيس، لن تذهب لأي مكان.

أحست «عائشة» بشيء بارد ينساب تحت قدميها، شهقت وهي ترفعها لأعلى، كان الماء يزحف فوق أرض الكنيسة، بدأت بقية البنات في الصياح، توقف الأب عن عظته وهو غير فاهم، واصل الماء تدفقه من باب الكنيسة وغمر الأرض بسرعة، وفكرت عائشة: يا الله، إنه الفيضان، لقد ارتفع النهر وقطع الطريق، بدأت الأجراس تدق، لا بد أن «رزق» قد أحس بالخطر وبدأ يطلق رنات التحذير، تعالت أصوات البنات الفزعة، نهضت البنات وحاولن الخروج بسرعة، تناثر رذاذ الماء من تحت أقدامهن، ظل الأب «جورج» واقفا فوق

الهيكل المرتفع غير فاهم ما يحدث، كانت المياه قد غمرت الفناء الخارجي أيضا، تسللت من بين فتحات السور الخارجي من النهر مباشرة، صرخت الأم الرئيسة:

ـ اصعدن إلى الطابق العلوي فورا.

بدأت البنات في التدافع، ولكن عائشة توقفت متجمدة في مكانها، حدقت أسفل السلم، كانت المياه تحدث صوتا وهي تندفع إلى أسفل، فرضت المياه سيطرتها على المكان، واندفعت نحو الباب المغلق دون أن تجد من يقاومها، صاحت في الأم الرئيسة وهي تشير إلى اتجاه المياه:

ـ الأخت مرجريت في القبو...

انتبه الجميع إلى الكارثة التي ستحدث، هرع الأب جورج خائضا وسط المياه بردائه الطويل، هبط الدرجات المؤدية لباب القبو، حاول فتحه أولا، ثم أخذ يدق عليه، صائحا:

ـ افتحي الباب يا أخت مرجريت.

ظل يردد الدق والصياح دون أن يتلقى جوابا، تجمدت البنات على الدرج، واصلت المياه تدفقها، هل غمرتها وأغرقتها دون أن تشعر؟ بدأت بعض البنات يبكين، ولطمت إيزيس خدها، أخذ الأب جورج يدفع الباب دون جدوى، وركعت الأم الرئيسة وسط الماء وهي تصلي، وفكرت عائشة.. إنه لا مهرب من الموت، هنا أو في قريتها.

ظهر «رزق» فجأة، أخذ يعدو عبر الفناء مثيرا الماء من حوله، هبط

الدرج في قفزة واحدة، أزاح الأب جورج دون مراعاة لمكانته، ثم ضرب الباب بكتفه، اهتزت الكتلة الخشبية ولم تتفتح، ضربها مرة ثانية وثالثة، خيل لعائشة أنها سمعت صوت تكسر عظامه، لم يبد عليه أنه أحس بألم، ظل يعاود الارتطام بالباب بنفس الإصرار حتى أخذ يترنح، انخلعت المفاصل من مكانها، ازداد تدفق الماء إلى داخل القبو ولكن «رزق» قفز إلى الداخل، كأنه جزء من تيار النهر المتدفع، لم يجرؤ أحد على أن يتبعه، ظلت البنات واقفات على السلم وهن واجفات، والأم الرئيسة راكعة وسط الماء، ومياه النهر تمتد وتغمر كل فناء المدرسة.

وأخيرا خرج «رزق» وهو يحمل جسدها المتشح بالسواد على ذراعيه، كان يشهق ويلتقط أنفاسه في صعوبة، بينما كان جسدها هامدا تماما، سقط غطاء الرأس من على رأسها وكشف عن شعرها الأصهب المتهدل، وتدلت قدماها من الناحية الأخرى، كانت أطول من المعتاد، وكأنه لايوجد صلة بين رأسها وتينك القدمين، كانت متهدلة كالموت نفسه، بنفس لباسه وشحوبه وسكونه، شهق الجميع في لوعة، ولكن «رزق» كان يعدو، يبحث عن مكان مرتفع في الفناء الغارق في الماء، لم يكن هناك إلا حافة البئر، قلبها بين ذراعيه، وضع وجهها إلى أسفل وضرب ظهرها بقوة ودون تردد، ارتج الجسد تحت وقع كل ضربة ولكنه لم يفلتها من يديه، انثالت من فمها دفقات من الماء العكر والطحالب والرغاء، كأن جسدها يفرغ عصارة الحياة من داخله دون إرادته، ولكن لايبدو عليها أنها تستجيب للضربات، قلبها رزق على ظهرها من جديد، أمسك بكتفها بإحكام حتى لا تسقط إلى أسفل، ضغط على صدرها بكفيه، وشهقت البنات وهن يرونه

يمد يده إلى جسدها المحرم، وأغمضت الأم الرئيسة عينيها، وتقدم الأب جورج وأمسك برأسها دون أن يبدي اعتراضا على مايقوم به «رزق» الذي تجرأ أكثر، ورفع الأب «جورج» الرأس أكثر ومد «رزق» إصبعيه وضغط على أنفها حتى يسده ثم وضع فمه على فمها، أطبق على شفتيها، وأخذ ينفخ فيه بقوة، أغمضت الفتيات عيونهن، أخذ رزق يملأ جسدها المتهدل بأنفاسه القوية، بدأ صدرها يتحرك قليلا، يرتفع قفصها الصدري مستجيبا للأنفاس التي يدفعها في داخله، ثم انتفضت فجأة، شهقت، سعلت بقوة، اندفع من فمها دفقة جديدة من الماء العكر.

شهق الجميع وهن يسمعن صوت الحياة وهي تعود إليها، واصلت مرجريت السعال، حركت ذراعها إلى أعلى كأنها تلتمس نفسا من الهواء، ظل رزق ممسكا بها بإحكام حتى لا تقوم بأي حركة مفاجئة، شهقت مرة أخرى ومدت يدها تتشبث بثياب «رزق»، وصاح الأب جورج:

ـ هاللويا..

صرخت البنات، وبدأت الأم الرئيسة في البكاء، كن جميعا شهودا على معجزة صغيرة، فتحت مرجريت عينيها أخيرا، محمرتين ولامعتين، حدقت في وجه «رزق» الذي كان أقرب مايكون إليها، حدقت فيه بعينيها الزرقاوين كأنها تراه للمرة الأولى، توسلت إليه في وهن:

ـ احملني إلى أعلى.

مد رزق يده تحت ظهرها وحمل جسدها الطويل الهش بسهولة، أفاقت الأم الرئيسة ونهضت من وسط المياه، وقالت له:

- أين تعلمت كل هذا؟

قال رزق في خجل: في الجهادية ياست.. عندما كنت مجندا.

تنهدت الأم ورسمت علامة الصليب، قالت:

- إنها حقا معجزة.. فلنصعد جميعا إلى أعلى.

واصل الماء الارتفاع حتى وصل إلى ركبتيها، وأصبحت ثياب الأب «جورج» مشبعة بالماء، أفسحت البنات ممرا لرزق حتى يصعد وهو يحمل مرجريت، كانت قد عقدت يديها حول عنقه، وأسلمت جسدها الهش له، وبدا على وجهها الشاحب ابتسامة شاحبة، هرعت الأم الرئيسة تتقدمهما، وظلت البنات واقفات، كن جميعا شهودا على هذه المعجزة الصغيرة، صعدت «عائشة» خلفهم، دخلوا إلى عنبر البنات، أشارت عائشة إلى فراشها، فتوجه رزق إليه ووضعها برفق، ولكنها ظلت عاقدة الذراعين لا تريد أن تترك عنقه، وسمعتها وهي تقول له في وهن وتوسل: لا تتركني، فيما كان يجاهد محرجا للتخلص من عقدة ذراعيها، قالت لعائشة فيما بعد:

- أحسست أنه «المسيح» الخاص بي، عاد في إهاب فلاح مصري ليبعث بالحياة في جسدي، إنها قيامة «أليعازر» من جديد.

انسحب «رزق» وهو يخفض وجهه في خجل، كانت هذه هي المرة الأولى وربما الأخيرة التي يدخل مكانا كان ممنوعا عليه

الوجود فيه، ويلمس جسدا كان محرما أن يتطلع إليه، وظلت مياه النهر الحمراء تتلاطم في الخارج.

في اليوم التالي غرقت كل الشوارع المحيطة بالمدرسة، حاصرتهم بحيرة لامعة من المياه الداكنة، وانعكست على سطحها شمس قوية، وهبت من النهر ريح ساخنة، فتحت مرجريت عينيها، وحدقت في وجه عائشة ثم قالت: أنا جائعة، دهشت لسماعها تتفوه بهذه الكلمة، كانت لا تتناول من الطعام إلا ما يبقيها فقط على قيد الحياة، أسرعوا بإحضار الطعام لها، بدأت تأكل في بطء وتأمل، كانت تتوقف وتنظر حولها كأنها تبحث عن شيء ما، لم تتكلم، استلقت على الفراش واستغرقت في النوم مرة أخرى رغم الضجة التي تثيرها البنات، كانت تستعيد بقايا الحياة التي تسربت منها.

تحولت المدرسة إلى جزيرة معزولة، تقطعت الطرق التي تصلها بالمدينة، وجرف النهر أمامه بقايا الأشياء الغارقة، أغصان شجر، بقايا قوارب مهشمة، وحيوانات غرقى، وأوعية سابحة، فرض السيد الفيضان سطوته على المكان، وحطم سدود الطين، وأذاب البيوت المبنية بالطين اللبن، ورغم ذلك واصل جسد مرجريت استعادة الحياة، لم تنتقل من عنبر البنات، حتى لاتكون وحيدة في غرفتها الصغيرة، ولم تكن تأكل إلا القليل من الطعام، ولكن المشكلة الحقيقية أن مخزون المدرسة من الطعام بدأ في التناقص، لم تعد هناك أسواق ولا باعة، ولا عربات تنقل الأطعمة، وكان الناس الذين يظهرون في مدى البصر لا يتعدون بضعة من المشردين يخوضون في مياه النهر بحثا عن أي من غنائم الفيضان.

نهضت مرجريت من الفراش، وبدأت تتحرك على أطراف أصابعها كفراشة، مبتسمة وعيناها لامعتان، انقطعت الكهرباء، ولم تعد هناك خطوط للهاتف، ولم يعد متوافرا من الطعام إلا ما يكفي وجبة صغيرة كل يوم، وبدا أن هذا أيضا لن يستمر طويلا، قامت الراهبات بتوزيع بقايا الطعام الجاف في صمت وخوف، وأعلنت الأم الرئيسة أنها سوف تصوم عن الطعام حتى تنتهي هذه الشدة، تحول العالم كله إلى بحيرة مياه ضاربة إلى الحمرة، وبدت قمم الجبال على الضفة الغربية كأنها تنتمي إلى عالم آخر، ولكن «مرجريت» كانت تعيش سعادتها الخاصة، جلست على السرير مقابل «عائشة» وهي تقول لها:

ـ هذا الملاك الذي أنقذ حياتي، من هو ؟

قالت عائشة: إنه ليس ملاكا، إنه مجرد فلاح يعمل هنا في المدرسة منذ زمن طويل، كيف لم تريه كل هذه المدة؟ واسمه «رزق».

ولكن مرجريت قالت ممتعضة:

ـ لا تتحدثي عنه هكذا، إنه أكثر من كونه فلاحا،إنه يملك هبة إلهية لا يملكهـا كثيرون، إنه يمتلك القدرة على بعث الحياة، ترى أين هو الآن؟

قالت عائشة بلا اهتمام: لابد أنه في الأسفل.

قالت مرجريت في فزع حقيقي:

ـ لايوجد في الأسفل غير الماء والفيضان...

وأخذت تعدو حافية القدمين خارجة من العنبر، أطلت من فوق

السور على الفناء الخلفي، لم تجد سوى الماء ورءوس الزرع، سارت عائشة خلفها، وجدتها تقف مفزوعة وهي قابضة على السور بأصابع متقلصة كأنها تريد أن تغرسها في الخشب، قالت في همس مرتعد:

ـ إنه ليس موجودا، ترى هل تعرض للغرق؟

قالت عائشة: لماذا كل هذا القلق عليه؟ إنه قوي ويستطيع التصرف، وهو مثلي ومثل بقية الفلاحين الذين تعودوا على هذه الفيضانات منذ الصغر، ومن المؤكد أنه يعرف كيف ينجو منها.

ولكنها ظلت تتلفت في حيرة وهي زائغة العينين، وعندما قادتها إلى الفراش مرة أخرى كانت تنتفض، واصلت مياه النهر الارتفاع، لم يعد يملأ الصمت إلا صوت تلاطم الموج، وبدأ الطعام الجاف أيضا في النفاد، تكوم كل من في المدرسة في عنبر البنات، كانت عائشة قد عاشت هذه التجربة أكثر من مرة في نجعها النائي، ولكنها لم تتصور أن يقدر النهر على عزل مدينة كبيرة مثل أسيوط، امتلأت العيون بالخوف والترقب، وحتى «مرجريت» خفت درجة انتعاشها بنبض الحياة وأصبحت حائرة، تنتظر شيئا لا يجيء.

في اليوم الثالث وقفت الأم الرئيسة في مقدمة العنبر وقالت بصوت سمعه الجميع:

ـ علينا أن نرحل من هنا، سنخوض في المياه حتى نصل إلى محطة القطار، ومن هناك تذهب كل واحدة إلى بيتها، لا يمكن أن نبقى محاصرين حتى نموت من الجوع.

بدأت بعض البنات يبكين في صوت خافت، لم يكن يعلمن ماذا

يتظرهن أسفل السلم، ولا ما الشوارع الآمنة للسير، نهضن وفتحن خزانات الملابس، ومرة أخرى صاحت الأم الرئيسة:

ـ خذن أقل الأمتعة، الضرورية فقط، لا نريد أي أثقال على أكتافنا.

ولكن «مرجريت» ظلت متشبثة في فراشها، حدقت في الباقيات بذعر حقيقي وهي تهتف:

ـ لن أغادر هذا المكان...

نظرت إليها الأم الرئيسة في إشفاق، وقالت لها في رقة كأنها تعامل طفلة صغيرة:

ـ لا يدري أحد إلى متى سيستمر هذا الفيضان، قد لا نموت غرقا، ولكننا سنموت بالتأكيد سنموت جوعا.

ظلت عائشة واقفة ساهمة أمام خزانة ملابسها، لم يكن هناك ما تحمله، ولا مكان تقصده، كانت أكثرهن إحساسا بالضياع، لا بيت ولا أهل ولا اسمٌ حقيقيا، كانت قد أحكمت كذبتها جيدا، ولكن أفعال النهر توشك أن تكشفها، رأت الدموع وهي تطفر من عيني مرجريت فجلست بجانبها على الفراش، ابتسمت مرجريت في شحوب، همست في أذن عائشة:

ـ لا أريد أن أغادر هذا المكان، لأنني أعرف أنه سوف يأتي.

ـ من؟

ـ مسيحي.. المخلص..

حدجتهما الأم الرئيسة بنظرة صارمة فاضطرت عائشة للنهوض وبدأت تصر جلبابها القديم، فجأتها رائحته، رائحة التراب والطين والنجع القديم، اقتربت إيزيس منهما في خجل وهي تقول:

ـ هل يمكن أن تأتي معي إلى بيت أبي؟ لن نذهب بعيدا، إنه في المدينة المجاورة، ولا أعتقد أنه تعرض للغرق.

شدت عائشة على يدها وهي توشك على البكاء، لم يكن هذا الحل أيضا كافيا، لا يمكن أن تقضي كل هذه الأيام وهي ترتدي ثوب المدرسة الوحيد، بدأت البنات في الانتظام في صف طويل، ونهضت مرجريت في تثاقل ووقفت بجانب النافذة، لم يكن هناك أي حركة غير تدفق المياه، ولم يكن هناك صوت غير هديرها، كأن الحياة قد انعدمت من المدينة.

وفجأة سمع الجميع صوت صياح قادم من الأسفل، صوتا ينادي على الأم الرئيسة وعلى الجميع، وكانت مرجريت هي أول من تعرفت عليه، برقت عيناها وقالت في جذل: «إنه منقذي» هرعت تعدو خارجة من العنبر، كان «رزق» في فناء المدرسة، يخوض وسط المياه التي وصلت لصدره، يحمل على رأسه قفصا كبيرا من الجريد، وكان وجهه الذي يشبه قشر القمح مكسوا بالعرق، وذراعاه عاريتين مفتولتي العضلات وهو يصعد السلم مرة أخرى، يجتاز المنطقة المحرمة في لامبالاة، ويضع قفص الجريد تحت أقدام مرجريت، كان مليئا بأرغفة من الخبز الأسمر، وطماطم حمراء متوهجة، وخيار أخضر كالزمرد، وقطع من الجبن القريش، كنز حقيقي وضعه ببساطة تحت أقدامها، كأنه فرعون يقدم القرابين لآلهته المقدسة، حدقت

فيه «مرجريت» بانبهار، كانت واثقة من أن مخلصها سيعود إليها، سيقوم من أجلها بهذا الطقس ويهب لها هذه العطية، خرجت بقية البنات من العنبر، شهقن في دهشة وهن يشاهدن الطعام الطازج، كن جائعات ولكن لم تجرؤ أي واحدة على الاقتراب منه حتى جاءت الأم الرئيسة، حدقت فيما يحمله في دهشة، ثم أشارت إلى داخل العنبر وهي تقول له:

ـ احمل هذه الأشياء إلى الداخل يا رزق.

للمرة الثانية سمح له بدخول المنطقة المحرمة، تبعته مرجريت وعلى وجهها ابتسامة من الانبهار، أحست بالشبع يملأ روحها، قالت الأم الرئيسة:

ـ من أين أحضرت هذه الأطعمة؟

قال رزق: من القرى الموجودة في حضن الجبل، لم تصل المياه إلى هناك.

كن جميعا يعرفن هذه القرى المغبرة التي لا تظهر منها إلا أضواء خافتة في الليل، ويهبط منها رجال حفاة وجوعى، من الغريب أن تصبح هذه القرى الآن مصدرا لطعامهن، ولم تسمح الأم الرئيسة للبنات بمد أيديهن للطعام قبل أن تعاود السؤال مرة أخرى:

ـ ومن أين أحضرت النقود؟

ورفعت مرجريت حاجبها مستغربة من السؤال، كيف يمكن أن يسأل صاحب المعجزات سؤالا مثل هذا؟! لذا فقد كان من الطبيعي أن يجيب في بساطة:

ـ يفرجها الله.

كان واضحا أنه قد أنفق فيها الريالات القليلة التي كان يملكها والتي كان يقبضها كل شهر من المدرسة، اكتشف الجميع في هذه اللحظة أنهم لم يروه قبل الآن، ولم يبال أحد بأن يعرف عنه شيئا على الرغم من أنه كان يتدخل في كل عمل من أعمال المدرسة، قالت الأم الرئيسة: كنا ننوي أن نرحل الآن، هل الطريق آمنة إلى محطة القطار؟

قال في سرعة: لقد ظهرت شواهد القبور.

نظرت الأم الرئيسة إليه في استغراب: ماذا تعني؟

قال وهو يفرد أمامهن أرغفة الخبز وقطع الجبن:

ـ لقد وصلت مياه الفيضان إلى القبور المبنية على التلال المرتفعة، وأظهرت الشواهد المطمورة، لم نشهد أبدا مثل هذا الفيضان.

وظلت الأم الرئيسة تنظر إليه مليا، ثم أشارت إلى بقية البنات أن يبدأن في تناول الطعام، وخفق قلب مرجريت ومدت يدها معهن، وكان للجبنة «القريش» مذاق الشهد......

* * *

هتفت بها مرجريت في لهفة:

ـ هيا يا ماري، سوف نتأخر.

أسرعت بالسير أمامها، سارت وسط بقايا الوحل وبرك المياه الصغيرة دون مبالاة، لم تدر عائشة إلى أين تقودها، ولا ما هو هذا

الموعد الذي تحرص عليه، ولكن تلك النظرة الحالمة في عينيها، وتلك الخطوات التي تكاد تلمس الأرض، جعلت عائشة تتبعها وسط الزحام والضجيج في سوق الفخار، كانت الأرض ما تزال طرية، تخلى عنها السيد النهر بعد أن امتلكها على مدى أيام طويلة، وأخذت الشمس تسطع كل يوم وتحول الطين الرخو إلى أرض صلبة، وانتشر البناءون وصناع الفخار يجمعون الطمي المتخلف عن انحسار الماء في المقاطف، كانوا قد ضمنوا المادة الخام لصناعتهم طوال العام، وعلى الجانب الآخر من النهر، شرع الفلاحون في بذر حبوب القمح والشعير والترمس، كانت الأرض قد تلقت وجبتها الكاملة من «الغرِيَن»، طبقة سميكة من فتات صخر البراكين، حملتها مياه النهر من مرتفعات الحبشة، وكست بها الأرض القديمة لتستعيد نضارتها وشبابها، كانت مرجريت ترتدي رداء الراهبات الأسود، وتبدو بشرتها بيضاء مشربة بالحمرة، وتواصل السير وسط زحام الوجوه التي دبغتها الشمس، كان الفخارون يرصون الفخار الأحمر الذي اشتهرت به المدينة، صفوف من «قلل» المياه البنية ذات خطوط بيضاء، وزلع العسل المنبعجة الدقيقة العنق، وقدور السمن والمخلل السوداء كالليل، وأواني الزرع المنقوشة، الفناجين والأكواب والغلايين، كانت أصابع الباعة والمشترين لا تكف عن الدق فوق أسطح الفخار فيصدر صوتا أجوف يوضح مدى رقته وجودة شيه، ويبدو أن هذا الدق المتواصل على قدور الفخار، إيقاع لحن راقص تسير عليه مرجريت، هتفت في نشوة:

ـ انظري كم يبدو كل شيء جميلا وأصيلا، إنه مصنوع من الطين، مادة الخلق الأولى التي صنع منها الإنسان.

كانت قد أخذت الإذن بالتغيب لعدة ساعات عن المدرسة، سافرت الأم الرئيسة في إجازة طويلة، وخلت المدرسة من الطالبات، بعد أن ذهبن جميعا لزيارة أسرهن، ولم يبق إلا هي و «مرجريت»، تردد الأب «جورج» في السماح لهما بالخروج، ولكن عندما هتفت مرجريت به أنها تختنق خلف الأسوار، وأنها تتوق لأن تشعر بملمس شمس سبتمبر على بشرتها وافق على خروجها، شريطة أن تصحبها عائشة حتى لا تضيع في شوارع المدينة، ولكن «مرجريت» هي التي قادتها عبر شوارع ضيقة ومتداخلة، خافت «عائشة» ألا تعرف طريق العودة للمدرسة، ولكن مرجريت كانت تعرف كل شبر وتحفظ كل درب، وصلتا إلى ساحة واسعة، في وسطها شجرة جميز باسقة، تحتها يقف رزق وبجانبه حماران.

توقفت عائشة مذهولة، تقافزت مرجريت نحوه في لهفة، وضعت يدها على صدره، لامسته كأنها تطمئن على وجوده، ولكنه تراجع، نظر إلى عائشة بعين غائرة، قالت:

ـ لا أصدق أننا نتقابل معه هكذا، أهي مصادفة؟

قالت مرجريت وهي منتشية:

ـ بالطبع لا، أنا الذي اتفقت معه، هيا.. اركبي حمارك.. سيأخذنا في جولة.

ـ إذا كان الأمر هكذا.. لماذا لم تأتي إليه وحدك؟

ـ هل أنت مجنونة؟ كيف كان يمكن أن أجتاز كل المدينة بمفردي؟ هيا، لا تضيعي الوقت.

ظلت «عائشة» جامدة في مكانها، استندت «مرجريت» إلى كتف رزق في ألفة وهي تحاول الصعود على ظهر الحمار، أوشكت أن تسقط بسبب الرداء الأسود الطويل، ولكنه ظل ممسكا بها حتى توازنت، ضحكت في حبور وظلت واضعة يدها فوق كتفه كأنها تستمد منه الأمان، بدآ في السير معا و«عائشة» واقفة وحيدة، تطلع الحمار إليها بعينيه الحزينتين، إلى أين يمكن أن يأخذها رزق وقد أسلمت نفسها إليه على هذا النحو؟ فكرت أن تتركها وتعود وحدها للمدرسة ولكنها كانت مسئولة عنها، ولو حدث لها شيء فلن تغفر لنفسها، أمسكت بمقود الحمار وقفزت فوقه بمهارة، ولكزته بكعب قدمها وسارت خلفهما.

انحدر بهم الطريق إلى منزلق رملي، وسط أشجار عجوز متساقطة اللحاء، بدت شواهد القبور من بعيد، هاجعة في حضن الجبل وسط الصخور المتجهمة، أشار رزق إلى مكان غير محدد وهو يقول: هذه بداية الطريق إلى «إسطبل عنتر»، كان الجبل يسد الأفق ولا شيء يظهر، بدأت الحمير في صعود طبقات الجبل الصخرية، ارتجفت «عائشة» وهي تسير بين المقابر، ظهرت فتحات غائرة وسط الصخر، واصل الحمار الصعود حتى توقف أمام أكبر هذه الفتحات، كان هذا هو المكان الذي يشير إليه رزق، من هذا الارتفاع بدت أسيوط بعيدة وباهرة الجمال، خط طويل من القباب والمآذن يحيط بها غابات من النخيل، وخلفها يبدو النهر مثل خط لامع عند حافة الأفق.

قالت مرجريت في انتشاء:

ـ كم أنا سعيدة لأنني جئت إلى هنا أخيرا، قرأت كثيرا عن هذا

المكان، كانت حتشبسوت تأتي إلى هذا المكان متنكرة كرجل لتقدم القرابين لآلهتها السرية، آلهة الحب.

ترجلت من على ظهر الحمار بسرعة، وهرعت في خطوات لاهثة نحو فتحة المغارة، لحقت بها «عائشة»، ربط رزق الحمارين إلى حجر ناتئ ودخل خلفهما، ساروا في ممر طويل محفور داخل الصخر، سقفه مغطى بطبقة من السناج، وعلى جانبي الممر يقف تمثالان مشوهان من الحجر، توحي وقفتهما المتحفزة بأنهما محاربان قديمان، وكانت الجدران مليئة بالنقوش الباهتة الألوان، توقفت «مرجريت» وهي تشهق أمام صورة لامرأة تحمل باقة كبيرة من أزهار اللوتس، تقدمها لرجل ما، كل شيء كان جامدا، ولكن النقوش تتدفق بعشق دافئ، ألوان بيضاء متربة، وصفراء داكنة، وخضراء باهتة، قالت مرجريت:

ـ لا بد أنها كانت تلتقي هنا مع حبيبها، تغني وترقص وتمارس الحب، وتغطي جسده بأزهار اللوتس.

واصلا التقدم، حدق فيهم تمثال متكسر لابن آوى، إله أسيوط القديم، أفضى بهم الممر إلى غرفة واسعة، تقوم أركانها على أربعة من الأعمدة لتحميها من انهيار السقف الصخري، كان كل شيء مشوها ومحطما، ولكنه يحمل آثار عظمة آفلة، استند رزق إلى أحد الأعمدة، تركهما تتجولان وتتشربان روح المكان، تأملتا عشرات النقوش والرموز والخراطيش المغلقة التي تملأ الجدار، قالت مرجريت:

- هل تدرين أنهم قد استطاعوا أن يحلوا هذه الرموز، وأن يقرءوا كل هذه الإشارات.

قالت عائشة في أنفاس متقطعة: وماذا تقول؟

- ربما كانت تتحدث عن هذه الملكة الغامضة.

أحست عائشة برجفة تعبر جسدها.. شاهدت على الحائط الذي يواجهها نقوشًا لذئب كبير، محفور بخطوط غائرة، يقف متأهبا على قوائمه الأربع، رأسه مدبب وأذنه مشرئبة كأنه يتسمع لدبيب أقدامهم ونبرات أصواتهم، مرسوم تحت أقدامه أشكال صغيرة لابن آوى، رسل صغيرة تنتظر أوامره حتى تعود للحياة، ظلت «عائشة» ترتجف والذئب يتأملها في صمت، يقرأ في عينيها كل أسرارها الدفينة، قالت:

- لماذا صوروا الذئب بهذا الحجم؟! إنه يبدو مخيفا!

قالت «مرجريت» وهي تلتقط أنفاسها المبهورة:

- إنه إله هنا أيضا، ربما كان أكبر آلهة الخوف والظلام في هذه المدينة، وربما كان رفات العشرات من الذئاب مدفونا في هذا المكان.

كانت تتحدث في بساطة شريرة، أحست «عائشة» بالاختناق، أصبح الهواء ثقيلا، قالت:

- أريد أن أخرج.

- يجب أن أبقى هنا قليلا، أريد أن أطبع هذا المكان في ذاكرتي.

تراجعت «عائشة»، استندت إلى الحائط ولكن ركبتيها لم تسعفاها على الوقوف.. أحست أنها تغوص في شبكة من الممرات النهائية والذئب لا يكف عن مطاردتها، ظل رزق يحدق فيها، اقتربت مرجريت منها ومسحت العرق من على جبهتها:

- ماذا بك يا عائشة ؟

- لا أدري، أشعر بأن ذئبا مثل هذا كان يطاردني طوال عمري، كأنني مرتبطة بكل ذئاب الليل، كنت صغيرة، ولكن أمي حكت لي حكايتي معها. عندما كان عمري لا يتعدى إلا أشهرا قليلة اختطف الموت أبي، وذهبت أمي لتتابع الرجال الذين يبذرون القمح في حقلنا، تركتني نائمة في عشة صغيرة عند طرف الحقل، بعيدا عن وهج الشمس، انشغلت عني للحظات، وعندما استدارت وجدت أحد الذئاب يقف بجانب فتحة العشة، هكذا في وضح النهار، جئت، لم نعرف إن كان قد دخل إلي حيث أنام أم لا، وهل اكتفى بتشمم جسدي الصغير أم افترسني؟ صرخت وهي تعدو نحو الذئب، وانتبه الجميع للصراخ فأخذوا يعدون خلفها، وأصيب الذئب بالفزع من هول الصراخ فوثب مبتعدا، عندما دخلت علي وجدتني أحدق فيها بعينين مستديرتين وأبتسم، كنت راضية، كأني قد أشبعت للتو، وعلى جانب فمي قطرة من سائل أبيض، لم يصدق أحد ما حدث، وما زلت غير مصدقة حتى الآن، من يومها والذئاب تتبعني.

مسحت مرجريت على شعرها ببطء، وأخذت جسدها المرتجف بين ذراعيها، نظرت إلى رزق الذي كان يقف جامدا، وقالت:

- يجب أن نخرج الآن.

عادوا إلى ضوء النهار، جلست عائشة ومرجريت بجانبها عند فتحة المغارة، تأملت عائشة أسيوط وهي تلوح من بعيد، فأحست بالحنين إلى قريتها، وإلى وجه أمها، والتصقت مرجريت بها، لتشعرها بأنها ليست وحدها، قالت في همس:

ـ ما أجمل هذا المكان، النهر والصحراء والنخيل والقباب والأجراس والمآذن، كلها في رؤيا واحدة، أين يمكن أن نجد مثل هذا المكان؟

تأملت عائشة وجهها، لم تعد الأخت المتجهمة القديمة، كانت التي عادت من الموت مرجريت أخرى، عاشقة للحركة والمرح والحياة، تتابع «رزق» إلى أي مكان يذهب إليه، كان من الواضح أن الأمور بينهما تتطور في سرعة، ولكن إلى أي مدى ؟ سألتها :

ـ لماذا جئت بنا إلى هنا؟

قالت مرجريت دون تردد:

ـ هذا المكان مقدس، كل هذه الصحراء مقدسة، لقد مرت من هنا سيدتنا مريم، والمسيح رضيع على ذراعيها، ويوسف النجار يقود الحمار، تركوا آثارهم على هذه الرمال، مثلما قاد رزق، مسيحي الخاص، حماري، ولا بد أنهم وقفوا في نفس المكان الذي نقف فيه الآن.

نظرت عائشة ناحية رزق، كان قد أخذ الحمارين ووقف بهما في بداية الممر استعدادا للهبوط، تأكدت أنه لا يسمعها قبل أن تسأل:

ـ ولكن أيتها الأخت مرجريت، هل تركت «رزق» يلمسك؟

كانت ترتجف، خائفة من رد فعل مرجريت، ولكنها ردت ضاحكة:

ـ وماذا لو لمسني؟ إنه مسيحي الخاص كما قلت لك، لقد لمسني بالفعل، عمدني، قبلني أيضا حين بعث الحياة في جسدي، أتذكرين؟ إنه ليس في حاجة إلى استئذان بعد الآن.

فوجئت عائشة بالرد وحدقت فيها مذهولة، بينما دارت مرجريت حول نفسها وهي ترقص:

ـ إنها معجزة، الزمان يدور ولايكف عن الدوران، أسيوط حقا هي مدينة المعجزات...

تقافزت فوق الصخور هابطة إلى أسفل، أعطت يدها لرزق الذي حملها من تحت إبطيها بخفة ووضعها فوق ظهر الحمار، لاحظت عائشة أن المسافة التي كانت تفصل بين جسديهما قد زالت تقريبا، سارا في المقدمة وهي خلفهما، وطوال الطريق تميل عليه في حديث متواصل لا ينقطع، كانت الصحراء بلون الليمون، والريح ترسم فوقها خطوطا كالموج، خفت حرارة الشمس، ورأت «عائشة» بداية لقصة حب مستحيلة الوقوع.

في مدخل المدينة توقفت مرجريت وهي تقول:

ـ لا نريد العودة عن طريق «سوق الفخار»، فلنبحث لنا عن طريق آخر.

نظر «رزق» حوله في تردد وهو يقول:

- ليس هناك من طريق آخر، لا يوجد إلا شارع ثان لا يمكننا أن تمر به، شارع اليونانيين.

قالت مرجريت بلامبالاة:

- وماذا في ذلك، أنا جائعة، ربما نستطيع أن نجد مكانا نتناول فيه الطعام.

توقف رزق جامدا، على الرغم من أنه كان يطيعها دائما، كانت نزوات «مرجريت» قد أصبحت فوق طاقته، نظر إلى «عائشة» يستغيث بها، ثم قال:

- لا أستطيع أن أدخل بكما إلى هذا الشارع، ستقتلني الأم الرئيسة.

وجهت «مرجريت» بالفعل حمارها إلى مدخل الشارع، قالت في استهانة:

- الأم الرئيسة ليست هنا، ولا أعتقد أن لها أصدقاء في هذا الشارع سوف يشون بنا..!

كانت روحها قد تحررت من كل القيود القديمة، ولم يعد هناك حدود لانطلاقها، وكان الشارع الضيق الموجود وسط المدينة هو واحدًا من غوايات عديدة، آلت على نفسها أن تستجيب لها، كان يبدو هادئا ومرتبا وغير مثير للشبهة، محلات صغيرة تبيع التبغ والبقالة والخمور، ومداخل صغيرة عليها ستائر من الصدف، بارات وخمارات ومطاعم صغيرة، كل شيء موجود ومترقب، شعرت عائشة بالخوف، قالت لها:

- يا أخت «مرجريت»، دعينا نذهب إلى المدرسة ونبحث عن أي شيء نأكله.

ولكن «مرجريت» تلفتت حولها في شوق، وحركت أنفها بغريزة المستكشفين، قالت:

- لماذا تتعجلين بالعودة خلف الأسوار؟ ألا تشمين رائحة الشواء؟!

كان هناك بالفعل دخان ينبعث من مكان ما، وكان وجه رزق شاحبا وهو يقودهما، وتوقف البقالون عن البيع يراقبون مرورهما، أثار زي الراهبة الأسود انتباه الجميع وفضولهم، توقفتا أمام مدخل المطعم، قالت «عائشة»:

- لا يمكننا أن ندخل إلى هذا المكان، سيطردوننا من المدرسة.

- لمجرد أننا تناولنا الطعام؟ لا تبالي بذلك، أنت صديقتي الوحيدة وسأدافع عنك بحياتي..

خرج صاحب المطعم وراقبهما في اهتمام، كان مالطيا قصير القامة، له بطن ضخم، وشارب كث، بدا للحظة أنه يريد أن يمنعهما من الدخول، ولكنه لم يجرؤ على التحديق في وجه «مرجريت» ولا في ثوبها الأسود، وضع يده في جيبه وأدار وجهه للناحية الأخرى، أزاحت هي الستائر المجدولة من الصدف ثم خطت للداخل، بحثت عائشة عن أحد تستنجد به، ولكن «رزق» كان مصدوما، يمسك بمقود الحمارين وهو عاجز عن الحركة، لم تجد بدا من أن تتبعها إلى الداخل.

كانت «مرجريت» واقفة جامدة خلف الستائر مباشرة، تبخرت لحظات الشجاعة، بدا المطعم معتما، مناضد مغطاة بمفارش بيضاء، كلها خالية إلا واحدة فقط، يجلس حولها أربعة من النسوة، توقفن عن الحديث والضحك فور أن لمحن الراهبة، بدا عليهن نوع من الرعب المفاجئ، انكمشن مثل دجاجات مبتلة، كن يلبسن ثيابا مزركشة، عارية الصدور، وعلى رءوسهن ريشات ملونة، أفلتن السجائر من أصابعهن، وظلت الأدخنة تتصاعد ملتوية كخيوط رفيعة وسط العتمة، جذبت واحدة منهما شالا ووضعته على كتفها، ورسمت أخرى علامة الصليب وهي تردد صلاة ما، أحست «مرجريت» ببعض من الثقة، وأنها قد فرضت سيطرتها على المكان، تقدمت وسط صمت مطبق، لايسمع فيه إلا صوت أقدامها وحفيف ثوبها، لحقت بها عائشة بعد أن أوشكت أن تتعثر في إحدى المناضد، سارت بسرعة حتى جلست بجانبها ملتصقة بها، تحولت نظرات النسوة من الخوف إلى الاستغراب، ظل رزق في الخارج واقفا بجانب الحمارين، ولكنه غالب تردده بعد فترة ودخل في حذر، أوشك على الهروب مذعورا حين رأى النسوة، ولكن «مرجريت» أشارت إليه أن يتقدم ويجلس أمامهما على المنضدة نفسها، غيّر وجوده جو الترقب والخوف الذي سيطر على المكان، بدأت النسوة في التهامس، كان مشهد الثلاثة متنافرا وباعثا على العديد من الاستنتاجات، ضحكت واحدة من النسوة في صوت خافت، وكان الهواء ثقيلا، روائح الشواء قادمة من خلفية المطعم مختلطة بأبخرة كحول عطن متصاعد من القبو، إضافة إلى عطور النسوة الأربع ورائحة عرقهن، ظل المالطي

واقفا في الخارج، كان واثقا بأنهم سيرحلون سريعا لذا لم تكن هناك حاجة لسؤالهم عما يطلبون.

نهضت واحدة من النسوة، تلك التي ضحكت منذ لحظات، وضعت يدها على خاصرتها وحدقت فيهم في حيرة، نظرت نحو رزق في ازدراء، ولم تبال بعائشة، وحدجت مرجريت في اهتمام وهي تقول:

- اعذريني أيتها الأخت، هل أنت راهبة حقا؟ أم أنك جديدة في هذا المكان وهذا الزي التنكري هو لجذب الزبائن؟

واحمر وجه مرجريت بشدة، وفتحت شفتيها وأغلقتها أكثر من مرة، وأخيرا قالت:

- كلنا بنات الرب.

والتفتت المرأة نحو زميلتها في حيرة، ثم عادت تقول:

- لقد احمر وجهك بشدة، يبدو أنني أخطأت الاستنتاج، أنت راهبة حقيقية إذن، اعذريني ولكن إذا كنت تسعين نحو خلاصنا فقد أخطأت المكان.

وجدت مرجريت صوتها أخيرا وهي تقول:

- كل ما نريده هو تناول الطعام.

اعتدلت المرأة وصفقت بيديها في عصبية، جاء المالطي مسرعا، أشارت إلى مرجريت وهي تقول:

- شوف طلبات بنت ربنا..

وعادت إلى بقية النسوة ونهضن جميعا وغادرن المكان، أحسسن أن وجودهن مع ذات الرداء الأسود في مكان واحد أكثر من طاقة احتمالهن، وظل المالطي واقفا مستسلما، طلبت منه مرجريت أن يقول ما عنده فأخذ يعدد أنواع الأطعمة كأنه يريد أن يزيحها جميعا من فوق صدره.

حين وضع الطعام أمامهم أحسوا بأنهم كانوا جوعى بالفعل، أخذوا يأكلون وصاحب المطعم يتميز غضبا، كانوا يستمتعون بوقف حاله، فهروب النسوة يعني هروب الزبائن، ضحكت مرجريت وهي تقول لهم:

ـ كانوا يظنون أننا جئنا لمنافستهن.

احمر وجه عائشة، وضحكت مرجريت في شقاوة ونظرت إلى رزق الذي كان يتناول الطعام في دفعات سريعة دون أن يعني بمضغه، وقالت:

ـ يا إلهي كم أحب طريقتك في الأكل، بدائية حقا.. ولكنها تجعل الطعام ضروريا وشهيا.

وأخذوا يتحدثون، وحتى رزق أخذ يشاركهم في الحديث بكلمات صعيدية غريبة، نسوا ما بينهم من فوارق، اختفت قوانين المدرسة الصارمة، ولم يتذكر أحد الأب «جورج» الذي ينتظرهم، وأوشك المالطي أن يجن، كان العديد من الزبائن قد دخلوا إلى المطعم، أفندية وفلاحين وأوروبيين، ولكنهم حين شاهدوا الراهبة خرجوا مسرعين.

وأخيرا أخرجت مرجريت بضع قطع من النقود ووضعتها على المنضدة، وفي خارج المطعم كان هناك تجمع صغير من الأفندية والفلاحين ورجال الشرطة يترقبون خروج الراهبة ومن معها، تعالت الهمهمات فور ظهورهم، واقترب منهم واحد من الفلاحين، تحفز رزق وقد حسب أنه قادم لاعتراض طريقهم، ولكن الفلاح حدق في وجه عائشة وهو يشير إليها قائلا:

ـ ألست عائشة بنت المرحوم «محمد أبو العينين»؟!

اصفر وجه عائشة وأرتج عليها، لم تتوقع أن يبرز الماضي فجأة أمامها، حاولت أن تتوارى خلف ظهر «مرجريت»، ولكن الفلاح ظل محدقا فيها منتظرا الإجابة، وقف رزق أمامهما وصاح في الرجل:

ـ ابتعد عن طريقنا، أبوها ليس «محمد» بالتأكيد، إنها فتاة مسيحية، لذلك كف عن مضايقتنا.

ولكن فضول الفلاح كان أقوى من أن يجعله يتراجع، قال في تصميم:

ـ أنا متأكد من أنها نفس الفتاة من بلدتنا، لقد اختفت منذ ثلاث سنوات، ولكني أعرفها جيدا، كنت صديقا لوالدها..

نظر رزق إليها في حيرة، وأخيرا استطاعت عائشة القول: إنه يكذب، أنا لا أعرفه.

قال رزق في حزم: ابتعد عن طريقنا.

ضرب الرجل كفا بكف ولم يملك غير الابتعاد، ساروا في طريقهم للمدرسة، وعندما أمسكت «مرجريت» بيدها وجدتها ترتجف بشدة،

ولم تهدأ رجفتها حتى بعد أن صعدت إلى فراشها وتغطت بكل الأغطية.

لم تتحدث معها «مرجريت» حول هذا الأمر لعدة أيام، على الرغم من أنها لم تكن تكف عن الكلام، حتى وهي نائمة، كانت تتحدث عن رزق في معظم الأحيان، كانت تريد أن تعرف كل تفاصيل حياته السابقة، ولم يكن هناك تفاصيل، كانتا تنامان معا في العنبر الخالي، وعاد رزق للنوم في الغرفة الصغيرة بجانب الباب الخارجي، وانشغل الأب «جورج» بالصلاة معظم الوقت ومحاولة كتابة نسخة منقحة من الإنجيل، كان قد رحل كثيرا من مصر إلى فلسطين والشام، وكانت تقلقه كثيرا قضية مطابقة جغرافيا الإنجيل، للتضاريس الموجودة على أرض الواقع، وكان يعتكف طوال الوقت في غرفته المليئة بالخرائط والكرات المستديرة.

استيقظت «عائشة» في منتصف الليل، كانت النافذة مفتوحة، والقمر المكتمل يضيء جانبا من عنبر البنات، كانت مرجريت مستيقظة، جالسة على حافة النافذة وقد أسندت ذقنها إلى ركبتيها، وأشعة القمر تتخلل شعرها المنسدل الطويل، كطيف شاحب أضناه التفكير، شعرت عائشة بالقلق من منظرها، نهضت جالسة في الفراش، وأدارت مرجريت رأسها نحوها ببطء، وقالت في صوت خافت:

- كيف تؤدون طقوس الصلاة في دينكم ؟

لم تجب عائشة، ولكن قلبها أخذ يدق في قسوة، قالت مرجريت:

- أريد فقط أن أعرف، أريد أن أتصور «رزق» وهو يؤدي صلاته.

ظلت عائشة صامتة، تأملت ظل مرجريت والقمر ينعكس عليها، لم تستطع أن ترى وجهها بوضوح، قالت في صوت مختنق:

- هل ستشين بي؟

هبطت مرجريت من على النافذة، وجثت بجانبها على السرير، وقالت لها في رقة :

- لن أفعل، السماء لا تحب الكذب، ولكن الأرض في حاجة دائما للأكاذيب الصغيرة، لا أريد أن أعرف الظروف التي مررت بها، ولكن من المؤكد أنها كانت بالغة القسوة لتفعلي ذلك.

وجدت «عائشة» الدموع تسيل على وجنتيها، كانت خائفة، وزادت كلمات «مرجريت» الهادئة من خوفها، نهضت وجلست بجانبها على الفراش، وضعت يدها على كتفها وضمتها إليها وهي تقول:

- الدين لا يحدث فرقا بين الناس، الغباء هو الفارق.. الليلة سننام معا في فراش واحد.

استكانت عائشة إليها واسترخيا في الفراش، وشعرت عائشة بدفء مفاجئ لم تجربه منذ أن غادرت فراش أمها، أحست برائحة شعر مرجريت وهو يتفرد على الوسادة، وشمت رائحة جسدها الشبيهة برائحة الأطفال، وأغمضت عينيها وهي تشعر بتردد أنفاسها على وجهها.

لا تدري عائشة كم مر عليها وهي نائمة، ولكنها استيقظت وهي تشعر بالبرد، كان الفراش بجانبها خاليا، تلفتت حولها بحثا عن مرجريت، وجدت بقية أسرة العنبر خالية أيضا، لم تجرؤ على الخروج من الباب، توقفت بجانب النافذة، تفتتت كتلة الظلام، وبدأت خيوط رمادية تبزغ من وراء النهر، كان الشارع خاليا، ولكن الذئب كان موجودا، يقف أسفل النافذة مباشرة، يحدق فيها بعينين لامعتين، فمه مفتوح ولسانه متدل، وارتدت عائشة مفزوعة، هاهو ذا يتابعها من جديد، ويقف مباشرة أمام نافذتها، عادت للسرير ووضعت الغطاء حول جسدها، برد ووحدة وخوف، ماذا لو أن «مرجريت» لم تغفر لها كذبتها وتخلت عنها؟! ماذا لو اقتحم الذئب النافذة وجاء إليها؟ أحست بيد توضع على كتفها، نهضت مذعورة، فوجئت بمرجريت وهي جالسة على حافة الفراش، وجهها محمر وعيناها تشعان ببريق أخاذ، كانت واحدة أخرى غير التي نامت بجانبها في أول الليل، قالت مرجريت:

ـ لقد بررت بوعدي وأسلمته جسدي وروحي...!

شهقت عائشة، فطنت فجأة إلى مافعلته على الرغم من أنها لم تتصوره، ولكن «مرجريت»، أسرعت ووضعت يدها على فمها، كانت أصابعها باردة ودافئة، واصلت القول:

ـ كان هذا وعدي من البداية، ألا أعطي جسدي إلا لسيدنا ومخلصنا، وقد فعلت ذلك، أعطيته لمسيحي الخاص، مخلصي...

أزاحت عائشة يدها وهي تقول من بين أسنانها:

ـ كيف جرؤ على أن يلمسك؟!

ـ كان عليه فعل ذلك، أنا التي ألححت عليه وسعيت إلى فراشه، كانت هذه هي المرة الأولى لنا، لم أعرف رجلا قبله ولم يقترب هو من امرأة، كنا بريئين كما يجب أن يكون الأمر، وفعلنا ذلك دون إحساس بالخطيئة أو الدنس، كما يجب أن يكون الأمر، بدا كأننا نسبح وسط نهر لا يكف عن التدفق، أو نرقص رقصة لا تنتهي، أدركت لحظتها أن الأمر لا يمكن أن يكون خاطئا، كما يجب أن يكون الأمر.

اندست بجانبها في الفراش، كان جسدها دافئا وقد عرف الشبع أخيرا، وضعت يدها تحت رأسها وغمغمت في صوت ناعس:

ـ لقد حدث ما حدث، ولست نادمة على شيء....

* * *

.... واحدة من عاملات النظافة هي التي نبهت «عائشة» لما يحدث، كن كثيرات يملأن أرجاء المدرسة، ينظفنها ويجهزنها لاستقبال العام الجديد، جاءت لعائشة وهي منهمكة في القراءة وقالت:

ـ الشرطة تحاصر المدرسة.

نهضت عائشة، حاولت أن تعدو لترى ماذا يحدث، ولكن الماء المختلط بالصابون كان يغمر أرض العنبر ويجعلها زلقة، صعدت فوق أحد الأسرة وأخذت تتقافز من واحد لآخر، عند الباب وجدت بقية العاملات متجمعات يتحدثن في همس وخوف، فوجئت بالأم الرئيسة وهي تقف في الطرقة الخارجية، تراقب ما يدور في الفناء

السفلي، كانت تخفي يدها في أكمامها المتسعة وعلى وجهها نظرة حازمة، عادت من رحلتها الطويلة، وبدا وجهها أكثر صرامة، وكان الأب جورج واقفا بجانبها، ترددت عائشة وأوشكت أن تعود للداخل، ولكن الضجة المنبعثة من الأسفل دفعتها للتقدم.

كان رجال الشرطة يتدفقون داخلين من البوابة الخارجية للمدرسة، يتجهون مباشرة إلى الغرفة الصغيرة التي يقيم فيها رزق، وهم يحملون العصي والسلاسل، كان عددهم أكبر من أن تستطيع الغرفة استيعابهم، تعالت من الداخل أصوات الصياح والضرب، وارتجف قلب «عائشة» حين سمع صوت رزق وهو يصرخ مستنجدا، خرجوا جميعا وهم يسحبونه على الأرض والدم يغطي وجهه، كان ما يزال يقاومهم، ولكن العساكر أحاطت به وأخذت تنهال عليه ضربا من كل جانب، حاولوا سحبه نحو بوابة المدرسة، نظر إلى أعلى محاولا أن يستنجد بأي أحد، لم يجد غير وجه الأم الرئيسة المتجهم، تقدم ضابط شاب كان يركب حصانا، أشار للعسكر أن يضيقوا عليه الخناق حتى يكف عن الحركة والمقاومة، زادوا من إطباقهم عليه، أمسك بعضهم بذراعيه وحاولوا وضع حلقة معدنية حول عنقه، أخذ رزق يزوم ويصرخ، كان حافي القدمين، لايغطي جسده إلا صديري ممزق، وسروال متسخ، بكت عائشة في صوت خافت، والتفتت إليها الأم الرئيسة وحدجتها بنظرة قاسية، تواصلت المعركة في الأسفل دون أن تظهر مرجريت، أين ذهبت؟! هل حبستها الأم الرئيسة في القبو؟ كيف اكتشفت الأمر سريعا هكذا؟ لم يتحمل رزق المزيد من الضربات، سقط على الأرض، قيدوا معصميه بالحبال، ثم أشار لهم الضابط فربطوا الحبال في سرج جواده، شد الضابط اللجام وهمز

الحصان لينطلق، انسحق وجه رزق بين التراب والحصى، وعندما أسرع الحصان أخذ رأس رزق يرتطم بأحجار الطريق، حتى اختفى الحصان عن الأبصار.

تكومت «عائشة» على الأرض، وهي تحدق في التراب المتصاعد عاجزة عن الكلام، استدارت الأم الرئيسة وألقت على عائشة نظرة طويلة صامتة ثم خطت متصرفة، وظل باب غرفة رزق مهشما، وآثار دمه على الأرض، وسحقت الأقدام كل الزرع الذي كان يرعاه.

في الليل تحولت المدرسة إلى مقبرة صامتة، ظهر قمر صغير في السماء لم يستطع ضوءه أن يبدد الظلمة، نهضت عائشة، انزلقت من سريرها، غادرت العنبر وهبطت إلى الفناء، ثم إلى الدرج المؤدي إلى القبو، دقت على الباب وهي تهتف:

- افتحي يا أخت مرجريت، أنا ماري، أنا في حاجة للحديث معك.

لم تسمع صوتا من الداخل، وخافت أن تصيح أكثر فيستيقظ من في الأعلى، جلست فوق الدرج وبرد الليل يدخل في جسدها، هل هي نائمة؟ هل حدث لها شيء؟ هل شاهدت ماذا حدث؟ كانت تشعر بيأس، وبإحساس الذنب لأنها كانت طرفا في كل ما حدث؟ ولكن كل شيء كان يبدو قدريا ولا مفر منه!

سمعت صوت الباب وهو يصدر صريرا، رفعت رأسها فوجدت مرجريت وهي تقف أمامها، ترتدي ثوبا أبيض رقيقا لا يكاد يقيها برد الليل، كانت بالغة الشحوب، كأنها مجرد طيف، نهضت عائشة

واحتضنتها، كان جسدها نحيفا وباردا ومرتجفا، جلست بجانبها على الدرج الحجري، وهمست وهي تحاول أن تكتم دموعها:

ـ هل أخذه الرومان؟!

كانت عيناها الواسعتان تبرقان بشدة رغم عتمة الليل، قالت «عائشة»:

ـ أخذه العسكر، مجموعة كبيرة منهم، وضابط كان يمتطي جواده.

ـ هل وضعوا الصليب على ظهره، وجعلوه يصعد إلى التل؟! هل قتلوه من أجلي حتى تكتمل الدورة؟!

تأملت عائشة وجهها في خوف، كانت تتحدث بصوت أجوف، كأنه يأتي من عالم آخر، وتبدو في عينيها نظرة غائمة وغير محددة، شعرت عائشة بالغضب لأنها اختارت هذا الوقت للانسحاب من العالم، هتفت بها:

ـ أفيقي يامرجريت، نحن لسنا في زمن المسيح، نحن نتحدث عن رزق، لقد جاء العسكر وضربوه بقسوة بالغة، لماذا لم تتدخلي؟! لماذا لم تحاولي منعهم؟..

أوشكت أن تبكي وهي تقول:

ـ لم أكن أستطيع، كنت راقدة وعاجزة عن الحركة، كل ما يحدث كان يدور في عالم آخر، لقد نفذت الأم الرئيسة تهديداتها رغما عن كل توسلاتي.

ـ كيف عرفت؟

ـ رأتني في منتصف الليل وأنا خارجة من غرفته، وفي هذا الصباح أخذتني إلى الطبيب، وعرفت أنني حامل..!

ـ ماذا؟!

ـ إنه طفل مقدس ياعائشة، ليس عارا ولا فضيحة كما تقول هي، كل ما كانت تريده هو الانتقام مني، لم تدر أنني المجدلية، وأن دورة الصلب تعود من جديد!

صعدت إلى الفناء، طافت حول البئر، سارت إلى غرفته المحطمة، مررت يدها على فراشه الخشن، كانت رائحته ما زالت موجودة، تنشقتها وملأت صدرها منها، انحنت على الأرض، وأخذت حفنة من التراب الموجود عليه آثار دمه، نثرت الذرات على رأسها ووجهها، راقبتها عائشة بعيون مشدوهة، نظرت إليها وهي تقول:

ـ هيا معي، دعينا نغادر هذا المكان الملعون...!!

سارت إلى البوابة الحديدية، شدت السلسلة المعدنية التي تغلقها فانهارت بين أصابعها، فتحتها من دون أن تصدر صوتا، بدا كأن هناك قدرات خارقة تسهل لها كل شيء، تطاير رداؤها الأبيض وكشف عن ساقيها الشاحبتين، وتناثر شعرها مع الريح، سارتا في شوارع خالية من البشر، ومن الوحل والقاذورات، تقافزت «مرجريت» بسرعة متجهة نحو النهر، كانت مياهه صامتة وساجية، لا يضيئه سوى ضوء القمر الصغير، وكانت أشجار الصفصاف وحدها هي التي تصدر صوتا كلما تخللتها الريح، وعلى الجانب الآخر بدت حافة الجبل

مثل ظل أسود متعرج الحافة، انحدرت مرجريت على الضفة غير مبالية بالأشواك والأحجار، صرخت عائشة:

ـ احذري، سوف تغرقين!

توقفت وأدارت لها وجهها وهي تقول:

ـ لقد غرقت قبل ذلك، أتذكرين؟

دارت حول نفسها، جثت على الأرض وغرست ركبتيها في الطين، أخذت تهتز باكية، واقتربت منها عائشة ووضعت يدها على صدرها، قالت لها:

ـ اهدئي يامرجريت، دعينا نعود للمدرسة، يكفي ماحدث.

ـ ماحدث كان فقط البداية: منذ الأمس وأنا أنزف، نزفت كل قطرة دم كانت في جسدي، كنت أعرف أنهم يصلبونه في الخارج، ومع ذلك ظللت عاجزة عن الخروج إليه ومساندته، لقد جف جسدي تماما، فقدت آخر أثر من الحياة التي تركها في داخلي، آخر ذكريات مسيحي الخاص.

نهضت وخلعت ثوبها، شهقت عائشة وهي ترى جسدها العاري، وقبل أن تتحرك من مكانها، كانت مرجريت قد خاضت في مياه النهر، كان الطين الملاصق للشاطئ رخوا لأن الجسد الناصع غاص فجأة وسط لجج المياه السوداء، صرخت عائشة: «أين أنت يامرجريت»؟! ثم ألقت بنفسها خلفها، أحاط بها الماء واخترقت برودته عظامها، تلفتت حولها فلم تجد لها أي أثر، صرخت تناديها مرة أخرى وهي تضرب الماء في يأس، غاصت تحت الماء وهي مفتوحة العينين،

لمحت شبحا شديد البياض، يهوي مستسلما لحركة الموج، ظلت تضرب الماء حتى أمسكت بشعرها، جذبتها ودفعت جسدها لأعلى، هتفت بها: تشبثي بي، سوف أخرجك من هنا، شهقت مرجريت: لا أريد، وحاولت الإفلات منها، أمسكت عائشة شعرها في قسوة ورفعت وجهها المتألم فوق الماء، كانت خفيفة، كأن جسدها قد أصبح فارغا ومجوفا، وشهقت عائشة ودفعتها، غاصتا معا في الطين، بدت «مرجريت» أضعف من أن تحاول المقاومة، جذبتها «عائشة» من رأسها حتى أصبح وجهها خارج الماء، ثم أخذت تبكي، توسلت لها: أرجوك يا مرجريت لا تدعيني أجذبك من شعرك أكثر من هذا، عديني أنك لن تذهبي إلى الماء مرة أخرى، كان جسدها الأبيض العاري نصفه ظاهر، ونصفه الآخر مدفون في الطين، كانت قد جربت الموت غرقا للمرة الثانية، قالت لها فجأة وهي تأخذ أنفاسها في صعوبة: ما اسمك الآخر، اسمك المسلم؟ قالت: «عائشة» قالت لها : بحق إلهك يا عائشة، دعيني أرتاح وسط هذا النهر البارد، هذا هو مثواي، بكت عائشة ويدها قابضة على جدائل شعرها وهي تقول : لا تفعلي بي هذا.

ظلتا هكذا، نصف جسديهما في الماء البارد، والنصف الآخر تحت برودة الليل، وكان الظلام كثيفا، وموجات النهر تصدر صوتا غاضبا، سكتا سويا، وخمد جسد مرجريت، كانت الروح تنساب منها من دون أن يستطيع أحد منعها.

ومن بعيد سمعت عائشة صوت طنين خافت، صوتا متصلا ظل يعلو مقتربا منهما، واحدة من السيارات التي من النادر أن توجد في أسيوط، وأن تسير على طريق النهر في هذا الوقت من الليل، كانت

عائشة في حاجة لأي عابر سبيل يساعدهما، فكرت أن تسرع إلى منتصف الطريق وتشير إليها حتى تتوقف، ولكنها ظلت قابضة على جدائل مرجريت، لا تريد أن تفلتها، وإلا انزلقت منها إلى النهر في ثوان قليلة، صرخت طالبة النجدة وهي على وشك التجمد من شدة البرد والبلل، وهتفت مرجريت بصوت واهن:

ـ لا أريد لأحد أن يراني عارية هكذا..

فات الأوان، سمعت عائشة صوت السيارة تتوقف فجأة، وصوت عجلاتها يحتك بالحصى والتراب، ثم صوت خطوات قادمة نحوها، صاحت مرة أخرى، التفتت فوجدت الأب جورج واقفا وهو يتنهد في ارتياح:

ـ حمدا للرب، إنهما هنا (ثم صاح بصوت عال) إنهما هنا.

وفي الحال جاء ثلاثة من الرجال الآخرين، لم تكن الأم الرئيسة من بينهم، ثلاثة من الخواجات، طوال القامة إلى حد واضح، يلبسون ثيابا رسمية، اتجهوا نحوهما بسرعة، شاهدوا جسد مرجريت المنغرس في الطين، التفتوا للأب جورج قال أحدهم:

ـ هل هي الفتاة العارية؟

أومأ الأب وهو يدير وجهه للناحية الأخرى، عاد يسأل وهو يشير إلى «عائشة»:

ـ ومن هذه؟

قال الأب جورج: مجرد طالبة في المدرسة.

لم يأبه بها أحد، خلع أحدهم معطفه، وتقدم الاثنان الآخران، خلصا جدائل شعر «مرجريت» من يدها المتشنجة، وسحبا الجسد من الطين، تراجعت «عائشة» وتكومت حول نفسها، وضع الأول معطفه على الجسد العاري ثم تحسس رقبتها، وقال للآخرين:

ـ إنها مازالت حية.

ضم المعطف حول الجسد العاري ليبعث فيه الدفء ثم قال لها:

ـ أخت مرجريت، نحن من السفارة الأمريكية، وقد جئنا لأخذك.

لم ترد عليهم، حملها أحدهم بسهولة بين ذراعيه، تهدل شعرها المبتل، وتراخى جسدها وهي مغمضة العينين، ولوحت عائشة بيدها لها، حملوها للسيارة التي كانت واقفة في أعلى النهر، وبعد برهة سمعت عائشة صوت ماكينتها وهو يدور مبتعدا، ثم ساد الصمت، لم يبق إلا البرد والبلل، لم يرها أحد، لم يأبه بها أحد، ولكنها كانت سعيدة لأن «مرجريت» ما زالت حية، وأن هناك من تدخل لإنقاذها! ولكن من يمكن أن يتدخل لإنقاذ رزق؟! وهل ما زال على قيد الحياة؟

نهضت وهي ترتعد، ضمت ذراعيها حول صدرها وسارت مترنحة في الطرقات، كانت الشوارع ما زالت خالية، والكلاب تنبح من بعيد، والسماء شديدة الظلمة، حتى القمر الصغير اختفى، بدت المدرسة مظلمة، خالية من الحياة، ولكن البوابة الحديدية كانت مفتوحة، على نفس حالتها عندما تركتها، خطت إلى الداخل، فوجئت بالأم

الرئيسة واقفة في منتصف الفناء، تتطلع نحوها في صرامة، توقفت «عائشة» وهي ترتجف.. كانت تريد أن تقول كل شيء، كل أسرارها وأسرار مرجريت، كل مايثقل على جسدها النحيل وعمرها الغض، كان كل شيء حولها قد تعقد أكثر مما ينبغي، ولم تعد تستطيع أن تمضي قدما دون أن تفرغ ما في أعماقها، ولكنها سمعت صوت الأم الرئيسة وهي تقول في لهجة باردة:

- لم يعد لك مكان في هذه المدرسة.

شهقت عائشة، ارتعدت وهي تقول:

- سأقول لك كل شيء أيتها الأم الرئيسة.

قالت لها بنفس البرود:

- لو تحدثت من هنا إلى الصباح فلن يغير ذلك من الأمر شيئا.

قالت عائشة متوسلة:

- ليس لي مكان ألجأ إليه، ولا ذنب لي في كل ماحدث، أستطيع أن...

- لا أريد أن أسمع، سأظل واقفة هنا حتى تجمعي أشياءك وتمضي بعيدا، لا أريدك هنا بعد الآن.

لم يكن هناك طائل من الكلام، صعدت عائشة فوق السلم، أنارت ضوء العنبر، الأسرة خالية وشديدة البياض، وعلى الجدران كلمات وقلوب وأسهم مرسومة فشلت مواد التنظيف في إزالتها، رائحة العنبر مليئة بالوحشة والخواء، كان سريرها هو الوحيد غير المرتب،

الوحيد الذي يحمل أثر الحياة، فتحت خزانة ملابسها، كانت قليلة، بضع ثياب داخلية تخص المدرسة والجلباب الأسود الذي جاءت به من نجع «بني خلف»، خلعت ثيابها المبللة وتركتها على الأرض، تناولت الجلباب القديم وأسدلته على جسدها، كان وحده الكفيل بأن يدفئها ويحفظ جسدها، نظرت للثياب المبللة على الأرض، وللجاكتة الموجودة في الخزانة، لم يعد هناك أي شيء يخصها، عادت إلى نقطة الصفر على الرغم من أنفها.

عندما هبطت كان الفناء خاليا، و البوابة مفتوحة في انتظار خروجها، والشوارع صامتة، حتى الكلاب كفت عن النباح، المحلات مغلقة، وعلى زوايا الأزقة ينام بعض الأطفال المتشردين، وينام بعض الباعة الجوالة على عرباتهم، لم يكن أمامها إلا الذهاب إلى محطة سكة الحديد، كانت مظلمة أيضا، عدة مظلات خشبية منصّبة وسط عراء قاحل، تكومت فوق أحد المقاعد الخشبية، وأحاطت يدها حول ركبتيها، شاهدت الذئب وهو يحوم حولها من بعيد، وظلت هي جالسة تنتظر قدوم الصباح حتى يأتي معه أول قطار.. إلى أين تذهب؟!

المنيا

- لا يمكن أن تظلي طوال الوقت مختبئة في غرفتي يا ماري.. ماذا ستقول أمي.. ويقول أبي..؟ يجب أن تخرجي وتتعرفي عليهما..

هل كانت تطردها؟ هل ضاقت بوجودها؟ كانت «عائشة» جالسة في ركن الغرفة، بنفس ثوبها الفلاحي القديم، لا تدري كيف تتصرف، ركبت القطار وجاءت إلى هنا قبل أن تفكر جيدا، وحين وجدت نفسها وسط القصر أحست أنها أخطأت، كان يجب أن تعود لتجيء «بنتي خلف» وليحدث هناك ما يحدث، قامت بمخاطرة يائسة عندما جاءت إلى هذا القصر القائم على النيل والمختفي وسط أشجار السنط والنخيل الملكي، رفض الخدم أن يتركوها تتخطى عتبة القصر، نظروا إلى ثوبها المترب وشكلها الأشعث وحسبوها واحدة من الشحاذين، توسلت إليهم، لم ينقذها منهم إلا «مينا»، أخو إيزيس، كان قد رآها أكثر من مرة وهو يوصل أخته للمدرسة، هو الذي سمح لها بالدخول رغم نظرة الاستغراب في عينيه، وشهقة «إيزيس» من الدهشة، ظلت تحدق فيها، عاجزة عن التعرف عليها، ثم أسرعت وأخذتها إلى غرفتها، لا تريد أن يراها أحد وهي بهذه الحالة، اجتازت «عائشة»

القصر وهي مبهورة، رخام ناصع البياض، وسجاد زاهي الألوان، وثريات من البلور تتدلى من الأسقف العالية، وصور بإطارات ذهبية ثقيلة يطل منها رجال متجهمون بشوارب مبرومة، شعرت بأنه لا حق لها في الدخول لهذا المكان، ظلت حبيسة في الغرفة، مرت عليها عدة أيام وهي عاجزة عن اتخاذ قرارها، كانت تريد أن تخرج، تواصل الرحيل إلى أي مكان، ولكن «إيزيس» تمسكت بها، رفضت أن تتركها ترحل، قصت عليها «عائشة» باختصار ما دار في المدرسة، شاهدت دموعها وهي تبكي من أجل مصير «مرجريت»، ولكنها لم ترض أن تتركها تمضي دون أن تعرض الأمر على والدها وتطلب منه المساعدة، ولكن «عائشة» ظلت حبيسة الغرفة، لا تجرؤ على الخروج ومواجهة الآخرين، قالت في صوت مرتعد:

- أرجوك يا إيزيس، لا أريد شيئا، دعيني كما أنا، أيام قليلة وأعود إلى بلدتي.

- لن تذهبي إلى أي مكان، كما أنك لن تحضري الحفل وأنت بهذا الثوب.

- أي حفل؟

- الحفل الذي سيقيمه أبي الليلة، سترين كل أعيان البلد، ولكن للأسف، معظمهم عجائز، والشبان نادرون كما هي العادة دائما..

نظرت «عائشة» إليها وهي تتقافز بسعادة وسط الغرفة، كأنها تنتمي إلى عالم آخر، توسلت إليها:

- أرجوك يا «إيزيس»، أنا لم أحضر حفلة في حياتي، وسوف

أتلف كل شيء كما هي عادتي، أنا لم آت إلى هنا إلا من أجل مأوى مؤقت، لو أردت أن أذهب الآن فسوف أفعل..

قالت إيزيس في حزم:

ـ إذا كنت في منزل وصفي باشا فيجب أن تفعلي كما يفعل أهل وصفي باشا..

ـ ليس لدي ما أرتديه.

أسرعت «إيزيس» وفتحت أمامها صوانا مليئا بالثياب، طوال عمرها لم تشهد «عائشة» ثيابا بذلك القدر ولا هذا الجمال، توقفت مبهورة من دون أن تجرؤ على الحركة، قالت «إيزيس»:

ـ ثيابي كلها لك يا ماري، اختاري منها ماشئت.

ـ أرجوك.. لا أستطيع..

ـ لن يساعدك أبي الباشا في أي شيء ما لم تظهري أمامه في أبهى صورة وتثيري إعجابه.

دخل الغرفة صف من الخدم، بنات صغيرات في لون الأبنوس، انتظرن إشارة من «إيزيس»، ثم هجمن على «عائشة»، قدنها إلى الحمام وخلعن عنها كل الملابس القديمة وألقين بها في سلة القمامة، صببن عليها أباريق لا نهاية لها من الماء الساخن، دعكن جسدها بالصابون والزيوت المعطرة، لففنها في ملاءات سميكة من القطن، وضحكت إيزيس وهي تراها تتخبط بين أيديهن كعصفور مبتل، ظلت تواصل الاعتراض ولكنها أحنت رأسها أمام مصففة الشعر التي جاءت خصيصا من أجل تزيين نساء القصر، قصت أطراف شعرها

وأبدت امتعاضها من أن هذا الشعر الجميل لم يتم الاعتناء به من قبل، وضعت خليطا من الحناء والزيوت المعطرة ولفت رأسها في إحكام وأمرتها أن تبقى هكذا حتى المساء، قلمت أظافرها وصبغتها، ونثرت البودرة على وجهها والطلاء على شفتيها، تبدلت «عائشة» على الرغم منها، وطالعها في المرآة وجه غريب عليها لا صلة له «بعائشة» القديمة.

أخرجت إيزيس حزمة من الفساتين من داخل صوانها، فردتها على السرير، تألقت أقمشة الحرير والشيفون وشرائط الدانتيلا، قلبتها أمامها ووضعتها تحت أنفها، كان يفوح منها عطر إيزيس الذي لا يبدو أنها لا تغيره، أمسكت عائشة أحدها وهي مبهورة، كان بلا أكمام، واسع الصدر، تخيلت نفسها فيه، أذرع ملساء ونحر عار، قالت في خجل:

ـ سأشعر بالخجل لو ارتديت مثل هذه الثياب.

ـ هذه فساتين خاصة بالحفلات، داخل البيوت والصالونات، لن يراك أحد من هؤلاء الفلاحين في الخارج، لن يراك سوى أولاد الذوات وقد اعتادوا على ذلك.

ـ لا أستطيع.

ـ لا تكوني معقدة، ما فائدة تعليمك في تلك المدرسة اللعينة إذن؟

شعرت بخجل طاغ وهي ترى رقبتها العارية، وظهر منبت ثدييها وهي تقف أمام المرآة، أمسكت بذيل الفستان وهي توشك أن تخلعه، ولكن إيزيس هتفت بها:

- أيتها المجنونة، لقد أصبح هذا الفستان لك، لن ألبسه بعد الآن.

دخلت سيدة إلى الغرفة، لأول وهلة أحست عائشة أنها ترى صورة من إحدى المجلات الأمريكية اللامعة التي كانت في المدرسة، وقد دبت فيها الحياة، امرأة طويلة القامة، ترتدي ثوبا بسيطا منسدلا على جسمها، شعرها متموج وملتصق برأسها من الأمام ومعقوص إلى الخلف، تمسك مبسما طويلا في نهايته سيجارة مشتعلة، استندت إلى باب الغرفة وهي تقول في نبرات متكاسلة :

- أوه.. يا بنات.. لماذا تثرن هذه الضجة ؟

اعتدلت «إيزيس» وهي تقول : هذه ماري ياماما، صديقتي في المدرسة.

نظرت إلى «عائشة» وعلى وجهها ابتسامة باهتة، لم ترحب بها، ولم يبد على وجهها علامات النفور، رسمت على صدرها علامة الصليب كأنها تستعيذ من المخاوف الموجودة داخلها، قالت:

- تبدين جميلة في هذا الثوب.

وحمدت «عائشة» ربها لأنها لم ترها بثوبها الريفي المتسخ، أحنت رأسها في خجل، ولكن السيدة كانت قد استدارت منصرفة وهي تقول:

- حاولا ألاّ تتأخرا عن الحفلة، وألا تفسداها..

انصرفت بنفس الخطوات الواهنة، وظلت عائشة تتأملها مبهورة

على الرغم من أنها لم تكن تدري إن كانت كلماتها تعبيرا عن الاعتراض أو التحذير، ولكن إيزيس التفتت إليها بوجه باسم:

- إيفلين هانم.. طبق الأصل..

أضيئت كل مصابيح الثريا المعلقة، وشع البلّور بكل ألوان الطيف، عرفت «عائشة» أن في قبو القصر ماكينة خاصة لتوليد الكهرباء جلبها الباشا خصيصا من إنجلترا، وهي تعمل في هذه الليلة الخاصة بكل طاقتها، حتى تدفع ظلمة الليل العميقة التي تنام على القرية والجبل والنهر، أوقدت أيضا عشرات المشاعل التي كانت تتوهج مع الريح، تكون منها صفان على مدخل القصر من ناحية الطريق الزراعي، وصفان آخران حول الدرج الهابط من القصر إلى مرسى النهر.

في بداية الليل بدأ الضيوف في التوافد على القصر، وقفت عائشة بجوار إيزيس بجوار نافذة غرفتها وهما تراقبان العربات التي تجرها الخيول، فاحت روائح «اللافندر» ومساحيق التجميل وريش النعام، كانت النساء جميلات، يسرن بنفس طريقة إيفلين هانم، ولابد أنهن يتحدثن مثلها، والرجال يبدون معتدين بأنفسهم، خليط من المصريين والأجانب والضباط الإنجليز، والخدم لا يكفون عن العدو والانحناء أمام كل ضيف، هبط سائقو العربات ووضعوا مقاطف العلف أمام الأحصنة، حضرت سيارة قديمة، ترتفع فوق عجلات أربع تبدو كأنها على وشك الانفصال عنها، توقفت أمام الباب وهبط من المقعد الخلفي عدة رجال يحملون الآلات الموسيقية، وهبط من الباب الأمامي رجل أكبر سنا، طويل وبالغ النحافة، طربوشه زاهي اللون بدرجة واضحة، تقدم «مينا» أخو إيزيس في سرعة يستقبله ويعينه

على صعود درج القصر، سار خلفهما غلام صغير الحجم رغم طوله، يرتدي حلة تشبه تماما حلة الرجل العجوز، كأنها قطعة منها، قالت إيزيس في حماسة:

- لقد حضر مطرب الحفل، سي عبد الحي وفرقته، إنه مطرب الملوك والسلاطين. وهذا الغلام الذي يسير خلفه هو ابنه صالح.. يقولون إن صوته جميل هو أيضا كأبيه..

ولكن عائشة كانت مشغولة بتتبع سامح، لم تستطع أن تمنع نفسها من القول بصوت مسموع:

- أخوك «مينا».. كم يبدو الليلة أنيقا ووسيما!

قالت إيزيس بلامبالاة:

- هو لك بأكمله، ولكن اتركي لي بقية شبان الحفل!

فصل الخدم المطرب عن فرقته، دخل هو وولده مع «مينا» من الباب الأمامي، بينما قاد الخدم بقية الفرقة إلى باب جانبي، قالت إيزيس:

- سيقدمون الطعام للفرقة أولا، أما الأستاذ فسوف يجلس على المائدة مع بقية الضيوف، آه.. لقد حان موعد هبوطنا.

جاءت اللحظة التي كانت عائشة تخشاها، توسلت كثيرا لإيزيس حتى تتركها ولكن الأخيرة أصرت في عناد طفولي على أن تصطحبها معها، هبطتا معا على أولى درجات السلم إلى القاعة الممتلئة بالناس، أحست أنها على وشك التعثر، أمسكت بحاجز الدرج وحاولت

الاختباء خلف إيزيس، كانت إيفلين هانم هي أول من لاحظ ظهورهما، تمتمت من بين أسنانها:

- لا أدري لماذا أصرت إيزيس على اصطحاب هذه البنت الفلاحة معها؟!

ولكن «مينا» حدق في عائشة مبهورا، لم يصدق أنها يمكن أن تتبدل بهذه الصورة، كانت أشبه بأميرة قبطية قديمة، تماما مثل التي كان يرى صورهن في أديرة الفيوم، عينان مفتوحتان باتساع، وأنف مرتفع، وتعبير مترقب على الوجه، سار نحو السلم، وابتسمت له إيزيس ابتسامة صغيرة وقد حسبت أنه قادم من أجلها، ولكنه قام بحركة مرعبة، أمسك بيد عائشة وجذبها وهو يقول:

- تعالي.. وصافحي الباشا..

انساقت خلفه محاولة أن تحافظ على توازنها، سار بها إلى جمع من الرجال يتحدثون ضاحكين، يقف وسطهم رجل يشبه «مينا» تمام الشبه، لولا شعره الأشيب وشاربه المبروم، قال:

- يا أبي، هذه ماري صديقة إيزيس وزميلتها في المدرسة.

التفت الباشا نحوها وتأملها وعلى وجهه ابتسامة صغيرة، قال لها:

- نورت حفلتنا يا بنتي.

أقبلت إيزيس وقبلت أباها، ثم سحبت «عائشة» بلباقة وقادتها إلى حيث تجلس النساء، وكانت إيفلين هانم تنفث من الغيظ، جلست إيزيس بجانبها كأنها تحتمي بها، وجلست عائشة على

المقعد الأخير في الطرف، استمعت إلى أحاديث النساء، يتحدثن بالإنجليزية والفرنسية، أما العربية فقد كانت مجرد جمل عارضة من باب التفكه، تحدثن عن القاهرة والخديو عباس والحفلات المستمرة التي تعيشها القاهرة بعد أن تكاثر فيها الأوربيون، ولاحظت بغبطة أن «مينا» لا يكف عن النظر إليها، ولكن الباشا كان يبدو قلقا، لا يكف عن السير كل فترة من الزمن يحدق من خلال الشرفة المفتوحة على النيل ثم يعود لضيوفه، وفي صدر القاعة أخذت الفرقة الموسيقية مكانها وبدأت في ضبط أوتار آلاتها، بينما كان المطرب جالسا على أحد المقاعد، يشرب كوبا من «الينسون» القاتم الصفرة.

تعالت الأصوات فجأة، هرع الباشا وعدد كبير من الضيوف إلى الشرفة، ومدت عائشة رقبتها، لمحت «الذهبية» المضيئة وهي تتهادى على صفحة النيل، نهضت إيزيس وجذبتها من يدها، سارت معها إلى جانب آخر بعيدا عن الزحام، أشار الباشا للهانم فنهضت وأمسكت بيده وأمسكت بالأخرى ذيل ثوبها وغادرا القاعة بسرعة، هبطا على الدرج المؤدي للنيل، تبعهما عدد كبير من الضيوف والضباط الإنجليز، وقالت إيزيس في حماسة:

- إنه ضيف شرف حفل الليلة «اللورد كرومر».

حدقت فيها عائشة متسائلة، واصلت إيزيس وهي تهمس لها:

- إنه المندوب السامي البريطاني، الحاكم الحقيقي، سلطان فوق السلطان نفسه، في كل عام يذهب في الشتاء إلى الأقصر هو وزوجته الثانية «الليدي كاترين»، ولا بد له من أن يمر علينا، يعتز أبي بصداقته كثيرا.

كانت هناك طقوس لعالم آخر تدور أمامها، حمل الخدم المشاعل وساروا حتى المرسى الموجود على الشاطئ، تكومت السيدات في جانب والرجال في الآخر، تركزت الأنظار على «الذهبية» وهي تلقي مراسيها على الشاطئ، دفع الملاحون الألواح الخشبية ليقيموا جسرا بين السفينة والأرض، وكتمت عائشة أنفاسها وهي تشاهد اللورد وهو يظهر من باب الذهبية وبجانبه سيدة طويلة تلبس معطفا من الفراء وقبعة كبيرة تخفي وجهها، أحدث ظهورهما موجة من الحماسة بين جميع الواقفين على الشاطئ، صفق البعض في حماسة، ورفع الضباط الإنجليز كؤوسهم وهم يصيحون، وتقدم الرجل العجوز الطويل القامة في ثقة واعتداد، ظل يسير والتصفيق يلاحقه حتى حل على الأرض أخيرا، صافحه الباشا وناولته الليدي يدها فقبلها، أحنت الهانم رأسها وثنت ركبتيها، وأفسحا الطريق حتى يتقدم اللورد صاعدا الدرج في المقدمة هو وزوجته، وخلفهما الجميع.

عاد الزحام إلى القاعة مرة أخرى، لم يصافح اللورد الجميع، القليل منهم فقط جرؤ على التقدم ونال الحظوة بشرف مصافحته، كان اللورد يختار بنفسه من يصافحه ومن يتجاهله، وقف في وسط القاعة تحت الثريا الضخمة وهو يتأمل الجميع في برود، ينظر إليهم من عالم آخر، جلس في صدر المجلس أخيرا واستطاعت عائشة أن ترى وجهه المستطيل، وشاربه الكث، وخصلات شعره الفضية، والنياشين الموجودة على صدره، وكانت الليدي كاترين قد خلعت معطفها وبدا فستانها الأسود لامعا، ولون وجهها شديد الشحوب، كانت متأففة لحد كبير، منزعجة من كل الروائح التي تحيط بها، حتى إنها كانت تمسك بأنفها طوال الوقت، جلست بجوار إيفلين هانم

التي تضاءلت إلى حد واضح، ابتعدت عائشة عنهم جميعا، وَدّت لو تجد طريقة لتصعد الدرج وتختفي في غرفتها، ظلت منكمشة في أحد الأركان، ترى الجميع وتتمنى ألا يراها أحد.

في ركن القاعة نهض «سي عبد الحي» بعد أن انتهى من كوب «اليانسون» وجلس في مقدمة الفرقة الموسيقية، جلس العازفون خلفه وهم مشدودون، يراقبون هذا الجمع من البشوات والأجانب في خوف، وعندما كف اللورد عن الكلام مع من حوله، أسرع الأب فأشار لهم، أخذ المطرب يتجشأ كأنه يطرد من حلقه غبار الطريق، وبدأت الفرقة تدوزن أوتارها، ثم رفع لهم أصبعه إلى أعلى فبدءوا العزف، وكلما انتهوا من مقطوعة أشار لهم فعادوا يعزفونها من جديد، يعطي لنفسه الفرصة حتى يتمالك إهاب صوته، ثم انطلق صوته مدويا فجأة شاكيا من الهجر ومن طول السهر، كان صوته متحشرجا في البداية، ثم أخذ ينجلي شيئا فشيئا، كأنه يستمد أنفاسه من أغوار عميقة، واحمر وجه الجوقة ثم أخذ رجال الجوقة بمن فيهم الولد الصغير يرددون خلفه نفس المقطع.

نظرت «عائشة» إلى وجه اللورد فوجدت وجهه هو أيضا قد ازداد احمرارا، وضع يده في ياقة القميص كأنه يحاول أن يوسع من ربطة العنق التي تخنقه، وبدت نظرة فزع على وجه الليدي، تعلق بصرها بحنجرة المطرب التي أخذت تواصل الارتفاع، تمايل الضيوف من المصريين في طرب، ووقف الأجانب حائرين، ثم نهض اللورد فجأة واقفا وهو يصيح بالإنجليزية :

ـ أوه.. كفى.. هذا النواح لا يطاق...

صمت الجميع فجأة، أفاق المطرب فجأة من حالة السلطنة التي كان فيها وهتف متوسلا.. جناب اللورد.. وهرع الباشا نحو اللورد مفزوعا، وأوشكت إيفلين هانم أن يغشى عليها، وقال الباشا:

ـ ماذا حدث يا سيدي؟

قال اللورد وهو يشير ناحية المطرب وقد اربدّ وجهه:

ـ ليذهب فورا.. لم أعد أطيق هذا النواح الجنائزي، أليس لديكم غيره..؟

لم يفهم المطرب معظم ما قيل، ولكن وجهه كان شاحبا ومهانا، بدأت الفرقة الموسيقية في لم آلاتها الموسيقية قبل أن يوجه إليهم أحد أي أوامر، وظل المطرب واقفا جامدا، يختلج وجهه بمختلف الانفعالات كأنه على وشك البكاء، جاء الولد الصغير والتصق بساق أبيه، وأسرع الباشا، وضع يده على ذراعه وسحبه برفق، من فضلك تعال معي.. التقط «سي عبد الحي» أنفاسه بصعوبة ولكنه سار مع الباشا إلى خارج القاعة، تعثرت الفرقة الموسيقية في آلاتها وهي تحاول الانسحاب، وأصبح الولد على وشك البكاء، ظل اللورد واقفا منتصبا كأنه قائد منتصر يراقب فلول الأعداء، وقالت الليدي كاترين وهي تلتقط أنفاسها :

ـ يا إلهي.. لقد كان كابوسا.. كنت أوشك على الإغماء..

وتعالت ضحكات خافتة من الأجانب، مالبثت أن ارتفعت وتواصلت، وأفاقت إيفلين هانم ونظرت حولها في حيرة، وظل المصريون من الضيوف صامتين بعض الوقت ثم أخذوا يشاركونهم

في الضحك بصوت خافت مليء بالإحراج، وشعرت عائشة بحزن حقيقي من أجل المطرب، كان صوته الأجش قد هز أعماقها، ذكرها بعذابات مرجريت، بحثت ببصرها عن إيزيس، كانت بجوار أمها وهي تمسح على وجهها بمنديل صغير.

فوجئت عائشة بمن يسلط أنظاره على وجهها ولا يكاد يحول عينيه عنها، كان شابا إنجليزيا في نهاية العشرينيات من عمره، يملك وجها نحيفا وحزينا، وشاربا رقيقا بلون القش، أبعدت وجهها إلى اتجاه آخر، ولكنها كانت تدرك أنه ما زال يحدق فيها، عاد الباشا وهو محرج لا يدري ماذا يقول، ولكن اللورد وضع يده على كتفه في تواضع المنتصرين وهو يقول:

ـ لا بأس يا باشا، لقد أسأت اختيار المطرب ولكنك أحسنت اختيار ضيوفك.. سأقوم أنا بإحياء الليلة..

وسار في خطوات واسعة وواثقة نحو البيانو الأبنوسي الموجود في ركن القاعة، كانت إيزيس تتلقى عليه دروسها بمساعدة مدرس فرنسي، قال ضاحكا وهو يرفع الغطاء:

ـ من حسن حظي أنه نظيف، فالغبار يعوق مقدرتي على العزف..

ضحك الجميع في صوت أجش، أخذ يدق على أصابع البيانو، فعل ذلك في سرعة وانسيابية، امتلأت القاعة فجأة بالأنغام، أفاقت إيفلين هانم وزال الشحوب من على وجه الباشا، تبدد التوتر، همهم الأجانب في إعجاب بينما كبت المصريون حنقهم، لا بأس من هزيمة أخرى، أدارت عائشة عينيها في قلق، رغم براعة العزف فقد

أحست بالاختناق، سارت بجانب الحائط وهي تحاذر أن يراها أحد أو يسمع حفيف ثوبها، كان اللورد قد وصل إلى منطقة عالية من مناطق العزف، واستطاعت عائشة أن تدخل إلى الشرفة الواسعة بعيدا عنهم جميعا، ارتجفت وهي تحس بهواء الليل على وجهها وكتفيها، رأت المشاعل متوهجة تضيء الطريق الممتد من مدخل القصر، وخلفها ترقد كتلة الظلام في البلدة القريبة، تناهى إليها صوت البيانو مختلطا بنقيق الضفادع وجنادب الليل، التقطت نفسا عميقا، وفي الأسفل شاهدت الفرقة الموسيقية وهي تغادر باب القصر كان أفرادها منكسي الرءوس، اثنان منهم يسندان المطرب العجوز وهو يسير متثاقلا، يتوقفان عند كل خطوتين، ثم يعاودون السير برءوس منكسة، لم يجرؤ أحد على أن يرفع رأسه إلا الغلام الصغير، التفت ونظر في اتجاه القصر، وكان وجهه لامعا ومبللا بالدموع، هل يستطيع العجوز أن يصل إلى القاهرة وهو على هذه الحالة؟ هل يمكن أن يعاود الغناء؟ أسندوه حتى ركب العربة في صعوبة، ثم بدأت تسير متثاقلة هي الأخرى:

ـ هل أنت حزينة من أجله؟

سمعت صوتا قادما من خلفها، أجفلت، كان السؤال بالإنجليزية، اقترب منها الشاب الإنجليزي الذي لم يكف عن النظر إليها طوال السهرة وهو يمسك في يده كأس شراب، ووجهه شديد الحمرة، ربما أسرف قليلا في الشرب، ابتعدت «عائشة» لتجعل هناك مسافة بينه وبينها، ولكنه واصل القول ببساطة:

ـ أنا مثلك لم أرض عما فعله هذا الطاووس المغرور، استمعي لعزفه الرديء، إنه يحسب نفسه شوبان وليس أقل من ذلك..

ابتسمت عائشة، وبدأت العربة التي تقل الموسيقيين تغيب في الضباب الذي كان يتصاعد من الحقول، واستمر العزف في الداخل، ولم يكن يتوقع منها أن تتكلم كثيرا، ولكنه مد يده نحوها وهو يقول:

ـ نسيت أن أقدم نفسي، أنا هوارد كارتر..

لم تجد بدا من أن تمد نحوه أصابعها المرتجفة، تمنت ألا يلاحظ كم هي باردة، ربما لاحظ، فقد أمسكها برهة ربما ليعيد إليها السكينة، عاد يبتسم في وجهها وقال:

ـ ربما لم تسمعي عني من قبل، ولكنني أعرفك، ورأيتك أكثر من مرة..

هتفت عائشة في دهشة وقد شعرت بضغط الدم يرتفع في داخلها، قالت:

ـ أنا؟!.. إنها المرة الأولى التي أحضر فيها مثل هذه المناسبة...

أوشكت أن تقول له إنها منذ سنوات طويلة لم تغادر المدرسة، ولكنها تذكرت مرجريت، ورجال السفارة، ضغطت على شفتيها، وصفق الحضور في الداخل، وحسبت أن الحفل قد انتهى وتحركت لتعود إلى الداخل، ولكن كارتر وقف في طريقها، لم يكن قد أكمل كلماته بعد، ولا يريد أن يفوت فرصة الانفراد بها، عاد العزف مرة أخرى وهب الهواء محملا برائحة المشاعل المحترقة وقال كارتر:

ـ اعذريني، ولكني رأيتك أكثر من مرة.. في بني حسن الغروب.. وفي بني عبيد. وفي الفيوم... وفي الدير البحري بالأقصر..

تصاعد الخجل في نفس عائشة، قالت:

ـ أنت مخطئ بلا شك يا سيدي، أنا زميلة إيزيس ابنة الباشا في المدرسة الداخلية، ولم أغادر المدرسة إلا نادرا..

ولكن الشاب أصر في عناد، ربما كان الشراب هو السبب، قال:

ـ لقد رسمت وجهك المنحوت أكثر من مرة، كل تفاصيل ملامحه، هذا الأنف المرتفع قليلا، العينان الواسعتان بلون البندق، الجبهة الناصعة البارزة للأمام، وجدائل الشعر السوداء التي تحفها الزرقة، وتلك البشرة التي أخذت سمرة الشمس وحمرة النيل..

هتفت عائشة متوسلة: سيدي..

ـ أستطيع أن أقدم الدليل على ذلك إنها معي الآن، لو أعطيتني الفرصة فسوف أحضرها لك من العربة..

لم تدر عائشة ماذا تفعل، كان واقفا منتصبا أمامها والكأس في يده وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة من شدة الانفعال، تطل من عينيه الغائرتين نظرة متوهجة، أحنت رأسها وهي تقول:

ـ هل أنت متأكد من أنني هي؟!.. بالنسبة للأجانب فكل الوجوه المصرية متشابهة، أنتم كذلك أيضا بالنسبة لنا..

قال كارتر: أجل.. كان هذا في البداية، عندما جئت إلى مصر أول مرة، ولكن بعد مرور هذه السنوات، أستطيع أن أميز كل الوجوه، ووجهك أنت على وجه التحديد..

- أنت تحيرني ياسيدي..

- إنني أعمل الآن في حماية الآثار، ولكنني في الأصل رسام، وسوف أبقى رساما، الوظيفة كانت شيئا عارضا في حياتي، مهمتي أن أتعرف على الوجوه وأحفظ ملامحها مثلما يحفظ الشاعر قصائده..

تقدم كارتر، وضع الكأس الذي كان يمسك به على حافة الشرفة، وهو يقول لها:

- انتظري هنا، لا تتحركي من مكانك، سأثبت لك كل كلمة قلتها الآن...

وخرج من باب الشرفة بسرعة، لم يبال باللورد الذي كان منهمكا في العزف وقد تلبسته روح «شوبان» بالفعل، تابعته عيون الضيوف وهو يعبر القاعة في خطوات سريعة ومسموعة، حتى إن المفاتيح اضطربت تحت أصابع اللورد، ولكنه لم يدر وجهه ناحيته، تابعه الباشا في فزع وهو يخرج من باب القصر، نظر إلى الشرفة ربما يستطيع أن يفهم سبب ما حدث، كان يعرف أن كارتر من كبار الموظفين في الصعيد، فهو مدير بمصلحة الآثار، تمتد سلطته من أسيوط حتى أقصى الحدود مع السودان، ويقصده في كل عام جميع اللوردات وضيوف الدولة المهمين بمن فيهم اللورد كرومر نفسه، وخروجه بهذا الشكل فضيحة أخرى لم يكن بحاجة إليها، نظر إلى إيفلين هانم، كانت هي أيضا مذعورة وتوشك أن يغشى عليها مرة أخرى، لم يجرؤ على أن ينهض ويتبعه، كان اللورد كرومر قد وصل

إلى قمة عزفه، ازدادت سرعة أصابعه وتلاحقت أنفاسه، ختم العزف ختاما مدويا.

توقف اللورد لاهثا، أرخى ذراعيه، وهو يزفر أنفاسه وقد أنجز معركته مع أصابع البيانو، نهض الجميع وقوفا، أخذوا يصفقون في حماسة مبالغ فيها، واللورد يحني رأسه انحناءات خفيفة يرد بها على حماستهم، وفي الشرفة كانت عائشة تراقب كارتر وهو يخرج من القصر مسرعا، يهرع وسط الساحة التي تضيئها ألسنة المشاعل، ويتجه إلى عربة تجرها الخيول كانت واقفة في أحد الأركان، قالت لنفسها، هذا جنون، هذا الإنجليزي سيتسبب في فضيحتي، لم تكن تستطيع البقاء في الشرفة كثيرا، خصوصا وهي تسمع صوت التصفيق، كان عليها أن تتسلل بهدوء وأن تنضم للجميع حتى تنفي أي صلة بينها وبين هذا الانجليزي.

تسللت على أطراف أصابعها إلى القاعة، كان اللورد محور الاهتمام، الجميع يقفون حوله وهم يعاودون مصافحته، كان قد حقق انتصارا مضاعفا، مرة على المطرب(العجوز)، ومرة أخرى حين أثبت جدارته بالعزف، تمنت عائشة ألا يراها أحد، ولكن إيفلين هانم رأتها، وألقت عليها نظرة قاسية، استنتجت أنها السبب في خروج الإنجليزي المجنون على هذه الصورة، وسوف تؤجل حسابها معها إلى ما بعد الحفلة.

وفي وسط هذه الضجة ظهر الإنجليزي المجنون وهو قادم من الخارج، يحمل بين ذراعيه رزمة من لفائف الورق، من الواضح أنه التقطها بعشوائية من بين لفائف أخرى، مد اللورد رقبته، تجاهل

كل الذين يحيطون به، نظر إليه وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة، التفت الجميع أيضا ناحيته، لاحقته نبرات اللورد الساخرة وهو يقول له:

ـ سيد كارتر، أرى أن عزفي لم يعجبك..

توقف كارتر، سقطت منه إحدى اللفافات، انحنى بسرعة ليلتقطها، تهاوت بقية اللفات على الأرض، أخذ يجمعها في سرعة وهو يتمتم بكلمات غامضة، لم يتحرك أحد ليساعده، حتى الباشا والمدام صاحبي المنزل لم يستطيعا أن يتحركا، كانوا يعرفون أنه قد أثار غضب اللورد لدرجة تمنع أي أحد من مساعدته، وأخيرا أصابه يأس من محاولة جمعها، قال أخيرا:

ـ أرجو المعذرة لأنني أثرت هذا الاضطراب.. كنت أود أن أريكم.. أقصد أريها شيئا...

وأشار إلى عائشة التي كانت تقف ملتصقة بالحائط، التفتوا إليها بمن فيهم اللورد، وتمنت عائشة لو أنها تختفي من أمامهم، ولكنهم كانوا جميعا بدءوا يرونها للمرة الأولى في هذه الليلة، يشعرون بوجودها، نظرت إيزيس نحوها في إشفاق وابتسمت، كان ماء الحياة قد غاض من وجه «عائشة»، بدأ كارتر يتناول اللفائف ويفردها بسرعة على الأرض، يبحث عن أشياء ثقيلة ليثبت أطراف الورق، وكان «ميناء» أول من تحرك لمساعدته، أحضر بعض القطع الزجاجية الصغيرة ووضعها على الأطراف، بدأت الأوراق تكشف عن محتواها، لوحات ملونة بأقلام مائية، رهيفة وغير صارخة الألوان، ولكنها واضحة وجلية، كلها لوجوه مصرية، أو بالأحرى لوجه واحد، صور جانبية تبرز الأنف العالي، والعيون الواسعة المدببة الأطراف بفعل

الكحل، وجدائل الشعر، والحلي الموضوعة في مقدمة الرأس التي تتراوح بين أشكال الأزهار ورءوس الثعابين وأقراص الشمس، كان التصميم مختلفا في كل لوحة، الثوب، وتصفيف الشعر، والزينة والحلي، ولكنه كان الوجه نفسه، لم يملك الجمع إلا أن يستديروا ويتأملوا الرسوم في اهتمام، حتى اللورد نفسه توقف وتأملها، وقال كارتر وهو يلتقط أنفاسه:

ـ هذه اللوحات رسمتها من مقابر مختلفة، من عصور فرعونية متغايرة، رسمت المئات من اللوحات، نقلتها من فوق أحجار الجدران، ولكن هذا الوجه كان يبرز لي دائما، يحرك خطوطي ليشكل هذه الملامح، كأنه يطاردني، في البداية حسبتني مجنونا، أتخيل أن هناك روحا هائمة تركت قبرها منذ آلاف السنين وأخذت تطاردني، أنا الغريب القادم عبر البحار.

توقف كارتر قليلا يلتقط أنفاسه، نظر إلى عائشة ليرى رد فعلها، ولكنها هي أيضا كانت تحدق في الرسوم وهي مذهولة، وظل الضيوف صامتين، وعاد كارتر يقول:

ـ بدأت أجمع هذه الوجوه معا، لم أرسلها إلى الجمعية الأثرية في لندن كما أفعل مع بقية الرسوم، أحسست أنها شيء يخصني، هذا الوجه لا يتجلى إلا من أجلي، أبقيت هذه اللفائف معي، لم أتركها أبدا، ومن المصادفات الغريبة أنني حملتها معي الليلة، ولم أتخيل أبدا أنني سأعثر على هذا الوجه هنا.

توقف مبهورا وحدق في عائشة، لم تنظر إليه، لم تجرؤ على أن ترفع وجهها في مواجهته، تأمل الحضور ملامحها قليلا ثم عادوا

للرسوم المتناثرة على الأرض، ثم تعالت الهمهمات، أخذوا يدورون حول الرسوم يرونها من مختلف الزوايا ثم يعاودون التطلع إليها، وكانت هي تزداد التصاقا بالحائط، قال كارتر:

ـ ياماري، تكرمي برفع وجهك قليلا..

فكرت «عائشة»..إنه لا يتحدث إلي، لابد أنه يقصد أحداغيري، وفكرت إيفلين هانم.. لو أنها لم ترفع وجهها فسوف أطردها من القصر، ولكن اللورد تقدم نحوها بخطواته الواثقة، مد أصابعه ووضعها تحت ذقنها ورفع وجهها، وتأملها وهو يقول:

ـ ربما كان كارتر مبالغا كعادته، ولكن الشبه واضح، ربما كانت أميرة هاربة من عصر الفراعنة.

بدأت الدموع تنساب من عينيها على رغمها، وصفق الجميع، بسبب رقة اللورد وتعليقه بطبيعة الحال، ترك ذقنها وانسحب مبتعدا عنها، وانسحب بقية الضيوف خلفه، انتهى دورها في حفل الليلة، ولم يبق أمامها إلا كارتر المجنون وبينهما الصور المتناثرة على الأرض، مسحت دموعها وحاولت أن تتأملها، تذكرت رحلتها الطويلة هربا من بلدتها، والذئب الذي يطاردها، الحياة التي تعيشها تحت اسم زائف، وهوية زائفة، ولكن الصور كانت رغم كل شيء تحمل شيئا منها، كأنه لم ينقلها من خطوط قديمة محفورة على أحجار خشنة، ولكن من مرآة جلية جلس أمامها واستشف روحها، ظلت تتساءل:

ـ هل أنا هي حقا؟!

قال كارتر: كنت متأكدا من أنك موجودة على قيد الحياة، من كثرة

ما رأيت من نقوش وجهك على الجدران والأعمدة والمسلات، وقد أيقنت أنك موجودة بالفعل..

مدت عائشة يدها وتناولت إحدى اللوحات، كانت تصور وجهها بخطوط جانبية، وبعيون واسعة مليئة بالحزن، قالت:

ـ إنه أنا ولست أنا، أنا أشد بؤسا من هذه الصورة بكثير، هذه الألوان فيها من الحياة أكثر مما في جسدي.

اقترب منها كارتر، ووضع يده على كتفها، ولم تنفر منه، بل على العكس ارتاحت لذلك، قال:

ـ هل يمكن أن تجلسي أمامي ذات يوم؟! أريد أن أرسمك من الواقع بعد أن رسمتك من الحجر، ربما لا أكون رساما بارعا، ولكني أشعر بأن وجهك سيعطيني الموهبة التي أفتقر إليها.

قالت عائشة وهي على وشك البكاء:

ـ كفى أرجوك، أنا لا أعرف ماذا سيحدث لي في الغد، أنا أعيش يوما بيوم، لحظة بلحظة.. لا يوجد لي مأوى حقيقي، أشعر بأنني مطاردة دوما، حتى الذئاب تطاردني..

ـ أنا أيضا تطاردني الذئاب، وربما كان نفس الذئب يطاردنا معا..

نظر كل منهما إلى الآخر، ود هو لو يحتضنها، ولكنه لم يجرؤ على ذلك.

مقابر «بني حسن»

«......أجل.. أيتها الأميرة الصغيرة، حياتنا مطاردة لا تتوقف، لهاث لا يهدأ، والذئاب هم فقط بعض من المطاردين، يظهرون وجوههم أحيانا، ويتخفون بالأقنعة في أغلب الأحيان، كنت قد بالغت في الهرب والنأي والتخفي، حتى قبل أن أقابل الذئب للمرة الأولى، عندما رأيته يقف لي متربصا بالقرب من باب المقبرة، كنت قد ارتجفت وأنا أستمع إلى عوائه في سكون الليل، جعل النوم يهجرني وتنزع الطمأنينة من قلبي، ولكنه حين وقف أمامي كنت هادئا، كأنني بت أعرفه وأتوقع قدومه، تطلع إلي بعينين مضيئتين، وفم مفتوح تأملته مندهشا، كلب بري أغبر، جسده أكبر حجما وأكثر انسيابية، ورأس مدبب، وأنياب بارزة، وتأملني هو أيضا، مستغربا من صغر سني وضآلة حجمي وقسوة عزلتي، لا يبدو أنه قادر على الافتراس، في هذه اللحظة على الأقل، وأنا أجلس بالقرب من كومة من النار المشتعلة، كنت قد غذيتها بالحطب حتى تبقى مشتعلة طوال الليل، كانت السبب في أن الذئب ظل يتطلع إلي من خارج المقبرة دون أن يخطو داخلها.

كان «نيوبري» قد حذرني من خطورة قضاء الليل في هذا المكان، كان هو رئيسي الأقدم والأكثر خبرة، يعرف خفايا هذه المنطقة البدائية، كان يريدني أن أعمل في النهار فقط ثم آخذ المركب وأعود إلى البر الشرقي، ولكني كنت مسحورا بالمكان، بصخوره المتجهمة التي تنبت الأشواك من شقوقها، وتلك الفجوات السود التي تتقاطع مع تجاعيد الجبل، قال لي:

ـ لا أريد أن أقلل من قدراتك، ولكني لم أتصور أن يرسلوا لي غلاما في الثامنة عشرة من عمره.

لم أحس بالإهانة من كلماته، فقد كان باقيا أمامي بضعة أشهر حتى أبلغ هذه السن، لم أخبره أنني بالفعل خضت أولى تجاربي الجنسية، هنا فوق الرمال الساخنة لهذا البلد الغريب، ولكني كنت أشعر بأن هذه المقبرة التي سأعمل فيها هي بوابتي لعالم النضوج، ظل الهواء ساخنا حتى بعد أن انتصف الليل، والنهر ساجيا مثل لغز، والسماء قريبة وغنية بالنجوم، لم أر سماء محتشدة بكل هذه النجوم من قبل، كنت منتشيا بالفضاء والسكون حتى جاء هذا الذئب، مد قائميه ثم جلس بالقرب من فتحة المقبرة، لم أدر إن كان يقوم بحراستي من هجوم الذئاب الأخرى، أم ينتظر خمود النار ليقوم هو بهجومه، نهضت في حذر، وجمعت كل ما لدي من حطب وأغصان الشجر وأخذت ألقيها في النار، كان أملي الوحيد ألا تخبو حتى يجيء الصباح، فمتى يجيء؟

لم يقطع الصمت إلا طقطقات الحطب، هل يمكن أن تكون نهاية المطاردة في هذا المكان؟ كان «نيوبري» هو الذي أخذني من القاهرة

إلى «المنيا» على ظهر مركب قديم، فضلت أن أسافر على سطح الماء حتى يفقد الحظ السيء أثري، ملأت الريح الشراع، وسارت المركب عكس التيار، كانت المياه محملة بذرات الطين الداكنة، كنت قد قضيت طفولتي على حافة نهر داكن الخضرة، مليء بالطحالب وقطع الثلج الذائبة، تأملت مسطحات الخضرة التي تغطي الشاطئ الشرقي، بينما الجانب الغربي تحاصره التلال الجرداء، والصحراء أقرب ما تكون، هبطنا معا إلى زحام «المنيا»، أدهشتني ألوان الوجوه، والجلود التي دبغتها الشمس، ارتحنا لليلة واحدة في الفندق الوحيد الموجود في ميدان المحطة، وفي الصباح عبرنا إلى الضفة الأخرى بواسطة مركب قديم أصغر حجما، صعدنا فوق التلال القاحلة إلى مقابر بني حسن، كانت حفرا غائرة وسط الصخور، أشار «نيوبري» إلى واحدة منها وهو يقول:

ـ هذا هو قصرك الذي تسعى إليه.

أدركت السخرية الكامنة في نبرات صوته، ولكني كنت مشغولا باكتشاف المكان، أتأمل جدران أولى المقابر التي دخلتها، كانت رسومها باهتة، مكسوة بطبقة من الغبار الناعم، ولكنها كانت حقيقية وأصيلة، تمتلئ بأرواح عريقة، في مكانها الطبيعي، بلا تزويق ولا ألق زائف، واهنة كأنها توشك أن تطمس، ولكنها تحتمي من الزمن خلف هذه الغلالة من التراب، ليست مجمدة ولا محنطة كما رأيتها لأول مرة في قصر اللورد «أمهرست»، تمنيت أن أمد يدي وألمسها، ولكني خشيت أن تتبدد مثل حلم، قال «نيوبري»:

ـ فريقنا مكون من اثنين آخرين، سوف تقابلهما في الصباح،

السيدان «فرازر» و«بلاكدن»، إنهما يقومان بنقل الرسوم في المقابر الأخرى، ستتعاون جميعا حتى ننتهي من هذه المنطقة.

قلت: أين هما الآن؟

ـ سيظهران في الوقت المناسب، المهم أن تعرف مجال عملك حتى لا يتداخل مع عملهما.

رتبت أشيائي، حقيبتي الصغيرة، ولفائف الورق، وأقلام التلوين، والقليل من الطعام، فعلت ذلك بطريقة متأنية توحي بأن هذا المكان قد أصبح ملكا لي، وأنني باق هنا، قال «نيوبري» محذرا:

ـ أنت لست في «سوفهام»، المكان هنا مليء بالثعابين والذئاب والضباع.. الأمر ليس نزهة.

ينهض الذئب واقفا ويدور حول نفسه، لعله أحس بأن توهج النار قد خف، أمسك بغصن مشتعل وألوح به مصدرا صوتا عاليا، كنت أريده أن يبتعد قليلا، ولكنه فطن لحيلتي الصبيانية، ظل يحدق في بعينين نافذتين، ثم أخذ يعوي، شق صوته سكون الجبل، ومن بعيد تجاوبت معه عشرات الأصوات، هل كان يستدعيهم؟ أم أنه كانت تحية الوداع، هز ذيله وألقى علي نظرة أخيرة قبل أن ينصرف، كنت متأكدا أنه سيعود في ليلة أخرى، عندما لا تكون النار مشتعلة.

بدأت العمل في الصباح على الرغم من أنني كنت متعبا من الأرق والجو الخانق، حضر قارب صغير وفيه بعض المؤن يحملها «مراكبي» عجوز اسمه إدريس، ثم أذهب للمقابر الأخرى لأتعرف على من يعملون فيها، كنت أريد أن أكون وحيدا لبعض الوقت حتى

أتأمل هذه الرسوم الغامضة وأحاول فك طلاسمها، توقفت طويلا أمام مشهد أحد الطيور، كان يقف على غصن شجرة غير مرئي، يضم جناحا ويفرد الآخر، كأن نصفه ساكن، ونصفه الآخر متأهب للتحليق، ظللت واقفا غير مصدق ما أراه، متوقعا أن تدب فيه الحياة وينطلق من ظلمة المقبرة، فتحت حقيبتي بيد مرتعدة وأخرجت منها أوراقي وألواني، كانت هناك منضدة صغيرة ومقعد واطئ، جلست عليه وبدأت العمل على الفور، أحسست أن علي أن أنقذ هذا الطائر من موته الصامت، أغدق عليه ألواني المائية وأبث فيه روحا جديدة، لعلها تعرف طريقها إلى العالم الآخر.

... تذكرت المرة التي وقفت فيها في مواجهة هذه الرسوم، بالرجفة التي غمرت بدني وأنا أتابع تفاصيلها، خوف ودهشة وجوع غريب، كنت صغيرا ولكن المطاردة كانت قد بدأت، أجل.. بدأت منذ سنوات وفي مكان آخر، في ليلة ماطرة في «كنجستون» بلدتنا الأولى، حين خرجنا جميعا هاربين في الظلام، سبعة إخوة، سبعة أفواه جائعة، وأمنا تحمل رضيعا ثامنا، كان أبي هاربا من مطاردة الدائنين وإعلان الإفلاس، تركنا بيتنا القديم ومعظم ملابسنا وأغراضنا، حمل كل واحد ما يقدر عليه فقط، احتمينا تحت سقف المحطة من قسوة المطر حتى جاء الصباح وحان موعد أول قطار، حتى يحملنا إلى بلدة أخرى، بعيدا عن كل ذكريات الطفولة، وعن بيوت القرميد، والشوارع المرصوفة بالأحجار الناتئة، لم يتردد القطار، اخترق السهوب المغطاة بالضباب في سرعة وبتر كل ما له صلة بالماضي، بكت أمي وبكي الرضيع، حاولت أن تلقمه ثديها، ولكن لم يبد أنه أحس بالشبع، سيلازمنا جميعا هذا الإحساس لأيام طويلة، لم يوجد

أبدا ما يكفي من طعام لإشباع كل هذه البطون، كان أبي ينفث دخان غليونه، متظاهرا بأن شيئا لم يحدث، كان دخانه في هذه اللحظة يجعل أمعاءنا تتقلب ويصيبنا بالغثيان، بجانب مقعده كان هناك عدد قليل من أشيائه التي أصر على جلبها والاحتفاظ بها، لفائف من الكتان، حزم من الفراشي مختلفة الأحجام، وعدد من أنابيب الألوان نصف الفارغة، كان أبي يبحث عن بداية جديدة، ولم يكن أمامنا إلا الذهاب إلى بيت العائلة القديم في «سوافهام» حيث توجد عمتي التي تكره أمي على وجه الخصوص.

تكدسنا في بدروم بيت العائلة الصغير بعد أن هربت الفئران منه بسببنا، وغادرنا أخي الأكبر ميكرا إلى لندن يبحث عن رزقه، حاولت عمتي أن تجعلني أذهب إلى مدرسة الكنيسة، ولكن أبي رفض، ظلت تجاهد في أن تعلمني حروف الهجاء مستعينة بالإنجيل، واصطحبني أبي معه للمرة الأولى ليبحث عن عمل في القصور المجاورة، كان خائفا من مواجهة الرفض وحده، ركبنا معا عربة مليئة بالقش تجرها خيول رتيبة الإيقاع، كان يحمل نماذج من لوحاته، كلاب قصيرة الذيول، وقطط واسعة العيون، وثعالب شاردة، لوحات لم تترك له المطاردة فرصة إتمامها، كان يقول لي:

ـ بالطبع أفضل رسم الحيوانات، إنها صادقة ولا تجيد التظاهر، كما أنها لا تعترض على شكلها كما يتبدى في لوحاتي..

كنا نتجه إلى قصور السادة، الإنجليز الملاعين الذين يحبون حيواناتهم المدللة أكثر مما يحبون زوجاتهم، على حد تعبير أبي، صعدنا معا تل «ردلنجتون» حيث يوجد قصر اللورد «أمهرست»، قلعة

قديمة، تنمو الطحالب على أحجارها، ويحيط السرخس والطحالب
بإطارات النوافذ، نظر إلينا كبير السقاة في تعالٍ، ولكنه سمح لنا
بالدخول لمقابلة «الليدي أمهرست»، كانت الممرات معتمة، تفوح
منها رائحة طلاء الخشب والبهارات القديمة، سرنا فوق سجاد لين،
خيل إلي أنني لو تعثرت فسوف أضيع في وبره الكثيف، دخلنا إلى
قاعة كل جدرانها مغطاة باللوحات، وجوه مقطبة، وحلل رسمية
تزينها النياشين، لوردات وجنرالات وقباطنة، نظر أبي إلي، كان يحس
بالتضاؤل ويرغب في الانسحاب، ولكن السيدة جاءت وهي تحمل
قطة فارسية شاهقة البياض، أخذ أبي يتحدث معها عن تخصصه في
رسم الحيوانات الأليفة، وكيف دخل العديد من القصور، ورسم كل
ما فيها من طيور وكلاب وجياد وقطط، حتى الثعالب والحيوانات
المحنطة، ورغم ذلك لم يبد على «الليدي» أنها تحتاج لخدماته،
خاصة وأن زوجها اللورد كان غائبا في رحلة صيد طويلة، ولكن
القطة الفارسية غافلتها وقفزت إلى حجري، تكومت وانكمشت
وهجعت، نظرت السيدة إلي في استغراب، وافقت على أن يبدأ في
رسم قطتها على أن يصحبني معه في كل مرة، وأخيرا تبادلنا الابتسام
أنا وهو، سوف نجد على مائدتنا بعض الخبز والزبد والبيض، ويمكن
أن نهدأ قليلا ونبحث عن بداية جديدة.

سيكون من السخرية أن أقول إن قفزة القطة هذه قد غيرت حياتي،
الأمر ليس بهذه العشوائية، والمصادفة مجرد حدث عارض، ولكنها
كانت السبب وراء انتظام رحلاتنا إلى ريدلنجتون، وغضبت عمتي
وحنقت على أبي لأنه لايدع لها الفرصة لتعليمي، بدأت الحيوانات
تتغير، واللوحات تتبدل، كانت «الليدي» تمتلك غابة من الحيوانات

الأليفة في حديقتها الخلفية، قرود من إفريقيا، ونمور صغيرة من
البنغال، وطيور ملونة من خط الاستواء، أصبحت أنا أيضا آخذ معي
كراسة صغيرة وبعض الأقلام، كنت أتتبع خيوطه، وربما مسار حياته،
رسام جوال يمر على الضيع والقصور ليرسم حيواناتها، وسأكون
مثله بالتأكيد.

في ذلك اليوم كان أبي يرسم قردا شقيا، يأكل أصابع الموز ويقذفه
بالقشر، كانت الليدي تبتسم، وأبي يحاول التظاهر بأنه سعيد بهذه
المداعبات، كان المشهد سخيفا، سحبت كراستي وابتعدت عنهما،
سرت في الممر الطويل فوق السجاد الكثيف الوبر، شاهدت المرايا
واللوحات والطنافس والشمعدانات الفضية المطوسة والسيوف
والخناجر وبنادق الصيد، ثم قادني الممر إلى قاعة معتمة، يتسلل
إليها ضوء خافت من خلال فتحات رفيعة في الستائر المسدلة،
هواء راكد، لا توجد مدفأة ولا فتحات للتهوية، وعندما تعودت
عيناي على العتمة شاهدت أشياء غريبة لم أشاهد مثلها من قبل،
تمثال من الحجر الأسود، امرأة ممشوقة، أنفها مهشم ولكنه مرتفع
إلى أعلى، فمها مطبق، شفتاها ممتلئتان، عيناها واسعتان وغائرتان،
تمسك في يدها مايشبه زهرة محنية للأمام ونائمة على أصابعها،
تقف كأنها تتأهب للخطو خارج هذه العتمة، في وسط القاعة كان
هناك تابوت ضخم من الحجر، منقوش ومحفور عليه أشكال غريبة
من ضمنها شكل الزهرة التي تمسك المرأة بها، بجانبه صندوق
قديم من الخشب، الألوان غائرة في أنسجته، أشكال غريبة، عيون
محملقة، وأكف مفرودة، رءوس ثعابين وبنات آوى، وجوه غريبة
مزينة بحلي أغرب، تأخذ كلها وضعية غريبة، تمثال آخر يمثل قططا

يقف متحفزا على قائمتيه الخلفيتين، شرس ومتجهم، لا يحمل ألفة الحيوانات التي يرسمها أبي، بجانبه واجهة من الزجاج، تحتها كثير من القطع القديمة، بعضها متكسر وغير مكتمل، قطع من الحجر والخشب والنحاس الضارب إلى الخضرة، أوعية ضخمة من الفخار والمرمر والجرانيت، محفور عليها نقوش غريبة، لوحات معلقة على الجدران، قطع من الكتان العتيق، قديمة وبالية، ساكنة خلف ألواح من الزجاج، صورة لمحارب يمسك القوس ويسدد السهم وهو واقف فوق عربة بعجلتين يجرها حصان، كانت القاعة مليئة بصور غريبة لأناس سمر الوجوه، عيونهم واسعة، ورموشهم مقوسة إلى أعلى، ينتمون لعالم آخر وزمن مختلف، لا أعرف عنه شيئا ولكني أتحرك بينها كالمحموم، أود أن ألمسها بيدي لأتأكد من وجودها، ولكني كنت خائفا، بدت كأنها تعاويذ لسحرة من أتباع «مارلين»، هل يمكن أن أرسمها، بدلا من القطط والحيوانات الأليفة؟ أن أصل إلى ما فيها من حياة كابية وجامدة؟! لا بد أنها تنتمي بطريقة غامضة لهذا اللورد المسافر دوما، لتلك البلاد الغريبة التي يحل بها، لا توجد في عالمنا بالتأكيد، لا أحد في كنجستون أو سوافهام أو حتى لندن يستطيع أن يصنع كل هذه التمائم.

انزويت في أحد الأركان، أخذت ألتقط أنفاسي بصعوبة حتى أستعيد هدوء نفسي، فتحت كراستي وأخذت أخط ما أراه على الورق، حاولت أن أحل لغز الابتسامات الشاحبة والنظرات المحملقة، بدأت الرائحة الثقيلة في القاعة تطبق على أنفاسي، تدخل في عظامي، تثير في مشاعر من البهجة والخوف والألم، ظللت أواصل الرسم حتى غاب الضوء وعم الظلام، عبرت الممر دون أن يراني أحد، كان أبي

مازال جالسا أمام لوحة القرد التي لم تكتمل، تتناثر حوله قشور الموز، نظر إلي حائرا وهو يقول:

ـ أين اختفيت؟

قلت في غموض: لا أحب القرود..

هبطنا التل معا، ولم نجد عربة تحملنا للمنزل فسرنا طويلا تحت زخات من أمطار رفيعة، وفي البدروم بعد أن نام الجميع أوقدت شمعة صغيرة، وقلبت الأوراق التي ملأتها بالخطوط، ترى من أين جاءت؟ وإلى ماذا ترمز؟

في اليوم التالي كنت في انتظار أبي قبل أن يستيقظ، سرقت كراسة إضافية من كراساته، ودسست في جيبي مزيدا من الأقلام، شاهدت عمتي وهي تحمل الإنجيل، ولكني احتميت بظهر أبي، وركبت معه عربة القش، جلس أبي أمام القرد يحاول أن يقنعه بالسكون، وانتظرت قليلا حتى تشاغل عني ثم تسللت إلى القاعة المعتمة، أزحت الستائر قليلا حتى ينفذ المزيد من الضوء، بدأت في الرسم وأنا أرتجف، كنت قد ألفت أشكالها الغريبة قليلا، وأدركت أنني لو واصلت الرسم هكذا فسوف تأتي لحظة ينكشف لي كل أسرارها.

وفجأة توقفت أنفاسي، تجمدت من الرعب وأنا أسمع صوتا يدوي وسط القاعة الصامتة:

ـ ماذا تفعل هنا بحق السماء؟!

هل كان التمثال الأكبر هو الذي يتحدث إلي؟ هل تحول إلى هذا الرجل الضخم الذي يحجب عني الضوء ويرتدي زيا فاخرا

ويمسك في يده قفازات يضربها بيده الأخرى في عصبية؟! نهضت مفزوعا، تساقطت الأوراق والأقلام من حجري، قفزت من أمامه، لم أكد ألمس الأرض وأنا أسعى إلى الباب، سمعت الصوت من خلفي وهو يهدر:

ـ انتظر أيها اللص الصغير.

اصطدمت بالساقي وهو يعبر الممر، كان أبي جالسا يأكل إصبع الموز في حنق والقرد ينظر إليه في دهشة، قفزت فوق المرج منحدرا إلى أسفل، وبدأت السحب السوداء في التجمع، وسمعت دمدمات غاضبة فلم أدر إن كانت قادمة من القصر أم من السماء، تلفت خلفي فلم أشهد كلاب الصيد، ربما لم يقرروا مطاردتي بعد، أو ربما أخذوا أبي رهينة بدلا مني.

لم أهبط لتناول عشاء البطاطس، ظللت أرتجف وحيدا في البدروم وأنا أسمع صوت ملاعقهم ترتطم بالأطباق، ولم أعرف إن كان أبي قد عاد إلى المنزل أم لا ؟ ثم سمعت صوت خطواته الثقيلة وهي تهبط الدرج، لم أكن أستطيع أن أغلق الباب من الداخل، كان غاضبا أكثر من المعتاد، أدركت أنه فقد عمله في القصر، وربما لن يستطيع الحصول على عمل آخر في القصور القريبة، قال من بين أسنانه:

ـ أود أن أكسر أنفك، ولكن ليس الليلة.. لأن اللورد يريد أن يراك في الصباح.

لم أنم طوال الليل، كنت متأكدا أنه سيحبسني في قبو القصر ويتركني حتى أتعفن، ولكن لم يكن هناك مناص من الذهاب، في اليوم التالي صعدنا التل وأنا أردد كلمات الاعتذار التي كان أبي

يرددها علي، يجب أن أقرّ بذنبي أولا، ثم أعتذر بحرارة وصدق، ثم أنسحب دون أن أدير ظهري لأحد، ولكن عند باب القصر أشار الساقي في حزم إلى أبي وهو يقول:

ـ ابق أنت في الخارج..

نظرت إليه في توسل ولكن أبي ابتعد سريعا، ودفعني الساقي فسرت أمامه، بدا الممر صامتا وأشد كآبة من المعتاد، أغمضت عيني، ولكن رائحة القاعة العتيقة كانت تحتويني ببطء، توقف الساقي وتركني أدخل وحدي، كانت مزدحمة كالعهد بها بكل القطع الأثرية، كانوا في انتظاري، كفوا عن الكلام حين رأوني، أدارت «الليدي» وجهها نحوي بنعومة، كان هناك شعاع ضئيل من الضوء يقع على وجهها، يجعلها أكثر تألقا وطيبة من الوجوه الأخرى، وكان اللورد جالسا بجوار تمثال البازلت الأسود، لم يكن غاضبا ولا عصبيا كما بدا بالأمس، وبجوار التابوت المزين بالرسوم كان هناك رجل ثالث، يجلس متكلفا ومترفعا وأنيقا، يضع على ركبتيه صفحات مفرودة من الورق، أدركت من لمحة سريعة أنها الأوراق التي تحمل رسومي، ظللت واقفا صامتا وقد نسيت كل كلمات الاعتذار، ظلوا يحدقون فيّ في دهشة لا أدري سببها، قالت الليدي بصوت ناعس:

ـ تقدم ياهوارد.. دع السير «بيرسي نيوبري» يراك جيدا.

تقدمت خطوة صغيرة حتى أصبحت في منتصف بقعة الضوء، لم أكن مطمئنا، رفع رأسه وتأملني، كان رجلا نحيفا، له عينان نافذتان

وأنف محدب كصقر، وشاربه الكث يغطي شفته العليا تماما، شهق قائلا:

- يا للمسيح!.. إنه أصغر سنا مما كنت أتوقع وأكثر نحولا وجوعا.

لم أدر أي لعبة يلعبها هؤلاء السادة، رفع اللورد يده وهو يمسك بأوراقي وأخذ يتأملها من جديد، ثم حدق في محاولا أن يخيفني بعينيه وهو يقول:

- هل أنت متأكد أنك قمت بهذه الرسوم؟

لم أكن أستطيع أن أبقى صامتا، قلت:

- أجل ياسيدي.

التفت السير موجها الحديث للورد الذي ضبطني بالأمس وهو يقول:

- ياعزيزي «أمهرست».. إنه لا ينقل كل التفاصيل بدقة فقط، ولكنه يبث فيها حياة جديدة، كيف أمكنك أن تبعث الحياة في هذه النقوش الميتة؟!

كان يتوجه بالسؤال الأخير إلي، لم أدر كيف أجيب، ولم أعرف ماذا يقصد، هو أيضا لم يكن ينتظر مني جوابا، عاد يتأمل الرسوم وتحدث إلي:

- هل تعرف من أين جاءت هذه الرسوم وهذه التماثيل والتوابيت والقطع الأثرية التي تملأ هذه القاعة؟

كان حلقي جافا، والموقف يزداد صعوبة بالنسبة إلي، هززت رأسي، سألني محاولا أن يسبر أغواري:

- إلى أين وصلت في تعليمك؟

قلت: ليس كثيرا.

قالت الليدي بنفس الصوت الناعس: يا للغلام المسكين! إنه موهوب بالفطرة..

قال نيوبري: إنها من مصر، جزء صغير من إمبراطوريتنا الشاسعة ولكنها مكان مزدحم بهذه الأشياء.

لم أستطع أن أبقى هادئا، لم أصدق أن هذه الأشياء يمكن أن توجد أو تتكرر كثيرا، كنت أريد أن أجلس، أو أستند إلى شيء، قلت مندهشا:

- أشياء أخرى مثل هذه.. لا أستطيع التخيل!

- ما يوجد هناك يفوق كل خيال، عشرات من المعابد ومئات من التماثيل والمسلات وجدران المقابر المزدانة بالرسوم، لا تحاول أن تنظر حولك، الأشياء التي هنا لا شيء مقارنة بما يوجد في مصر، ومن المدهش أن الفلاحين الذين يعيشون بين هذه الأشياء الرائعة لا يعرفون قيمتها.

وأخيرا تكلم اللورد أمهرست محتجا:

- ولكن ياعزيزي «نيوبري» هذه المجموعة مختارة بعناية فائقة..

لم أستطع أن أفهم عما يدور النقاش، قلت في صوت مبهور:

ـ ولكن إذا كانت مصر جزءا صغيرا من إمبراطوريتنا.. لماذا نترك لهم هذه الأشياء الجميلة؟ لماذا لا نحضرها كلها إلى هنا؟!

نظر الثلاثة كل إلى الآخر ثم انفجروا جميعا في الضحك، حتى اللورد أمهرست المتجهم شارك في القهقهة، نظرت إليهم في حيرة، كنت متأكدا من شيء واحد فقط، أنني لن أعاقب، ولست في حاجة لترديد كلمات الاعتذار، قال اللورد تيوبري:

ـ إنها فكرة جيدة حقا، ولكنها مستحيلة التحقيق، هؤلاء القوم لم يكونوا يدركون قيمة ما عندهم، نحن الذين عرفناهم بذلك، والآن أصبح من الصعب انتزاعها منهم، إضافة إلى أن هناك العديد من الأشياء التي يستحيل نقلها.

حاولت الليدي أن تكون أكثر جدية من الجميع، حدقت في فأحسست بإشراق جمالها، قالت:

ـ هل تريد الذهاب إلى مصر ياعزيزي هوارد؟

قلت في غباء: وهل سيذهب أبي معي؟

التفت اللورد تيوبري إلي بكليته، لم يعلق على غبائي، قال بجدية:

ـ بالطبع لا.. لا يمكن أن يذهب أبوك معك إلى كل مكان، إنها وظيفة.. عمل.. ستكسب نقودا، وترسم الأشياء التي تحبها في الوقت نفسه، إنها منحة تقدمها الجمعية البريطانية للآثار المصرية، ستذهب إلى المواقع المهمة وتسجل كل ما تراه، حتى إذا حدثت

كارثة طبيعية أو غير طبيعية.. زلزال.. طوفان.. حريق.. وضاعت كل هذه الأشياء، سوف تبقى رسومك، ستكون أنت شاهد العيان الذي عاين ورأى وسجل.

لم أفهم أي كلمة مما يقال أمامي، ولم أدر لماذا يحاولون إرسالي إلى هذا البلد البعيد بدلا من حبسي في قبو القصر، قالت «الليدي» لتنقذني من حيرتي:

ـ لا تتسرع في الجواب ياهوارد.. اذهب واستشر أباك.. خذ وقتك.

* * *

...كم تبدو هذه اللحظة بعيدة، كأنها تنتمي إلى عالم آخر، وكم يبدو وجه أبي غريبا، كأنه وجه منحوت على جدار، جامد وحزين، ولكنه لايستطيع أن يرفض عرضا يخلصه من أحد الأفواه الجائعة..

عند الظهر أحسست بظل رجل يسقط علي وأنا منهمك في الرسم، اعتقدت أنه إدريس يحمل مؤونة اليوم، ولكنه كان «تيوبري» بنفسه، ملابس كاكية وسروال قصير وعلى رأسه قبعة ضخمة، ينظر إلى ما أقوم به بوجه محتقن، هتف:

ـ ياللمسيح!.. ماذا تظن أنك تفعل؟

قبل أن أنطق بحرف كان قد التقط الرسم من أمامي، رفعه لأعلى حتى يراه بوضوح، ثم نظر للجدار ليرى مدى مطابقة الرسم، ثم تطلع نحوي في دهشة وقال غاضبا:

ـ ليس هذا ماجئت من أجله بالتأكيد، كنت أحسب أن «فرازر» و«بلاكون» قد أطلعاك على سير العمل.

لم أكن قد قابلتهما بعد، ولم أشعر طوال الأيام الماضية بأن هناك أحدا في هذه المقابر غيري، ولكنه سار إلى أحد الأركان، أمسك بلفائف الورق الشفاف وحزم الأقلام السوداء التي كانت مكومة في أحد الأركان، رفعها عاليا وهو يقول:

ـ ماذا تعتقد فائدة هذه الأشياء؟

قلت: لا أعرف..

ـ من أجل شف الرسوم التي على الجدران، نقلها بدقة وبنفس الحجم وبكل التفاصيل، لا تصغير ولا تكبير، عليك أن تضع الورق الشفاف فوقها وتقوم بنقلها، هكذا نفعل مع كل الرسوم، غائرة أم بارزة، ملساء أو خشنة، ملونة أو غير ملونة، المهم أن تنقلها كما هي.

كان ما يريده مختلفا عما ظننته تماما، بدأ يطوي فرخ الورق الشفاف في طيات سريعة وهو يواصل القول:

ـ ثم نطوي الورق هكذا قبل أن نقوم بإرساله إلى لندن، وهناك سيقومون بتسويد هذه الرسوم بالحبر، وتجهيزها من أجل الطباعة، المهم أن تكون خطوطك دقيقة.

استمعت إليه مدهوشا، لم أتصور أن يتم التعامل مع هذه الرسوم بتلك الطريقة البدائية، وأن يقوم بتحبيرها شخص لم يرها، لم يلمس روحها، لماذا جاءوا بي إلى هنا إذن؟ لم يكن هذا العمل في حاجة

إلى موهبة أو عشق، ولا بد أن «نيوبري» لاحظ ملامح البؤس التي بدت على وجهي، قال:

ـ لا داعي للإحساس بخيبة الأمل، أمامنا عمل ضخم، هذه المقبرة واحدة من العشرات التي اكتشفت والتي لم تكتشف بعد، علينا أن نفرغ منها جميعا، ولو جلس كل واحد منا نهارا كاملا ليرسم طائرا واحدا فسنكون في حاجة إلى أكثر من قرن لإنجاز العمل.

قلت وأنا أعرف أنه لا جدوى من المناقشة:

ـ على الأقل سوف نظفر بشيء من هذا الجمال الموجود على الجدران.

ـ أنت ماتزال صغيرا، وتنقصك الخبرة، الاعتمادات المالية هي التي تحد حركتنا، علينا أن نفرغ من هذه المهمة قبل أن تنفد المنحة المخصصة لنا من أجل أن نجمع كل هذه الرسوم في مجلدات خاصة ونحتفظ بها داخل الجمعية الأثرية، نحن نسابق الزمن يا بني.

لم أكن أعرف وقتها أنه رجل عتيق الفكر، وأنه هو الذي اخترع هذا الأسلوب، وأقنعهم به في لندن، واختار على أساسه كل الذين يعملون معه، ولم يكن على استعداد لأن يأتي غلام مثلي ليغير من اقتناعاته، كان يريد أن ينتهي من تسجيل كل الرسوم بطول مصر وعرضها في خمس سنوات فقط، و أن يطبق خطته هذه على الجميع بأكبر قدر من الصرامة.

تركني ومضى لمراقبة بقية المقابر، ولكني كنت مشلولا، كان طائري الملون ملقى على الأرض وقد أحسست أنه بلا قيمة،

أمسكت أفرخ الورق الشفاف وثبتها على الحائط، أخذت أتتبع الرسوم المجردة بعد أن انتزعت منها الحياة، وتحول الحلم الذي عشقته وجئت من أجله لهذا المكان الموحش إلى كابوس.

كنت حانقا فلم أشعر بمرور الوقت، كنت كلما فرغت من أحد الأفرخ علقت واحدا آخر بدلا منه، أريد أن أنتهي من هذه المهمة سريعا حتى يبقى لي بعض من الوقت لأقوم بشيء أحبه، لم أتوقف إلا حين سمعت صوت ضحكات خشنة قادمة من عند باب المقبرة، كان هناك رجلان يقفان وهما يدخنان ويشيران نحوي، عرفتهما على الفور، «جورج ويلبي فرازر» و«ماركوس بلاكون»، زميلاي اللذان تأخرت معرفتي بهما، توقفت عن العمل، ألقيا بسجائرهما خارج المقبرة وهما يضحكان، كانا ضخمين بعض الشيء، لوحت الشمس ملامحهما وأكسبتها سمرة قانية، صافحاني بأيد خشنة، أشار «فرازر»، الأطول والأكثر جسامة، إلى أفرخ الورق المليئة بالخطوط وهو يقول:

ـ واضح أن محاضرة «نيوبري» قد أثرت فيك كثيرا، أنت تواصل العمل حتى بعد أن قل الضوء، هل تريد أن تفقد نور عينيك من أجل إرضائه؟

وضع بلاكون يده على كتفي وسحبني خارج المقبرة، كنت أشبه بقارب أجوف تحت ذراعيه، أجلساني بينهما على حافة النهر وسط نباتات الحلفا البرية، قال:

ـ لا يجب أن تضيع هذه اللحظة السحرية التي تتبدل فيها ألوان

النهر مع غروب الشمس، الشيء الجميل الحي في هذا المكان الميت، هيا نستمتع بها سويا قبل أن يحل الظلام الكئيب لهذا البلد.

أخرج من جيبه صندوقا معدنيا مليئا بالتبغ وأخذ يلفه في سجائر رفيعة، فعل ذلك بسرعة وبراعة، قدم لي واحدة ولكني هززت رأسي شاكرا، بدأت الشمس في الانحدار خلف الجبل الذي نجلس عليه، تبدلت ألوان الماء، اكتسبت صفرة باهتة ثم حمرة أرجوانية كثمار الكرز في غابة «سوافهام»، ثم زحف عليها لون الرماد، واصلت الطيور دورانها وقد تشكلت على هيئة رأس سهم، ومن الضفة الأخرى تصاعد من بين هامات النخيل سحائب من ضباب هش، كنت مأخوذا بالمشهد، ولكني سمعت «فرازر» يتمتم وهو ينفث دخان لفافته:

ـ نحن نستحق مصيرا أفضل من هذا، كلنا جئنا إلى هنا هربا من تعاسات شخصية لم نكن قادرين على احتمالها، كل واحد منا كان يحلم باكتشاف عظيم، وانظر كيف انتهى بنا الحال.

لم أدر ماذا أقول، كان يوما محبطا، وزادت هذه الكلمات من إحباطي، غابت الشمس سريعا وسط الصخور، وفقد النهر ألوانه البهيجة، وهتف «بلاكون»:

ـ كفى رثاء للنفس، سنأخذ معنا هذا الرجل الصغير ونذهب للسهر في الشاطئ الآخر، سنذهب لصفط الخمار.

قلت في صوت مكتوم: لقد تعودت على قضاء الليل في هذا المكان.

- كلام فارغ، سينتهي بك الأمر إلى أن تأكلك الذئاب، أو تصاب بالجنون، هذه الجدران لن تذهب لأي مكان، إنها هنا منذ آلاف السنين وسوف تبقى كذلك.

كان من العبث أن أقاومهما، كانا متسلطين وحانقين من شدة الملل، كنت أحس أيضا أن هناك جزءا من روحي تم انتزاعه، انحدرا بي إلى حيث يجلس إدريس في انتظارهما، قاد القارب بهدوء فوق الأمواج المعتمة، أصبح الهواء أكثر برودة، وكان الليل أخف وطأة على الضفة الأخرى، بدت البيوت الطينية والدكاكين الصغيرة تضيئها المشاعل والكلوبات، والفلاحون عائدون يجرون بهائمهم، وجوههم متعبة وأقدامهم حافية بوضوح، كانوا ينظرون إلينا بلا عداء ولكنهم يحرصون دائما عن الابتعاد عن طريقنا، أضاءت ظلمة المكان كومة من نار مشتعلة، تنبعث منها رائحة روث البهائم، يدور حولها الأطفال وهم يصيحون، وتخبئ النساء وجوههن خلف الطرح وشيلان القطيفة، كان رفيقاي يعرفان طريقهما، ولا بد أنهما كانا يسلكانه كل ليلة.

سرنا إلى ساحة تمتلئ بباعة عيدان القصب، كان يقف صف من الحمير تأكل الأوراق الخشنة، دار الاثنان طويلا بين الحيوانات المستكينة حتى عثرا على ثلاثة من الحمير القوية، أحسست بالتعاسة والمكاري الصغير يساعدني على ركوب الحمار الذي اختاره لي.

سرنا خلف «فرازره» الذي كان مسرعا في المقدمة، وكان المكاري الصغير يلهث حتى يلحق به، غصنا وسط تلافيف الغيطان الرطبة، ارتفع صوت نقيق الضفادع مختلطًا بأصوات الكلاب، وابتعدت

السماء قليلا ولكنها ظلت غنية بالنجوم، كنت ألتقط أنفاسي بصعوبة كأنني ذاهب في رحلة بلا عودة، بدأ «بلاكون» يغني فجأة، أغنية مصرية بالتأكيد لأن كلماتها لم تكن لها معنى، وإيقاعها كان غريبا، عبرنا إحدى الترع فوق جسر خشبي متآكل، دخلنا وسط غيطان مليئة بأعواد الذرة، تردد حفيف أوراقها مثل غمغمات خشنة، كنت مستسلما، فقدت الأمان منذ أن غادرت المقبرة، من الغريب أن أحن إليها وليس لمنزلنا البعيد.

ظهرت كتلة من النخيل مرة أخرى، مما يعني أن هناك بلدة أو نجعًا نائما تحتها، هتف «بلاكون» في فرح.. أخيرا «صفط الخمار».. كان سعيدا ومنتشيا، كأن ذكرياته السعيدة كلها في هذا المكان المظلم، لم ندخل شوارع القرية، درنا بالحمير حولها عبر شبكة الترع والمصارف التي تحيط بها، لم تحس القرية بوجودنا، حتى كلابها ظلت هاجعة، ثم بدأت الضجة تعلو بالتدريج، ظهر كوخ مبني من الحجر، ينبعث الضوء من نوافذه الخشبية، ازدادت الأصوات ارتفاعا ونحن نهبط من فوق الحمير، أسرع «المكاري» يربطها إلى وتد ويجلس بجانبها، دفعني «بلاكون» نحو المدخل وهو يهتف:

- تقدم يا فتى، ستكون أول من يغزو خمارة «خريستو» هذه الليلة.

المكان مزدحم أكثر مما كنت أتوقع، مفعم بروائح التبغ والكحول والبول، كان الحضور جمعا غريبا، حولتهم العتمة إلى خليط متشابه رغم أعراقهم المختلفة، أوربيون وأفندية بطرابيش وفلاحون أجسادهم ممتلئة مختلفون عما رأيتهم في الخارج، وغجريات

فاحمات الشعر غليظات الشفاه، ونسوة صهباوات وشاحبات، كلهن يخفين وجوههن تحت أقنعة من مساحيق ثقيلة، كانت امرأة مترهلة الجسم تتلوى في المنتصف بينما يصفق الجميع، صاح رجل يوناني سمين من خلف البار ملوحا بالزجاجات التي يحملها:

ـ مرحبا بزبائني المفضلين.. كنت في انتظاركم..

أحسست بالاختناق وأنني أود الهرب، ولكن «بلاكون» كان يدفعني في ظهري حتى أصبحت في مواجهة اليوناني البدين، صاح به:

ـ معنا عذري جديد، نريدك أن تنسيه قسوة الليل في هذا البلد.

كشف اليوناني عن أسنانه المتفرقة وهو يقول:

ـ طوبى للغرباء والتعساء والعذريين، جئتم به إلى المكان المناسب.

بللت أطراف شفتي من كأس الخمر الذي قدمه لي، تقلصت معدتي على الفور، تجرعا كأسيهما في جرعة واحدة، عاود اليوناني ملأهما بإصرار، تصايح الآخرون والسيدة تهز بطنها أو تثني فخذها، قال «فرازر»:

ـ لن تحتمل «نيوبري» إلا إذا جئت هنا كل ليلة.

كان محقا في جانب مما يقوله، خذلني «نيوبري»، ولا بد أنه خذلهما أيضا، واصل «فرازر»:

ـ كان قد وعدنا بالمشاركة في الحفريات، وبالاكتشافات الأثرية

التي ستجعل كل صحف أوربا تتحدث عنا، وانتهى بنا الأمر إلى ناقلي نقوش في مقبرة مهجورة ونائية.

قلت مدهوشا: كنت أعتقد أن الحفريات تقع بعيدا في الجنوب.

ـ أنت غر وجديد بالفعل، على بعد أميال من هنا توجد تل العمارنة، هناك يقوم «بتري» المجنون بالبحث عن قبر أخناتون، وفي كل يوم يتسلل خلفه «نيوبري» ليتسقط أخباره، لن أستغرب إذا قام يوما ما بقتله قبل أن يصل إلى أي نتيجة.

واصلا الشراب وأدركت أنه لا مفر من أن أبقى وأراقب المكان، أخذت أبلل شفتي بالخمر الرديئة لعلي أتعود على طعمها، تعرفت ببطء على خلطة الوجوه التي يمتلئ بها المكان من خلال الكلمات المتبادلة، كان هناك مديرون للمناطق، وموظفون رسميون، وأثرياء القطن، وعمد للنجوع المجاورة، كيف استطاع هذا اليوناني البدين أن يجمعهم هنا في هذا الجحر المظلم بعيدا عن المدينة، ويغرقهم في ليل القرى؟! قال «بلاكون»:

ـ إنه ملك هذه المنطقة، كل فلاحي في هذه القرية والقرى المجاورة مدينون له، ومهما كانت غلة محصولاتهم فهي لا تكفي لسداد هذه الديون، ولكن هناك سببا آخر أهم يجعل الجميع يأتون إلى هنا..

خيم الصمت فجأة على المكان، من أعماق الحانة جاءت فتاة صغيرة وجميلة، لم يكن وجهها يختبئ خلف المساحيق مثل الأخريات، التفتت إليها كل الوجوه وهي تشق طريقها بهدوء وثقة

بينهم، ابتسم اليوناني وهو يتأمل رد فعلي لظهورها، بدت مثل نسمة نقية وسط هواء الحانة الخانق، تأملتها مدهوشا، لم يكن هذا المكان لائقا بها، ولكن «فرازر» رفع كأسه وهو يقول:

ـ أخيرا جاءت «هيلين» طروادة التي دافع اليونانيون عن شرفها أكثر مما هي دافعت.

ابتسمت في بساطة، وجلست بالقرب من البار، وتحلق الجميع في نصف دائرة يتطلعون إليها، أدركت أنها الطعم الحقيقي الذي يجذب كل هؤلاء الزبائن إلى هذا المكان المقفر، قال اليوناني منتشيا:

ـ ابنتي الغالية راضية عنكم الليلة وسوف تغني لكم..

نظرت إلى «بلاكون»، كان يحملق فيها صامتا ومسحورا، بينما تطوف هي بعينيها المكان دون أن تلحظ أحدا بعينه، بدأت تغني، انطلق صوتها العذب ليملأ المكان وينقيه قليلا، لم أفهم الكلمات، ولكن نبرات صوتها نقلتني إلى السهوب التي غادرتها، والبحر الذي كان يهتز تحت أقدامي، ووجوه إخوتي السبعة المزدحمين حولي يتنافسون على حمل حقيبتي وأنا أستعد للإقلاع، بكاء أمي، جمود وجه أبي..

ثم تذكرت رائحة أول جسد عرفته.

... كانت السفينة التي حملتني من «ليفربول» قد قطعت أميالا كثيرة، وعندما بدت تلك المدينة التي تدعى «الإسكندرية» بدأت تخور مثل سيدة عجوز، كنت أتشبث بسورها الحديدي، والمدينة

بمبانيها البيضاء تواصل اقترابها مني، طائر إفريقي يرقد على بيضه ويصدر أنفاسا ساخنة، لا يوجد ضباب يعكر رؤيتي لها، ولا يبدو أن الشمس تغرب عنها، هبطت على الرصيف فهالني الزحام والأصوات العالية التي يتكلم بها الجميع، أحاطت بي وجوه سمر متشابهة، يصرخون في وجوه بعضهم البعض ويلوحون بأيديهم ويمضون في كل اتجاه، كانت ملابسهم أشبه بالأسمال، يحيط بهم الذباب والغبار، هل يمكن أن يكون هؤلاء الناس هم الذين صنعوا الأشياء المحفوظة في قاعة اللورد؟ ظللت واقفا حائرا، لا أدري إلى أين أذهب، عبر من أمامي حمال عجوز، محني الظهر يحمل صندوقا من خشب، رأيت وجهه في لمحة سريعة، عيناه واسعتان وأنفه كبير وعظام وجنتيه بارزة، كان واحدا منهم، من الوجوه المنقوشة على لوح الخشب المتهرئ في قاعة اللورد «أمهرست»، سرت ببطء شديد وسط زحامهم واكتشفت أنهم ما زالوا هم، نزلوا من على جدران المعابد، وخرجوا من نقوش المقابر، ورسوم رقائق البردي، كانوا هم أنفسهم، لكنهم أكثر بؤسا وأقل مهابة، يتحركون جميعا تحت هذه الشمس الحامية في عشوائية وحيرة، كأنهم يعيشون في زمن غير زمنهم، توقفت مدهوشا وعاجزا عن الحركة.

كان كل الركاب الذين رافقوني في رحلة السفينة قد انصرفوا، تلفت أبحث عمن ينتظرني فلم أجد أحدا، كنت بائسا ووحيدا، عمري لم يكد يصل إلى الثامنة عشرة، بنطلوني قصير، وحقيبتي من الكارتون المقوى، وقبعتي من صوف التويد، ولا يحق لي الوجود طويلا في هذا المكان، كان من المفترض كما قالوا لي قبل أن أغادر ليفربول أن مندوبا من مصلحة الآثار سيكون في انتظاري، يساعدني

على ركوب القطار إلى القاهرة حتى أسلم نفسي لمدير المصلحة «جاستون ماسبيرو»، ولكن بعد انتظار طويل أدركت أن أحدا لن يجيء.

لم يكن أمامي إلا أن أغادر الميناء بمفردي وأستخدم الجنيهات القليلة التي معي لأشق طريقي إلى محطة القطار، عند الباب، حدق الحارس في جواز سفري، وعندما تبين أنني بريطاني رفع يديه بالسلام وهو يدق الأرض بأقدامه، بالرغم من صغر سني فقد أحسست أنني أتمتع بكل مزايا الإمبراطورية، الشارع أمام الميناء مزدحم بالناس والعربات التي تجرها الأحصنة والحمير، وفي الجانب الآخر تقف عدة شاحنات عسكرية معلق عليها العلم البريطاني، أحسست بالأمان، هناك من سيتكفل بحمايتي على هذه الأرض الغريبة، كان هناك حمال عجوز يلح علي أن يأخذ حقيبتي و يذهب بي إلى أحد الفنادق، لوحت له رافضا، كان شكله مزريا ولغته الإنجليزية مهشمة، كنت أريد أن أسير حتى أتعب، فبعد أيام السفر الطويلة على ظهر السفينة كنت أحن للسير بثبات على اليابسة، قال في يأس:

ـ قرش واحد.. أي خدمة..

لم أرد عليه، سرت في شارع الجمرك وسط الدكاكين والمخازن والوكالات والناس الذين يرتدون أغطية متربة فوق رءوسهم، من أين أحضروها؟ ولماذا استبدلوها بغطاء الرأس المخطط الذي يبدو في الرسوم؟ ماهذه الملابس؟! أين ذلك المئزر الذين كانوا يضعونه حول وسطهم فيظهر جمال صدورهم العارية؟ لماذا يبدون بهذا القبح؟ ماذا حدث لعيون النساء الواسعة التي تحددها ألوان الكحل؟ ربما

كان هذا شيئا مؤقتا، فالموانئ دائما ماتجمع أخلاطا من كل الأجناس، ربما ما زالوا هم على حالهم في الداخل، خلف هذا الغبار.

سمعت صوت وقع سنابك الخيل خلف ظهري تماما، تنحيت جانبا حتى أسمح له بالمرور، ولكن العربة توقفت بجانبي، كانت هناك عربة سوداء اللون، عرفت فيما بعد أن اسمها حنطور، يجرها حصان وحيد أعجف، والسائق يجلس متصلبا وفي يده خرزانة طويلة، وسمعت صوتا مبحوحا يهتف بي:

ـ يا أنت.. أيها الخواجة الصغير...

كان الصوت ينادي علي بإنجليزية متعثرة، كانت تجلس داخل العربة امرأة مكشوفة الوجه، ملتفة في عباءة سوداء، أكبر سنا مني بقليل، عيونها واسعة، ورموشها مقوسة لأعلى، أنفها بارز بعض الشيء، شفتاها ملونتان بحمرة فاقعة، ولكنه متناسب مع بشرتها النحاسية، وعلى رأسها عصبة ملونة وفاقعة أيضا، تشبه قليلا العصائب الموجودة في الرسوم، لا بد أنني رأيتها من قبل، في نقش أو في صورة أو في أحد كتب اللورد، وقفت متجمدا، عادت تهمس بلغتها المتكسرة:

ـ هيا.. اركب سريعا..

ظللت متجمدا، ولكنها مدت يدها وجذبتني نحوها، لم تكن في حاجة إلى قوة كبيرة لتسيطر علي، كنت مبهورا ومصدوما ومعدوم المقاومة، أجلستني بجانبها وأشارت للسائق أن يمضي فهوى بالخيزرانة على ظهر الحصان الأعجف، تحركت العربة وابتعدت عن عنابر الميناء بلونها الكالح، ورأيت سهما مكتوبا عليه: إلى وسط

المدينة، ولكنها لم تتجه إليه، لم تتحدث معي، ظلت فقط تمسك بذراعي، كأنها تخشى أن أقفز هاربا، بدأت حرارة الريح تخف قليلا، كنت أعود للبحر ولكن من اتجاه آخر، لم أنظر إليها، ولكن جسدها ظل يحتك بجسدي كلما اهتز الحنطور، اختفت المباني اليائسة فجأة وبدا البحر أخضر ومفتوحا ومتوهجًا بالزبد، توقفت العربة، قفزت الفتاة منها برشاقة، وأشارت لي أن أهبط، وعندما رأتني خائفا قالت بابتسامة شقية:

ـ لا تخف.. لن آكلك.

حملت حقيبتي وهبطت معها، ابتعدت العربة فجأة، وظللت أسمع صوت سنابك الجواد حتى تلاشت، ولم يبق إلا هدير الموج، خلعت الحذاء الخشبي الذي كانت تلبسه، ولفت الملاءة السوداء حول جسدها وسارت حافية على الرمال، شعرت بالإعياء، وكان دوار البحر يقلب معدتي، ولكني سرت خلفها، ظهرت أمامنا عشة من الخشب، بناء صغير ومتداع، من الغريب أن يصمد في وجه كل تلك الريح، أزاحت الباب ودخلت بينما بقيت أنا واقفا مترددا، مدت يدها مرة أخرى وجذبتني للداخل، شممت رائحة الخشب المشبع بالملح واليود، لم يكن في العشة سوى سرير صغير مجدول من سعف النخل ونافذة تطل على سماء باهتة لا يبدو فيها إلا طائر وحيد، أجلستني على حافة السرير وخلعت غطاء الرأس، جلست أمامي وأخذت تتأمل وجهي في استغراق، قالت:

ـ كم تبدو صغيرا! شاربك ليس أكثر من زغب أصفر كالذي يكسو الكتاكيت.

صمتت قليلا، ومدت يدها ومسحت العرق من على جبيني، ثم عادت تقول:

ـ كن صريحا، هل لامست امرأة من قبل؟

قلت: أمي...

قالت ضاحكة: أعرف هذا يا غبي، لا أقصد هذا النوع من الملامسة، أقصد أن تلامس امرأة حقيقية، تهب لك أشياء حقيقية غير التي تجدها عند أمك..

انحنت على الأرض وفكت سيور الصندل من حول قدمي، تأملت أصابعي المحتقنة وهتفت:

ـ يا لها من أصابع صغيرة ووردية، تماما مثل رءوس سمك المرجان، هل أنت جندي؟.. كلا أنت أصغر وأكثر وداعة.. ماذا تعمل؟

جمعت صوتي وقلت في صعوبة: أنا رسام.

ـ هل أنت كذلك حقا؟.. رسام للكبار أم للصغار.. لا يهم..من المؤكد أن معك نقودا.. أليس كذلك؟

كنت عاري القدمين، داخل كوخ يوشك أن يتداعى مع امرأة بالغة الجراءة ولا أدري ماذا ينتظرني في الخارج، أخرجت لها كل الجنيهات التي كانت في جيبي، عشرون جنيها، سلفة مقدمة كنت قد قبضتها في «ليفربول» قبل أن أصعد إلى السفينة، كنت أريد أن أعطي لأبي منها شيئا، ولكن الفرصة لم تتح لي، نظرت إلي، وإلى صورة الملك جورج المرسومة على النقود وهتفت في دهشة:

ـ يا له من مبلغ كبير، لن آخذ أكثر مما يستحق الأمر..

أخذت خمسة جنيهات كاملة، كان في إمكانها أن تأخذ المبلغ كله، ولكنها أرجعت الباقي إلى جيبي، نهضت وبدأت تخلع ملابسها، بدا جسدها النحاسي دافئا وأليفا، قالت:

ـ إذا كنت رساما.. فلتبدأ بي هل يعجبك جسدي؟

ولكننا لم نقم بالرسم إلا فيما بعد، كنت خجولا ولا أدري ماذا أفعل، جعلتني أستلقي على ظهري وامتلكتني تماما، انسرب دفؤها إلى جسدي الذي لم يعرف إلا برودة الطفولة، توافقت حركتها مع صوت موج البحر، كان مدها مليئا بالرغبة، وجزرها فرصة لالتقاط الأنفاس، قالت وهي تحسسني: أنت خجول وناعم مثل فتاة.. لا تغمض عينيك، هذه تجربتك الأولى ويجب أن تعرف كل تفاصيلها، حاولت ذلك، وكان وجهها ملونا وغريبا، ولكن جسدها كان يقوم بكل العمل، وجدت نفسي أرتعد، تنتفض كل خلية من جسدي، يغادرني جزء من روحي، ويسكن في جسدها.

غرقت في النوم ملتصقة بي، ضاعت الألوان من على وجهها وبدت أصغر بكثير مما كنت أعتقد، كنت أشعر بدفء واسترخاء وحزن، ظللت أحدق في السقف الذي توشك أخشابه أن تتطاير مع الرياح، كأن العالم قد تغير فجأة، كل شيء أقوم به على هذه الأرض الغريبة سيكون مختلفا، ظللت متشبثا بجسدها، سألتها عن أمها؟ قالت وهي تضحك.. ماذا تعتقد؟.. كليوباترا طبعا.. ولم أدر إن كانت تمزح أم تتكلم جادة، ثم غرقت في النوم.

استيقظت مفزوعا، كان هناك طرق على الباب، ولأول وهلة

تخيلت أنه أبي، أو عمتي تمسك بالإنجيل، أو اللورد «أمهرست» شخصيا، ولكن الفتاة غطت جسدها النحاسي وقفزت من على السرير بنشاط، كان ظهري يؤلمني والخوص قد ترك علاماته على جسدي، ولكنها كانت فتية، خرجت من الباب وأغلقته خلفها حتى لا يراني أحد، سمعت صوتها وهي تتكلم مع رجل ما، يرتفع صوتاهما عاليا ثم ينخفض، صوت الرجل خشن، ولكن صوتها قوي وآمر، حسبتهما يتشاجران، وسمعتها تصدر صوتا خشنا من حلقها كأنها تتجشأ، ثم هدأ كل شيء، بدا أن الرجل قد انصرف، وفتح باب العشة وظهرت وهي تحمل في يدها سمكة ضخمة فضية اللون ما زالت تحاول أن تتشبث بالحياة، قالت مبتسمة:

ـ كان هذا صيادا أحضر لنا تلك السمكة.. لا بد أنك جائع موت..

سارت إلى ركن العشة، كان هناك وعاء من الصفيح مليء بالرماد وعليه بعض أعواد الحطب، لم تفعل أكثر من أنها جرته للخارج وأشعلت فيه النار، نفخته قليلا ثم تركت الباقي لهواء البحر، نهضت واقفا، شاهدتها وهي تغسل السمكة في ماء البحر ثم تجلس على الشاطئ، تكوم بيدها الرمل الطري والملح وتحيط به جسد السمكة من كل ناحية، كأنها تؤدي طقسا قديما، وما هذه السمكة إلا قربان صغير، كان الهواء يكاد ينزع الرداء الخفيف الذي تغطي به جسدها، حتى هذا العري كان أيضا جزءا من الطقس، بدأت طيور النورس تدور حولها كالهالة، ووضعت السمكة بالطين الذي يحيط بها فوق النار التي تطقطق، انبعث خيط من الدخان، نفخت فيها بإصرار حتى بدأت ألسنة اللهب الصغيرة تولد من جديد، تزيح خصلات

شعرها كلما تهدل، لم يكن ما يدور حولي واقعيا، كنت أسير رؤية ما، فتحت حقيبتي الصغيرة، أخرجت دفتري وأقلامي وبدأت أخط على الورق الأبيض، أخذت أصور أول طقس فرعوني أراه، توقفت بعد برهة وكان وجهها محتقنا وأنفاسها لاهثة، سارت إلي وتأملت خطوطي وهي تقول:

ـ أنت ترسمني.. ماذا أعجبك في؟

هتفت بها: عودي.. واصلي نفخ النار..

عادت وهي تضحك: أنت تحب السمك على الطريقة السكندرية إذن..

نضجت السمكة قبل أن أنتهي من الرسم، حملتها دون مبالاة بسخونتها، فتحتها من المنتصف، ظهر جوفها الأبيض مقسما، وعمودها الفقري ممتدا مثل تضاريس أرض شرقي، مدت يدها وأخذت تطعمني القطع الساخنة دون أن أتوقف عن الرسم، كانت صورتها قد انطبعت في ذهني بحيث لم أطلب منها العودة للنفخ من جديد، استغربت من طعم السمك، كنت قادما من جزيرة السمك هو طعامها الأساسي، ومع ذلك لم أذق سمكا شهيا مثل هذا، قضينا عليها معا، وظلت أشواكها ملقاة على الأرض بجانبنا ونحن نمارس الحب للمرة الثانية، قمنا بذلك هذه المرة في نعومة وبطء حتى إنها همست لي إنني أتعلم سريعا.

قالت: أوشك اليوم أن ينقضي، علينا أن نخرج قليلا حتى لا يمل بعضنا من بعض سريعا.

اغتسلنا في البحر، ارتدينا ملابسنا وسرنا على الرمال، ركبنا عربة صغيرة من الخشب الملون فوقها مظلة ويجرها أحد البغال، أصبح السماء أرجوانيا والشمس قانية، عالم مرسوم بالألوان المائية، لم يفقد بعد لمسته الإلهية، والآثار التي يتركها البغل على الرمل هي الوحيدة على كون قد ولد للتو، توقفت العربة أمام بناء حجري ضخم، قلعة قديمة، نصف مهدمة، يكسو أحجارها غبار البارود الداكن، كان جزء كبير من أحجارها قد اقتلع وتكسر وتناثر حول بقايا الجدران، لم يبق منتصبا إلا أبراج مليئة بالفجوات، تحيط بها أيضا هالات من البارود، كانت تفوح من المكان كله رائحة الحريق والموت، قلت مذهولا:

ـ ماهذا.. هل انفجر هذا المكان؟

قالت بكآبة: إنها واحدة من القلاع التي دمرت، كان هناك حوالي الثلاثين قلعة، سويت جميعا بالأرض، ولم يبق شاهدا على ماحدث إلا هذه القلعة.

درت حولها، شاهدت الطحالب والنباتات المتسلقة التي تنمو على جدرانها، بقايا المدافع التي دب فيها الصدأ وبنت الطيور فيها أعشاشها، قلت:

ـ من فعل كل هذا؟

مطت شفتيها وتطلعت إلي، كأنني أعرف كل شيء وأتظاهر بالجهل، قالت:

ـ الكفار.. كفار من بلدكم، ربما كان أبوك من بينهم.

قلت مدافعا عن نفسي:

ـ لم يكن أبي محاربا، كان مجرد رسام للحيوانات الأليفة.

أحسست أنها قد أصبحت فجأة غاضبة مني، تبددت من جسدينا فجأة آثار النشوة السابقة، ابتعدت عنها وتشاغلت بالدوران بين بقايا الأحجار، وظلت الشمس تواصل سقوطها خلف حافة الأفق، وبدا أن الظلام سيحل بأسرع مما أتصور، كانوا قد أرسلوني من «سوافهام» لأرسم آثار هذا البلد وأحافظ عليها، فلماذا تعاملوا معها بهذه الوحشية، إذا كانت هذه الفتاة صادقة؟ أصبحت الرياح أكثر برودة، تداخلت بين الأطلال وهي تزوم في غضب، كانت جالسة فوق أحد الأحجار وهي ترتجف، كنت خائفا من أن ألمسها، تبدد كل ما كان بيننا فجأة، سمعتها تقول في صوت متهدج، ربما لم تكن تتحدث إلي:

ـ كنت صغيرة، في الحادية عشرة من عمري، لذلك فكل شيء منطبع في ذهني، كان لنا بيت صغير في «المكس»، و قارب صغير يخرج عليه أبي للصيد، كنت أعتقد أن الشمس تختبئ داخل هذه القلعة القريبة لأنها تغيب في أبراجها كل ليلة، كانت أمي حاملا في شهرها الأول، وكانت تريد أن تأكل سمكا ولم يقدر أبي على الخروج بقاربه، كان خائفا من السفن الضخمة التي تملأ الأفق ومن مدافعها العملاقة الموجهة ناحية المدينة، ناحية بيوتنا، كنا جميعا نرتعد، سمعت أبي يتحدث مع بقية الصيادين، كان هنالك إنذار موجه من القائد الإنجليزي لهذه السفن بأن تسلم المدينة كل قلاعها ومدافعها وعتادها، وإلا سوف يقوم بتدميرها بمدافعه الجبارة، كنا نرتجف من الخوف ولكننا لم نتصور أننا نقف على حافة الكارثة، هبطت أنا وأمي إلى السوق القريب فوجدناه خاليا، لا سمكة ولا

ثمرة، فر القادرون على الهرب، وتسربت ساعات المهلة كحبات الرمل، لم يكن أحد يعرف السبب الحقيقي وراء كل هذا الغليان، ولا سبب حشد كل هذه السفن، كانت هناك مشاجرة كبيرة مات فيها بعض الناس، خواجة من جزيرة بعيدة قتل مصريا بسوق الحمير، كانت هذه بداية المشاجرة بين الطرفين، مشاجرة يمكن أن تحدث في أي مدينة، ولكن سفن الكفار انتهزت الفرصة وجاءت، وربما كانت موجودة من قبل مختبئة خلف حافة الأفق، عند الظهر اشتعل الجحيم، واستقرت القذيفة الأولى في قلب بيتنا في «المكس»، قتلت أبي مباشرة، أول من دفع ثمن سقوط المدينة، لم تكن لنا أي صلة بهذا «المكاري» الذي مات، ولا الخواجة الذي قتله، ولكن المدينة كلها كانت تشتعل، والمدافع الهزيلة الموجودة في القلاع تحاول أن ترد على النيران، ولكن قذائفها قصيرة النفس، تسقط في المياه قبل أن تصل للسفن، أخذت القلاع تنهار الواحدة تلو الأخرى، وبدأ الجميع يهربون، ولكننا كنا نريد العودة لبيتنا المحترق، حيث توجد جثة أبي، ظللنا جالستين مذهولتين وسط عراء المدينة المحترقة، ننتظر وصول القذيفة التي ستخلصنا من كل هذه التعاسة، ولكنها لم تأت، رفعت المدينة كلها أعلامها البيضاء، وظلت الحرائق مشتعلة، ودفنا بقايا عظام أبي، عشنا في هذه العشة على شاطئ البحر، حتى تركتني أمي هي أيضا ورحلت لتلحق بأبي.

سمحت لي بأن أسندها وأساعدها على السير، سارت العربة التي يجرها البغل في بطء، ولم يكن هناك ضوء، ولكننا اهتدينا إلى مكان العشة، استلقيت بجانبها، كنا نحس ببرد قاتل، تلاصقنا بحثا عن الدفء دون أن أجرؤ على ممارسة الحب معها، ليتني فعلت،

ربما خفف هذا من إحساسنا بالمرارة، في الصباح كان علي أن أواصل رحلتي، ولم تكن حانقة علي، كنت مجرد تجربة لا علاقة لها بالحرب، وكنت حزينا، وفي محطة القطار الرومانية الشكل وجدت القطار يقف في انتظاري.

* * *

......كانت هيلين تواصل الغناء، وكنت أعيش في تلك اللحظات التي بدت بعيدة على شاطئ الإسكندرية، كان صوت هيلين غريبا ونقيا لا يليق به أن ينطلق في جو هذه الحانة الملوثة، وسط هذه الوجوه المترنحة، كانت مقاطع غنائها تدخل في أعماقي، تذكرني بتلك العلاقة القصيرة مع فتاة قريبة الأمد، لا يبدو أنها سوف تتكرر أبدا.

في طريق عودتنا ونحن نركب الحمير، هتف «بلاكون» في ثقة: لقد كانت تغني من أجلي.. ربما كان الأمر كذلك، وربما كانت تغني لنفسها وليس لأحد من الموجودين، كنت أشعر بالتعاسة، وكنت أريد العودة إلى المقبرة، ولكن كان هذا مستحيلا في هذا الظلام ومع وجود الذئاب.

نهضت مبكرا قبل الجميع، كان نومي قلقا في استراحة مفتشي الآثار، لم أطق الانتظار حتى يستيقظ رفيقاي، حتى إدريس كان نائما، نهض متأففا وقادني عبر المروج إلى مقبرتي، بدأت بسرعة في إنجاز الرسوم المطلوبة، كنت آمل أن أفرغ منها سريعا حتى يبقى لي وقت أسجل فيه رسومي، دون أن يرصدني «تيوبري»، لم أدر بمرور الوقت، ولكنه جاء عند الظهيرة، وقف بقامته العملاقة على

باب المقبرة، لففت أفرخ الورق الشفاف وقدمتها إليه، ولكنه كان غاضبا، هتف بي:

ـ لقد ذهبت معهما إلى حانة «صفط الخمار».. أليس كذلك؟

أحسست بالذنب، بدا مثل أبي وهو يؤنبني، أومأت برأسي في طاعة واستخذاء، عاد يصيح:

ـ سوف يدمرانك، إنهما وغدان عاجزان، نقل النقوش من على هذه الجدران هو أقصى ما يستطيعان القيام به، أما أنت فمازلت صغيرا، وهذا البلد المجهول مفتوح أمامك، يمكنك إذا أردت أن تكتشفه لا أن تضيع فيه.

لم أدرك بالضبط مغزى كلماته، ولكني أحسست أنه يبادلهما درجة الكراهية نفسها، كان بين ثلاثتهم صراع خفي أشعر به دون أن أعرف أسبابه.

لم أدر أن عيد الميلاد قد حل إلا حين تلقيت رسالة من أبي، لم تتساقط ندف الثلج، ولم تنتصب الأشجار المخروطية، ولم يعل صوت التراتيل، كان الميلاد مغبرا وحارا، وحتى الكنائس القليلة التي كانت تحيط بنا كان لها توقيت آخر لعيد الميلاد، كان «فرازر» و«بلاكون» يستعدان للنزول إلى المنيا، كانا مدعوين إلى حفل ضخم في منزل مدير الري، كان أيرلنديا عنيدا، ولديه ابنتان توءمتان تجيدان الرقص والعزف على البيانو، كنت أريد أن أذهب معهما، ولكن «تيوبري» نظر إلي في حنق فاعتذرت عن مرافقتهما، نظر إلينا «فرازر» في ريبة وهو يقول:

ربما خفف هذا من إحساسنا بالمرارة، في الصباح كان علي أن أواصل رحلتي، ولم تكن حانقة علي، كنت مجرد تجربة لا علاقة لها بالحرب، وكنت حزينا، وفي محطة القطار الرومانية الشكل وجدت القطار يقف في انتظاري.

* * *

......كانت هيلين تواصل الغناء، وكنت أعيش في تلك اللحظات التي بدت بعيدة على شاطئ الإسكندرية، كان صوت هيلين غريبا ونقيا لا يليق به أن ينطلق في جو هذه الحانة الملوثة، وسط هذه الوجوه المترنحة، كانت مقاطع غنائها تدخل في أعماقي، تذكرني بتلك العلاقة القصيرة مع فتاة قريبة الأمد، لا يبدو أنها سوف تتكرر أبدا.

في طريق عودتنا ونحن نركب الحمير، هتف «بلاكون» في ثقة: لقد كانت تغني من أجلي.. ربما كان الأمر كذلك، وربما كانت تغني لنفسها وليس لأحد من الموجودين، كنت أشعر بالتعاسة، وكنت أريد العودة إلى المقبرة، ولكن كان هذا مستحيلا في هذا الظلام ومع وجود الذئاب.

نهضت مبكرا قبل الجميع، كان تومي قلقا في استراحة مفتشي الآثار، لم أطق الانتظار حتى يستيقظ رفيقاي، حتى إدريس كان نائما، نهض متأففا وقادني عبر الموج إلى مقبرتي، بدأت بسرعة في إنجاز الرسوم المطلوبة، كنت آمل أن أفرغ منها سريعا حتى يبقى لي وقت أسجل فيه رسومي، دون أن يرصدني «تيوبري»، لم أدر بمرور الوقت، ولكنه جاء عند الظهيرة، وقف بقامته العملاقة على

باب المقبرة، لففت أفرخ الورق الشفاف وقدمتها إليه، ولكنه كان غاضبا، هتف بي:

ـ لقد ذهبت معهما إلى حانة «صفط الخمار».. أليس كذلك؟

أحسست بالذنب، بدا مثل أبي وهو يؤنبني، أومأت برأسي في طاعة واستخذاء، عاد يصيح:

ـ سوف يدمرانك، إنهما وغدان عاجزان، نقل النقوش من على هذه الجدران هو أقصى ما يستطيعان القيام به، أما أنت فمازلت صغيرا، وهذا البلد المجهول مفتوح أمامك، يمكنك إذا أردت أن تكتشفه لا أن تضيع فيه.

لم أدرك بالضبط مغزى كلماته، ولكني أحسست أنه يبادلهما درجة الكراهية نفسها، كان بين ثلاثتهم صراع خفي أشعر به دون أن أعرف أسبابه.

لم أدر أن عيد الميلاد قد حل إلا حين تلقيت رسالة من أبي، لم تتساقط ندف الثلج، ولم تنتصب الأشجار المخروطية، ولم يعل صوت التراتيل، كان الميلاد مغبرا وحارا، وحتى الكنائس القليلة التي كانت تحيط بنا كان لها توقيت آخر لعيد الميلاد، كان «فرازر» و«بلاكون» يستعدان للنزول إلى المنيا، كانا مدعوين إلى حفل ضخم في منزل مدير الري، كان أيرلنديا عنيدا، ولديه ابنتان توءمتان تجيدان الرقص والعزف على البيانو، كنت أريد أن أذهب معهما، ولكن «تيوبري» نظر إلي في حنق فاعتذرت عن مرافقتهما، نظر إلينا «فرازر» في ريبة وهو يقول:

- أي جنون هذا؟!.. ستقضيان ليلة «الكريسماس» داخل ظلمة هذه المقبرة؟!

لم يتلق منا جوابا، تركنا وانحدر مع رفيقه نحو النهر، وانتصف النهار ونحن صامتان، كل منا يتظاهر بالعمل، ولكنه كان يتركني كثيرا، يقف متأملا النيل وهو يدخن في شرود، كان هناك شيء غير طبيعي يحيط به، وفي النهاية وجد أن من الضروري أن يتخلى عن صمته وهتف في اقتضاب:

- احزم أمتعتك.. سوف تذهب..

قلت مدهوشا: ستذهب لحفل مدير الري؟

قال: كلام فارغ.. ستذهب أبعد قليلا.. ستذهب إلى تل العمارنة.

لم أتصور أنه سوف يأخذني بنفسه إلى مكان الحفريات، إلى حيث يوجد «بتري» الذي سمعت عنه كثيرا، أعددت حقيبتي التي أحملها فوق ظهري، حرصت على أن أضع فيها الأوراق وأقلام الرسم، كان «نيوبري» في انتظاري على باب المقبرة، كان واضحا أنه قد دبر كل شيء بحيث يتخلص منهما، ولكنه فضل أن يأخذني معه، سوف يكون هذا الكريسماس متميزا بالتأكيد.

عبرنا النهر، وركبنا عربة تجرها البغال اهتزت بنا صعودا وهبوطا، سرنا طويلا حتى خيل لي أن مؤخرتي قد تهرأت، كانت منطقة الحفريات تبتعد قليلا عن القرية التي يقيم فيها الفلاحون، ولكن من المؤكد أن المدينة المطمورة في هذا المكان تمتد تحت بيوتهم،

اقتربنا من الموقع في بطء، وأنا أمسك أنفاسي، أشار «نيوبري» إلى رجل يقف منتصبا، شامخا بلحيته البيضاء، أدركت أنني أشاهد «السير وليام بتري»، كانت هيئته تليق بسمعته، بعشرات الاكتشافات والأبحاث والمناصب العلمية التي تولاها، تقدمنا منه، صافحه «نيوبري» وتبادلا معا كلمات قلائل، لم يبد أن «بتري» قد لاحظ وجودي، كنت موجودا بالمصادفة بين هذين الرجلين الكبيرين، قال «نيوبري» بصوت أجش:

- جئت لأهنئك باكتشافك الجديد.

لم يستطع «بتري» أن يخفي ضيقه، قال وهو يزفر:

- لم نكد ننتهي منه بعد، أنا مندهش من انتشار الأخبار بهذه السرعة.

قادنا بنفسه إلى مكان أعلى الحفرية التي يعمل بها، حيث بدت معالم المدينة المطمورة في الظهور، كأنها تولد من الرمل والحصى، كان يعتقد أن هذه هي بقايا المدينة التي أمر الفرعون «أخناتون» بإنشائها عندما غضب على عاصمته القديمة طيبة وهاجر منها، ازدهرت على مدى عشرين عاما قبل أن يموت الفرعون ويهجرها أهلها ليعودوا إلى «طيبة» مرة أخرى، شاهدنا بقايا بيوت صغيرة متلاصقة، أشبه بحفر غائرة، جدران من الطوب اللبن فقدت أسقفها، قال «بتري»: هنا كان يقيم العمال الذين بنوا هذه المدينة، أقاموا المعابد والقصور والبيوت الفخمة ومقابر الأشراف، وسكنوا هذه الجحور الضيقة، كما هو الحال دائما، ظهرت قطع متكسرة لتماثيل ومسلة ملقاة عاجزة، يحيط بها ركام يجعلها عاجزة على الانتصاب، في

وسط المدينة يوجد تل عال من الرمال، توقف «بتري» وهو يمسك بلحيته، ظل يتأمل قليلا قبل أن يقول في صوت خافت:

- إنه التل الأزلي الذي كان المصريون يقيمونه دائما، وتطورت منه أشكال الأهرامات، كان هذا محاولة منهم للوقوف في وجه الخواء، فالكون بحر بلا قرار، وهذا التل، هو الذي يبقى بعد أن ينحسر فيضان النيل، وهو يجسد البعث بعد الفناء، هنا يقيم الإله.

كان «نيوبري» يرتجف، ينتزع أقدامه من الأرض بصعوبة كأنه يتوقع الأسوأ، لم أدر ما الذي يخيفه ويجعله مترددا إلى هذا الحد، ولعل هذا هو السبب في أنه لم يجرؤ على القدوم وحده، حين سأله «بتري» كيف عرف بأخبار اكتشافه لم يقدم تفسيرا مقنعا، هل كانت له عيون داخل الموقع؟ لم يتوقف بتري عند ذلك كثيرا، ولم يشأ أن يحرمه من الزيارة التي جاء من أجلها، انحدرنا جميعا إلى الحفرة الهائلة، كانت أعمدة الغبار ما زالت تتصاعد، بدا أن الأرض كانت تتنفس بعد أن انزاح هذا الركام من على كاهلها، حمل أحد الرجال شعلة من النار، دخلنا إلى مقبرة كانت موجودة خلف التل، كان الجزء الأكبر منها مسقوفا، بدأت الرسوم والألوان الباهتة في الانكشاف أمامنا، مرة أخرى ينكشف السحر وتتجلى مفاجأة جديدة لي، لا أدري من أي عمق خرجت كل هذه الخطوط، أي رؤى طافت بالذهن وهي تتجسد ويضعها على هذا الجدار، كيف أمكن تقطير كل العادات والطقوس ووضعها في هذه الصور الصغيرة المتتابعة، ظللت أتأملها حتى بعد أن انسحب الضوء، أحسست أنني أحفظ هذه الخطوط، أختزنها في ذاكرتي، أعرف ماذا سيفعل الرسام القديم في لوحته القادمة، أفكر بنفس أسلوبه، أدرك كيف سينقل نفسه بانسيابية

إلى الصورة التالية، فلاحون يحملون أعواد القمح المثقلة بالسنابل، صيادون يخرجون أسماكا مازال الماء يقطر منها، فتيات تكسوهن ثياب شفافة يعزفن ويرقصن، تطل عليهم جميعا من أعلى شمس مدورة، تحولت أشعتها إلى أيد مبسوطة، لا توجد خراطيش تحمل أسماء عظيمة، ولا إشارات لملوك مبجلين أو آلهة مقدسة، كنت مبهورا، أتتبع انعكاس الشعلة على الجدار وأنا أوشك على البكاء.

مد «نيوبري» أصابعه وأزاح بعض الغبار في خفة، وتأمل النقش الذي ظهر طويلا، كان يلتقط أنفاسه في صعوبة، كان «بتري» واقفا بقامته المديدة صامتا تماما كإله قديم، تنهد «نيوبري» ثم انفجر فجأة في صوت لم يستطع أن يخفي ما فيه من شماتة:

- إنها ليست مقبرة ملكية!

قال بتري بهدوء: أعرف ذلك ياسيدي.

تنهد «نيوبري» في ارتياح وانتظمت أنفاسه أخيرا، لم يحدث الاكتشاف الذي كان يخشاه، امتلأت المقبرة فجأة بمشاعر التوتر، شعرت بالخوف، نظر إلينا «بتري» بقسوة، بدا شديد الرغبة في إخراجنا من المقبرة بأسرع وقت ممكن، ولكن «نيوبري» تناول الشعلة من حاملها وأخذ يتقافز في المكان بخطوات فرحة، تصاعدت منه كلمات مثل «رائع» و«عظيم» و«مدهش» ولكنه لم يكن يعنيها.

خرجنا من المقبرة جميعا ونحن نتصبب عرقا، قال «نيوبري» في عجلة:

- أشكرك ياسيدي، كنا ننوي البقاء أكثر لولا أن لدينا ارتباطا.

لم يكن هناك أي ارتباط، ولم يتمسك «بتري» بنا كثيرا، سرنا وسط الخلاء المحيط بالموقع، كان «نيوبري» صامتا ولكنه ظل يواصل القفز مثل طفل صغير، ظهرت بيوت القرية الطينية، وارتفعت أصوات بائعي القصب والعنب ومؤجري الحمير، قلت في صوت واهن:

ـ هل سنعود إلى مقابر بني حسن؟

هتف في مرح: كلا.. جدير بنا أن نحتفل.. سأذهب بك إلى مكان مدهش..

توقفت عن السير، كنت قد مللت غموضه ومعاملته لي كطفل صغير، قلت:

ـ سيدي، يجب أن أفهم، لا يمكن أن تقودني هكذا وأنا مغمض العينين.

صاح في جذل: ألم تفهم بعد؟ «بتري» لم يكتشف المقبرة التي كان يحلم باكتشافها، قبر الملك الذي كنت أنا خائفا من أن يصل إليه قبلي.

أصبحنا في وسط سوق الحمير مرة أخرى، تفحصها «نيوبري» وهو يردد كلماته الغامضة، توقف أمام بغلين قويين، التفت إلي وهو يقول:

ـ أعتقد أن هذين مناسبان؟

واصلت احتجاجي: سيدي.. لم أفهم بعد.

أشار لي وهو يقفز فوق أحدهما:

ـ هيا اركب وكف عن اللجاجة، الطريق أمامنا طويل وسوف أشرح لك كل شيء.

لم أجد بدا من امتطاء البغل الآخر، ومال «نيوبري» يحدث المكاري قائلا:

ـ أريدك أن تأخذنا إلى «دير البرشة».

قال الرجل محاولا المساومة على الرغم من أنه كان يستعد لركوب حماره:

ـ ولكن الطريق إليه وعر ياسيدي، وسوف نضطر لعبور بحر «اليوسفي».

قال «نيوبري» بهدوء: حاول ألا تغرقنا فيه.

سار الرجل أمامنا، دخلنا وسط دوامة من البيوت الطينية المتداخلة، بدأنا في عبور الترع وما عليها من جسور متداعية، كان بحر اليوسفي يمتد أمامنا مثل سكين لامع يشق الحقول الخضراء، كانت مياهه سريعة ومتدفقة عن بقية الأنهار العادية، كأن الموج يحس بالاختناق بين ضفتيه، بحث المكاري حتى وجد جسرا متداعيا مليئا بالثقوب، في كل لحظة كنت أخشى أن تنزلق ساق البغل في إحداها، كان الرجل يدور أمامنا بحماره الصغير، يعبر متاهة من المزالق الخطرة، أحسست بالرعب وأنا أسمع وشيش الماء المتدفق من تحتي، قال «نيوبري» ملاحظا:

ـ هذا الموج يحمل أكبر عدد من الغرقى في مصر، تقول القصص القديمة، إن «يوسف» ذلك النبي التوراتي، أنت تعرفه بلاشك، هو

الذي قام بحفر هذا النهر في ألف يوم فقط، وقام ببعث الحياة في واحة قفراء هي الفيوم، واسم هذا الواحة مستوحى من هذه الأيام الألف.

كنت مرعوبا فلم أستمع لكلماته جيدا، عبرنا الجسر أخيرا، انكشف الأفق فجأة عن صحراء ممتدة لم أكن أعتقد أنها قريبة إلى هذا الحد، بدأنا في السير على مدق رملي قديم، وبدت في نهاية الأفق سلسلة من الجبال الزرقاء الشاحبة من الصعب الوصول إليها، سمعت تيوبري وهو يتحدث في صوت متوتر:

ـ جئت إلى هنا وأنا خائف، كنت أخشى أن يسبقني إلى اكتشاف القبر الذي حلمت دوما باكتشافه، قبر أخناتون، الملك المارق، قبره موجود في تلك المنطقة، ربما وسط ركام تل العمارنة، وربما تحت هذا الرمل الذي تسير عليه، إنه بلد غريب، لا يخضع لأي نظام نعرفه، يعذبك بالعيش فيه، ولكنه فجأة يهبك الفرصة التي لا تتخيل وجودها، أنا متأكد أنه بعد كل هذه المثابرة سأتلقى هديتي وأكتشف مكان هذا القبر.

حدقت فيه مندهشا، كنت أعتقد أن تسجيل الرسوم من على كل جدران مصر هو أقصى طموحه، أما المكتشفون فهم بشر من نوعية أخرى، لهم قوى خفية تمكنهم من التغلغل تحت طبقات الأرض واستقراء أسرارها، قلت في تساؤل:

ـ لماذا يبدو هذا الملك المارق بمثل هذه الأهمية؟

قال بصوت حالم، كأن غبار الصحراء يجسد طيف أخناتون أمامنا ونحن نسعى خلفه:

ـ لم يوجد أحد مثله، ولم يفعل أحد كما فعل، لقد هجر كل الآلهة القديمة واختار إلها واحدا، لماذا فعل ذلك؟ ما زال الأمر لغزا، لقد ثار على كهنوت الماضي، وتوصل إلى ديانة بسيطة وواضحة هي عبادة الشمس، لا تحتاج لعتمة المعابد، ولا أسرار الكهنة، إنه يمكنك أن تراه مباشرة وهو يسطع عليك كل صباح، قضى على الغموض والطقوس والذين يدعون امتلاك الأسرار الإلهية في ضربة واحدة. هل تتصور ما فعله؟

كنت مبهورا بالكلمات التي أسمعها، أدركت أخيرا لماذا كانت النقوش مختلفة في هذا المكان عما رأيتها من الأماكن الأخرى، في هذه النقوش اندحرت الآلهة واختبأ الكهنة واختفى الملوك والقادة وصعد بدلا منهم الناس العاديون الذين لم يأبه بهم أحد، قلت:

ـ ولكن... هل يمكن أن نكتشف قبرا بهذه الأهمية؟ نحن مجرد رسامين!

ـ هذا هو سر قوتنا، نحن نستطيع أن نقرأ النقوش ونميز العلامات ونتتبع الدلائل، صدقني يا فتى.. لقد عملت طويلا مع هؤلاء الناس، ربما كان «بتري» أكثرهم علما، إنهم يحفرون ويحفرون، ولكن المصادفة العمياء هي التي تقودهم في نهاية الأمر، هذه الأرض تحتفظ بأسرارها منذ آلاف السنين، هل تعتقد أن حفنة من الأوربيين يمكنهم اكتشافها في سنوات قلائل؟

توقف عن الكلام محاولا أن يلتقط أنفاسه، وظلت البغال تحاول التقدم، والرمل الناعم يتسرب من تحت حوافرها، ثم دوى صوت

جرس، تلقفت الصحراء الصوت وأخذت ترده عبر الخلاء الصامت، دوى أكثر من جرس، وقال «نيوبري» مؤكدا:

- لقد رأونا!

قلت مدهوشا: من؟

- رهبان الدير، إنهم يراقبون الصحراء دوما من برجهم العالي، وعندما يلمحون أي مسافرين يرنون لهم الأجراس خشية أن يكونوا ضائعين في الصحراء، أو على وشك الضياع.

بدت أسوار الدير فجأة كأنها قدت من الرمال، صلدة وحصينة، تشربت عنف العواصف الرملية، وتماسكت أحجارها بفعل حرارة الشمس، بدا طنين الأجراس أكثر بهجة كلما واصلنا الاقتراب منه، قال «نيوبري»:

- هذا هو «دير البرشة»، واحد من أقدم الأديرة في العالم، بناه الرهبان على آثار أقدام المسيح حين مر من هنا وهو هارب من فلسطين...

يا لهذه الأرض! الجميع مروا من هنا، المرة الثانية التي يذكر فيها «نيوبري» اسم نبي آخر، وربما كان «أخناتون» هو نبيًا ثالثًا من نوع مختلف، لماذا جعل الله جزيرتنا نائية إلى هذا الحد؟ ترجلنا أمام الباب الضخم، كان على «المكاري» وبغاله أن ينصرفوا ويعودوا إلينا في نهاية اليوم التالي، هكذا طلب منه «نيوبري» ووافق الرجل من دون أن يطلب نقودا.

كان باب الدير مصنوعا من جذوع النخل، ما زالت تحتفظ بشكلها

الطبيعي بعد أن شقت فقط في المنتصف، معلق عليه حلقة من الحديد عليها نقوش لصلبان قديمة، قبل أن يقوم «نيوبري» بتحريكها، انفتح الباب، أصدرت مفاصله الصدئة صوتا عاليا، وظهر من خلفه راهب أشيب، تقدم إليه وهو يهتف باسمه، كان وجهه الشاحب تحيط به لحية صهباء، لم تكن ملامحه مصرية خالصة، لعل البقاء الطويل داخل الأقبية المظلمة قد أعطته هذه البشرة الفاتحة، تبعناه للداخل، التفت إلي مرحبا وهو يقول: أنا الأخ جورج.. كان «نيوبري» مصرا على مواصلة غموضه، ولكني كنت مبهورا بالمكان، سرت خلفهما دون كلمة، تأملت القباب التي تحيط بالفناء الواسع، وطيور الحمام التي تقف في الوسط وهي تلتقط طعامها من بين الرمال، وصلنا إلى ممر طويل على جانبيه أبواب منخفضة تؤدي إلى غرف صغيرة، عرفت فيما بعد أنها الصوامع التي يقيم فيها الرهبان، وأن بعضا منها مخصص لضيوف الدير، قال الراهب:

- ستقضون الليلة معنا، فراشنا خشن، وطعامنا فقير، ولكن عندنا نبيذا جيدا.

كانت صومعتي صغيرة، لا يوجد فيها إلا فراش صغير وصليب ضخم معلق على الحائط، ونافذة تطل على الصحراء الممتدة، تأملت هضاب الرمل الممتدة أمامي على مدى البصر، وأنا أتساءل.. كيف عرف المسيح طريقه وسط هذه المتاهة؟! حل الظلام، دقت الأجراس تدعو للصلاة، ظللت في غرفتي حتى انتهت الصلاة، ولم يحاول أحد منهم أن يلح علينا، جلسنا مع بقية الرهبان على منضدة خشبية مستطيلة، أكلنا الخبز والجبن والتمر، وشربت القليل من النبيذ، تحدثوا بالعربية والإنجليزية واليونانية وبلغات أخرى، تحركوا

في القاعة بمسوحهم السوداء، شربوا كثيرا من النبيذ، ولا بد أن أقبية الدير كانت ممتلئة به، كان «نيوبري» يشرب هو أيضا بشراهة غير معتادة، وضع الأخ جورج يده على ذراعه وهو يقول له مطمئنا:

ـ لا تقلق.. سوف يحضرون في الغد..

لم أشأ أن أسأل عما يعني، كنت سأتلقى إجابة ناقصة على أي حال، قضيت الليل وأنا نصف مستيقظ، لم تكن الريح تكف عن هز الأجراس، كنت أفتقد صوت النهر وعواء الذئاب، وعند الفجر رأيت صفوف الرهبان وقد انتشروا في أرجاء الصحراء المحيطة بالدير، يجمعون الحطب ويبحثون عن حبات الفطر المدفونة في الرمال، خرجت إلى الفناء، كانوا يعملون أيضا، ينظفون ويصنعون الخبز في فرن صغير ويشتغلون في المزرعة الصغيرة الملحقة بهم، يعملون بالكفاءة نفسها التي يشربون بها النبيذ، استيقظ «نيوبري» أيضا، وكان واقفا يتحدث مع الأخ جورج، ويبدو قلقا ومتوترا، وزاد القلق مع تواصل ارتفاع الشمس إلى السماء.

دقت الأجراس، أدركت أن هناك مسافرين آخرين ظهروا عند الأفق، سار الأخ جورج ومعه «نيوبري» معا إلى الباب كأنهما كانا يتوقعان هوية الزائرين، أصدرت المفاصل الصدئة صريرا، وانفتح الباب، كان هناك ثلاثة من البدو يركبون جمالهم، ويصحبون معهم جمالا أخرى بلا ركاب، التفت إليه الأخ جورج قائلا:

ـ ألم أقل لك.. جاءوا في الميعاد.

وقفوا أمام الباب وهم يهزون سيقانهم في حركات موحية، أطاعتهم الجمال وثنت سيقانها حتى بركت على الأرض، قفز الرجال

الثلاثة من فوقها وتقدموا إلى مدخل الدير، يتقدمهم شيخ كبير السن، عمامته بيضاء، ولحيته كثة، وعلى كتفيه عباءة ثقيلة من صوف الغنم مختلطة الألوان، لم يصافح أحدا، اكتفى بأن وضع يده على كتف كل واحد منا، لم تكن تحية بقدر ما هي إظهار لحسن نواياه، وقف الاثنان الآخران في المؤخرة في احترام، قال الأخ جورج:

ـ أهلا بك ياشيخ قنديل، مرحبا بكم يارجال، أعرفكم على أصدقائي الإنجليز.

سار أمام الجميع إلى قاعة صغيرة في ركن الفناء، كانت مفروشة بالحصر تتناثر في جوانبها حشايا صغيرة ذات ألوان صحراوية زاهية، بدأ يصب الشاي في أكواب صغيرة من الفخار، تأملت وجه الشيخ، كأنه خارج للتو من الكتاب المقدس، يتحدث بالعربية في لهجة عميقة، يرد على أسئلة «نيوبري» التي لا تهدأ، والأخ جورج يواصل تذكيرهما بالاتفاق المعقود بينهما، لم أستوعب المفردات جيدا، ولكني عرفت أنهم يتحدثون عن قبر مجهول في مكان مجهول، وكان وجه نيوبري يزداد إشراقا كلما مضيا في الحديث، وأخيرا نهض الشيخ قنديل ونظر للأخ جورج وهو يقول:

ـ سنرحل الآن، يجب أن نصل إلى هناك قبل أن يغيب الضوء.

أشار الأخ جورج إلينا وهو يقول:

ـ إنهما أمانة في رقبتك ياشيخ قنديل.

وضع الشيخ يده على رقبته وأحنى رأسه، وردد كلمات سريعة، تصافح جورج معهم، ربت على كتفي بود وطلب مني زيارته مرة

أخرى، خرجنا من باب الدير، كانت الجمال باركة على الأرض، تحرك أشداقها في تكاسل وتحدق فينا بعيونها الحزينة، أمسك «نيوبري» بذراعي وأشار إلى أحد الجمال وهو يقول:

- سوف تركب هذا الجمل ياهوارد.

تراجعت في فزع، لم أكن قد ركبت هذا الحيوان الغريب من قبل، وكان يبدو متوحشا وغير آمن، قال مطمئنا:

- لا تخف، الأطفال في الصحراء يركبون الجمال منذ ولادتهم.

قلت في صوت مكتوم: أنا لم أولد في الصحراء.

- ركوب الجمال لايحتاج إلى تدريب مثل الخيل، الخيل تحرك قائمتيها الأماميتين ثم الخلفيتين و تنطلق مسرعة، الجمال لا تفعل ذلك، إنها تحرك قدما واحدة للأمام، ثم تتلوها القدم الخلفية بعد ذلك، ساق واحدة فقط هي التي تتحرك في كل مرة، وليست لها حوافر وإنما خف لين، وهذا يجعلها تسير ببطء واتزان فوق الرمال، صدقني.. الجمل لا يهتز كثيرا ولا يترك الفرصة لأحد حتى يسقط من فوقه.

كان الحوار يدور بالإنجليزية، ولكن البدو كانوا يبتسمون، كأنهم يدركون فحوى الحوار، لم أكن مقتنعا، وكلما حركت الجمال أشداقها خفت أكثر، قلت في عناد:

- أريد أن أعرف أولا إلى أين نحن ذاهبان؟

قال «نيوبري»: ربما إلى أعظم اكتشاف في حياتي وحياتك، هيا اركب قبل أن يضيع النهار.

سار إلى الجمل الآخر، رفع ساقه وامتطى قمته المرتفعة في ثبات، فرد الجمل قائمته الأمامية، ثم الخلفية، ومال على جنبه قليلا، خيل لي أن «نيوبري» سوف يتدحرج على الأرض من الناحية الأخرى، ولكن الجمل سرعان ما استقام ورفعه عاليا فوق ظهره، مسد «نيوبري» شاربه الكث وأشار لي في صمت أن افعل مثله، غاصت روحي والجمل يرتفع بي، أحسست أنني وحدي في الهواء، ضحك رجال البدو في الأسفل وهم يشيرون إلي، صاح الأخ جورج من على باب الدير:

- فليبارككم الرب جميعا.

بدأ الجمل في السير ببطء، وأنا أهتز فوقه حتى أوشك ظهري أن ينخلع، كان يجب أن أرخي جسمي المتوتر قليلا، وأتشبث بالمقود الخشبي الذي أمامي، كان الشيخ قنديل يتقدمنا على ظهر جمله، تملأ الريح عباءته كأنه يوشك أن يحلق، بدأت معدتي المتقلصة في الارتياح، والجمل يخطو بانسيابية كأنه يسبح فوق الرمال، أحسست أننا سنواصل السير إلى ما لا نهاية، وبدت سلسلة بعيدة من الجبال تسد الأفق، تتبدل ألوانها كلما واصلنا الاقتراب منها، وتناثرت من حولنا صخور غريبة الشكل، مكورة وبيضاء، كأن طيورا عملاقة باضتها في هذا المكان، كيف استطاع «نيوبري» أن يتصل بهؤلاء الرجال من دون أن يعرف «بتري»، بل من دون أن يعرف «فرازر» و«بلاكون»؟! كان واضحا أن هذا كله قد تم بمساعدة هذا الراهب الغامض، تغير لون الصحراء وأصبحت أكثر بياضا، كأنها قد تغطت بالملح، بدأت قواطع من الصخور الجيرية في الظهور، وخلت الأرض من أي نوع من النباتات، وتباطأت حركة الجمل، أحاطت

بنا الجمال من كل جانب، وواصلت الريح المحملة بالرمل لطم وجوهنا.

أخيرا توقفنا عند سفح جبل مرتفع، هبطت الجمال بنا، استطعت أن أقفز من فوقه وأن ألمس الأرض من جديد، أحسست بالدوار، وأن قدمي غير ثابتتين على الأرض، ولكنني بدأت في تسلق الصخور خلفهما، لم يكن صعودا متواصلا، ولكن كانت تتخلله فترات من الهبوط والدوران حول كل صخرة تعترض الطريق، كنت ألهث، و«نيوبري» يلتقط أنفاسه في صعوبة، ولكنه لم يكف عن التقافز فوق الصخور، وتتبع البدوي العجوز الذي توقف أخيرا، وهو يشير إلى جوف الصخر قائلا:

ـ هذا هو المكان..

تجمعنا ونظرنا جميعا إلى الأسفل، كان هناك ممر غائر في باطن الجبل، منحوت في الصخر بمعاول قاسية، لم ينتظر «نيوبري» من الشيخ أي شرح إضافي، انحدر بسرعة متجها نحو الجوف المعتم، أسرعت خلفه، كان هناك ممر غائر، جداره مصقول وأملس، جبل رخامي، ساكن ومتأهب، تحسست الجدران، مكسوة بغبار ناعم، وخلفها توجد نقوش غائرة، كان «نيوبري» يواصل التوغل، ولكنني وقفت مشدوها أمام جدران المدخل، وقف الشيخ البدوي يتأملنا باسما كأننا طفلان يلهوان، جاء بدوي من أتباعه يحمل شعلة مطفأة تفوح برائحة القطران، توغلنا قليلا في الممر المظلم، أشعلها فتوهج المكان بالضوء، ظهر النقش على الحائط واضحا وغائرا دون ألوان، أزحت الغبار وأنا أكتم أنفاسي، تسارعت ضربات قلبي، طلبت منه

أن يقرب الشعلة أكثر، شخص مهم يجلس على مقعده وهو يراقب المشهد الحاشد الذي يجري أمامه، هناك جسد لملك مسجى، يضم ذراعيه على صدره وهما متقاطعتان، يمسك الصولجان في يده وزهرة اللوتس في الأخرى، وعلى رأسه التاج المزدوج، تاج الجنوب والشمال، وهناك المئات وربما الآلاف من الرجال يجرونه بواسطة الحبال، لم يكن ملكا حيا إذن، لا يوجد ملك يجر بالحبال، ولا يوجد ملك بهذه الضخامة بالتأكيد بحيث يبدو الرجال تحته كقطيع من النمل، ربما كان تمثالا ضخما، يقوم الجميع بجره في هذا المشهد الجليل، كانت اللوحة مليئة بعشرات التفاصيل، من الصعب قراءة كل ما فيها من علامات تحت هذا الضوء المتراقص، هل هذا تمثال الملك المارق أخناتون، لم يكن الوجه واضحا، كان مشطوفا، تساقط من جسده كثير من التفاصيل، في أسفل الجدار كان هناك ركام من قتافيت الرخام، أخرجت أوراقي وأخذت أخط ملامح اللوحة بأصابع مرتعدة، ولكن «نيوبري» عاد فجأة، اختطف الشعلة من يد البدوي وهرع عائدا إلى عمق الممر، خيمت العتمة علي ولم أعد أرى التفاصيل، هل يمكن أن يكون اكتشاف مقبرة بهذه السهولة؟ حاولت التقدم خلف مصدر الضوء، كان الممر يضيق، وركام الصخور يزداد، وكان «نيوبري» يقف أمام الركام الأخير الذي يسد كل شيء، قال بصوت متوتر:

ـ أشعر بأنه يرقد خلف هذه الصخور.

تلفت حولي، تأملت الجدران، حاولت أن أجد عليها أي إشارة، كانت صماء، لا تبوح بشيء، قال «نيوبري»:

ـ علينا أن ننصرف الآن، ولكن قبل ذلك يجب أن يقسم هذا البدوي ألا يخبر أحدا.

هرع مسرعا وأخذت أعدو خلفه، وقف على المدخل وانخرط في حديث متوتر مع الشيخ البدوي، أخرج له نقودا وأخذا يتفاوضان، وجدتها فرصة أن أعاود تكملة الرسم، عندما انتهيا من النقاش كنت قد انتهيت من الخطوط الرئيسية، كان يجب أن أعود مرة أخرى حتى أتمه ولكن «نيوبري» كان متوترا، صرخ في ونحن نقف على المدخل:

ـ ارسم خريطة مفصلة لهذا المكان، لا أريد أن نضل الطريق حين نعود إليه.

تركني هذه المرة ألتقط أنفاسي وأنا أعيد تخطيط كل معالم المكان، يجب أن أميز هذا الجبل عن بقية الجبال وأن أحدد مكان الفتحة، وأن أضع تصورا للطريق يعبر بنا هذه الصحراء.

بدأت رحلة العودة، كان الهواء قد أصبح باردا، وبدأت الشمس تنحدر خلف الجبال، وأصبح الرمل حزينا وشاحب الحمرة، لم يتحدث «نيوبري» طوال الطريق، كان مستغرقا في تفكيره، وكنت أتساءل: لماذا هو على هذه الدرجة من اليقين؟!

وجدنا البغال في انتظارنا عند جدران الدير، لوح لنا رجال البدو مودعين، وضعوا أيديهم على صدورهم وأحنوا رؤوسهم، أخذوا جمالهم وعادوا للصحراء، وكان علينا أن نقطع بقية الرحلة في الظلام، كان المكاري يقودنا ونحن نسير في الظلام، كنا متجاورين، وكانت أنفاس «نيوبري» قد هدأت قليلا، قلت له:

ـ ولكن كيف يمكن أن يدفن ملك مثل هذا في ذلك المكان المنعزل؟

قال في ثقة: لقد دفن سرا، اختار أتباعه هذا المكان النائي حتى لا يصل أعداؤه إليه ويهينوا جسده.

ـ وماذا سنفعل؟

ـ يجب أن نجد راعيا يمول هذه الحفريات، سأتصل في الحال باللورد «أمهرست»، إن علينا أولا أن نتأكد من...

أخذ صوته يتباعد عن سمعي، لم أعد أسمع غير طنين الحشرات وهي تحوم حول رأسي، وهي تلدغني، لم أكن قد تعودت على ذلك بعد، كان يومي طويلا ومتعبا، أحسست ببرودة الحقول وهي تخترق عظامي، وارتجف جسدي كله، أخذت أترنح فوق البغل، ورأسي على وشك الانفجار، لا أدري كيف وصلنا ولا كيف تمكنت من الهبوط من فوق البغل، ولا كيف ركبت العربة التي تجرها البغال، سمعت «نيوبري» وهو يقول:

ـ سنذهب من فورنا إلى المنيا، يجب أن أجد اتصالا للخارج، حتى ولو أرسلت له برقية مطولة.

قلت في وهن: أريد أن أعود لبني حسن....

ـ لا تكن مجنونا، إنها إجازات أعياد الميلاد، سنمرح معا.

ـ أنا منهك.. ولا أريد أكثر من العودة إلى المقبرة مكاني الآمن الوحيد.

قال وهو ينفخ:

ـ لا أريد العودة ليلا، أريد أن أقوم باتصالاتي.

ـ سأعود وحدي.

من الغريب أن أجد إدريس نائما في قاربه كأنه ينتظرني، وأن أسمع صوت الذئب يعوي في الضفة الأخرى مرحبا بي، كان إدريس قد تعود على تصرفاتي الغريبة فلم يجد مشكلة في الإبحار ليلا، كنت أرتجف والعرق يكسو وجهي، أسند «إدريس» جسدي المرتجف وصعد بي التل الصخري، وضعني على فراشي الخشن وبدأ في إشعال النار، تداخلت الصور أمام بصري، لم أعد أدري أين أنا، صرخت أحاول الاستنجاد بأمي أو أبي أو حتى بعمتي، لا يوجد من يمد لي يد العون، سمعت صوت «إدريس» وهو يهتف:

ـ أيها الخواجة الصغير.. أنت محموم...

غرقت في بحر من العرق، لم أعد أرى أو أسمع أحدا، أصبح كل شيء معتما، لا أدري كم مضى علي، ولكني عندما فتحت عيني كان النهار قد حل، وكان هناك طبيب محتقن الوجه، لا بد أنه كان غاضبا لأنه اضطر للمجيء عبر النهر، هتف بي:

ـ أنت مصاب بالملاريا، خذ الدواء وابق نائما، سترتفع حرارتك وتهاجمك الحمى، ستخف قليلا في النهار ولكنها ستعود مع الليل، ما الذي يجعلك تبقى في هذا المكان؟!

غرقت مرة أخرى في بحر من السخونة والهذيان، فتحت عيني وإدريس يحاول أن يقحم حبات الدواء في فمي، غرقت في الظلمة،

الليل طويل، والمقبرة ممتلئة بالأدخنة، والذئب يحدق في بعينين لامعتين، ربما دخل إلى المقبرة وتحسس وجهي بلسانه، كان لعابه يغمر وجهي، ورائحته تملأ المكان، فتحت عيني وحاولت النهوض، رأيت وجهي «فرازر» و«بلاكون» يحدقان في.. يقول أحدهما في حدة:

ـ أين ذهبت أنت و«نيوبري»؟ لا تحاول الكذب.

أغمضت عيني وعادت الظلمة سريعا، أحاول أن أدفع الأشياء التي تطبق على صدري، يمسك «فرازر» بياقة قميصي ويهزني في عنف، كلا.. إنها الحرارة التي تجعلني أرتجف، والكوابيس التي تحاصرني وتجعل العالم كله يتدهور من حولي، ولكن الرسوم على جدران المقابر تظل ثابتة، الحقيقة الوحيدة التي بقيت أمامي ضد الموت والخواء.

لا أدري كم مضى علي وأنا بين اليقظة والهذيان، ولكني أفقت وأنا أشعر بالعطش الشديد، كانت النار خامدة، وإدريس نائما على الأرض، وأنوار الفجر الرمادية تدخل من باب المقبرة، نهضت بصعوبة، كانت الأرض تهتز تحت قدمي، ولكني واصلت السير، كان النهر قد بدأت مياهه في الانحسار وكشفت عن عدد من الجزر الخضراء، شممت الهواء، ورأيت الطيور وقد بدأت جولتها الصباحية، وأدركت أنني حصلت على فرصة أخرى للحياة.

كان إدريس سعيدا حين رآني، أصر على أن يصنع لي حساء البصل، وعندما ضحكت أقسم لي أنه تعلمها من الخواجات الإنجليز وأنه يجيد صنعه على الرغم من أنه لم يكن يستسيغ طعمه، جلست

على باب المقبرة حتى أشرقت الشمس وبعثت بالدفء في جسدي، لم يكن يوجد أحد غيري في البر الغربي، قال لي إدريس:

ـ الخواجة الكبير لم يظهر حتى الآن، والاثنان الآخران غائبان منذ يومين.

لم يأت أحد إلا عندما انتصف النهار، جاء «نيوبري»، وقف أمامي، نظر إلى جسدي الواهن وقال من تحت شاربه:

ـ هل أنت مريض حقا؟.. لقد قابلت طبيب الصحة في المنيا وأخبرني بذلك؟

لم يكن ينتظر جوابا مني، اندفع متحدثا عن كل الإجراءات التي أنجزها، أرسل برقية مطولة لـ«أمهرست»، وتلقى منه موافقة مبدئية على التمويل، كان اللورد يريد أن يأتي هو وابنته لزيارة مصر، يريد أن يرى الموقع بنفسه، كان حماسه جارفا، وتوقعاته عالية، قلت في وهن:

ـ هل يمكن أن يكون الأمر بهذه السهولة؟ ألا يمكن أن نكون مخطئين؟

نظر إلي في استنكار وصاح في:

ـ ماذا تعني؟ لقد رأيت بنفسك الرسوم الموجودة في المدخل؟

ـ أجل آلاف العبيد يجرون تمثالا ضخما، ولكنهم يتجهون به إلى خارج المقبرة وليس إلى داخلها، إنها ليست طقوسا للدفن بأي حال من الأحوال.

لم أدر لماذا أقول ذلك، لماذا أطفئ حماسته، كنت خائفا من هذه الحماسة، صاح:

ـ أين هذا الرسم؟ أريد أن أراه..

سرت إلى الداخل، فتحت حقيبتي وبحثت عن الأوراق التي كانت معي، الخريطة التي رسمتها، واللوحة الجدارية التي خططت تفاصيلها الأولى، الإرشادات والملاحظات التي سجلتها للاستعانة بها في حالة العودة، ولكن لم يكن هناك شيء، اختفت جميعها، صرخت في إدريس:

ـ أين ذهبت أوراقي؟ ماذا حدث وأنا أهذي؟

نظر إلي مستغربا، لا يدري لماذا أصرخ، أقبل «نيوبري» مسرعا، وقف مذهولا وهو يهتف:

ـ ماذا تعني بأنها اختفت؟

جلست خائرا، أحسست بالذنب، خيل إلي أن الحمى ستعاودني، قلت:

ـ كنت مريضا ومحموما ولا أدري ماذا يدور حولي.

تقدم «نيوبري» في خطوات مفاجئة، مد يده نحو إدريس وأمسك بعنقه، انتفض الرجل مذعورا، صاح مستغيثا وحاول الإفلات من قبضته، دفعه «نيوبري» للحائط الصخري:

ـ من أخذ الأوراق؟

أوشك الرجل أن يختنق، حاولت النهوض لإنقاذه، ولكن

«نيوبري» هتف بي أن أبقى بعيدا، قال إدريس وهو يلتقط أنفاسه في صعوبة:

ـ أقسم إنني لم أر أحدا، لم أدع غريبا يقترب من هذا المكان، لم يكن يوجد إلا البهوان الخواجان اللذان يعملان هنا.

توقف «نيوبري» عن دفعه للحائط، أرخى يده من حول عنقه، سحب إدريس جسده وأسرع مبتعدا، هرع خارجا من المقبرة، لا بد أنه ركب قاربه وعاد للضفة الأخرى، نظر إليّ «نيوبري» ونظرت إليه، كنا مذهولين، غير قادرين على التفوه بكلمة، أخيرا قال:

ـ هل أخبرتهما؟

أخفضت رأسي ولم أستطع الإنكار، هل فعلت ذلك حقا؟! هل استمعا إلي وأنا أهذي وعرفا سر رحلتنا؟ لم أستطع أن أتحمل نظراته اللائمة، كان يشعر بالخيانة، خيانتي وخيانة «فرازر» و«بلاكون»، سار خارجا من المقبرة، لم أستطع أن ألحق به، ولم يكن مجديا أن أحاول التخفيف عنه.

لم يجيئا إلا عند الغروب، كانا يحملان تحت إبطيهما العديد من الأوراق المطوية، وحقيبة مليئة بالرسوم، اتجها نحونا في جذل كأنهما يعيشان لحظة انتصار خاصة، كان «نيوبري» يراقبهما بعينين غائرتين، وقفا أمامه في تحد، أخرج بلاكون الأوراق المطوية ولوح بها أمام وجهه مباشرة وهو يقول:

ـ لقد ذهبنا إلى هناك، قضينا يومين كاملين.

قال «نيوبري» بصوت مكتوم: ماذا تعني بهناك؟

تقدم فرازر، ألقى الخريطة أمامه، الخريطة التي سرقاها من حقيبتي، قال:

ـ ذلك المحجر الذي كنت تعتقد أنه مقبرة «أخناتون»، لم يكن إلا مجرد مصدر للرخام الجيد الذي تصنع منه تماثيل الملوك.

ابتلع «نيوبري» ريقه بصعوبة، أمسك شاربه الكث كأنه يتشبث به، قال:

ـ أنت تكذب، أنتما تكذبان بلاشك!

قال فرازر في تحد:

ـ المشرف على هذا المحجر «حاتب»، وهو الرجل الجالس على مقعده في أول المحجر يراقب العمال وهم يقومون بجر التمثال، لقد وجدنا اسمه مسجلا في خمسة أماكن مختلفة.

قال «نيوبري» محاولا أن يتماسك:

ـ لم يكن يحق لكما الذهاب هناك من دون إذن مني، وليس لكما الحق في سرقة خرائطي والسطو على اكتشافي.

قال بلاكون في استهانة:

ـ كان الأولى بك أن تشكرنا، لقد وفرنا عليك شرك الوقوع في خديعة البدو، وإنفاق الأموال للبحث عن المزيد من الأحجار..

تقدم «نيوبري» في اتجاه النيل، لم يكن يستمع إليهما، كان مشغولا بالبحث عن نسمة هواء يتنفسها، أخذ يردد نفس الكلمات في إلحاح: «لم يكن يحق لكما.. لم يكن...».

كنت غاضبا منهما، وكنت عاجزا عن فعل أي شيء، قال «فرازر» في برود وهو يشير إليه:

ـ لقد أصبح عجوزا لا يتقبل الهزيمة بسهولة.

أحسست أنها هزيمتنا جميعا، تهايئنا كغريق، لن نستطيع أن نبقى معا في هذا المكان أكثر من ذلك، هذه الصخور الصلدة، والطبيعة القاسية، هل أخرجت أسوأ ما فينا، أم أننا جئنا جميعا إلى هذا المكان البدائي محملين بكل هذه الدناءات الصغيرة؟!...».

قصر الدوبارة

أشار الباشا لـ«عائشة» حتى تجلس على المقعد الذي يواجهه، ظلت واقفة حتى جلس هو على مقعده، بدأت عجلات القطار في الصرير، تمايلت أشجار النخيل، وهبت نفحة من الهواء معبقة بالتراب، كان الديوان الذي يجلسان فيه فاخرا، مقاعد فاخرة مكسوة بالجلد الأخضر، تزين جدرانه أطر من الزجاج تحتوي على صور للمعابد القديمة والمراكب السابحة في النيل، أسند الباشا ذقنه إلى عصاه، نظر إليها ليتأكد من أنها مرتاحة، لم تكن مرتاحة، كانت تضم ركبتيها بعضهما إلى بعض، وتشبك أصابع يدها، وهي تسأل نفسها إن كان الباشا قد تعرف على الفستان الذي ترتديه وأدرك أنه يخص ابنته إيزيس، ولكنه كان مشغولا بتأمل وجهها، كانت بشرته بلون قشرة القمح في عز طزاجته، وله ملامح دقيقة ومتناسقة، وعينان واسعتان كليلتان مضيئتان، لم يتصور أن الفلاحين يملكون مثل هذا التناسق، تبدو مستسلمة لقدرها، ليس أمامها منفذ آخر، وكان هو أشبه بكاهن يأخذها قربانا نذرا إلى إله عجوز حتى يرضى عنه، ساءته الفكرة وحاول أن يبعدها عن ذهنه، قال لمجرد أن يقول شيئا:

ـ لا تكوني مبتئسة هكذا، سنقيمين في أهم مكان في مصر، لن تكوني خادمة بالتأكيد، سترافقين الليدي «كاترين» زوجة جناب اللورد، إنها أهم من زوجة الخديو أيضا، وربما أهم من الخديو نفسه!

حاول أن يكون مرحا، يخفف عنها عبء الرحلة الطويلة، هزت رأسها في طاعة وظلت تحدق في وجهه، خائفة من أن تخفض رأسها فيعتبر ذلك إهانة، اختفت آخر صفوف النخيل، كأنها فرغت من توديعها، ظهرت حافة الجبل، باهتة وقلقة، عاد يتحدث:

ـ ربما كان اللورد غريبا بعض الشيء، صارما ولا إنسانيا، ولكنه يجب أن يكون كذلك، إنه يحكم بلداعشوائيا مثل بلدنا، ماذا يمكن أن تتوقع؟ ولكنه هو الذي اختارك بالمناسبة، ورشحك لزوجته، رغم مرور كل هذه الأشهر على حفلتنا لم ينسك.

مهما قال، كانت خائفة منه، بعد ما فعله مع المطرب «سي صالح عبد الحي» لا يمكن أن تأمن جانبه، ولكن لا يوجد حل آخر، كانت تتمنى فقط أن تتاح لها الفرصة لتعود إلى بلدتها الصغيرة وتبقى لحظات من الزمن في حضن أمها، ولكن لم تكن تستطيع العودة، كان عليها دائما أن تواصل الرحيل شمالا، دائما شمالا.

طرق الباب الزجاجي وظهر الكمساري نحيلا يرتدي حلة صفراء، قبل أن يتكلم رمقه الباشا بنظرة قاسية جعلته يتراجع وهو يلهج بالاعتذار، توقف القطار في محطة ما فتكاثر الباعة وهم يصيحون خارج النوافذ، واصل القطار التوقف والمسير، وأصيبت عائشة بالملل فلم تعد تقرأ أسماء المحطات، ظهر على يمينها نهر صغير

فأحست بالألفة، تتباعد ضفته أحيانا، ثم تعود للالتصاق بالقطار فتبدو صفحته اللامعة، وأخيرا بعد عدد لا يحصى من الساعات زفر القطار زفرته الأخيرة وصرت العجلات حتى توقف أخيرا في محطة مزدحمة هائلة الاتساع.

هبط الباشا، وحملت عائشة صرة ثيابها الصغيرة وهبطت خلفه، كانت سماء المحطة عالية، وأرضها مليئة بالقضبان الحديدية المتداخلة، والميدان الموجود أمامها واسع ومزدحم بالعربات والباعة، بدأ الظلام يخيم على المكان واشتعلت الكلوبات بضوء فضي شاحب، تقدم حنطور أسود اللون تزينه قطع من النحاس اللامع وتوقف أمامهما، ركب الباشا، وجلست هي في المقعد الصغير الذي يقابله، ودق الباشا بعصاه على أرضية العربة وهو يقول بصوت فخم: «اذهب بنا إلى قصر الدوبارة»، اهتز السائق واضطرب الحصان وقد أدركا أن الراكب رجل مهم، طرقع بالسوط في الهواء فأخذ الحصان يخب في سيره، فتحت عائشة عينيها على اتساعهما، تأملت الشارع المفتوح أمامهما، صفين من الأشجار المنتظمة، خلفها بيوت عالية، وأعمدة مضاءة بالغاز، الناس يسيرون على الأرصفة في حرية ومن دون خوف، والطريق مليء بالعربات التي تجرها الخيول والقليل من السيارات، شاهدت عربات الترام وهي تسير، تجرها الخيول وينبعث منها صليل الأجراس، ضحكت عائشة للمرة الأولى، أحست بسعادة غريبة وهي تشاهد مدى اتساع المدينة ومدى نظافة أهلها، انتهى الشارع بميدان واسع مليء بالناس والزرع والأضواء قال الباشا مبتسما:

- هذا ميدان الإسماعيلية، إنه أهم مكان في المدينة، وقد اقتربنا من قصر «الدوبارة» حيث يقيم اللورد.

رأت صفا من القصور البيضاء متناثرة على شاطئ النهر، كان النيل مختلفا عما شاهدته من قبل، حيا ومتدفقا ومليئا بالأضواء التي تنعكس على سطحه، سار الحنطور وسط شارع أشجاره باسقة، ظلت القصور تتوالى على جانبي الطريق، حتى توقف الحنطور أمام أكبرها وأكثرها فخامة، أشبه بحيوان شاهق البياض، رابض على الشاطئ والنهر ينساب أمامه في خضوع، هبطت عائشة وهي تكتم أنفاسها، على جانبي الباب يقف حارسان إنجليزيان منتصبان بوجهيهما المحمرين، يلبسان سراويل قصيرة وقبعات حمراء ويمسكان ببنادق تنتهي بسكاكين حادة، تقدم الباشا إلى باب جانبي صغير وقال لرجل يجلس خلف مكتب صغير وقال:

- أريد أن أقابل جناب اللورد، اسمي بولس باشا ويصا.

سجل الرجل الاسم في ورقة وسلمها لحارس آخر دون مبالاة، تركهما واقفين، عاد الحارس وقال في حسم:

- اللورد لا يستقبل المصريين بعد الساعة الخامسة مساء، لماذا لا تأتي مبكرا في الصباح وتسجل اسمك؟!

قال الباشا شاعرا بالإحراج:

- لست طالب حاجة، لقد أحضرت شيئا يخص اللورد شخصيا، ما أرجوه فقط أن تبلغه باسمي.

زفر الحارس وقد نفد صبره، كان يضيق بهذا النوع من المصريين، هتف:

- احضر في الصباح.

قال الباشا متوسلا: لا أستطيع.. هذه الفتاة معي ويجب أن أسلمها لجنابه شخصيا، لن آخذ من وقته الكثير، إنه على علم بالأمر..

نظر الحارس إليها، للمرة الأولى يشعر بوجودها، قلب شفتيه، لم تكن الهدية جديرة بإقلاق اللورد، ولكن من هو حتى يقرر؟! دهشت عائشة من لهجة التذلل في كلمات الباشا، كان قد فقد هيبته وسطوته، عاد الحارس يقول له:

- ماذا قلت اسمك مرة أخرى؟

للمرة الثالثة كرر الكلمات طائعا، شعرت عائشة بالحزن من أجله، ودت لو يأخذها وينصرف بها عن هذا المكان، تركهما الحارس واقفين مرة أخرى، وغاب طويلا، بدت نوافذ القصر من بين الأشجار ساطعة الإضاءة، لم يجرؤ الباشا على النظر إليها، ثم دوى صوت جرس الهاتف، ورفع الحارس الموجود على المكتب سماعة الهاتف ثم أشار لهما أن يدخلا.

سارا عبر ممر طويل في حديقة واسعة فوق أحجار بيضاء، صعدا الدرج المؤدي للقصر، تناهت إليهما أنغام البيانو، لحن بطيء وناعم، لا يتناسب مع جو المكان المتوتر، دخلا إلى قاعة واسعة ومزدحمة بالأثاث، أرائك أوربية، ومنسوجات هندية، وخزف صيني، وقطع من النحت الفرعوني، ظلا واقفين، وبدا اللورد جالسا إلى البيانو،

مستغرقا في العزف، غائبا عن العالم وغير شاعر بوجودهما، ولم يكن هناك من يستمع إليه، كان يعزف لنفسه، لمتعته الخاصة، وبدأ اللحن المرتفع في الهبوط التدريجي حتى توقف وهو يزفر في تعب.

صفق الباشا مستحسنا، ولكن اللورد التفت مذعورا كأنه قد نسي أنه سمح لهما بالدخول، أغلق البيانو ونهض واقفا، بدا وجهه المحتقن وشاربه الأشيب وصدره المنتفخ وقامته المعتدلة، لم ينس وقفته العسكرية المتسلطة، نظر إلى الباشا كأنه حيوان غريب لا يحق له اقتحام المكان، لم يبد عليه أنه رأى عائشة، قال الباشا متوسلا:

ـ أسعد الله مساءك يا جناب اللورد، آسف على إقلاق راحتكم ولكني أحضرت الفتاة التي سبق أن طلبتموها.

زفر اللورد، كم كان عليه أن يتحمل سخافات هؤلاء المصريين وقلة ذوقهم، ولكنه قال:

ـ لقد أرهقت نفسك ياباشا، لا أظن أن الليدي «كاترين» مازالت تتذكر هذا الأمر.

وبطريقة مجاملة التفت إلى حيث تقف عائشة، بدا على وجهه علامات الاستغراب، ولكنه لم يتحرك من مكانه، قال:

ـ أظن أنها تلك الفتاة التي كانت في الحفل، تلك التي أثار المستر كارتر الضجة من حولها.

بدت على الباشا علامات السعادة الغامرة أخيرا، أسرع بالقول مدللا على حسن بضاعته:

ـ أجل جنابك، كان يعتقد أنها إلهة فرعونية قديمة...

ـ هذا العنيد المدعو كارتر.. إنه لا يكف عن إثارة المتاعب.. أووف.. لم أكن أريد أن أتذكره في ليلة صافية مثل هذه..

اقترب قليلا، ومد أصابعه للمرة الثانية، وضعها تحت ذقن عائشة ورفع وجهها إليه، أوشكت أن تموت من الخجل، قال:

ـ ربما ستسلي الليدي بوجودك.. من يدري؟

سار إلى منضدة صغيرة في منتصف الغرفة وتناول من فوقها جرسا صغيرا من الفضة وهزه بخفة، ظهر خادم نوبي طويل ونحيف، قال اللورد:

ـ خذ هذه الفتاة إلى جناح الخدم.. نظفوها وهيئوا لها مكانا..

ظلت عائشة واقفة متوجسة، كان وقع تعبير «جناح الخدم» سيئا في أذنيها، أشار لها الباشا مشجعا حتى تمضي، بدا الارتياح على وجهه بعد أن قبل اللورد هديته، ولكن عند خروجها من باب القاعة سمعت صوت اللورد وقد عاوده بروده:

ـ أخشى أن أؤخرك عن العودة إلى «المنيا» أكثر من هذا ياباشا...

* * *

... لم تقابل عائشة الليدي «كاترين» إلا بعد ثلاثة أيام كاملة، قضتها في المبنى الصغير عبر الحديقة، كان المكان مزدحما بتشكيلة من الخدم، أيرلنديات وإسكتلنديات وأرمنيات، وهنود ونوبيين، من

اللحظة الأولى صاحت فيها واحدة منهن، كان واضحا أنها هي التي ترأس الجميع، رائحتك لا تطاق، سوف تشمها الليدي من على بعد عشرات الأمتار، شعرت عائشة بخجل شديد، كل روائح اليوم الطويل كانت عالقة بجسدها، عرقها والغبار والمسافرين والذباب والغيطان والسبخ، نزعن عنها ثيابها وأغرقنها في حوض مليء بالماء الساخن وفقاقيع الصابون، فككن ضفائرها ودعكن فروة رأسها، أخذن ملابسها القديمة ووضعنها في فوهة يتصاعد منها اللهب حتى احترقت عن آخرها، لا لزوم للبراغيث في هذا المنزل، هكذا قالت الآمرة، أو السيدة جوليا كما عرفت اسمها فيما بعد، كانت سيدة عجوزًا صلبة العود، جلدها مشدود وعيناها الزرقاوان جاحظتان، أعطينها ثيابا نظيفة تشبه ثيابهن، وخصصن لها غرفة ضيقة تتسع لسرير وبجانبه منضدة صغيرة عليها كتابان، الأول كان الكتاب المقدس، والثاني كان كتابا شعريا مطبوعا بحروف إنجليزية صغيرة، كان اسمه «حكم وتراجم يونانية»، ولدهشتها الشديدة وجدت أنه من تأليف اللورد كرومر شخصيا.

بعد عدة أيام قادتها جوليا بنفسها إلى المبنى الرئيسي، كان الدور الأول في هذا الصباح مشتعلا بالحركة، مزدحما بالموظفين والزوار، قادتها «جوليا» من سلم خلفي إلى الدور الثاني مباشرة، صعدتا على درج من الرخام الناصع البياض، سارتا في ممر طويل مليء بلوحات كثيرة معلقة على الجدران، مشاهد من الهند واليونان ومصر، نفس التركيبة التقليدية الموجودة في أرجاء المنزل، كانت «الليدي» جالسة على شرفة تطل مباشرة على النيل، تمسك مروحة تهوي بها على

وجهها في ملل، لم تلتفت حين أحست بدخولهما، ولكنها قالت في صوت عال:

ـ هذا المكان لا يطاق، كل شيء له رائحة، الشوارع والناس والطعام، حتى هذا النهر رائحته لا تطاق...

تقدمت جوليا وهي تقول: سيدتي..

التفتت الليدي، لاحظت عائشة أن بطنها عار وأبيض ومنتفخ، نظرت إلى عائشة وقالت بملل:

ـ من أنت على أي حال؟

حاولت جوليا أن تشرح لها، ولكنها هي أيضا لم تكن تعرف سبب وجود فتاة مصرية فلاحة في هذا المكان، لوحت «الليدي» بالمروحة في ملل، ثم تذكرت فجأة، قالت:

ـ أووف.. انصرفي..

استدارت عائشة للانصراف، وابتسمت جوليا في شماتة، ولكن «الليدي» قالت وهي تشير بالمروحة:

ـ لا أحد يفهم أوامري، ابقي أنت.. انصرفي أنت..

استدارت «جوليا» وانصرفت بسرعة، أشارت «الليدي» لها أن تجلس فوق حاشية على الأرض بالقرب من قدميها، تأملت عائشة بطن «الليدي»، جلدها الرقيق مشدود حتى إن تعرجات الشرايين تبدو واضحة، كانت صغيرة وجميلة، أصغر بكثير من اللورد القوي، كان الباشا قد أخبر عائشة أنها زوجته الثانية، تزوجها بعد سنوات قلائل

من وفاة زوجته الأولى «الليدي أثيل» التي صارعت مرض الكلى كثيرا، كان اللورد يعشقها إلا أن الرجال سرعان ما ينسون، انقطع الصمت حين قالت «الليدي» بنفس لهجتها المسترخية المملولة:

- ستأتي هذه الأميرة التركية الغريبة، إنها لا تتوقف عن الحديث على الرغم من أنني لا أفهم كلمة واحدة منها، تتحدث بالتركية والعربية وحتى الفرنسية، ولكن من دون كلمة إنجليزية واحدة، أووف.. لو كان الأمر بيدي ما استقبلتها، كيف يمكن التعامل مع هؤلاء الناس؟!

ظلت عائشة صامتة، التفتت إليها وهي تقول:

- أنت قادرة على الترجمة.. أليس كذلك؟

أومأت عائشة برأسها في سعادة، الآن فقط عرفت دورها، إنها ليست خادمة، لا علاقة لها بالتنظيف أو تقديم الطعام، أخذت الليدي تهز المروحة بشدة بحثا عن نسمة باردة، ثم عادت تقول:

- لا تدعيها توجع رأسي، ترجمي ما هو ضروري فقط، يا إلهي.. كم أود السفر بعيدا!

استمعت «عائشة» في صمت، وتنفست في خفوت، تحركت بأقل الحركات، كانت تخشى أن تطردها هذه السيدة المملولة من يومها الأول، ظلتا جالستين، طوال الوقت والسيدة تشكو وعائشة تسمع، سمعتا صوت طرق على الباب، غطت «الليدي» بطنها وأشارت لها أن تفتح، كان القادم إنجليزيا شابا بعض الشيء، ولكن ملامحه صارمة، قال لها بصوت جاف:

- أخبري السيدة أن السيد هاري بويل السكرتير الشرقي يريد أن يراها..

وقبل أن تتحرك عائشة من مكانها هتفت «الليدي»:

- ادخل يا هاري، وكف بحق الله عن هذه الرسميات المزعجة..

اجتاز هاري الغرفة في خطوات قلائل، أحنى رأسه وهو يقف أمامها، مدت له يدها ولكنه لم يقبلها، ظل محتفظا بملامحه الصارمة كأنه يؤدي أشد المهمات مشقة، قال:

- لقد حضرت الأميرة نازلي فاضل.. إنها في الأسفل..

تأوهت «الليدي» معبرة عن رفضها، وبدا أنه كان يتوقع هذا، عاد يقول:

- إنها امرأة مهمة لنا، فهي ابنة عم الخديو إسماعيل وهي بمثابة عمة الحاكم الحالي الخديو عباس، إنها حلقة وصل بيننا وبين هؤلاء الأتراك الذين يحكمون هذا البلد، جناب اللورد يرجوك أن تكوني صبورة وأنت تنصتين إليها قليلا..

قالت «الليدي» وهي تحرك المروحة أمام أنفها:

- هل تضع عطر القرنفل هذا؟ لا أطيق العطر الذي تضعه، إنها تجعل الطفل يتقلص في بطني.

- أرجوك ياسيدتي، إنها تنتظر، سنفتح كل النوافذ الموجودة في الدور الأرضي.

هل كان جادا، أم أن كلماته كانت تشوبها مسحة سخرية من مبالغة الليدي في التدلل؟! انصرف الرجل وظلت عائشة واقفة على أطراف أصابعها، كانت تراقب «الليدي» وهي تستعد للنزول لضيفتها ببطء وتأن، وفي كل لحظة كانت تقف مترددة كأنها على وشك الرجوع في كلامها، وأخيرا خرجت من الغرفة وهبطت السلم في حذر مبالغ فيه.

كانت الأميرة نازلي جالسة في ركن من الصالون الواسع، ورائحة القرنفل تنبعث منها بالفعل، حين شاهدت «الليدي» مقبلة، نهضت امرأة فارعة الطول، تكسوها عباءة حريرية خضراء مشغولة بحبات اللؤلؤ، ترتدي اليشمك الشفاف، ولكنها خلعته حين اقتربت «الليدي»، فظهرت بضع خصلات من شعرها بلون البن المحروق، نهضت واقفة، لمست كل واحدة منهما أطراف أصابع الأخرى في صعوبة، جلستا متواجهتين، وظلت «الليدي» تضع المروحة بالقرب من أنفها كأنها تحمي نفسها من رائحة القرنفل، ورمقت الأميرة عائشة بنظرة متسائلة، ولكن «الليدي» لم تجد داعيا لتقديمها، وبدا وجهها طفوليا وحساسا، قالت «الليدي»:

ـ ماذا أيتها الأميرة.. لماذا أردت مقابلتي بهذا الإلحاح؟

بدأت عائشة في الترجمة، ارتاح وجه الأميرة لأنها عرفت مكانة الفتاة الجديدة، ولأنها أدركت أن كل كلمة ستقولها ستكون مفهومة أخيرا، أزاحت الحجاب الشفاف من على وجهها نهائيا، وكانت أصابعها العشرة مليئة بالخواتم، عدلت ثوبها فازدادت رائحة القرنفل، واحتقن وجه «الليدي»، قالت الأميرة بالعربية:

ـ أنت تعرفين أيتها السيدة المحترمة، أنني من أكبر المؤيدين للوجود البريطاني في بلدنا، لقد أحضرتم الحضارة عبر البحار، وأدخلتم الكهرباء، وأنا في كل مجلس أشيد بكم وبجناب اللورد..

حاولت «الليدي» أن تخفي تثاؤبها خلف حافة المروحة، وبدأت الأميرة تتوجه بالحديث إلى عائشة لعلها تنجح في نقل إحساسها بدقة، انتظرت قليلا ثم عادت تقول:

ـ وهذا ما شجعني على أن آتي إليكم بالطلب الذي أرجو أن تنقليه لجناب اللورد..

قالت «الليدي» فجأة من دون أن تخفي ضيقها:

ـ لماذا لم تطلبي ذلك من اللورد مباشرة؟

ـ فكرت في ذلك، لولا أن هناك جانبا إنسانيا للموضوع، ربما تفهمه النساء أكثر مما يفعل الرجال، جئت من أجل العرابيين، لقد نالوا جزاءهم وانتهت عقوبتهم، يكفي ما تلقوه من عذاب في المنفى...!

ترجمت عائشة الكلمات بدقة، ورأت عيني «الليدي» وهما تتسعان والصدمة تبدو على وجهها، قالت:

ـ ماذا تعنين بالعرابيين؟

ـ عرابي وأتباعه من الضباط، لقد أصبح عرابي رجلا عجوزا، ولم يعد قادرا على فعل أي شيء..

صرخت «الليدي» وهي تعدل من نفسها وقد تحجرت فجأة:

- زعيم المتمردين.. كيف تجرئين على فتح هذا الموضوع؟

نهضت واقفة، وأخذت تهز المروحة في عصبية:

- الدنيا حر، والرائحة لا تطاق، أووف.. أليس هذا هو الرجل الذي حاول أن يسقط قريبكم هذا.. لا أدري ما اسمه.. منذ متى وأنتم تدافعون عن الفلاحين؟! أنتم تحتقرونهم أكثر منا.. أنا متأكدة من ذلك؟

التفتت الأميرة نحو عائشة كأنها تستغيث بها، ثم قالت في شبه توسل:

- كل هذا أصبح جزءا من الماضي ياسيدتي.

قالت «الليدي» في انفعال حقيقي:

- هذا البلد مليء بالمقابر، ومع ذلك لا شيء يموت فيه.

في هذه اللحظة ظهر اللورد، كان الضوء يأتي من خلفه فبدا وجهه مظلما، وملامحه غير واضحة، ولكن لهجته كانت حادة، هتف:

- ماذا يحدث؟ ولماذا كل هذا الصياح؟

التفتت إليه «الليدي» وهي تلتقط أنفاسها في صعوبة، كان وجهها محمرا كأن أوردتها على وشك الانفجار، قالت:

- رائحة القرنفل لا تطاق، وكذلك طلبات هذه الأميرة..

استدار اللورد ورمق الجميع بنظرة قاسية، ركز عينيه على «عائشة» أكثر لأنها لم تستطع أن تحمي زوجته، لم يقترب من الأميرة أو يصافحها، اكتفى بأن أحنى رأسه في تحفظ وهو يقول:

- المعذرة، هناك موعد مهم مع الطبيب ويجب أن أصطحب زوجتي، اعتبري نفسك في بيتك.

مد يده نحو «الليدي»، فوضعت كفها عليه، وسارا مبتعدين حتى خرجا من باب الصالون، ظلت الأميرة واقفة جامدة في مكانها، ثم انحطت جالسة على مقعدها مرة أخرى، بدت تعيسة ومهدودة القوى، كانت قد بنت آمالا كبيرة على الاستجابة لطلبها، نظرت إلى عائشة التي كانت هي أيضا واقفة محنية الرأس، كانت حزينة من أجل الإهانة التي لحقت بها، وهي ترى مدى تعاستها، قالت الأميرة بصوت خافت:

- ربما تستغربين لأنني جئت للدفاع عن أعداء أسرتنا، من سخرية القدر أنني آمنت بهم، كنت أعتقد أن «عرابي» ورفاقه قادرون على تغيير كل شيء، حتى بشرة جلدي ولون عيني، ولكنهم خذلوني، انهزموا بقسوة أمام هؤلاء الإنجليز.

كان العرابيون حلما عابرا، برهة قصيرة من زمن شاسع، استطاع فيها الفلاحون أن يخترقوا جدار عزلتهم، وأن يجدوا الصوت الذي أصابه الخرس، كانوا محاصرين في واديهم الضيق خلف جدران من الطوب اللبن، ومتاهة الترع والمصارف، يعانون لعنة من الصمت تواصلت على مدى آلاف من الأعوام، نسوا مفردات الشكوى ونبرات الاحتجاج، استكانوا للدرجة المهانة تحت سطوة كل أجناس الأرض، كل الذين حكموهم، واستباحوا دمهم، وأوغلوا في ظلمهم، ولم يسمحوا لهم بأن يمسكوا سيفا، أو يوجهوا طلقة، كل ما استطاعوا أن يمتلكوه هو فأس يضربون به الأرض الشراقي، ومحراث يسمون

خلفه، كانوا يتذكرونهم فقط عندما تستعر الحروب ويصبح ثمنها فوق طاقتهم، لحظتها كانوا يحولون أجساد الفلاحين إلى حطب يغذون بها نيران الحرب التي لا تشبع، وفور انتهائها كانوا ينتزعون منهم كل ماحصلوا عليه من غنائم ويجردونهم من كل الشارات والأوسمة، يعيدونهم إلى قرى الصمت، يحفرون الترع العظمى والقنوات التي تصل بين القارات، هكذا فعل الخديو إسماعيل حين تكاثرت الحروب التي كان عليه أن يخوضها، في اليونان وإفريقيا والمكسيك، استدعاهم من قراهم ودفع بهم إلى أتون الحروب، مات منهم من مات، وفقد منهم من فقد، وبقي البعض منهم داخل الجيش، يمسك السلاح بدلا من الفأس، من اللحم الحي لهؤلاء الفلاحين جاء العرابيون، وقفوا أمام الخديو، هتفوا بصوت شقيان: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟!»... كان هذا هو صوت زعيمهم أحمد عرابي، واحد من السلالة النادرة للفلاح الفصيح، اكتسب هذه الفصاحة بعد طول صمت وذل وقهر، ولكن الصيحة لم ترتفع حتى خمدت، أسكتها دوي مدافع الإنجليز، وتآمرت عليها خيانة الخديو، دمروا قلاع العرابيين في الإسكندرية، وذبحوا جنودهم من الفلاحين في التل الكبير، وهز أهل القرى رءوسهم في حزن وهو يقولون : «الوَلْس» غلب عرابي، ثم عادوا إلى الصمت من جديد.

لم تدر عائشة ماذا تقول، ولكنها ظلت واقفة أمامها، تتمنى أن تنهض وترحل مبتعدة وينتهي هذا الموقف، ولكن الأميرة ظلت جالسة وهي تفتش في حقيبتها، أخرجت رقعة من الورق، فردتها أمامها وبدت سطورها مكتوبة بالحبر الأسود، كانت حروفها العربية ممدودة كأنما كتبها خطاط محترف، قالت الأميرة:

- هذه قصيدة أرسلها إلي واحد منهم، من منفاه البعيد في محيط الهند، اسمه البارودي.. محمود سامي البارودي.. إنه شركسي، ولكنه كان مثلي، آمن بهم، وانضم إليهم، وانهزم معهم، كتب لي هذه القصيدة من هناك، إنها ليست قصيدة حب، ولكنها مليئة بالتعاسة، لم يقل ذلك صراحة، ولكنني أعرف أنه يعاني كثيرا، من المحزن أن يرسلوا الشعراء إلى هذه المنافي القاسية..

لم تكن عائشة تدري بالضبط ما تتحدث عنه هذه السيدة، وجدت أن عليها أن تقول شيئا تخفف به من تعاستها، كانت رائحة القرنفل قد ذابت وحل محلها شجن حزين، قالت:

- ربما سيعود..

نهضت الأميرة أخيرا، قالت وهي تتنهد:

- إنها الهزيمة الثانية بالنسبة لي، لن أجرؤ على المجيء إلى هذا المكان مرة أخرى، لقد فعلت للإنجليز كل ما في وسعي، رددت كلماتهم، وبررت أفعالهم، كل هذا من أجل أن أحظى بالاهتمام وأنا أتقدم بهذا الطلب الوحيد، كل هذا ضاع عبثا.

وطوت القصيدة في عناية وأعادتها لحقيبتها، استدارت متجهة إلى باب الخروج، ولكنها توقفت بعد بضع خطوات واستدارت نحوها وهي تقول:

- ما اسمك يافتاة..؟

نسيت اسمها المستعار، وقالت :

- عائشة.

- لطالما أحببت أسماء الفلاحين.

وواصلت خطوها حتى غابت عن عينيها ولكن بقي شيء من القرنفل الحزين.

* * *

مرت سنوات عمل عائشة في دار المعتمدية، في البداية لم تكن تعرف معنى ما يدور أمامها، كانت تسير في ظل «الليدي»، تراقب بطنها الذي يواصل الارتفاع، ومع ذلك لا تكف عن حضور الحفلات والاستقبالات، تعودت أن تنزوي في أحد الأركان، ترى الجميع من دون أن يراها أحد، تنتظر «الليدي» لتنتهز الفرصة حتى تتسرب من بين الحاضرين، وتلتصق بها وهي تطلب منها هامسة أن تترجم لها كل مايقال عنها خلف ظهرها ولم يكن هذا الدور يعجب «عائشة» كثيرا.

أدركت ببطء أن دار «المعتمدية» هي محور العالم، يتمنى الجميع النفاذ من أبوابها والبقاء ولو للحظات تحت سقفها، في مطلع كل صباح تزدحم بالضباط الإنجليز المختالين، والقناصل المتأنقين، والأمراء والباشوات وربما كان الخديو بنفسه يأتي متخفيا، عند الظهر يأتي مديرو المديريات وعمد النجوع والشيوخ المعممون، وطلاب الواسطة وحاملو المشروعات الوهمية، كل هؤلاء يقابلهم اللورد بنظراته النفاذة، فيها خليط من التعالي والازدراء، حتى «عائشة» نفسها، لم تجعله الألفة والتعود على وجودها يغير من هذه النظرة،

كانت جزءا من خصائص وظيفته، وربما كانت أكبر أهم السمات التي تختار بها الإمبراطورية موظفيها.

أي سبل غامضة تلك التي جعلت هذا اللورد ـ الذي لم يكن لوردا في البداية ـ يعتلي هذا المنصب الرفيع؟ كان طفلا كسولا ومشاغبا ونصف غبي، لم يفلح في أي مدرسة نظامية، ولم ترض باستقباله سوى المدارس العسكرية، لأنها تتطلب فهما أقل وطاعة أكثر لكل الأوامر الحمقاء، شرطها الوحيد أن يكون طلابها من أبناء الطبقة الأرستقراطية التي تتميز بالقسوة والبرود وعشق صيد الثعالب، كان خريجو هذه المدارس يلتحقون بمناصب الإمبراطورية وراء البحار، يواصلون الصعود فيها في ظل تنظيم طبقي صارم، لا يسمح لأبناء الطبقات الدنيا بالاقتراب منها، وكانت النتيجة أن التلميذ الكسول ـ الذي ظل يكره التعليم طول حياته ـ وجد أرضا شاسعة ومفتوحة أمامه، من جزر المتوسط المشمسة إلى قلب آسيا الغامض، صعد على سلم الإمبراطورية العجوز التي لم يكن أحد بعد قد اكتشف مواطن ضعفها، ذهب إلى جزيرة كورفو اليونانية، وأنجب ابنة غير شرعية وتزوج زواج مصلحة من فتاة أرستقراطية، كانت هي السبب في تأهيله إلى منصب أكبر في الهند، عاش في أجوائها التي يعبق بها الرطوبة والبخار، شاهد بقلب بارد المجاعات الرهيبة، بينما سفن التجار تلقي بالأرز في نهر «الجانج» حتى لا ينخفض ثمنه.

عندما جاء مندوبا ساميا إلى مصر كان يعتقد أنه نبي ومصلح ورسول للحضارة الغربية وسط أشباه البشر من فلاحين ومسلمين، كان يؤمن أن احتلال مصر يجب أن يبقى إلى الأبد، كيف يمكن أن

نترك بلدا يقع في قلب العالم ويشرف على شريان مهم يصل بين كل البحار، ويملك ثروة من القطن بأزهاره المتوهجة الناصعة البياض؟ وعندما كان يستمع إلى رغبات المصريين في تعليم أفضل وحكم مستقل كانت درجة الازدراء تزداد عنده وهو يهمهم لمن حوله:

ـ غريب أمر هؤلاء القوم، ألا يكفي أنني قد حميتهم من العطش والغرق حين بنيت لهم سدا عند أسوان؟

وعلى الرغم من كل شيء كان يجب أن يحدث نوع من التقارب بين «عائشة» الفلاحة و«الليدي» الحامل التي كانت دائما تشعر بالوحدة والنفور، كانتا تهبطان في حذر على السلالم الرخامية المؤدية للنيل وتركبان «فلوكة» تسبح بهما حتى جزيرة الذهب، وأحيانا تركبان العربة التي تجرها الخيول وتعبران جسر «قصر النيل» إلى نادي الجزيرة، تعودت مجتمعات الطبقات العليا في القاهرة على رؤيتهما معا، السيدة البيضاء وتابعتها السمراء بلون القمح، ورغم تثاقل حركة «الليدي» فقد كانت كثيرة الحركة، وعندما كان اللورد يسافر في إحدى المهمات لم تكن «الليدي» تطيق البيت، كانت تقول في تبرم:

ـ إنه بيت مليء بالأشباح، تسكنه روح زوجته السابقة الليدي أثيل. سآخذك إلى غرفتها..

أخذتها إلى الغرفة التي كانت دوما مغلقة، دخلتا وسط هواء يعبق به الغبار وبقايا عطر راكد، وأتربة معلقة في الهواء، خزائن مليئة بثياب قديمة وفراء متحلل، زجاجات فارغة على المناضد تطاير كل ما فيها

من عطور، كانت «الليدي» تلهث وشبح الزوجة الأخرى يطاردها، قالت:

ـ كانت ملاكا.. غفرت للورد أشياء لم يكن الرب قادرا على غفرانها.. ولم أكن أنا إلا امرأة سيئة الحظ جئت بعدها.

كانت الستائر كثيفة ومسدلة، وأحست «عائشة» أن رائحة الزوجة الميتة مختزنة في هذا المكان، بذل «اللورد» كل ما في جهده للإبقاء عليها، كانت صورها متراصة داخل إطارات صغيرة من الفضة المطوسة، تطل عليهما بملامحها المستكينة التي تشي بأنها كانت على استعداد لأن تتقبل كل شيء، قالت «الليدي»:

ـ ما زال يناديني باسمها ونحن نمارس الحب..

كان هناك شرخ غير مرئي، بدأت عائشة تراه الآن، خلف الهدوء الخادع الذي يسود البيت، سمعتها وهي تتنهد وتقول:

ـ كم أود أن أرحل!.. أريد أن ألد ابني بعيدا عن هذا المكان..

ولكنها لم تستطع أن تحسم موقفها، كان وزنها يزداد وحركاتها تثاقل، والبيت يمتلئ بالزوار وطلاب الحاجة، ولكن «الليدي» حسمت أمرها عندما جاء إلى القصر زوار غير متوقعين..

استيقظت عائشة على صوت ضجيج وصراخ عاليين، لم تكن الأصوات قادمة من داخل القصر، ولكن من خارج الأسوار، تسللت عائشة من غرفتها، صعدت على سقف جناح الخدم، ومن بين الأشجار التي تحيط بالقصر رأتهم جميعا، جمع من الشباب الصغار، يلبسون الطرابيش الحمراء الفاقعة والحلل الزرقاء، أعمارهم متقاربة

ويشبهون بعضهم بعضا، جاءوا من مكان واحد، ربما من مدرسة واحدة، يحملون لافتة مكتوبا عليها «يسقط كرومر.. سفاح دنشواي»، وعلى أكتافهم شاب في نفس عمرهم ولكنه أشد نحافة، وأعلى صوتا، كان يلوح بقبضته في الهواء وهو يصرخ:

ـ يسقط سفاح دنشواي..اخرجوا من بلادنا ياسفاحون..

شعرت عائشة بالخوف، لم تكن تفهم ماذا يحدث، ولماذا هم على هذه الدرجة من الغضب، لم يقتصر الأمر على هؤلاء الأفندية الصغار، جاء آخرون، شيوخ معممون، وأصحاب جلاليب، انضمت إلى المظاهرة لافتات أخرى، واحدة مرسوم عليها جندي يجلد فلاحا بالكرباج، وأخرى عليها مشنقة يتدلى منها جسد فلاح ميت، بدأ الجنود الإنجليز يتدفقون من مكان ما، أحاطوا بالدار وهم يرفعون أسلحتهم في تأهب، ازداد الهياج والصراخ، هبطت عائشة بسرعة، لا بد أن الضجة قد أيقظت «الليدي» الآن، وأنها في حاجة إليها لتشرح لها ما يحدث، عبرت الحديقة بسرعة، فوجئت باللورد نفسه في منتصف بهو المنزل، كان يتحدث في انفعال إلى مجموعة من الضباط، كان يصيح فيهم:

ـ سوف يتعبون من كثرة النباح وينصرفون.. ولكن لا أريد أن يقترب أحد منهم من باب البيت.

كان من الغريب أن ينعتوا هذا «اللورد» المهذب بالسفاح، وأن يأتي إلى القصر هؤلاء الغاضبون بدلا من المتزلفين، صعدت سريعا إلى غرفة الليدي، وجدتها مستيقظة ومتوترة، تطل عليهم من نافذتها

قليلا، ثم تعود مسرعة إلى الشرفة المطلة على النيل لتلتقط أنفاسها، هتفت بها:

ـ هل تشمين رائحتهم، إنهم يلوثون الهواء برذاذ أفواههم، لماذا يأتون إلى هنا؟.. لماذا لايذهبون إلى «الخديو» العاجز ويبتعدون عنا؟..

وقفت عائشة صامتة، كان قلبها يدق، كانت ترى الميدان الواقع أمام المنزل بشكل أفضل الآن، لم يتعب المتظاهرون، ولم ينصرفوا، ازداد عددهم، انضمت إليهم نسوة كثيرات، يلبسن العباءات السوداء، ويضعن على وجوههن خمرا بيضاء اللون، تحول الصراخ إلى هدير متصل، وارتفعت عشرات اللافتات تطالب برحيل «اللورد» أو محاكمته، دبت الفوضى في أرجاء البيت، لم تعد «الليدي» تطيق الجلوس في غرفتها، هبطت إلى البهو و «عائشة» وراءها، كان «اللورد» عصبيا، تداخل الموظفون بالجنود في ارتباك، وأخذ «اللورد» يهتف:

ـ لا أريد أن يتدخل جنودنا إلا عند الضرورة..لا مزيد من القتلى أمام البيت، يكفي ما تفعله الصحف بنا..

كان «هاري بويل» يقف بجانبه وفي يده كثير من أوراق البرقيات وهو يقلبها في سرعة، هتف قائلا للورد في صوت حاسم:

ـ إنه مصطفى كامل، هو الذي يهيج علينا الدنيا من خلال مقالاته إنه لا ينشرها هنا فقط ولكن في باريس ولندن.. هو الذي أخرج طلاب مدرسة الحقوق وقادهم إلى هنا.

ازداد وجه «اللورد» احتقانا.. هتف من بين أسنانه:

ـ إنه عميل للخديو والسلطان التركي..اللعنة عليهم جميعا.. استدع البوليس المصري.. دعهم يتصرفون مع الغوغاء الذين يخصونهم.

لم يحضر البوليس سريعا، انزوت عائشة بعيدا، خافت أن يكتشفوا لون بشرتها ووجهها الممتقع، كانوا متوترين، مكفهري الوجوه، أسودا حبيسة داخل أقفاصها، و«الليدي» عاجزة عن إيجاد أي ذرة من الهواء النقي، ابتعدت إلى غرفة نائية وجلست بجانب الجدار وقد ضمت ركبتيها إلى صدرها وهي ترتعد، بحثت «عائشة» حتى وجدت نافذة تطل على الجمع المحتشد مباشرة، بدأت تستمع إليهم بوضوح، انضم إليهم فلاحون من أهل دنشواي، لايعرف أحد كيف جاءوا، ولا من أخبرهم بالموعد والمكان، كانوا أقارب للضحايا وشهود عيان على ماحدث، بدأت قطع المأساة تتجمع في أذن عائشة وهي مختبئة خلف النافذة، كل واحد يضيف جزءا صغيرا، تفصيلا موحشا لصورة قاتمة، هدأ صوت الأفندية وارتفع صوت الفلاحين، محملا بنبرات الشقاء والأسى، كانت دنشواي تفتح جرحها من جديد.

منذ فترة قصيرة لم يكن أحد في العالم يعرف أن هناك قرية صغيرة اسمها دنشواي، نقطة ضائعة وسط العشرات من قرى دلتا النيل، جافة وحارة، ومليئة بأبراج الحمام، من أجل ذلك ترك الجنود الإنجليز معسكرهم في قرية «كمشيش» المجاورة وذهبوا لصيد حمائم دنشواي، كانوا يعتقدون أنه حمام بري بلا أصحاب، مباح كالأرض التي احتلوها، اختاروا اليوم السيىء، كان يوما حارا من أيام شهر يونيو،

والوقت الأسوأ، في منتصف الظهيرة تماما، والقرية الأتعس حظا، دنشواي، لم يجدوا الحمام متناثرا في الطرقات كما كانوا يعتقدون، ولكنه كان في داخل القرية، يلتقط الحب في أجران القمح، ظلوا يطلقون النار والحمائم تتساقط حتى أشعلت الطلقات ألسنة اللهب في الأعواد الجافة، وسقطت إحدى القرويات صريعة، وغضب الأهالي فطاردوا الجنود، ومرة أخرى قتل الجنود واحدا آخر منهم، وواصلوا الجري عائدين إلى معسكرهم، ولكن الشمس فعلت ما لم يستطع الأهالي أن يفعلوه، أسقطت واحدا من الإنجليز ميتا، وخرج الجنود الغاضبون من معسكرهم وتوجهوا إلى القرية التعيسة، انتقموا من الأهالي شر انتقام، كأنهم كانوا مسئولين بشكل مباشر عما فعلته شمسهم الحارقة، حبسوا كل الرجال في مسجد القرية، ثم ساقوا أكثر من خمسين منهم إلى السجون، واعتبر «اللورد» المهذب أن ماحدث هو إهانة للجيش البريطاني فتم عقد محاكمة صورية كان هدفها هو الانتقام الأعمى، حتى المحامي الذي عين للدفاع عن الفلاحين خانهم، انقلب عليهم وحرض المحكمة ضدهم، أعدمت المحكمة أربعة من الفلاحين شنقا، وجلدت ستة وثلاثين وحكمت على الباقين بالسجن المؤبد، وتم تنفيذ كل الأحكام أمام أعين أهل البلدة المذهولين، وبعثت دنشواي في نفوس الناس الذين كانوا يعانون من القهر والهزيمة مشاعر من غضب لا يهدأ.

وصل رجال البوليس المصري وتحول المكان في الخارج إلى جحيم من القمع والعنف، تحولت الهتافات إلى صرخات، كانوا حتى هذا الوقت لم يرددوا أكثر من الكلمات الغاضبة، لم يلقوا بحجر واحد على البيت، كانوا مسالمين تماما مثل سكان دنشواي عندما

جاءهم الصيادون، ولكن المتظاهرين حين أحسوا بقسوة الهراوات، بدءوا في اقتلاع أحجار الطريق وإلقائها على البيت، انهالت الأحجار على البيت فتحطمت بعض النوافذ، وهوت الهراوات على رءوس الجميع، فأصبحت رائحة الدم خانقة، لم تجد «الليدي» هواء تتنفسه، انسحب الحراس الإنجليز إلى الداخل في حصافة، وتركوا المصريين في الخارج يمارسون العنف والقهر بعضهم ضد بعض، جاءت إحدى سيارات المطافئ وأخذت توجه خراطيم المياه على المتظاهرين الذين أصبحوا محاصرين، وحتى الذين حاولوا التراجع لم يجدوا منفذا، أحست «عائشة» أن كل هذه الضربات تهوي على رأسها، وظل وجه «اللورد» مكفهرا، وأغمي على «الليدي». وتواصلت المعركة حتى حل المساء أخيرا.

بعد انتهاء المعركة بدا المنزل غريبا، لم تتحطم النوافذ فقط، ولكن تبدد البهاء وضاعت السطوة، انزاح أثاث المنزل وتحفه الثمينة عن أماكنها، اكتسب طابعا عشوائيا، خفت لون الطلاء الناصع، تناثرت بقع الأوساخ على الرخام الأبيض، تحرك الجميع في ردهات البيت بلا صوت، وتخلى «اللورد» عن بروده التقليدي وأصبح رجلا عجوزا مجهدا، توقفت «الليدي» عن التأوه وعن طلبها للهواء الخالي من الرائحة، لم تحاول أن تسأل عائشة عن أي تفسير لما حدث، لا حاجة للتفسير، وعندما جاء «اللورد» ليطمئن عليها قالت في إيجاز:

- أريد أن أرحل، لا أريد أن ألد ابني وسط كل هذا الغضب.

وقال اللورد: سأدبر ذلك.

كانت ليلة طويلة، لم ينم فيها أحد، دبت قوة مفاجئة في جسم

«الليدي» المنتفخ، نسيت إرهاق النهار، فتحت خزائن ثيابها، أحضر الخدم أنواعا مختلفة من الحقائب، وأخذت «الليدي» تروح وتغدو وهي تعطي تعليماتها للجميع، رويدا.. رويدا بدأت الخزائن تخلو من الثياب والأحذية والقبعات وعلب المجوهرات، كانت تأخذ كل شيء يخصها تقريبا، كأنها لا تنوي العودة، لم يعد هذا البيت يخصها، كان يخص «الليدي إثيل» على أي حال، يحمل بصماتها ورائحة جسدها، وشعرت «كاثرين» دوما بأنها ضيف عابر..

في الصباح جاءت أعداد كبيرة من الكناسين، أخذوا ينظفون الميدان أمام القصر تحت إشراف البوليس، أزاحوا بقايا اللافتات، وغسلوا آثار الدماء، واستبدلوا الأحجار المخلوعة، وعندما جاءت العربات التي تجرها الخيول، تقدم الحرس الإنجليزي وأزاحوا رجال البوليس المصري بعيدا وتولوا هم تنظيم إنزال الحقائب ورصها في العربات، وتوقفت عائشة بعيدا وهي تراقب «الليدي» تهبط السلم وقد أشرق أخيرا وجهها بالسعادة، كانت مستندة إلى ذراع زوجها، ولكنها بدت كأنها لا تحس بوجوده، لا تحس بوجود أحد، اتجهت إلى العربة التي تقف في المقدمة، كان القطار واقفا منتظرا في المحطة، ولن يجرؤ على التحرك قبل أن تصل «الليدي»، سيحملها إلى الإسكندرية، ومن هناك تبحر بها الباخرة إلى وطنها البعيد.

أدركت عائشة أنها أصبحت فجأة بدون عمل، فقدت أسباب وجودها في المنزل بعد رحيل السيدة، دخلت غرفتها وأعدت حقيبتها، اكتشفت أن الأثواب التي اشترتها لها «الليدي» تبدو غير صالحة خارج المكان، لا تستطيع أن تسير بها في الشارع، ولا أن تعود بها إلى قريتها..

جلست على حافة السرير وقد داهمتها الفكرة فجأة، أين تذهب ولا مكان لها، وكل مكان تحتمي به ينكشف عنها ويتركها عارية؟ هل تعود إلى قريتها، إلى أمها العاجزة وعمها المتربص، فإلى متى تستطيع المقاومة؟ إلى متى تستطيع تحمل الحياة في هذا النجع المتعزل بعد أن انفتح العالم أمامها؟ كيف يمكن أن تغرس أقدامها في طين الأرض، وتتحمل أشواك العيدان الجارحة؟ ولكن هل من سبيل آخر؟

لم تخرج من غرفتها في اليوم الأول، وفي اليوم الثاني نظر إليها الخدم في إشفاق ولم يطلب أحد منها الرحيل، كانوا في انتظار عودة «اللورد» من الإسكندرية، هو الوحيد الذي سيحسم أمرها، ظلت مستكينة في منزل الخدم، لا تجرؤ على عبور الحديقة والذهاب إلى البيت الكبير، يمكنهم أن ينسوا أمرها، ويمكنها أن تظل في هذه القوقعة إلى الأبد، ولكن «اللورد» عاد بعد أن رحلت السيدة، عادت الحياة إلى طبيعتها في المنزل، وبدأ الزوار وطلاب الحاجات يتدفقون على المنزل، وأصبح الميدان أمام دار «المعتمدية» نظيفًا تمامًا، وبدأت عائشة تذوي في صمت، تتأمل حقيبتها الجاهزة وتنظر أن يأتيها أمر الرحيل في أي لحظة، وجاءت اللحظة في إحدى أمسيات الانتظار، جاءت إليها «جوليا» وقالت في صوت بارد:

ـ جناب «اللورد» يريد أن يراك، إنه يتناول شاي الخامسة في الحديقة.

لم ينس وجودها إذن، فكرت أن تحمل حقيبتها وتسير إليه حتى يكون طريقها ذا اتجاه واحد ولا تضطر للعودة تحت أنظار الجميع،

ولكنها سارت إليه خالية اليد، عبرت الحديقة وهي ترتعد، كان جالسًا تحت كشك تضيئه لمبات الكهرباء وتنمو حوله الأزهار وتتسلق أعمدته غصون اللبلاب، وقفت أمامه، كان يرتدي ثيابه البيضاء الكاملة، كما تعود دائمًا، وأمامه فناجين الشاي وقطع البسكويت كما تعود، وقفت أمامه صامتة وقد خفضت رأسها، سمعته وهو يتمتم في صوت خافت:

ـ لم أحسب أنني سأحتاج إليك، لم أحسب أني سأحتاج إلى أحد، وفي الحقيقة لقد أعد المستر «هاري بريل» مستحقات إنهاء خدمتك بالفعل، ولكن أريد أن أعرف ماذا يقول هؤلاء الناس عني..

أشار إلى كومة من الجرائد المطوية أمامه على المنضدة بجانب أدوات الشاي، لم تفهم عائشة بالضبط ماذا يريد، ولم تصدق عينيها وهو يشير إليها أن تجلس في المقعد المقابل له، ظلت مترددة، عاد يشير لها مصرًا، جلست وهي تكتم أنفاسها، أزاح كومة الصحف في اتجاهها وهو يواصل القول:

ـ المعلم «نيقولا» مترجم المعتمدية ذهب إلى لبنان، ربما لن يعود، لم أكن أريد ترجمته الباردة اللعينة على أي حال، أريد أن تخبريني ماذا تقول عني هذه الصحف... لا تتجاهلي حرفًا، ولا تحاولي إرضائي كما كان نيقولا يفعل.. ترجميها لي بألفاظها اللعينة..

المرة الأولى التي تسمع فيها «عائشة» كل ألفاظ السباب وهي تخرج من فمه، أدركت أن المظاهرة وغياب السيدة قد تركا أثرًا عميقًا في نفسه، بلعت ريقها ومدت يدها والتقطت أولى الصحف، اسمها «اللواء»، ولا بد أن من رتب الجرائد قد أعطاها الأولية، تتصدرها

مقالة بعنوان «ارحل.. ياسفاح دنشواي» كانت مكتوبة بحروف صغيرة، وتحتها مكتوب بخط أكبر قليلا « مصطفى كامل»، نفس الاسم الذي كان يتردد في أثناء المظاهرة، قرأتها من دون صوت أولا، كانت الكلمات عنيفة، مليئة بالاتهامات، ظل هو يراقب انفعالات وجهها بعين نافذة، وعندما طال ترددها هتف بها :

ـ لست طفلا صغيرا.. أستطيع أن أتحمل.

بدأت تترجم الكلمات بنبرات متعثرة، تشجعت قليلا حين رأت هدوءه، ترجمت السطور الأكثر عنفا، دون أن يعلق أو ينفعل، ولكنه كان أحيانا يتخلى عن صمته، يضحك ساخرا، أو يهز رأسه مستغربا، وحين قرأت عليه خبرا في أحد الصحف عن أن الخديو «عباس» أصدر قرارا بالإفراج عن المسجونين في قضية دنشواي، هز اللورد كرومر يده رفضا وهو يقول في حنق:

ـ هذا التركي اللعين.. يريد أن يكون بطلا على حسابي.

كان هذا هو اليوم الأول في وظيفتها الجديدة، تواصلت الأيام بعد ذلك، وارتفعت كومة الجرائد، كانت هناك صحف تدين له بالولاء، وتمجد أعماله في مصر، ولكنه كان ينحيها جانبا، كأنه كان يبحث فقط عما يؤلمه، أشار لها أن تتوقف أمام مقالة تحمل عنوان « فظائع العدالة البريطانية» كانت مترجمة عن الإنجليزية، عن جريدة تدعى «مانشستر جارديان»، وانتبه «اللورد» قليلا، وحين علم اسم الكاتب انتصب في مقعده، تناول فنجان الشاي بأصابع مرتعدة ولكنه كان فارغا، هتف بصوت متحشرج:

ـ ويلفريد بلنت.. لقد حسبته صديقي!

كان يتألم، وتوقفت عائشة عن القراءة، تمالك نفسه وأشار لها أن تواصل، كان الكاتب يطالب صراحة من السلطات البريطانية أن تستدعيه لأنه لم يعد صالحا لحكم مصر وأنه عطل العدالة والقانون وأحل بدلا منهما قانون الوحشية والانتقام، توقفت وهي تلهث، لم تتصور أن يتحمل كل هذه الأشياء، لم يحاول أن يستحثها على قراءة المزيد، ظل جالسا غارقا في الصمت، ولكنه كان يلتقط أنفاسه في صعوبة، لم تجرؤ على التحرك، أو محاولة القيام، قال بعد فترة:

ـ هل هناك مقالات أخرى مأخوذة من الصحف البريطانية؟..

قلبت في الصفحات المائلة للصفرة بسرعة، كانت هناك واحدة أخرى بالفعل، وللغرابة كانت تعرف اسم الكاتب، شاهدت اسمه على وجه أكثر من كتاب في مكتبة مدرستها القديمة في أسيوط، كان كاتبا كبيرا لم تتصور أن يهتم بقضية بعيدة في بلد بعيد، كانت خائفة من أن تذكره له بعد ماحدث في المقالة الأولى، قالت في غباء:

ـ هناك مقالة أخرى، ولكن اسم الكاتب لا يظهر بوضوح..

قال وهو ينفخ: يافتاة.. أنا أقوى مما تتصورين.. ما اسمه؟

قالت بشكل مباشر: جورج برنارد شو.. إنها ليست مقالا.. إنها مقدمة مسرحية تدعى «جزيرة جون بول الأخرى».

قال في صوت متهكم: يسخرون مني على المسرح أيضا؟

كان الكاتب يطلب من مشاهدي مسرحيته أن يتخيلوا أن فرقة من الصينيين هبطت إلى قرية إنجليزية وادعة، وأخذوا يقتلون البط والإوز والدجاج الرومي بدعوى أنها طيور برية في عرفهم، ماذا

يمكن أن ينتاب أهل القرية من الإنجليز غير مشاعر الغضب والكراهية لهؤلاء الغزاة؟

ورفع «اللورد» يده وهو يقول:

ـ كفى.. الأمور سيئة بما يكفي..

توقفت عن القراءة، وظل هو صامتا كأنه يحاول أن يستوعب كل ما سمعه، قال في صوت خافت:

ـ هذا بلد غريب، لا أدري لماذا يكرهونني، لقد خلصتهم من تعسف الأتراك وقسوتهم، ومع ذلك لا أحد يقف معي، ولا أحد يعرف معنى إصلاحاتي..لقد بنيت لهم سد أسوان، وهزمت المتمردين في السودان.. إنها بلاد الموتى..!

كان يتحدث إليها، يحاول حائرا أن يجد إجابة في وجهها، كأنها تمثل كل الفلاحين الذين احتار طويلا في فهمهم، نهض واقفا وهو يقول:

ـ هذا المكان قذر وناكر للجميل..!

تركها جالسة، وانصرف بخطى بطيئة حتى اختفى في ظلمة الحديقة.

تكررت جلستهما كثيرا، كان التعامل معه أسهل من «الليدي»، لم يكن يأنف من رائحة الآخرين، ربما لم يكن يشمها على الإطلاق، خفت حدة اللهجة الغاضبة في مقالات الصحف، ولكن كان هناك دائما ما يذكره بهذه الحادثة، بدأت تتجنبها، ولم يحاول هو أن يستحثها كثيرا، بدأ يرتاح لوجودها بجانبه، كان يريد أن يعرف: كيف

يراه الآخرون؟ وكيف يرون العالم الذي يقوم بصنعه؟ اعتقدت عائشة أنه قد تعافى من آثار دنشواي.. ولكن الأمر لم يكن كذلك..

في تلك الليلة حلمت عائشة بأمها، رأت ملامحها بوضوح، لم تكن تشكو أو تتألم، كان يحيط بها وهج من الشوق والحنين، حلمت بأنها تعود تشم رائحة جسمها، تطوف في قريتها وتشم رائحة الطين والزرع والسبخ، ولكنها أحست فجأة بأصابع عمران وهي تزحف على جسدها، كانت باردة ومعروقة ومرتجفة، فتحت عائشة عينيها في فزع، كانت الغرفة الصغيرة معتمة، لا يتسلل إليها إلا ضوء خافت قادم من المطبخ، رأت بواسطته وجه اللورد، نهضت وابتعدت عنه في رعب، جمعت الغطاء حول صدرها، استطاعت أن تشم رائحة أنفاسه المختلطة بالتبغ والخمر، كان يلتقط أنفاسه في صعوبة كأن الغرفة خالية من الهواء، وكانت عيناه لامعتين كأنهما ممتلئتان بالدموع، لم تصرخ عائشة، في الواقع لم تكن تشعر بالخوف منه، كان في حالة تثير الرثاء وهو ينظر إليها كطفل مذنب، همس:

ـ إنهم هنا..

التصقت عائشة بالحائط، وبحثت عن صوتها قبل أن تقول:

من؟!

قال: هؤلاء الفلاحون من دنشواي، لا أدري كيف تسللوا من خلف السور، إنهم في الحديقة الآن، لقد شممت رائحة عرقهم ورأيت أشباح أجسادهم بين الأشجار..!

ـ هناك حرس في كل مكان، كيف يمكن أن يتسللوا من دون أن يروهم؟.. ربما كنت تتخيل ياسيدي.

- لقد جاءوا للانتقام، أنا لست خائفا منهم، ولكن لا أدري لماذا يأتون إلي؟ لماذا لا يذهبون للقاضي الذي حكم عليهم، أو المحامي الذي خانهم؟..

كان يرتجف، أمسك بحافة السرير الصغير فأخذ السرير يهتز أيضا، شعرت بالخوف الحقيقي:

- لماذا لم تستدع الحرس؟ لماذا جئت إلي؟

قال وهو يحاول السيطرة على نفسه:

- اذهبي إليهم، تحدثي معهم، أنت الوحيدة هنا القادرة على ذلك، أريد أن أعرف ماذا يريدون مني؟

- ربما علينا أن ننتظر حتى ينصرفوا..

- لن ينصرفوا قبل أن تظهر الشمس، وربما لن يفعلوا، لن أستطيع أن أبقى هادئا وهم موجودون في حديقة بيتي.

سرت عدوى الارتجاف إلى «عائشة» وبدأ الخوف يتسلل إليها، كانت أصغر من أن يأخذها اللورد إلى كوابيسه الخاصة، ولكن لم يكن أمامها سوى النهوض، والبحث عن «الشبشب»، ضمت الرداء حول جسدها، تقدمت وهو يسير خلفها، كان مثل طفل لا يريد أن يدعها تغيب عن عينيه، ولكنه تركها تخرج، ظل هو محتميا في الداخل، لم يجرؤ على عبور الباب، هب هواء الحديقة باردا ومبللا، وبدت النجوم بعيدة، مختبئة خلف الشجر، لم تكن تعرف إلى أين تتجه، ولكن الهواء كان يخترق جسدها، والعشب يبلل قدميها، كانت تريد أن تتجول قليلا ثم تعود إليه لتؤكد له أن الحديقة خالية وأنه كان

واهما، ولكنها أحست أن هناك شيئا بالفعل يهيم في الفضاء، أرواح ضائعة وتعيسة، وامتلأت الريح فجأة بأصوات وهمهمات خافتة، ارتجف قلبها وشعرت بنوع من الشجن الطاغي، عرفت فجأة إلى أين تتجه، كانت الأصوات قادمة من خلف دغل من الأشجار القصيرة، كانوا هناك، جالسين، مكومين على الأرض يريدون الاختباء وسط الأغصان المتشابكة، لم يكونوا أشباحا، كانوا ثلاثة أشخاص، رجلان وامرأة، لم يكونوا فلاحين ولا من دنشواي، كانت بشرتهم السوداء المكسوة بالعرق لامعة تحت ضوء النجوم، ملتصقين بعضهم ببعض وهم يرتجفون، يحدقون فيها بعيون مرعوبة، قالت عائشة:

- من أنتم؟!.. من أين جئتم؟

ظلوا يحدقون فيها، كانوا يتوقعون شخصا آخر، وليست فتاة يافعة، سمراء البشرة، قال أحدهم:

- نحن عبيد.. هربنا من منزل الباشا وجئنا إلى هنا.

قالت عائشة مستغربة: أي باشا؟

- الباشا الأكبر.. لا يوجد مكان يحمينا منه في مصر كلها إلا هذا المكان.

لم تصدق عائشة أذنيها، نظرت إلى أجسادهم الضئيلة، وعظامهم الناتئة، قالت:

- ولكن.. كيف استطعتم التسلل من خلف السور؟

قالت المرأة: نحن عبيد يا بنتي، نعيش دائما في مطاردة مستمرة،

الهروب والقفز والتسلل هي ميزاتنا الأساسية حتى نستطيع البقاء على قيد الحياة.

لم يصدق «اللورد» أذنيه وهي تخبره باكتشافها، ظل خائفا ومترددا من أن يتبعها إلى داخل الحديقة، عاد الدم إلى وجهه واختفت التجاعيد التي كانت تملؤه، اعتدلت قامته واسترد ثقته بنفسه وهو يعبر الحديقة خلفها، كان العبيد في المكان نفسه، وعلى نفس الدرجة من الخوف والجوع، وقف أمامهم وتولت عائشة عملية الترجمة، وما أن نطقوا باسم الباشا الذي هربوا من قصره حتى صرخ اللورد في جذل وابتهاج:

ـ مصطفى باشا فهمي.. رئيس الوزراء.. يا لها من مصادفة..

تحول إلى طفل صغير، ولم يكف عن التقافز وهو يستمع إلى عائشة وهي تترجم له كلمات العبيد الثلاثة، كان النخاسون قد جاءوا بهم من السودان، ساروا بهم في «درب الأربعين» عبر صحراء وعرة وطرق لا يستدل فيها سوى رعاة الإبل الذين يسوقون حيواناتهم من الجنوب للشمال في رحلة تستغرق أربعين يوما كاملة، من ينجو منها لا يعرف الخوف والجوع طريقهما إلى نفسه بعدها، تقلب العبيد الثلاثة بين أيدي النخاسين والسماسرة حتى استقروا في قصر الباشا، لم تكن الحياة داخل القصر سيئة إلى درجة كبيرة، وبخاصة المرأة التي عرفت طريقها إلى فراش الباشا أكثر من مرة، ولكنهم كانوا يحلمون بالحرية، ولم يكن لهم مهرب في مصر كلها إلا هذا المكان، «اللورد» هو الوحيد القادر على مناوأة الباشا الكبير ومنحهم هذه الحرية.

اشتعلت الأضواء في أرجاء القصر، حتى غرفة «الليدي» الخالية تمت إضاءتها، نقل العبيد الثلاثة إلى وسط البهو، قامت «جوليا» شخصيا بتقديم الماء والطعام لهم، وجاء «هاري بويل» وهو يتثاءب، ولكن ما أن أدرك الوضع حتى أفاق بسرعة، بدأ في صياغة البرقيات لوزارة الخارجية البريطانية، وأرسل العديد من المندوبين إلى كل الصحف المصرية والأجنبية، كان يطلب منهم بأمر من جناب «اللورد» أن يرسلوا محرريهم ومصوريهم إلى دار المعتمدية منذ الصباح المبكر، لأن هناك خبرا صاعقا في انتظارهم، أخطر مخالفة قام بها مسؤول مصري رفيع المستوى ضد قانون منع العبودية الذي تم إقراره في كل أنحاء الإمبراطورية البريطانية منذ حوالي مائة عام.

في الصباح امتلأت الدار بجمع من الصحفيين والمراسلين والفضوليين، وضع العبيد الثلاثة في أحد الأركان، لم يفهموا سر هذه الضجة، كانوا مذعورين وخائفين أن يتم تسليمهم مرة أخرى، كانت آلات التصوير رابضة في ساحة المنزل، وهي تصدر فرقعة وضوءا ساطعا مع كل صورة، كان الصحفيون يستمعون إليهم قليلا ثم يوجهون اهتمامهم الرئيسي إلى «اللورد» وإلى تصريحاته حول اعتزامه تقديم رئيس وزراء مصر إلى المحكمة، كانت عائشة تقف بجانبه وهي تلاحقه بالترجمة، أصبح قويا، معتدا بنفسه، غير خائف من أي أشباح، مؤكدا أنه سيرد على كل الذين اتهموه بالوحشية والهمجية، كان الآن ينتصر لقيم الحضارة مرة أخرى في هذا البلد المتبربر الذي يحكمه البرابرة..!

وسط هذا الزحام، جاء «هاري بويل»، همس للورد في صوت خافت ولكن عائشة سمعته وهو يقول:

ـ صحيفة اللواء.. لقد منعنا التعامل معها، ولكنهم أرسلوا واحدا منهم يدعى عبد الرحمن الرافعي..

قال «اللورد» في مرح: فليدخل بالطبع.. هذه مناسبة غير عادية.. كنت أنتظرهم هم بالذات.

راقبت عائشة الرجل وهو يدخل، لم يكن شابا مثل بقية المراسلين، كان رجلا قصير القامة، أميل إلى الامتلاء، يملك عينين مليئتين بالتأمل والحزن، لايحمل ورقة وقلما كالآخرين، ولم يهرع مثلهم ليلتحق بالدائرة التي تحيط باللورد، وقف في أحد أركان القاعة يتأمل كل ما يدور كأنه يسجله في ذاكرته، ظل ساكنا لايريد أن يلفت الأنظار إليه، ولكن «اللورد» رغم انتشائه بدأ يحس بالقلق من وجوده، ظل يراقبه من طرف خفي وهو يخشى أن يهاجمه فجأة بسؤال عن دنشواي، لم يفعل الرجل، ظل يستمع إلى كلمات «اللورد» وتهديداته بعد أن علت نبرته، ثم ارتفع صوت الرجل القصير الممتلئ فجأة، قال دون أن يتحرك من مكانه:

ـ ولكن لماذا تفعلون ذلك بالباشا وهو من أقرب الأصدقاء لكم، ولقد كان أول المتحمسين للتعاون معكم؟

بالطبع، لم يكن «اللورد» يتوقع منه غير هذا النوع من الأسئلة المسمومة، رفع رأسه في اعتداد وهو يقول:

ـ ما زال مصطفى باشا فهمي صديقي، ولكن القانون هو صديقي الأقرب.

كانت كلمات مدوية جعلت «اللورد» يشعر بالزهو والسرور من نفسه، لقد رد بأفضل ما يمكن على الصحيفة التي أهانته طويلا، أومأ برأسه وهو يقول:

ـ والآن يا سادة، ورائي كثير من العمل، ستبقى المترجمة معكم إذا احتجتم لسؤال هؤلاء الهاربين البؤساء.

استدار ودخل إلى مكتبه مسرعا يتبعه هاري بويل، وظلت عائشة واقفة وسط الجميع تتمنى أن ينتهي كل شيء، ولكن كثيرين ممن دخلوا هذا المكان للمرة الأولى لا يريدون أن يغادروه سريعا، ظلوا يتجولون، يتأملون اللوحات المعلقة على الجدران، والتماثيل النصفية ويسألون عائشة حول أي شيء، كانت تفكر في الانسحاب حين سمعت صوته وهو يهتف بها:

ـ ماذا تفعلين في هذا المكان؟! ألا ترين كيف يكذب هذا الرجل؟

التفتت، كان الرجل من اللواء هو الذي يسألها، يتأملها بعينين متفحصتين، اسمه الرافعي بقدر ما تذكر، قالت:

ـ أنا أعمل هنا.. أقوم فقط بالترجمة ولا شأن لي بكل مايقال.

ولكنه لم يكن يريد أن يدعها تفلت منه بسهولة، قال:

ـ إنه يحاول أن يفلت بما فعله في دنشواي، وهو يقضي على أهم صديق لهم من أجل ذلك.

قالت في حزم: سيدي، كان يمكنك أن توجه للورد هذا الكلام.

زم شفتيه، لم يجد مايقوله، أحنى رأسه وهو يقول:

ـ أنت على حق، آسف لأنني أزعجتك.

تراجع من أمامها، أحست بالأسف لأنها تعاملت معه بهذا الجفاء، ولأنه رغم غضبه ظل محافظا على دمائته، دار حول نفسه قليلا، بدا كأنه يريد أن يتحدث مع العبيد، ولكن كان واضحا أنه لا يطيق البقاء في هذا المكان طويلا، استدار وغادر قبل الجميع.

كالعادة خرج اللورد متصبرا، عندما جلست «عائشة» معه في الحديقة بعد ذلك بعدة أيام وأمامهما كومة الصحف، كانت حادثة دنشواي قد تراجعت إلى الظل، واحتدم النقاش حول محاكمة رئيس الوزراء، هل يعفو «اللورد» عنه أم يتركه فريسة لصرامة القوانين؟ كانت «عائشة» أكثر راحة وهي تترجم له الأشياء التي يحبها وتزيد من اعتداده برأيه، أصبحت هذه الجلسة من أساسيات العمل اليومي للورد، أصبحت أفضل بكثير من التقارير الروتينية المملة التي كان «هاري بويل» يضعها على مكتبه كل يوم، ولكن عائشة لم تستطع أن تشعر بالأمان، كان تساؤل هذا الرجل الذي اسمه «الرافعي» مازال يطن في أذنها.. ماذا تفعلين في هذا المكان؟! أدركت أنها قد ابتعدت كثيرا عن عالمها الحقيقي، وأنها لا تنتمي إلا للناس الموجودين خارج هذا السور، كانت تعيش تحت اسم غير اسمها، وتختبئ تحت جلد غير جلدها، عليها أن تسترد كل تاريخها المنسي، وتذهب لمقابلة أمها التي لا تعرف إن كانت لاتزال على قيد الحياة أم لا، كان عليها أن تذهب إليها، وتتحمل بعضا مما تتحمله، ولكن متى تحين اللحظة؟ ومتى تستطيع أن تأخذ قرارها؟..

ولم تدرك «عائشة» أن هذه اللحظة قد حانت بالفعل إلا حين رأت هوارد كارتر للمرة الثانية.

كانا جالسين هي واللورد في الحديقة عندما رأته وهو قادم نحوهما، رغم العتمة التي بدأت تهبط على الأشجار، ولكن «عائشة» تعرفت عليه على الفور، لمحت قامته وقد ازداد نحافة وأصبح أكثر طولا، توقف أمامهما تماما، ورأت وجهه بوضوح، شعره بلون القش المترب، وبشرته شاحبة وصُدغاه غائران، فقد الألق الذي رأته به عائشة في المرة الأولى، كان شخصا متعبا، ثيابه متجعدة، وعلى كتفيه بقايا غبار لم يتوقف لينفضه، أحنى رأسه نحوهما في صمت دون أن يحاول الاعتذار عن قدومه المفاجئ، استدار «اللورد» وتأمله طويلا كأنه يحاول أن يتذكره، أدرك على الفور أنه ينظر إلى رجل منهك يحاول التماسك، ورغم ذلك فقد استدار كارتر لعائشة وأحنى رأسه وعلى شفتيه ابتسامة باهتة، ووجدها «اللورد» فرصة ليقول في سخرية:

ـ مستر كارتر.. لقد فاجأتني بزيارتك.. هل ما زالت الآلهة تتجلى لك؟

قال كارتر في صوت مكتوم:

ـ كلا يا سيدي «اللورد»، لم أعد أشاهد سوى الكوابيس..

ـ أمر مؤسف.. عليك أن تستشير الأطباء.

ـ إنني أعرف علتي يا سيدي.

توقف عن الكلام، لم يكن يدري إن كان عليه أن يتكلم في وجود

عائشة أم ينتظر حتى تنصرف، نهضت هي بالفعل ولكن اللورد أشار لها أن تبقى ونظر إلى كارتر في صلابة، لم يشر له حتى بالجلوس، كانت قضية كارتر خاسرة من بدايتها ولكنه لم يكن يستطيع التوقف عن الكلام:

ـ لقد انتزعت من عالمي يا سيدي، وضاع السبب الذي جئت إلى مصر من أجله، نقلت من وادي الملوك إلى طنطا حيث لا يوجد إلا بضعة من المساجد والحواري الضيقة والفلاحون المتعبون، لقد عاقبتني من دون ذنب، لمجرد أنني حافظت على الآثار التي أشرف عليها وحميت الناس الذين يعملون تحت إمرتي.

قال «اللورد» في برود:

ـ لقد أسأت إلى عملي، تسببت تصرفاتك في حدوث أزمة دولية بيننا وبين فرنسا، أهنت قنصلها العام ورفضت الاعتذار، أنا لا أتهاون مع الخطأ يا سيدي، لم أفصلك من عملك وهو الأمر الذي كنت تستحقه، اكتفيت بنقلك إلى موقع آخر.

قال كارتر بصوت مليء بالانفعال:

ـ نقلتني إلى الفراغ والسأم، وقضيت على حياتي المهنية.

ـ خذ حذرك إذن، هذه البلاد مليئة بالصحراء الشاسعة، يمكنني أن أنقلك إلى أبعد من ذلك..

ـ لن تستطيع يا سيدي!

كانت عائشة تتابع الحوار بفم فاغر، لم تتصور أن تسمع هذا الصراع المحتدم بين إرادتين دون أن يتخلى أي منهما عن الألقاب

الرسمية أو حتى يرفع نبرة صوته، مد «هوارد» يده إلى جيبه وأخرج منه ورقة مطوية واقترب حتى وضعها على المنضدة أمام عيني «اللورد» مباشرة، وهو يقول في حسم:

ـ هذه استقالتي يا سيدي، لن تستطيع نقلي إلى أي مكان بعد الآن.

ظل «اللورد» دون حركة، لم يمد يده حتى ليلمس الورقة، والتفت كارتر نحو عائشة وأحنى رأسه بخفة، استدار وبدأ يسير منصرفا، يختفي وسط عتمة الأشجار، نهضت عائشة واقفة، أحست أنها لا تستطيع البقاء ساكتة أكثر من ذلك، أحست فجأة أن هذا المكان هو أيضا منفى، يسلبها القدرة على فعل أي شيء أو قول أي شيء، يحولها بالتدريج إلى كائن ميت، نظر «اللورد» إليها مستنكرا وهو يقول:

ـ لم آذن لك بالانصراف بعد.

قالت بصوت مخنوق: أريد أن أتحدث معه.

ـ إنه خاسر، ولا جدوى من الحديث معه..

ولكنها كانت قد بدأت في السير مبتعدة عن «اللورد»، واختفت خلفه في العتمة.

وادي طيبة

«الزمن لا يكتمل، والحلم لا يدوم، وهاأنا ذا أقف ـ يا أميرتي ـ على حافة الضياع، غريب دون مكان آمن، ضاع مني فردوسي القاحل، ولم أعرف مكان الحية المترصدة خلف صخوره، كان فردوسي، أو هكذا اعتقدت، في البر الغربي المقفر من ضفة النيل، كانت الأقصر، تلك المدينة الغريبة العتيقة، حارقة كالجحيم، خانقة كخيبة الأمل، وعندما وضعت قدمي للمرة الأولى على ضفتها الأخرى، هالني ركام الأزمنة والأرواح التي لا تجد لها مستقرا، كان وادي الملوك مليئا بالصخور والفجوات السوداء والأعمدة المتربة والتماثيل المتكسرة والمسلات الهاوية، لا يبدي شيئا من أسراره الدفينة، ولكنه لا يليق باسمه، أو هكذا بدا لي في تلك اللحظة، صخوره المتجهمة متعامدة على النيل، ولكنها ترتفع في شكل هرمي، وتميل إلى الأمام مكونة قرنا حجريا ينحني في اتجاه صفحة النهر، كأنها تعاني من ظمأ لا ينطفىء، إلى هذا الوادي جئت يا أميرتي، حيث رقدت أجساد الملوك القدامى في انتظار مجد الأبدية، ولكنها نهبت وتمزقت قبل أن تظفر بلحظة من الخلود، أو ببركة من الغفران.

عندما عبرت الخط الفاصل بين الوادي والصحراء سمعت الأصوات الرهيبة وهي تنبعث من تمثالي الملك أمنحتب الثالث العملاقين، كانت الريح تملأ فجوات التمثالين فتنبعث منهما أصوات مرعبة أشبه بالعويل، اعتقد اليونانيون أن روح قائدهم العظيم أجاممنون تسكن فيهما، وأنه لا يكف عن التفجع حزنا على ابنته التي ضحى بها حتى تهب رياح الحرب، وغضبا على زوجته التي خانته وقتلته يوم عودته منتصرا، ولكنني أحسست أن هذه الأصوات تتحدث إلي بشكل خاص، تحذرني من الدخول إلى عالم الموتى، كانت هي الشيء الوحيد الذي يملأ هذا السكون المقدس، ولكنني لم أستمع إليها، عبرت كل الحدود لعلي أظفر ببعض من السكون الذي أتوق إليه.

كعادتي لم ألجأ إلى بيت أو استراحة، استقررت حيث توجد النقوش والرسوم التي لم أكن أمل من النظر إليها، وجدت لي مكانا داخل «الدير البحري»، كان الجرف الصخري الذي أقيم المعبد في حضنه يحميني من خواء الصحراء المترامية من حولي، كنت أستيقظ في الصباح لأشم بقايا عطور «حتشبسوت» التي جاءت أشجارها من بلاد «بونت» البعيدة، تحجرت الأخشاب، وبقي الرحيق، ثم أقضي اليوم كله أعيد رسم النقوش التي تحتشد بها الجدران، حاملات القرابين في مسوحهن الشفافة، وأسرار الولادة المقدسة، وطقوس القرابين للآلهة، وفي الليل عندما أستسلم مرهقا للنوم تأتي إلي الملكة حتشبسوت من دون ثيابها، لا ترتدي سوى لحية مزيفة.

في كل يوم كان الزمن يسرق جزءا من عمري، كنت أخطو فوق سنواتي العشرين وقد انقطعت الشعرة التي تربطني مع عالم الأحياء،

منذ أن تركت «بني حسن»، وعملت في الحفر والبحث عن الآثار، وابتلعت كميات كبيرة من الأتربة، خلدت إلى سكون الدير البحري وإلى برودته، وقد ازددت توحدا وانعزالا، ولكنني لم أفطن لذلك إلا حين قابلت «روزاليند باجت» أو «روزا» كما أصرت على أن أدعوها.

في وقت الظهيرة كنت مسمرا أمام أحد الجدران، كان هذا أفضل وقت لانتشار الضوء وسط أبهاء المعبد، وكانت الجدارية التي تشدني مزدحمة بنقوش السفن والأشرعة والبحارة، يمسكون عشرات المجاديف يشقون موج البحر الأحمر، نقوش تصور واحدة من رحلات الاكتشاف الكبرى إلى بلاد «بونت» في داخل إفريقيا القديمة، كانت هناك تفاصيل كثيرة قد تم محوها، أشياء كانت مألوفة وسط صراعات الأسر المتعاقبة، كنت أحاول أن أكمل اللوحة في خيالي، أراها وكأنني أعيش اللحظة التي انتهى منها النقاشون، ثم رأيت ظلا ينعكس على الجدار أمامي، في البداية حسبت أن عبد الرسول قد جاء يحمل إلي حاجتي اليومية من طعام وشراب، لم أبال بالالتفات إليه، تعود على صمتي الطويل، وتعود أن يترك هذه الأشياء بجانب أحد الأعمدة ويمضي مبتعدا، ولكنني سمعت صوتا نسائيا يقول لي:

ـ أنت مأخوذ بهذه اللوحة كثيرا.. أليس كذلك؟

التفت إليها مندهشا، وجدتها تقف أمامي، طويلة ونحيلة مثل عود غاب، تلبس ملابس الرجال الكاكية اللون، تمسك في يدها قبعة من القش وفي الأخرى حافظة مليئة بالأوراق، شعرها الأشقر قصير

وصبياني، وكانت ملامحها دقيقة وفاتنة وبشرتها البيضاء قد لوحتها الشمس وأكسبت وجنتيها نوعا من الاحتقان الوردي، تأملتني بعينيها الزرقاوين، مندهشة ومستغربة، تقدمت خطوة وهي تقول:

ـ لقد حدثوني عنك كثيرا، ولكنني لم أتصور أنك بري ومنعزل إلى هذه الدرجة.

لم أفهم ماذا تعني، ولكنها لم تبد خائفة مني، تقدمت خطوة وتأملت الخطوط التي ما زلت أرسمها، قلبت أوراقي دون أن تبالي باستئذاني، أصبحت قريبة مني لدرجة ملأ عطرها أنفي، تأملت الرسوم في تمعن ثم استدارت فجأة، أعطتني ابتسامة منشرحة وهي تمد يدها قائلة:

ـ أنا «روزا» وأنت السيد هوارد كارتر على ما أعتقد.

يدها صغيرة وناعمة، رأيت فيما بعد آثار الألوان على أصابعها، لم تكن سائحة عادية كما توقعت في أول الأمر، فتحت حافظتها وأرتني ما فيها من رسوم، خطوط غريبة مستوحاة من معبد دندرة وإدفو وحتى من معابد فيلة التي كانت تظل غارقة معظم العام، لم تكن خطوطها متطابقة، فيها كثير من العفوية والخصوصية، كانت تضع شيئا من ذاتها على كل الخطوط القديمة، لم تكن متزمتة كخطوطي، كانت روحا حرة لا تبالي كثيرا بالخطوط التقليدية، لعلها لم تقابل «بيرسي نيوبري» كي يعطيها تعليماته الصارمة التي لم أشعر بأنها تضايقني حتى الآن، قالت لي وهي تزيح خصلات شعرها بعيدا عن عينيها:

ـ كنت إحدى طالبات البروفيسور «بتري» في جامعة لندن وطالما تمنيت أن أجيء إلى مصر للحفر معه، ولكن عندما استطعت أخيرا

أن آتي إلى هنا وجدته وهو يجمع أدواته، كان قد أنهى مهمته، كان غاضبا لأنه لم يستطع أن يختتم حفرياته في طيبة، إنني أعمل الآن في موقع الدكتور «إدوارد نافيل».. هو الذي نصحني بالمجيء إليك..

كنت قد عملت مع «بتري» في الحفر بعد أن تركت مقابر بني حسن، كان يعتقد أنه الباحث الوحيد والحقيقي عن الآثار، وأن الآخرين مجرد رافعين للركام، يعتمدون على المصادفة وضربات الحظ، ومنهم «نافيل» نفسه، أردت أن أقول لها إنني أحب «نافيل» رغم رأي «بتري» فيه، كان سويسريا ضخما مليئا بالحيوية وحس المغامرة، يتلقى دعما وهبات مالية سخية من إحدى شركات الترام في فرنسا، ولولا ذلك ما استطاع أن يواصل العمل كل هذه السنوات، وأن يزيل آلاف الأطنان من الصخور من أمام المعبد البحري حتى كشف عن واجهته، لقد مهد لي الطريق للمكان الذي أعيش فيه الآن، ولكن في هذه اللحظة هربت مني كل الكلمات، أخذ قلبي يخفق بشدة، بينما تتحدث هي ببساطة وتلقائية، كنت قد تعودت على الصمت الطويل، لم يعد في مقدوري الاسترسال في أي حديث، هذه هي المرة الأولى التي أقف فيها أمام امرأة بمفردها تعمل في هذا المجال، قلت لها:

ـ كيف تستطيعين العيش هنا... أعني في المعسكر.. وسط كل هؤلاء الرجال؟

قالت وهي تضحك: لم يحدث هذا مشكلة حتى الآن، بالنسبة إلي فأنا لا أميل للنساء كثيرا على أي حال.

تجولنا معا في أبهاء المعبد، كأن «حتشبسوت» قد اخترقت الزمن

وجاءت لتسير في صحبتي دون لحية مستعارة هذه المرة، قلت لها إن هذا معبد بني من أجل الحب، هنا كانت «حتشبسوت» تقابل حبيبها «سنومت»، توقفنا في المحراب الداخلي أمام صورة الإلهة «حتحور» المحفورة بخطوط عميقة، إلهة الفرح والحب والجمال، انحدرت من بقرة سماوية، وما زالت تحتفظ بأذنيها الكبيرتين، وكان الموتى يرسمونها على جدار مقابرهم على أمل أن تسهل لهم العودة للحياة، وكان يوجد تحت قدميها إناء مليء بالخمر تحية منها لكل الذين يشربون حتى الثمالة.

لم أقل لها شيئا، احتشدت كل الكلمات بداخلي من دون أن تخرج، هي التي تتكلم، تخدش الصمت الذي مرت عليه آلاف الأعوام، تملؤه بحيوية متدفقة وبدفء يزيح برودة الأروقة، انتهينا من التجوال، سرنا على الممر الكبير المنحدر من بوابة المعبد، نحو النيل، قالت لي:

ـ هذا مكان رائع، ولكن كيف تتحمل كل هذا الصمت والوحدة؟! أنت أشبه بقصة تنشرها الصحف في أمريكا الآن عن رجل كان يعيش وحيدا في الأدغال، الفرق هنا أنك تعيش في الصحراء.

أشرت لها إلى سهل طيبة الذي يترامى أمامنا حتى ضفة النيل، وأنا أقول:

ـ هذه ليست صحراء.. هنا ولد العالم..

في البدء، كان هناك شعاع ضوء وهبة من ريح وذرات من غبار، وكان هذا الوادي مجرد بحيرة ماء مليئة بالطحلب الداكن وممتدة حتى حافة الأفق، وهبط الإله حتحوت ليقوم بتجفيفها ولكنه مل

ذلك سريعا، كان كل ما صنعه هو قطعة صغيرة من اليابسة، ثم وضع فوقها بيضة العالم، كان قد تصورها في خياله أولا، أطلق بيضة الخلق الأولى وبدأ الكون صيرورته، خرجت الشمس من إحدى أزهار اللوتس، وأطلق طائر البشاروش أول صيحة في السكون، وولد أول رجل من نطفة ثور وجاءت المرأة الأولى من قطرة ندى.

لم أقل لها ذلك طبعا، على الرغم من أن الكلمات التي اختزنتها في صدري كانت على وشك الانفجار، ظللت أستمع إليها، قالت إنها شاهدت بعضا من المجلدات التي صدرت في لندن والتي تضم رسومي عن مقابر بني حسن والدير البحري، كانت تعرفني أكثر مما أعرفها، تنتظر مني أن أتكلم أكثر ولكني لم أستطع، لم تواتني القدرة على الكلام إلا حين لمحت عبد الرسول بقامته العملاقة وهو يحرك ساقيه وهو فوق ظهر الحمار ليغذ سيره، يحمل مؤونتي اليومية من الطعام، قلت لها :

ـ ابقي للغداء معي.

ولكنها أحست أن الوقت قد مر علينا أسرع مما ينبغي، قالت:

ـ شكرا لك.. ولكني وعدت «نافيل» بالغداء معه.

ابتعدت عني، وراقبها «عبد الرسول» وهو على ظهر حماره، كان على وجهه ابتسامة غامضة وهو يضع الطعام أمامي، أكلت قليلا ثم اكتشفت أنه لا شهية لي، أصبح الصمت داخل المعبد أكثر من أن أطيقه، سرت إلى حافة النهر حيث الطيور البيضاء تغمر مناقيرها في الماء، نظرت نحوي في استغراب ثم طارت مبتعدة وهي تحرك أجنحتها في تكاسل، رأيت انعكاس وجهي على صفحة الماء غريبا،

لم أره منذ أيام طويلة حتى نسيت ما فيه من ملامح، لحية غير منتظمة، وشارب مترب، عينان غائرتان، ووجه تكسوه سمرة أشبه بالقناع، لم يكن هذا أنا، كأن هناك جسما غريبا يكسوني، خلعت ملابسي وقفزت في النهر، احتضنني الماء وبعث بالقشعريرة في جسمي، بحثت وسط نباتات الشاطئ حتى وجدت عيدانا من الريحان، دعكت جسدي بأوراقها الخضراء، وغابت الشمس بأسرع من المعتاد، سادت العتمة، وأصبحت وحيدا كما لم أكن من قبل.

لم تحضر في اليوم التالي، لم تكن قد وعدتني بشيء، ولم أكن أريد أن أجلس في انتظارها، مارست برنامجي اليومي، ولكن على رغمي كنت أتطلع لقدومها، تذكرت بريق عينيها وهي تشاهد الرسوم الموجودة داخل المعبد، وأدركت أنها لن تستطيع أن تقاوم سحرها ولا بد أن تعود إليها، ولكن لا بد أنها قد ضاقت بصمتي وخاب أملها في.

بعد يومين ذهبت إلى موقع الحفريات التي يعمل بها «نافيل»، بدا المكان مثل خلية نحل، مليئا بعشرات العمال الذين لا يكفون عن الحفر وإزالة الركام، كان «نافيل» هو الأكبر في استخدام العمال والأعلى أجرا، مشهورًا بين فلاحي «القرنة» الذين يقيمون في البر الغربي بأنه يدفع للعامل ثلاثة قروش في اليوم، كانوا لا يكفون عن التوافد عليه، رأيته يقف بنفسه على حافة حفرة واسعة، يراقب العمال وهم يزيلون الرمال عن قطع متكسرة من الفخار، كان عملاقا، عاري الصدر، كأنه شرب كل ألبان ماعز «الألب»، شاربه الكث مقوس إلى أعلى، وجبهته العريضة يكسوها العرق، لا يرتدي قبعة، ولا يبدو أن الشمس الحارقة تؤثر فيه، أدرت ظهري له، كنت أريد أن أراها أولا

وقد اطمأنت نفسي أن الذي زارني في الدير لم يكن شبحا عابرا، سرت وسط العمال وهم يقومون بالحفر ويجمعون المخلفات في مقاطف مجدولة، وانحدرت إلى الحفر السطحية، ولمحتها جالسة على الأرض وهي تمسك بفرشاة صغيرة، تزيل التراب عن إناء صغير من المرمر مشرب بالحمرة، وقفت أتأمل حركاتها البطيئة وهي تجلو معالم الإناء الجنائزي، كان وجودها حقيقيا إذن، تجلس منهمكة بنفس الملابس الكاكية، وشعرها القصير، وملامحها الرهيفة، ظللت واقفا، طارت من رأسي كل الحجج التي كنت قد أعددتها لأبرر قدومي لمكان الحفر، كان يجب أن أتقدم وأقول لها بطريقة مباشرة، لماذا لم تعودي إلى مرة أخرى؟ ولكني لم أفعل.

أحسست بيد توضع على كتفي، حين التفت كان «نافيل» بجسده العملاق يقف خلفي وهو يهتف:

ـ أخيرا خرجت من صومعتك، لا أعتقد أن رهبان «البندكت» في العصور الوسطى كانوا بدرجة تبتلك.

رفعت رأسها ونظرت نحونا، بدا على وجهها طيف ابتسامة ولكنها لم تتحرك من مكانها، كنت مرتبكا، واعتقدت أن «نافيل» قد عرف السبب الحقيقي لوجودي، عاد يقول:

ـ من الأفضل أنك جئت، كنت سأرسل في طلبك على أي حال.

كنت أتمنى أن يتركني لأستجمع شجاعتي وأتقدم إليها، ولكنه وضع يده على كتفي وسحبني بعيدا:

ـ ألم تسمع بوصول «ذهبية» المليونير الأمريكي «تيودور دافيز»، الأقصر كلها تتحدث عنه وعن حفلات الاستقبال التي يقيمها، أصبح ملتقى كبار القوم من الزوار.. ولي عهد النمسا نفسه كان في ضيافته أمس الأول.. إنه يريد دعوتك..

لم أكن قد سمعت عنه شيئا، ولكن هذا لم يكن غريبا، فالشتاء هو ذروة النشاط الاجتماعي في هذه المدينة النائية، ويتوافد عليها العشرات من نبلاء أوروبا في كل عام، كنت أراهم وهم يطوفون حولي في أثناء زيارتهم للمعبد، معظمهم لا يراني، وتعودت أنا أيضا ألا أراهم، لذا كان من الطبيعي أن أقول له إنني لا أريد، ولكن «نافيل» لم يكن بالذي يقبل الرفض بسهولة قال:

ـ لا يمكن أن ترفض، إنه يريد أن يرى بعضا من أعمالك، إنه مهووس بالمصريات وقد أهدى متحف المتروبوليتان كثيرًا من القطع النادرة، هيا سوف تستمتع.. وستكون «مس باجت» معنا بطبيعة الحال.

نظرت نحوها، نظرت نحوي أيضا وهي تهز رأسها، هل كانت تدعوني للذهاب معهم، أم كانت شاردة أكثر مما ينبغي، كنت منزعجا لأن «نافيل» يتحدث بطريقة من يتحكم في كل شيء، انسحبت مسرعا دون أن أتحدث معها بكلمة واحدة، ولكني في اليوم التالي حلقت لحيتي وغيرت ملابسي، كنت في الموعد تماما، عبرنا للبر الشرقي بواسطة «الفلوكة»، وصعد ثلاثتنا معا إلى ظهر «الذهبية» التي كانت راسية على الشاطئ وهي ترفع العلم الأمريكي.

كنت قد لبست أفخر ثيابي، وحرصت على وضع العطور الأوروبية،

ولكنني كنت أشبه بشحاذ وسط هذا العالم الفاخر الذي يحتشد على ظهر السفينة، رجال ونساء يلبسون جميعا أردية فاخرة ذات ألوان خفيفة، يتحركون في إيقاع ناعم وهم يمسكون كئوس الشمبانيا الفوارة، يضحكون في خفوت ويتهامسون في تواطؤ، أحسست أن هذا ليس مكاني، أخذت أدور ببصري بحثا عن منفذ للهرب، ولكن روزا أعطتني ابتسامة صغيرة مشجعة، يبدو أنها لاحظت وجودي أخيرا على الرغم من أننا عبرنا النهر سويا، كان يجب أن أشرب قليلا حتى أتعود على هذا الجو، تقدم «تيودور دافيز» بقامته الفارعة وسترته الناصعة البياض، نفس لون شاربه، وقبعة القش على رأسه، هز يدي بقوة، وهو يقول:

ـ سنجلس سويا وأرى رسومك بعناية، وسط هذا الضجيج لن أستطيع أن أتأمل شيئا..

وقادني من ذراعي إلى امرأة أخرى أصغر منه عمرا، ولكنها توازيه في الطول، كانت ترتدي ثوبا مطعما باللؤلؤ ومكشوف الصدر والنحر، قال:

ـ هذه مساعدتي إميليا أندروز، أنا أعتمد عليها في كل شيء، ستتولى رعايتك في هذا الحفل.

أخذتني من ذراعي كطفل صغير، تلفت أبحث عن «روزا» ولكنها كانت قد اختفت عن نظري، كيف دخل هذا العالم فجأة هكذا، أثرياء ونبلاء ودبلوماسيون وأسماء كثيرة، بعضهم صافحني، والبعض الآخر اكتفى بهزة من رأسه، درت في سطح السفينة دورة كاملة، رأيت «نافيل» وهو يمسك كأسا من الشمبانيا وهو يضحك بصحبة

بضعة نفر من الناس المهمين، «روزا» تقف بجانبه خافضة الرأس، وقفت أتأملها حائرا، ما سر هذه الفتاة؟ ولماذا تبدو متباعدة إلى هذا الحد؟ لم أكن أرى غيرها، ولكن هل تراني حقا؟

عندما حان وقت الغداء جلسنا جميعا إلى منضدة طويلة، أمسكت «إميليا» يدي وأجلستني بجانبها، وجلست «روزا» في مواجهتي بجانب «نافيل» الذي لم يكن يكف عن الشرب والحديث، تلاقت أعيننا وعادت تبتسم لي مرة أخرى، كانت أصناف الطعام كثيرة، ولكنهم كانوا جميعا شبعى، يأكلون القليل من كل طبق، لا يكادون يتذوقونه قبل أن يرفع ويحل طبق آخر بدلا منه، أطباق كثيرة وضعت ثم رفعت، وقالت «إميليا»:

ـ ياعزيزي هوارد.. لماذا تبدو مرتبكا وشاردا إلى هذا الحد؟ أنا لا أكف عن الحديث إليك.

بعد الغداء حرصت مع «دافيز» على أن يأخذني إلى قمرته في أسفل الذهبية، تأمل رسومي باهتمام، كنت قد حملت له رسومي الشخصية، مجموعتي الملونة التي كنت أحتفظ بها بعيدا عن العمل اليومي لوظيفتي، كانت هي ذاتي الحقيقية، كان هو حريصا على أن يعرف مكان هذه الرسوم والأوقات التي استغرقني رسمها، ثم قال لي فجأة:

ـ سوف أشتريها.

لم أتصور أن تتم الصفقات بهذه السهولة، وأن تكون هذه الرسوم التي أخذت جانبا من عمري للبيع، أن تصدر في كتب هذا جائز، سوف تبقى ملكي بطريقة أو بأخرى، ولكن أن يمتلكها شخص

غيري، بدا هذا غريبا بل وضربا من المستحيلات، بدا «دافيز» مندهشا من رفضي، كان قد تعود أن ينال كل ما يريده، نظر إلي مستغربا، وظهر عليه الإحراج، ولكن «إميليا» مسحت على جبهته وقبلته قبلة سريعة على شفتيه وهي تطلب منه أن ينصرف ويتركنا معا، كنت متوترا، أشعر بأنني قد وقعت في فخ داخل هذه القمرة المهتزة، جلست «إميليا» أمامي وهي تقول:

ـ هوارد ياعزيزي، أنت تحب هذه الفتاة «روزا».. أليس كذلك؟

للمرة الأولى ارتفع صوتي معترضا: كلا.

قالت «إميليا» في هدوء:

ـ ربما.. ولكنك على الأقل تهتم بها، رأيت نظراتك لها، طوال حفل الاستقبال وفي أثناء الغداء لم ترفع عينيك من عليها، وللأسف كانت هي تنظر في اتجاه آخر، لن تستطيع أن تراك وأنت في هذه الحالة.

أحسست بغصة في حلقي، وضاق صدري، ولكنها كانت تتأملني في ثبات، بدت امرأة ناضجة ومجربة بينما كنت ما أزال أتعثر في سنوات العشرين، لا أدري كيف أخوض تجربتي الأولى في عالم النساء، قلت لها في صوت مختنق:

ـ ماذا تعنين؟

ـ واضح أنك ابتعدت عن العالم كثيرا ياعزيزي، أنت لا تلبس الملابس اللائقة، ولا تعرف كيف تأكل على المائدة بالطريقة الصحيحة، كما أنك دائم الصمت، كيف يمكن أن تجذب نظرها

وأنت هكذا؟! يجب أن ترغمها على رؤيتك، أن تغير من شكلك، وتصبح أكثر إقبالا على الحياة، وقد خلق المال من أجل هذه الأشياء، لا أدري كم تكسب من وظيفتك في كل شهر ولكن لا بد أنه مبلغ ضئيل.

لم يكن راتبي يتجاوز خمسة جنيهات شهريا، لم أجرؤ على أن أقول لها ذلك، كانت تكفيني، أو على الأقل كنت أعتقد أنها تكفيني، عادت تقول:

ـ هذه الرسوم التي تخاف عليها، لن يمتلكها «دافيز» طويلا، سيهديها على الأرجح إلى أحد المتاحف، وبهذا سيعود مجدها لك، ولن يتذكر أحد من اشتراها منك، خذ النقود يا عزيزي أنت في حاجة إليها، ودعني أعلمك بعض المهارات التي تجعلك تظفر بهذه الفتاة.

عندما خرجت من القمرة أخيرا، كانت الشمس على وشك الغروب، وكان مشهد النهر ساحرا لدرجة أن الصمت قد ساد فوق الجميع، وقفوا جميعا على حافة السفينة يتأملون المياه وهي تبدل ألوانها، لا يوجد نهر يفعل مثل هذه الأعاجيب، كانت «روزا» واقفة بمفردها، وكان «نافيل» جالسا فوق أحد المقاعد عاجزا عن الحركة، بدا واضحا أنه أفرط في الشراب، تقدمت ووقفت بجانبها، وكانت هذه أجرأ حركة قمت بها على مدى عشرين عاما من عمري، ظللنا واقفين صامتين، كان ما مر بي هذا اليوم كثيرا، وأخيرا قلت لها:

ـ لماذا لم تعودي لزيارة الدير مرة أخرى؟ كنت أعتقد أنني.. أقصد.. النقوش التي هناك تثير اهتمامك.

التفتت إلي، تأملتني في استغراب وهي تقول:

ـ حسبتك تضيق بوجودي، لقد ظللت صامتا طوال الوقت، ولم تحاول أن تجعلني أبقى.

أصابني ردها بصدمة، أدركت فجأة أن كل ماقالته لي السيدة «إميليا» داخل القمرة كان صحيحا، كانت قريبة مني، وكانت يدها التي تمسك بحاجز السفينة قريبة من يدي، تمنيت أن أضع أصابعي عليها، ولكني لم أجرؤ، نظرت للخلف، «دافيز» غرق في النوم، وهي تنظر إليه مبتسمة، كيف يمكن أن يتغلب السكر على هذا الرجل القوي؟ قلت أخيرا:

ـ أرجو أن تعودي، هناك نقوش جميلة لم تريها بعد، سيسعدني أن أريك إياها.

وضعت هي يدها على يدي، وابتسمت لي..

لم تأت في اليوم التالي أيضا، جاء «دافيز» وعدد كبير من الضيوف الذين كانوا في حفلته، كانوا يركبون الحمير ويلهبون ظهورها بالعصي، ويثيرون الرمال في صخب وسط صمت الموتى، وكان الفلاحون والمكارية يمسكون أطراف ثيابهم بين أسنانهم ويحاولون عبثا اللحاق بهم، لم أملك إلا أن أبتسم وأنا أرى «دافيز» يقفز أمامي منتشيا مثل طفل، كان الجو حارا ولكن بدا واضحا أن بقايا الشرب من الليلة الماضية لم تتطاير بعد من رءوسهم جميعا، التفوا حولي، قلبوا أوراقي ثم انتشروا في أرجاء المعبد، وقبلتني «إميليا» في خدي بمودة، وقدمت لي لفافة مربوطة بإحكام وهي تقول:

ـ هذه لك.. من أجل السيدة الجميلة... لا تفتحها إلا بعد أن ننصرف.

كنت مبتئسا، شاعرا بالحزن والإهمال، طفت بهم داخل الأبهاء المختلفة وأنا أقرأ النقوش وأفسر الرسوم، شذرات متفرقة من حياة ملكة شاء حظها التعس أن تكون أنثى، أتعسها جسدها على مدى عشرين عاما هي مدة حكمها، حاولت جهدها أن توهم نفسها وتوهم الجميع أنها رجل ولكنه ولد بأعضاء مختلفة، مأساتها الحقيقية أنها لم تجد رجلا كفؤا لها، ترك لها أبوها تحتمس الأول أخا غير شرعي، اضطرت إلى أن تتزوجه رغم احتقارها للرابطة التي تجمعهما، لم يتح لها مكانا لائقا على العرش بجانبه، ولا جانبا دافئا من فراشه، ظل يقصيها عن الحكم، ويقدم محظياته عليها، كرر ما فعله أبوه وأنجب من امرأة أخرى ذكرا غير شرعي، وحاول أن ينصبه وريثا لعرشه، ولم تستطع حتشبسوت، الفتاة الهشة والمخجولة أن تتحمل كل هذا الغبن والإهمال، ظلت تنمو خلف الأستار دون أن يراها، ينضج جسدها ويضج بالرغبة، ويتسع عقلها لكل مسارب الحيل، ولكن ما حدث بعد ذلك كان غامضا، ظهر في حياتها مهندس شاب وعبقري هو «سنموت»، بنى لها هذا المعبد فيما بعد، هل تعرفت عليه في وقت مبكر، وأعطتها هذه العلاقة القوة والدافع حتى تتخلص من زوجها، أم أن ظهوره جاء متأخرا، مكافأة قدرية لأرملة وحيدة ظل فراشها باردا وجسدها مهجورا على مدى سنوات طويلة؟ لقد منحت هذا المهندس ثمانين لقبا، وولته رعاية ابنتها الوحيدة ولم تكن تمارس معه الحب إلا في قارب سابح في ليلة مقمرة، كانت مندفعة في العشق، وقوية في الحكم، لم تكن ترتدي لحية مستعارة

فقط، ولكنها كذلك كانت أول امرأة في التاريخ تلبس قفازات لتخفي عيوب أصابعها، أنشأت واحدا من أقوى أساطيل العالم القديم، رحلت سفنها أولا إلى بلاد «بونت» في إفريقيا فأحضرت العطور والأخشاب، وبنت بهذه الأخشاب أسطولا آخر أكثر ضخامة وأكبر استطاع أن يرحل عبر بحر الظلمات، ولكن القدر كان يعيد نفسه، كان ابن زوجها غير الشرعي كامنا ومترصدا في عتمة القصر، ينتظر اللحظة المناسبة لينتقم لرحيل أبيه، ولا بد أن الكهنة قد عاونوه على أن يجد تلك الفرصة المناسبة ويصطادها هي وعشيقها المهندس في كمين واحد، كانت النهاية غامضة، ولكن الموت لم يفرق بينهما كثيرا، كان هناك ممر يصل بين مقبرتها ومقبرته بحيث يستطيعان أن يلتقيا معا بعد أن ينتهي العالم.

توقفت عن الحديث، التفت لأرى إن كان هناك سؤال ما، كانت «روزا» واقفة هناك مستندة إلى أحد الأعمدة ذات التيجان، كانت تتأملني بعيون تلمع، ساروا جميعا، اقتربت مني وهي تقول:

ـ كنت أعتقد أنك نسيت الكلام، ولم أعرف أنك تجيد رواية قصص العشق.

لوح لي الجميع وهم يركبون حميرهم استعدادا للانصراف، والتفتت «إميليا» وأخذت «روزا» في حضنها، قبلتها وهمست في أذنها ببعض الكلمات، تضاحكتا في خبث نسائي، تركونا وحدنا أخيرا، جلسنا سويا أمام جدار مرسوم عليه نسوة يقدم القرابين للإله آمون، أخرجت أوراقها وبدأت تخط خطوطا سريعة، كنت أريد أن أحدثها عن أشياء كثيرة تغيرت بالنسبة لي، عن إحساسي فجأة بأنني

قد وصلت إلى نقطة ما يجب أن أتوقف عندها وأقرر أن أغير حياتي، ولكن الكلمات ظلت محتشدة في صدري، عاجزة عن الخروج، نسيت كل ما قلته «إميليا» لي من نصائح، تأملت صورة «روزا» الجانبية وهي تجلس بجانبي، يكاد كتفها يلامس كتفي، كانت تشبه واحدة من هذه الفتيات اللاتي يقدمن القرابين، إلا أنني لم أعرف إلى أي إله؟ قالت لي:

ـ لا تحدق في كثيرا، وإلا تداخلت ملامحي مع خطوط رسومك.

كانت تبتسم ولكنني شعرت بالخجل من نفسي، لم أكن مهذبا كما ينبغي، ولكني حين تناولت يدها لم تمانع، خرجنا للشرفة الخارجية للدير، كان عبد الرسول قادما حاملا مئونتي من الطعام، تأملنا معًا ابتسامته الغامضة، تناولت معي القليل، وانفكت عقدة لساني وأنا أحدثها قليلا عن تجربتي في مصر، تذكرت فجأة اليوم الذي قابلت فيه «فرازر» وهو يقف على الحافة الصخرية لمقابر بني حسن ويقول إننا جميعا جئنا إلى هذا المكان هربا من التعاسات الشخصية التي تلاحقنا، لماذا جاءت فتاة جميلة مثلها إلى هذا المكان؟ هل يوجد من تهرب منه؟ أي تعاسة تلك التي جعلت مثل هذه الفتاة تنام في هذا المكان المقفر في معسكر لا يمتلئ إلا بالرجال المتربين؟ لم أجرؤ على سؤالها.

عند الغروب سرت معها إلى معسكر «تافيل»، الصحراء دافئة، والأطلال صامتة ومهيبة، والنيل متقلب الموج كقلب حائر، توقفنا قليلا بعيدا عن أعين الآخرين، هل كان يجب أن أقبلها في تلك اللحظة، أم أكتفي بالضغط على أصابعها في حماقة؟

رأيتها في الأيام التي تلت ذلك، واصلنا الرسم والحديث والتجول بين أعمدة المعابد، وبين أسراب الطيور المهاجرة على شاطئ النهر، تشربت أريجها الهادئ ببطء، وبددت من قلبي الوحشة التي عششت فيه طويلا، عرفت وجوهها المتقلبة، كانت جدية كعجوز، عابثة كطفلة، مغرية كإلهة قديمة صعبة المنال، تركتني أمسح الألوان من على أصابعها، وأرجع خصلات شعرها إلى الخلف وأثبتها خلف أذنيها، وكانت تجلس بجانبي ثم توقفت عن الرسم ونهضت وابتعدت عني قليلا، جلست في مقابلتي، ووضعت الأوراق على ركبتيها وهي تقول بابتسامة:

ـ لقد مللت من نقل هذه الرسوم الجامدة.. سأقوم برسمك أنت.

وأخذت تخط على الورق خطوطا سريعة كأنها كانت حبيسة في أصابعها منذ مدة، كانت ترفع رأسها كل فترة لتتشرب ملامحي، تحدق في عيني طويلا كأنها تريد النفاذ لداخلي. كنت أرتجف، ولم أعد أتلقى نظراتها بسهولة، فردت أنا أيضا أوراقي وأخذت أرسمها هي أيضا، ضحكنا معا في حبور وتواطؤ ونحن نمارس الخطوط السريعة، انتهينا في وقت واحد، جلسنا متقاربين، كل واحد منا يحس بجسد الآخر وهو ملتصق به، كانت قد رسمت شعري أشعث، وعيني براقتين وشاردتين وفيهما كثير من الحزن، ورسمت أنفي أكبر مما هو، وشاربي أشبه بكومة من الزغب، وتأملت هي صورتها طويلا ثم نظرت إلي كأنها تسألني عن تفسير لما تراه، ترى هل قرأت خطوطي، هل عرفت أي روح مضطربة وراءها، كل ما فعلته أنني

رسمتها وأعطيتها كل ما أملك من تيجان وجعارين ومفاتيح للحياة والموت.

وكان الموسم على وشك الانتهاء والكل يستعد للرحيل خوفا من صيف الأقصر القائظ، بعد أيام قلائل سترفع الذهبيات والسفن الفاخرة مراسيها وترحل شمالا مع الموج الراحل، فهل سترحل «روزا» معهم؟ كانت «إميليا» قد أحضرت لي لفافة من الثياب الجديدة ساعدتني على أن أبقى في مظهر أفضل أمام «روزا»، وقد تقبلتها منها لأنها ذكرتني بعمتي وهي التي كانت تعلمني اللغة من خلال الكتاب المقدس، كنت أقترب أنا أيضا من نهاية موسمي الخاص، وقد أدركت أنني لا يجب أن أبقى وحيدا في هذا المكان.

جاءت لحظتي الحاسمة مع «روزا» في لحظة غروب الشمس، كنا نقف سويا على شاطئ النيل، والحقول تمتد أمامنا وفيرة الخضرة، مددت يدي ووضعتها على كتفها، وقبلتها على خدها، كان دافئا وناعما، نظرت إلي في دهشة، فلففت ذراعي حول خصرها وقبلت شفتيها، كانت شفتاها باردتين، لم تتملص مني، ولكنها لم تبادلني القبلة، كان جسدي كله مضطربا، قلت في صوت متهدج:

ـ سأغير حياتي، لن أبقى في هذه الوظيفة بعد ذلك، لقد بعت بعض لوحاتي وأخذت مبلغا كبيرا، سأستقيل من هذه الوظيفة البائسة، وأتفرغ للوحاتي، يمكنني أن أكسب الكثير وأن أكون بيتا لائقا بك.

ظلت صامتة، حاولت أن أضمها بين ذراعي مرة أخرى، شعرت

بأن القبلة الأولى لم تعبر عن حقيقة مشاعري، ولكنها مدت يدها حائلا بيني وبينها، أوقفتني في مكاني، بدا وجهها مقطبا وحازما، قالت:

ـ أنا أحب «نافيل»، جئت هنا من أجله..

فتحت فمي مندهشا، أردت أن أتكلم، أسأل، أحتج، أفهم، على الأقل أقول لها إن «نافيل» متزوج، ولا يحق له جعلها تحبه وتهجرني من أجله، ولكنها أصبحت فجأة قاسية ومتباعدة، لم تعد لي قدرة على الكلام، كل ما ظفرت به منها هي نظرة إشفاق عابرة، لم يكن لديها أي التزام تجاهي، ولم تكن مدينة لي بأي شرح، قالت فقط:

ـ أعتقد أنني سأنصرف الآن.. أنا متأكدة من أنني أعرف الطريق وحدي.

في وقت متأخر من تلك الليلة جاء عبد الرسول إلي في زيارة مفاجئة، سمعت خطواته وهو قادم نحوي.. وقف أمامي منتصبا وهو يغرس عصاه في الرمل، عمامته ضخمة، وقدماه حافيتان، قال:

ـ أيها الخواجة.. لقد رأيت الضوء منبعثا من مكانك، ليست هذه عادتك، أنت تنام مبكرا وتستيقظ مع الفجر.

قلت له مدهوشا: لم أكن أعرف أنك أيضا تتجول ليلا..

قال: هذه أرضي.. أتجول فيها في كل وقت، الليل عندي مثل النهار، أعرف تضاريسها جيدا دون حاجة لضوء.

قلت ساخرا: ربما كنت تبحث عن آثار تسرقها؟

قال دون أن يغضب:

ـ لا أحد يسرق أرضه يا خواجة، كل ما هو موجود هنا، سواء كان ظاهرا أو مدفونا، هو من حقنا، أنتم ضيوف عابرون، جاء قبلكم الترك والشركس والفرنسيس، ولكننا باقون هنا.

سكت قليلا، أحس أنه قال كثيرا من الكلام الذي لم أكن أستحقه، ولكني كنت أريد أن أتحدث معه أكثر من ذلك، لم يكن مايحدث في الوادي يهمني كثيرا، كنت أعرف أنهم كلهم يسرقون، الفلاحون والحفارون والمستكشفون وأمناء المتاحف والقناصل والذين يدعون أنفسهم علماء المصريات، يتصارعون جميعا على الغنائم المدفونة في هذه البقعة الجافة من الأرض، كنت متعبا، وكسير النفس، ولم أكن أعرف إن كان مجيئه نوعا من المصادفة، أم أنه علم بطريقة غامضة عما حدث لي، وجدت نفسي أقول له:

ـ هذه الفتاة، الرسامة التي كانت تجيء إلى هنا، هل كنت تعرف أنها على علاقة بـ «نافيل»؟

ـ تقصد الخواجاية الصغيرة؟ إنها عشيقته، الجميع يعرفون ذلك، إنهما يستعدان للسفر سويا إلى القاهرة.

كان الأمر بسيطا وواضحا، فكيف كنت الوحيد الذي لم أره.. كيف كنت غرا ومندفعا وانسقت وراء الوهم؟! كان عبد الرسول ينظر إلي صامتا، ثم قال:

ـ لاتدع هذه الأشياء تؤلمك ياخواجه، الجميع هنا عابرون، والعلاقات كلها عابرة أيضا، عندما ينتهي الموسم، يرحل الجميع للشمال وتنقضي كل الوعود.. هذا هو دأب الموسم دائما..

في اليوم التالي ذهبت إلى الأقصر، أرسلت برقية إلى صندوق حماية الآثار في لندن أبلغتهم فيها باستقالتي، مررت على فندق «الونتر بلاس»، كانت «إميليا» تجمع حقائبها، وتستعد للرحيل، قبلتني مواسية وهي ترى ملامح التعاسة على وجهي، قلت لها:

ـ كنت تعرفين أنها عشيقته ومع ذلك أصررت على أن أوطد علاقتي بها.

قالت وهي تتنهد:

ـ هذه الحمقاء الصغيرة كنت أريد أن أعطيها فرصة حتى تعيش قصة حب طبيعية.

ـ كان يجب أن تنبهيني للأمر.. لقد كان مريرا..

ـ ياعزيزي هذا يحدث كل يوم، هذه لعبة الحب والخيانة، ستنضج يوما وتصبح طرفا فيها، تعال.. سنتناول معا كأسا قبل أن أمضي.. من المؤسف أنني قابلتك متأخرة ياصغيري المسكين..

لم يكن هناك أي شيء طبيعي فيما يحدث، ولكن الموسم كان قد انتهى بالفعل، رحلوا جميعا وبقيت وحدي، كان يجب أن أرحل أنا أيضا، ولكن الطريق إلي بلدتي في سوهاج كان بعيدا، ولم أعتقد أن هذه الرحلة سوف تحمل لي العزاء، أخذت أجوس في شوارع المدينة الترابية، بين بيوتها الطينية المتلاصقة، أصطدم بالعابرين وأتجنب الجواميس والعربات التي تجرها الحمير، ولم أفطن إلى أنني دخلت حي العبيد الرابض على أطراف المدينة إلا بعد أن أصبحت في قلبه تماما.

أطفال صغار.. حفاة يحيطون بي، يكشفون عن أسنانهم البيضاء، تلتف أصابعهم الصغيرة حول أصابعي، يتزاحمون من حولي ويرغمونني على السير إلى حيث يريدون، تعثرت في الأحجار، وحفر الماء الوسخ ولكنهم واصلوا جذبي، كان الحي يجمع أشتاتا من الزنوج الذين يهربون عبر الحدود، والذين يهربون من أسيادهم، والمختبئين من أحكام القانون، والخائفين من الثأر والمطاردة، بيوت صغيرة أشبه بالأكواخ، جدرانها من أعواد الغاب ومغطاة بسعف النخل، يجلس أمامها نسوة إفريقيات يلبسن الثياب الملونة ويجمعن جدائل شعرهن تحت عمائم صغيرة، ذبالات مرتعدة من الضوء موجودة أمام كل بيت، صاحت النسوة في الأطفال، تشجعهن على مواصلة جذبي، لم أكن أقاوم، وكانت كئوس الخمر التي تناولتها تقلب معدتي، قادوني إلى دار واسعة، لها بوابة كبيرة من جذوع النخل، دفعوني إلى الداخل انطبق الباب من خلفي، وقفت في بهو مكشوف، معبد إفريقي مجدول من الخوص وأغصان الشجر، تقدمت مني امرأة ضخمة، ثوبها الملون متماسك بصعوبة فوق صدرها الواسع وثدييها المرتفعين، سحبتني من يدي كأن وجودي أمر مفروغ منه، قادتني عبر الفناء، دخلنا إلى ممرات غير مضاءة، متاهة سحرية لا عدد لما فيها من ممرات وغرف، كانت القاعة مليئة بدخان كثيف، ضباب خانق، زحام من الأجساد البيضاء والسوداء، وفي الوسط قصعة مشتعلة بالنار يتصاعد منها دخان ثقيل، كانوا يحرقون فيها كتلة كبيرة من «حشيشة الكيف»، كل ما يتنفسه الجميع هو دخان الحشيش، أحسست بدفء ووهن يتسلل إلى جسدي، كنت متعبا وفي حاجة إلى الراحة، تسلمتني امرأة أخرى، زنجية

فاتنة أنحف وأصغر سنا وشعرها مجدول في جدائل صغيرة مزينة بالخرز، أسلمت لها نفسي، اختبأت في جسدها، دخل رجال يحملون الدفوف، داروا حول النار وهم يدقون في صخب، تلوّت امرأة عارية تماما في وسطهم، التصقت الفتاة الزنجية بي وأخذت تتحسس جسدي، في المقابل رأيت في مقابلتي امرأة بيضاء، تجلس مضغوطة وسط زنجيين، سيقانهم متداخلة و أيديهم تمسك بنهديها، أحسست بالتوتر والاختناق، خرجت بي الزنجية إلى الممر الطويل، تأخذني إلى غرفة ضيقة لا يوجد فيها إلا حصيرة من القش ووسادة متهرئة تخلع ثوبها وتلقي بنفسها علي، أوشك أن أبكي وأحاول أن أفلت من تحت جسدها، كنت أريد «روزا» بكل رهافتها، رغم رعونتها وقصر نظرها، تصرخ الزنجية في وجهي: ماذا حل بكم جميعا؟ لماذا تأتون إلي وأنتم تحملون كل عقدكم وقرفكم؟ قبل أن أتحرك تنشب أظفارها في وجهي، تتدخل السيدة الضخمة، تنزعها من فوقي، تمسح بقايا الدم من على وجهي، تقول لي في تفهم: إن كنت تريد غلمانا اطلب.. كل شيء متوافر، كنت أريد أن أفلت من هذا المكان، تبصق الفتاة الزنجية في اتجاهي وتكوم جسدها العاري في ركن الغرفة، أعطيت المرأة الضخمة كل ما في جيبي من نقود، جاء زنجي أضخم منها وحملني على كتفه وألقى بي خارج المكان.

لم أعد للإقامة في الدير البحري، ولكني أقمت داخل قرية القرنة، تركت عالم الأوروبيين على الضفة الأخرى إلى النهر، كنت قد أجدت التكلم بالعربية تماما، فلم يكن هناك أي عائق في التفاهم مع فلاحي القرية، دخلت عالمهم ببطء، رأيت الذين يحفرون خلسة بحثا عن النفائس، والذين يزوّرون التماثيل والعاديات ورقائق البردي، كانوا

يكونون عالما خفيا، ليس من السهل على الغرباء الدخول فيه، ولكن منذ أن قدمت استقالتي ازدادت ثقتهم في قليلا، داومت على الذهاب إلى المعابد المنتشرة في المنطقة، إلى مدينة هابو والرمسيوم والدير البحري، هبطت إلى المقابر الحافلة بالرسوم الرائعة، مقبرة سيتي الأول، حيث توجد أبدع الرسوم التي شاهدتها في حياتي، وإلى مقبرة أمينوفيس الثاني حيث تصطف مومياوات الملوك الذين عجزوا عن نيل الخلود، رسمت لوحاتي، رأيت العالم الذي عجزت طويلا عن أن أراه كما أريد..

واصل النيل ارتفاعه حتى غطى السهل الممتد، وتزايدت أسراب البعوض، وأصبحنا نخوض في المياه كل يوم، ولكننا لم نعد نستطيع الوصول لضفة النهر، انقطعت صلتنا بالعالم، كان الإله هابي الذي وهبه للمصريين، منقوشا على جدران جزيرة فيلة، يجمع في ملامح جسده خشونة الذكر ورقة الأنثى، يلبس تاجا مجدولا من سعف النخل، وتنوء ذراعاه من كثرة العطايا التي يحملها.

لم يعد العالم مهما بالنسبة لي على أي حال، قال لي عبد الرسول إنه على استعداد لأن يوفر لي قاربا يحملني إلى الضفة الأخرى ومنها للقاهرة، لم يكن يطيق البلاد في هذا الوقت إلا أهلها، ولكني كنت مريضا ومتعبا ومستسلما، تهاجمني حمى «الملاريا» كل ليلة، لم أفكر حتى في عبور النهر لأرى أحد الأطباء، تناولت بعض الحبوب التي كانت في حوزتي، وقضيت ليالي محمومة أحلم بأمطار «سوافهام»، وذئاب بني حسن، وحين رأيت نظرة الإشفاق في عيني عبد الرسول أدركت أنني عاجز على أن يكون لي عالم آخر.

تراجعت الحمى عن جسدي وانحسر الماء عن السهل، وخفت حرارة الهواء خاصة في المساء، كنت أريد أن أخرج وأتحرك وأعود إلى ممارسة الرسم، ولكن عبد الرسول هز رأسه رافضا، كنت ما زلت أضعف من أن أخرج وسط حر النهار القائظ، ولكنه وافق بعد طول إلحاح على أن يصحبني معه في جولاته الليلية، كنا نمضي معا في ضوء القمر حيث تبدو المقابر أقل وحشة، وتتناوب أصوات الذئاب من بعيد، نذهب إلى مدينة «الرمسيوم» ونشم رائحة الحقول الخضراء، وترتفع أمامنا جذوع النخيل القديم التي تناسلت وتوالدت عبر أحقاب متوالية، أشاهد آثار أقدام عبد الرسول الضخمة والحافية على الرمل الطري، كأنه يترك طابعه على كل مكان يمر به، ونسمع صوت السواقي وهي تروي الأرض ليلا، بعيدا عن حر النهار وعن أعين مفتشي الري، كانت الجواميس والثيران المغماة تدور حولها في دورات لا تنتهي، كل شيء كان يبدو غير واقعي، والقواديس ترفع المياه من أسفل البئر وتصبه في القناة المؤدية للحقل، ويظل محور الساقية يدور داخل حجر مجوف ضخم من البازلت، يلمع من الماء وانعكاس أشعة القمر، يشير إليه عبد الرسول وهو يقول :

ـ هذا الحجر من الصوان قبل أن يصبح محورا لهذه الساقية، كان دعامة لبيت عمدة «القرنة» بالقرب من ضفة النيل، كان رجلا شهوانيا لا يضاجع إلا بنات الغجر، بعد أن مات قمنا بجر كل هذه الأحجار إلى هنا بواسطة الثيران، استغرق الأمر ثلاث ليال حتى مطلع الفجر حتى ننقل كل حجر، فقبل أن يسكن العمدة في هذا البيت كان ثكنة لجنود الفرنسيس، قضوا هنا بعضا من الوقت بينما يقوم الرسامون بتسجيل هذه الأطلال، وعندما تهدم البيت استولى عليه

الجنود الإنجليز وأقاموا معسكرا بين جدرانه وهم في طريقهم إلى محاربة جيوش المهدي في السودان، أنا بنفسي رأيت نيرانهم وهم يدخنون الغلايين وينظفون رماح بنادقهم، كان الشيخ المهدي بطلا ولكنه كان مثل عرابي سيئ الحظ، وقبل ذلك كانت هذه الأحجار هي أساس مئذنة المسجد الصغير قبل أن تتداعى بسبب الفيضانات التي غمرت الوادي، وكان بناة المسجد قد نزعوها من قلعة أقامها مماليك «الظاهر بيبرس» حين جاء السنجق إلى هذا البر، ويقولون إن المماليك قد أخذوها من حصن قبطي قديم، كان فيه كنيسة وصوامع، وكان الأقباط قد مسحوا كل ما على هذه الأحجار من نقوش فرعونية قديمة ورسموا بدلا منها علامة الصليب وما زالت باقية حتى الآن.

كان صوته في هذا الصمت المهيب يستمد تفاصيله من صدى أزمنة بعيدة، قلت:

ـ كيف عرفت كل هذا الأشياء؟

قال في غموض: هكذا يقولون.. هناك كثير من الحكايات.. كل حجر هنا له حكاية..

سرنا طويلا، وأحسست أن هواء الليل يملأ جسدي بطاقة كبيرة، كنت أريد أن أعمل، لم أتصور أن أجلس الساعات الطويلة وسط المعابد الصامتة لفترات طويلة، ولكن كان يجب أن أحضر نفسي للموسم القادم بعد أن رتبت نفسي أن تكون ريشتي هي مصدر دخلي، لم أجرؤ على أن أقول لأبي إنني رغما عني قد تحولت لأكون صورة منه.

كان الموسم مازال بعيدا، ولن تبدأ الحفريات إلا بعد شهرين على

الأقل، ولكن «نافيل» جاء إلي، فوجئت به يدخل مسكني وسط بيوت القرنة، كنت راقدا على فراشي بعد أن رششته بالماء البارد، وقف أمامي بقامته العملاقة وشاربه الكث المستدير إلى أعلى والمتصل بسوالفه، كان يطل علي وعلى شفتيه ابتسامة لم أستطع تفسيرها، هل جاء شامتا في، ساخرا مني؟ هل حكت له «روزا» وهما في قمة نشوتهما الجنسية عن العرض الخائب الذي قدمته لها؟ هل سخرا مني وعادا لممارسة الجنس من جديد؟، لم يبد عليه أنه قد استطاع أن يعرف شيئا عن حقيقة مشاعري وعن الكره الذي أكنه له، جلس أمامي وهو يقول في بساطة:

ـ أرهقتني بالبحث عنك، وصلت إليك بصعوبة، هل أنت هارب من حكم للعدالة؟

كان يعاود السخرية مني، عاد يقول:

ـ لقد حضرت مبكرا قبل بداية الموسم خصيصا من أجل البحث عنك!

قلت في صوت مختنق: لم أعتقد أنك في حاجة إلى أحد.

قال في مرح:

ـ هيا لا تكن حقودا، لم يحدث بيننا ما يستحق هذا، جئت أعرض عليك وظيفة جيدة.

ـ لقد قدمت استقالتي بالفعل.

ـ دعك من هذه الوظيفة الصغيرة التي أوشكت أن تصيبك بالشلل،

جئت لك بمنصب أكبر، ربما كان أهم منصب في جنوب مصر، أنت ما زلت صغيرا في السن، ولكني أعتقد أنك أفضل من تتولاه.

رغما عني بدأت أستمع إليه، بدأ يحدثني عن مصلحة الآثار المصرية؛ أول مصلحة من نوعها في العالم كله، أنشأها العالم أوجست ماريت في عام ١٨٥٨، كان هو الرجل الذي وضع قصة أوبرا عايدة، وأراد أن يحمي الآثار من الذين ينهبونها ولكن المشكلة أن هذه المصلحة لم تستطع أن تقوم بدورها في حماية آثار مصر، ظلت دوما ضعيفة وتنقصها الاعتمادات المالية، كانت مهمتها أن تحافظ على الآثار الموجودة، وأن تعطي الإذن من أجل الحفر بحثا عن الآثار، وأن تأخذ نسبتها من الآثار المكتشفة، لم يتحقق هذا بصورة كافية، ولم يعجب هذا رئيس المصلحة الحالي وهو جاستون ماسبيرو، وهو بالمناسبة صديق مقرب من «نافيل»، كان يريد لسلطة المصلحة أن تكون أكثر قوة، وأكثر سيطرة على تلك الثروة المترامية، لذلك فقد قام بتقسيم مصر إلى منطقتين؛ إحداهما من القاهرة حتى مدينة قوص، والثانية من قوص جنوبا حتى الشلال الأول، وقد أوصى بي «نافيل» لأكون مفتشا للآثار في تلك المنطقة الجنوبية، كل هذه الأطلال الممتدة على مدى أكثر من ٥٠٠ كيلومتر سوف تكون تحت إشرافي، وسوف يكون مرتبي ٤٠٠ جنيها في العام أي أن مرتبي المتواضع كناظر للنقوش سوف يرتفع فجأة إلى سبعة أضعاف.

كنت أكرهه بالفعل، ولكنه جاء يحمل إلى فرصة عمري، كان يجب أن أرحل رغما عني بصحبته للقاهرة حتى أقابل جاستون ماسبيرو، وهو واحد من أشهر علماء المصريات الذين يدين لهم

الجميع بالتبجيل والاحترام، كنت ما أزال واهن القوى على هذه الرحلة الطويلة، ولكن العرض كان شديد الإغراء، تساءلت: هل أحببت «روزا» حقا أم أنني تعلقت بها لأنها كانت الفرصة الوحيدة أمامي وسط هذه الصحراء المستوحشة؟ حمل إلينا عبد الرسول أكواب الشاي بالنعناع، وساعدني على إعداد حقيبتي، وأصر على أن يأخذنا في قاربه إلى البر الشرقي.

كانت السفينة التابعة لشركة «كوك» خالية تقريبا، لا يوجد على متنها إلا بعض من الموظفين والزوار الهاربين من الحر، لم يكن مسموحا للمصريين بركوبها إلا كخدم أو عمال للتنظيف، كان الوقت بيننا ممتدا وطويلا، والنيل ما زال مشربا بحمرة الفيضان، لم نتحدث أنا و«نافيل» بشكل جدي إلا بعد أن رحلنا معا لفترة من الزمن، كانت السفينة تستدير مع النيل أمام «قنا» وتبدو رءوس الجبال وكأنها تسد المجرى، وتيارات المياه وقد عكست اتجاهها وكأنها تعود أدراجها إلى الجنوب، كنا واقفين على حاجز السفينة نتأمل صفوف أشجار النخيل والنبق والجميز والسنديان، أخرج من جيبه الخلفي زجاجة معدنية، مقوسة حتى تناسب مكانها في جيب السروال الخلفي وأخذ يتجرع منها في جرعات سريعة وهو يمسح على شاربه ويتجشأ، عرض علي أن أشرب معه ولكني رفضت، كنت أريد أن أبقى متنبها حتى أعرف أي لعبة يمارسها ضدي، سمعته وهو يقول فجأة:

ـ لقد افترقنا.. اكتشفت زوجتي الأمر وسببت أزمة كبيرة، كان يجب أن تبتعد، وقررت زوجتي أن تصحبني منذ الآن وطوال فترة التنقيب.

قلت في صوت مختنق: هل كنتما تسخران مني؟

قال وهو يلوح بالعلبة المعدنية:

ـ لا تفكر بهذه الطريقة، كانت تحبك أيضا، كانت تتمنى لو أنها قابلتك في ظرف مختلف، ولكن ما بيننا كان جارفا، أنا نفسي لم أتعاف من افتراقي عنها حتى الآن.

ـ من أجل هذا أوصيت بي لهذا المنصب بوصفه نوعا من التعويض؟

ـ لا تكن سخيفا، أنا لست مدينا لك بشيء، كل ما في الأمر أنك ستكون ممتنا لي، وسوف تسهل أعمال التنقيب الخاص بي، كل ما أريده أن تحميني من السرقة والمضايقات، وأنا كفيل بالباقي.

الخطأ الوحيد الذي ارتكبته هو أنني لم أكن أعلم بوجوده، كيف كان يمكن أن أنافسه على قلبها؟

كانت مقابلتي مع «جاستون ماسبيرو» ناجحة، على الأقل نجحت في توقيع عقد الوظيفة بالشروط التي نقلها إلي «نافيل»، كان «ماسبيرو» مندهشا من صغر سني، ولكن دهشته كانت أكبر من النشاط الذي أبديته والخبرة التي اكتسبتها في تلك السنوات القليلة، كان علي أن أحمي المقابر المفتوحة والتي هي عرضة للنهب كل يوم، وأنظم العمل بين المنقبين الذين يتصارعون على الحفر في سهل طيبة، وكان علي أكثر من ذلك أن أقاوم كل اللصوص من فلاحين وأمناء متاحف وعلماء مزيفين يربضون على البر الشرقي متحينين الفرصة.

ـ لقد أصبحت الآن ملكا على مدينة الموتى، لك قصرك الخاص في أبهاء مدينة «هابو» ولك أيضا حديقة حيواناتك الخاصة أيضا.

هكذا قالت «إميليا أندروز» وهي تزورني في بيتي الجديد، كانت «الذهبية» التي تقلها وبقية الأمريكيين الأثرياء قد عادت إلى الأقصر مع مطلع الموسم الجديد، لم يكن لدي قصر، ولكن مجرد استراحة حكومية بسيطة الأثاث، تطل عليها الأعمدة ذات التيجان للمعبد القديم وتعطيها نوعا من المهابة، ولم تكن هناك حديقة حيوانات، ولكن مساحة صغيرة أمام البيت مليئة بالأزهار، وجواد اسمه «سلطان»، وحمار اسمه «سان آتن» وغزال صغير، كان عبد الرسول، المساعد الذي أصبح أثيرا لدي هو الذي أوقعه في شباكه واقتاده إلى منزلي.

هل كان هذا حلا مرضيا؟ وهل عدت إلى طيبة منتصرا؟ هكذا كان عبد الرسول يذكرني دوما وهو يقدم لي شاي النعناع المسكر كل صباح، هل كان هذا هو الفردوس الذي حلمت به؟ في كل يوم كنت أتأمل الثعبان المجنح المحفور على واجهة بوابة «هابو»، وأنا أتساءل أين يوجد الثعبان المختبئ في فردوسي، وكان قلبي ما زال غضا، وكان علي أن أستعيد صداقة «نافيل» من جديد، وأن أتعامل مع نفسي كشخص مهم، جزء أساسي من مجتمع الأثرياء الذين يتوافدون على المكان للاستمتاع بشتائه الدافئ وأساطيره الحية، أختار ملابسي بشكل جيد وأتناول طعامي بطريقة متحضرة، وأحدث السيدات والآنسات الصغيرات حديثا شائقا، نزعت عني إهاب الشخص البري المتوحد، وعدت مرة أخرى جنتلمانا إنجليزيا يستمتع بمنصبه ومزايا جنسيته.

ولكن مهمتي كانت أصعب مما توقعت، المساحات شاسعة والمقابر مكشوفة والمعابد بلا حماية، والخفراء الذين يقومون على حمايتها قليلون ومتواطئون مع اللصوص، كنت أسعى لأن أضع أسوارا حديدية حول المعابد وعلى بوابات المقابر، وأراقب المنقبين الذين يحفرون في كل بقعة، وأفتش أكياس السياح التي تحملها الحمير حتى لا يكون في داخلها قطع مهربة، كان المكان ثريا ومتخما بالكنوز، ولكنه فقير إلى كل وسائل الحماية لدرجة بالغة التعاسة، أركب جوادي «سلطان» وأركض في كل الاتجاهات، وأبحر بالسفن إلى المعابد المتناثرة حول الأقصر، ولكني كنت أشعر أحيانا بأن الأمر فوق استطاعتي، توافد علي الأصدقاء القدامى الذين حسبت أنهم قد نسوا وجودي، ظهر «نيوبري» يحمل تصريحا بالحفر، استطاع أن يحفر في أحد أطراف الوادي ويعثر على أربعة أطباق نادرة من الذهب مرسوم عليها العجل أبيس، كان الاتفاق أن يأخذ النصف، طبقين فقط، ويذهب الطبقان الآخران إلى المتحف المصري، ولكن الأطباق جميعا تسربت من تحت أنفي وعبرت البحر إلى بريطانيا، كان صديقا قديما وثقت فيه أكثر مما ينبغي، وكانت الخديعة جزءا من لعبة البحث عن الآثار، شعرت بالغيظ ولكني لم أستطع أن أفعل شيئا، كنت أعرف بعضا من خداع كبار الأثرياء، الذين يدعونني إلى حفلاتهم، مثل تيودور دافيز بينما «إميليا» معاونته تتصل سرا مع كل المهربين واللصوص، كانت دهشتي كبيرة حين تقدم للتبرع لإقامة بوابات من الحديد حول بعض المقابر، ولكن دهشتي تبددت حين عرفت أنه هو أيضا أخذ تصريحا بالتنقيب في وادي طيبة، وحتى اللورد «أمهرست» نفسه وولي نعمتي القديم، جاءت ابنته من إنجلترا

بنفسها لتمارس التنقيب، كانت قد ورثت الشغف بالمصريات عن أبيها، وأرادت أن تكون لها مجموعتها الخاصة، نصحتها بالابتعاد عن وادي طيبة المزدحم، ذهبت جنوبا للحفر عن الآثار، عثرت في قبة الهوا بالقرب من أسوان على مخطوطات نادرة من البردي، لم يكن من الممكن تقسيمها، كانت امرأة نبيلة ولا تحبذ اللعب من وراء ظهري، أعطيتها تمثالا كان مكتشفا في مدينة الرمسيوم وقايضتها بالبرديات النادرة، ووعدتها بأن أرسم لها صورة طبق الأصل منها، ولكن الجميع لم يكونوا بهذا النبل، لم أقدر على كل هؤلاء الكبار، كانت مقاومتهم أكبر من طاقتي، كل ما استطعته هو أن أقبض على بعض الفلاحين، كانوا يخبئون التماثيل الصغيرة والجعارين داخل أحمال السباخ فوق ظهور حميرهم، قدمتهم للبوليس وللمحاكمة، ولكن كل ما فعلته المحكمة أنها غرمت كل واحد منهم ١٥ قرشا فقط لا غير، كانوا هم الحلقة الأضعف، الوحيدين الذين يتلقون عقابا رغم تفاهته، ولكن القانون كان أضعف من الجميع، واللصوص حولي في كل مكان، أقرب مني أكثر مما ينبغي.

كنت في إدفو عندما سمعت بسرقة مقبرة الملك أمينوفيس الثاني، جاءت لي برقية سريعة تحمل النبأ، كان يجب أن أعود إلى وادي الملوك سريعا، قضيت اليوم كله أتنقل بين كل أنواع المواصلات، عندما وصلت إلى البر الغربي توجهت من فوري إلى المقبرة، هبطت درجها المتكسر إلى أسفل مستعينا بالحبال، وممسكا بشعلة متوهجة، كانت هي أوسع المقابر، استخدمت لدفن العديد من الملوك، قد بقيت المومياوات داخلها حتى وقت قريب، قبل أن يطلب مني ماسبيرو نقلها إلى متحف القاهرة، وقد نقلتها جميعا بالفعل ماعدا

الملك أمينوفيس نفسه الذي وجدت أنه من غير اللائق أن يغادر بيته، رفعت المشعل عاليا، كانت مومياء الملك موجودة بالفعل، ولكنها ممزقة، العنق مفصول عن الجسد، والساعدان مفصولان عن بقية الذراع، كان اللص الذي فعل ذلك يعرف ماذا يفعل، كان يبحث عن أي حلي يمكن أن تتحلى بها المومياء، ولا أدري إن كان قد وجدها أم لا، لم يجرؤ على رفع رقائق الكتان المشبعة بالقار ليرى إن كان يوجد تحتها أي شيء مخفي في بطن المومياء.

تلفت حولي لأرى إن كان هناك شيء غير ما حدث للمومياء، لم أجد نموذج القارب الشراعي الذي كان موجودا في أحد الأركان، كان الملوك يحرصون على أن يوجد مثل هذا القارب ضمن مقتنياتهم داخل المقبرة، ففي وقت لم يكونوا يعرفون فيه العجلة كانت القوارب هي وسيلة التنقل الوحيدة في الحياة، وأيضا لانتقال أرواحهم إلى العالم الآخر، مرة أخرى كان اللص يعرف جيدا ماذا يفعل.

كنت أختنق من حرارة المكان ومن الانفعال، انطفأت الشعلة التي أحملها فأخذت أتخبط متلمسا طريقي إلى الخارج، نظر إليّ الخفراء في تكاسل وهم يجاوبون عن أسئلتي، كالعادة لم يروا شيئا ولم يسمعوا شيئا، كانوا هم أيضا متواطئين، وربما واحد منهم هو الذي دبر السرقة، أخذت أبحث في المكان الذي يحيط بالمقبرة لعلي أجد أي آثار، عند مدخل الكهف وجدت آثار قدمين، انطبعا على الرمل الطري في وقت السرقة، جفت الرمال تحت الشمس وبقيت الآثار على حالها، كنت أعرف أثر من هذا، هذا الكعب الغائر الذي يبدو وكأنه مفصول عن باطن القدم، وتلك الأصابع المفرطحة التي يذهب كل واحد منها في اتجاه، هذا الطابع القوي الذي يحاول أن

يثبت به أن هذه الأرض تخصه وحده كذئب عجوز يحدد منطقته بواسطة بوله.

استيقظت في داخلي مهارتي الأولى والأساسية، أحضرت أوراقي وأقلامي وأخذت أرسم صورة القدم، وسمتها بنفس المقاس وبأدق التفاصيل، أحطتها بالظلال اللازمة حتى تصبح واضحة وجلية، ثم ذهبت بها إلى البوليس، كان لدي دليل دامغ لا يستطيع أحد أن ينكره.

في مساء اليوم نفسه هاجم عساكر البوليس منزل عبد الرسول، عبرت قوة كبيرة من البر الشرقي، استجاب ضابط القسم الذي كان إنجليزيا لإلحاحي وإصراري على مدى أهمية الجريمة، قاموا بقلب المنزل رأسا على عقب ولم يجدوا شيئا، دقوا على الجدران وحفروا تحتها بحثا عن مخبأ سري، لم يتوصلوا إلى شيء أيضا، ولكنهم لم يتركوا عبد الرسول، ضربوه وقصوا شاربه، وفكوا عمامته وقيدوا بها يديه خلف ظهره ثم دفعوه أمامهم، وسط أهل القرية الذين كانوا يراقبون مايحدث وهم يرتعدون، كنت واقفا بالقرب من النهر وهم يسوقونه للمعدية، نظر نحوي مباشرة وهو يلتقط أنفاسه في صعوبة، كان غاضبا وشاعرا بالمهانة، ورغم كل أيادي العساكر التي كانت تتناوب بالصفع على قفاه، فقد ركز بصره علي، كل واحد منا كان يعتبر أن الآخر قد خانه، عيناه تقولان لي.. لو كنت إنجليزيا مثلك.. هل كنت لتفعل بي ذلك؟! دفعوه من أمامي، كان قد خان ثقتي، ولم أتصور أنه ينتهز فرصة غيابي، ويسرق مقابري، ترى هل كانت مقابري أم مقابره هو؟

بقي في السجن لعدة أسابيع، ولم يأخذ القاضي بالدليل الذي قدمته، لم ينظر إليه بالجدية اللازمة، وسمعت أصوات الدفوف والمزامير إلى ساعة متأخرة من الليل وهي تحتفل بعودته سالما إلى القرية، كانت الأفعى المرسومة على بوابات «هابو» قد تحركت، ولم يعد الفردوس مأمونا، لم يقترب مني عبد الرسول بعد ذلك، ولكني كنت أرى آثار أقدامه في كل مكان، يحاول أن يذكرني دوما بأنني أقيم فوق أرضه، ولكنه كان أقل أعدائي شأنا، كان الأخطر يقيمون على الضفة الأخرى، تجار الآثار المتسترون من الأجانب الذين يأخذونها من الفلاحين بأسعار بخسة ويبيعونها لمتاحف أوربا بأرقام خيالية، أشهرهم هو التاجر الألماني «أنسبنجر» الذي كان يمد متحف برلين بالقطع المهربة، كان نشيطا وقويا، ولم يكن قانون حماية الأجانب يسمح لي بالاقتراب منه أو التفكير حتى بالمساس به، وكنت أعرف أنه قد وقعت في يده قطعة مهمة، وربما كانت أخطر قطعة أثرية تم اكتشافها، تمثال ملون أو ربما رأس ملكة.. أو شيء من هذا القبيل، كان يحتفظ بها في مكان ما وينتظر الفرصة المناسبة لتهريبها إلى متحف برلين، هكذا همست لي «إميليا» وهي تشير إليه في إحدى الحفلات قالت: إنه أكثر اللصوص احتراما في هذا المكان، انظر كم يبدو واثقا بنفسه، لقد عثر على ما لم يعثر عليه أحد، كان مجتمع الشتاء في الأقصر مليئا بالنمائم والإشاعات، ولكنها كانت تتحدث عنه في غيظ، وأنا أيضا كنت أكثر غيظا منها، ولكن لم يكن لي القدرة على تفتيش مقره، كان عدوا قويا بحق، كل ما استطعت أن أفعله هو أن أمنع عبوره إلى البر الغربي.

لم يغفرها لي، منذ أن توليت هذا المنصب ولا أحد يغفر لي شيئا،

كتب في إحدى الصحف الفرنسية التي تصدر في الإسكندرية مقالا شن فيه هجوما ضاريا ضدي، كتبه بالفرنسية حتى يصل مباشرة إلى أنظار «جاستون ماسبيرو» قال فيها إنني لا أستحق هذا المنصب، فلم أكن إلا ناقل رسوم غير متعلم وغير مؤهل، وإنني منذ أن توليت هنا مسؤولية الوادي والمصائب تتوالى، السرقات تتزايد، وكأنه ليس واحدا من هؤلاء اللصوص، انهار سقف مقبرة الملك سيتي ونهبت مقبرة أمينوفيس، ولم تتوقف المصائب، ولكن الأمر الذي أحزنني بالفعل هو ماحدث لي في ذلك الصباح من أكتوبر..

كان صباحا دافئا، وحلمت للمرة الأولى منذ زمن بعيد بـ«روزا»، كانت واقفة أمامي في نفس المكان الذي تعودنا أن نراقب منه غروب الشمس خلف جدران المعابد، كانت تعتذر لي، تتمنى فرصة أخرى معي، استيقظت منتشيا لأتفقد حديقة أزهاري، ولكني وجدت الغزالة ميتة، راقدة، متيبسة الساقين، مشرئبة الأذن، وعيناها لامعتان كالزجاج الفارغ، وجسدها بارد، صرخت في ألم، تلفت حولي في فزع، وجدت جثة أخرى، كان حماري «سان أتن» ممددا أيضا، امتلأ وادي الموت بالموتى الذين يخصونني، هرعت إلى جوادي، من حسن الحظ أنني وجدته واقفا على قوائمه، لا بد من أن معجزة ما قد أبقته على قيد الحياة، أو ربما لم يحن دوره بعد، ركلته غاضبا، اقتحمت طرقات «القرنة» التي كانت خالية، كنت أعرف أنهم يستيقظون جميعا مع الفجر ليذهبوا إلى حقولهم أو إلى الضفة الأخرى حيث تنتظرهم مهن خدمة السياح، دققت بقبضتي على بابه وأنا أصرخ عاليا:

ـ اخرج لي يا عبد الرسول..!

كنت أعتقد أنه قد قام بفعلته وهرب إلى الضفة الأخرى، ولكنه خرج إلي، كان يلبس صديريته على اللحم وسرواله الطويل، كان شاربه مبروما إلى أعلى، رأسه عار، وقدماه حافيتان، لم يخدعني منظره، كنت أعرف أنه لم ينم طوال الليل، كان يحوم حول بيتي بحثا عن فرصة، صرخت فيه:

ـ أيها الغادر الخائن.. لقد قتلت حيواناتي.. أنا متأكد من أنك قد دسست لها السم.

نظر إلي في هدوء وهو يقول:

ـ ولماذا أفعل ذلك ببهائم عاجزة؟! لو أردت لدسست السم لك شخصيا..

زاد رده من غضبي، كنت أنتفض والجواد سلطان يضرب الأرض بقوائمه متوفزا، قلت:

ـ لم تستطع الوصول إلي.. فقمت بقتلها..

ـ بهائمنا أيضا تموت، أين تعتقد أنك تعيش؟ إنه وادي الموتى، المكان مليء بالثعابين والعقارب والذئاب وبنات آوى، صل لإله الإنجليز لأنك تستيقظ كل صباح وأنت ما زلت على قيد الحياة..!

لم يتركني ويمضي، ظل واقفا منتفخ الصدر، تذكرت لحظات مهانته والعساكر يجرونه، في هذه اللحظة كان أقوى مني، لم يستطع أن ينتقم لنفسه فقط، ولكنه أصبح قادرا على تهديدي، أدرت عنان جوادي ومضيت مبتعدا، كان من العبث أن أستعين بالبوليس، كانت

هذه أرضه في النهاية، يحيط به ناسه وأهله، وكنت أنا مجرد غريب عابر كما قال لي أكثر من مرة..

حفرت خلف البيت حفرة كبيرة ودفنت فيها الغزال والحمار، وبينما كنت أهيل التراب على أجسادها الساكنة أدركت فجأة أنه لم يعد لي مكان في هذا الوادي، وعندما وصلت لي البرقية من «ماسبيرو» يخبرني بأمر نقلي من وادي الملوك إلى المنطقة الشمالية أدركت أن كل شيء كان محتوما، كان يجب أن أترك هذا المكان القاسي الحار بعد أن كنت قد بدأت خطواتي الأولى في التنقيب، بعد أن تعلمت على أيدي كثير من العلماء والهواة واللصوص، كيف يمكن أن أعرف أسرار تلك القطعة الغريبة من الأرض.

بعد طول مماطلة وتأجيل والتعلل بحجج كثيرة، غادرت المكان، ركبت «الفلوكة» للشاطئ الآخر، دون أن أخبر أحدا بموعد رحيلي، لكنني وجدت عبد الرسول واقفا على الشاطئ، كانت هذه هي لحظة انتصاره الأخيرة علي، كنت أعتقد أنه سيقابلني بالشماتة والاستهزاء، ولكنه لم يفعل، قال لي:

ـ جئت أودعك.. لايوجد في قلبي شيء ضدك.. إذا عدت إلى طيبة فستكون في ضيافتي..

لم يذكر شيئا عما مر بنا، لا عن خيانته لي ولا عن غدري به، كان نبيلا بطريقته، رغم فقره المدقع، كان على الأقل أكثر شرفا من الذين يسرقون على الجانب الآخر من النهر.

حين بدأت السفينة في الإبحار إلى الشمال، مرت أمامي كل المعابد والمسلات والأعمدة السامقة أمامي في وداع صامت،أدركت

أن هذا المكان لن يخرج من قلبي أبدا وأنني سأعود إليه يوما ما.. ولكن متى؟.. لم أكن أدري؟

تسلمت عملي مديرا للآثار بوصفي مديرا للجزء السفلي من مصر، أحسست أن ماسبيرو ما زال يثق بي، لم يرد أن يتخلى عني، كان فقط يريد أن يخفف من حجم الانتقادات الموجهة إليه وإلى رجاله، استبدلني بالمستر «آرثر ويجل»، أعطى لكل واحد منا منصب الآخر، مجرد تبادل بسيط للمراكز، كما قال لي في بساطة، ولكنه كان بالنسبة إلي هو استبدال عالم بآخر، عالم أعرفه وأحبه وأحفظ كل تفاصيله وأحلم به في نومي، إلى عالم مجهول لا أعرف عنه شيئا، لم أعد ذلك الفتى الغر الذي هبط إلى الإسكندرية منذ ١٣ عاما، كنت مختلفا، أعرف العربية جيدا، وجربت كثيرًا من صنوف الغش والخداع، أصبحت أجيد العمل في مجال التنقيب، واكتشاف كل ماهو صحيح وما هو زائف في عالم الآثار، ولكن القاهرة لم تكن هي عالمي، كان مجتمع الأجانب الصاخب يثير فزعي، كان يجب أن أبحث عن كهفي وصومعتي الخاصة.

اخترت الإقامة في «سقارة»، في منتصف الطريق بين عالمين، قريبا من الحد الفاصل بين الصعيد وشمالي الدلتا، منطقة بدائية ومليئة بالوعود التي لم نكتشف بعد، كنت قد ذهبت إليها برفقة «فلاندرز بتري»، بعد أن انتقل إليها من تل العمارنة، هنا كانت «منف» القديمة التي ظلت عاصمة لمصر على مدى آلاف السنين بعد أن اكتشف الفراعنة أن طيبة كانت بعيدة أكثر مما ينبغي لحكم إمبراطورية بهذا الاتساع، كانت المنطقة ساحرة وبائسة في الوقت نفسه، مليئة بالمقابر والمصاطب الملكية والأهرامات الصغيرة والهرم المدرج

الضخم الذي لايوجد مثيل له والمعابد الجنائزية وحتى الأديرة القبطية، كانت متاهة حقيقية من الآثار القديمة المتداخلة ولكن الدمار كان قد أصابها لدرجة تثير الرعب.

عزيت نفسي، ربما أكون اقتربت من حلم اكتشاف مقبرة «أخناتون» التي تنتظرني في مكان ما في هذه المنطقة، رغم الحزن الذي كان في قلبي، كنت واثقا بأن الأمور ستتحسن، رغما عني تشبعت بحلم «نيوبري» الذي غادر مصر واستقر في لندن، كنت قد سمعت عن اكتشاف أسوار طروادة القديمة في تركيا.. واكتشاف قصر التيه في جزيرة كريت وحلمت بأن أحقق شيئا مثلها، اكتشافا مدويا يحولني من ناقل صغير للرسوم إلى مكتشف يتردد اسمه في الكتب والموسوعات، كنت متأكدا، مثلما كان نيوبري، أن قبر الملك المارق ينتظرني في مكان ما..

..... ولكن بعض الفرنسيين، أكلة الضفادع، تدخلوا وأفسدوا كل شيء...

كانوا خمسة عشر نفرا منهم فقط، عدة رجال ويصحبتهم امرأتان وطفلان أيضا، جاءوا في يوم السبت، في عصر يوم بارد من يناير، كان من الواضح أن «سقارة» هي المحطة الأخيرة في نزهتهم المجنونة، كانوا في حالة شديدة من السكر والهياج، ملئوا منطقة الآثار الصامتة بصخبهم، كانوا يبحثون عن مكان يستريحون فيه، لم يجدوا إلا منزل «ماريت» باشا الذي كان يقيم فيه «بتري» وزوجته، كان بيتا حكوميا أقامه المدير الأكبر ماريت الذي أنشأ مصلحة الآثار، وطوال الفترة التي قضاها بتري وهو يزيل الأنقاض من هذه المنطقة منحه «ماسبيرو» حق الإقامة في هذا المكان..

اقتحم الفرنسيون المنزل، لم تكن زوجة بتري موجودة لحسن الحظ، كان المنزل خاليا إلا من خفير وحيد يحمل نبوتا، لم يجرؤ على رفعه في وجه السادة الفرنسيين، هرب من مكانه وذهب إلى بقية الخفراء الموجودين داخل المكان ولكنهم أيضا لم يجرءوا على التصدي لهم، كان الأوربيون لهم حرمة قاتلة في بلد دأب الأوربيون على إذلاله منذ سنوات طويلة، وكان كل ما قدر عليه رئيسهم الريس خليفة هو أنه قال:

ـ سأذهب وأبحث عن الخواجة كارتر..

كنت على حافة الصحراء ومعي عدة ضيوف أرسلهم ماسبيرو من القاهرة، ولكني فور أن سمعت ماحدث قررت العودة سريعا، ولكن الأمور في سقارة كانت تسوء بأسرع مني، ازدادت نشوة السكر بالفرنسيين وقد قرروا أن يدخلوا «السرابيوم»، متاهة من ممرات المقابر والمعابد الجنائزية تحيط بالهرم، كان الخفراء مازالوا على درجة خوفهم، قال لهم الحارس إنه لا يمكن الدخول من دون أن يدفعوا رسم الدخول ويشتروا تذاكر، وجاء السيد أفندي محمد الذي يتولى هذا الأمر، وسط الاعتراض والصراخ والاحتجاج، ولكنهم أذعنوا في نهاية الأمر واشتروا إحدى عشرة تذكرة فقط، أرادوا الدخول دفعة واحدة، منعهم الحارس، كان يريد من كل واحد منهم أن يبرز تذكرته، ولكنهم كسروا باب الدخول الواهن ودخلوا على رغمه، تناثروا في الممرات، لم يكن أحد منهم يعرف معالم المكان، وخاف أي دليل من الاقتراب منهم وهم في هذه الحالة من الهياج، خرجوا عادوا مرة أخرى، صرخوا في وجه الخفير:

- الظلام شديد في الداخل.. نريد شموعا..

لم يكن لدى الحارس شيء منها، ولم تجر العادة على ذلك، ثار غضبهم أكثر، لكمه أحدهم في أنفه وأوقعه أرضا، ثم طلبوا من السيد أفندي محمد إعادة نقودهم، ولكن الرجل لم يكن يستطيع، كان قد أخرج التذاكر بالفعل، وسوف يخصم كل قرش من مرتبه، لم يكن مرتبه أصلا يتحمل قيمة هذه التذاكر، ومرة أخرى أوسعوه ضربا، ألقوا بطربوشه الذي كان رمزا على احترامه بين بقية العاملين على الأرض وداسوا عليه، أخذوا كل ما معه من نقود، ثم عادوا مرة أخرى إلى بيت «ماريت» باشا ليواصلوا حفلهم الجنوني.

عندما وصلت إلى المكان وجدت العاملين معي جميعا في حالة سيئة من الضرب والإهانة، مداخل البيت متروعة الأبواب، وزجاجات الخمر متناثرة، لم أتصور أنهم استطاعوا أن يشربوا كل هذه الكمية، نظروا إلي في استغراب حين دخلت إلى المنزل، ربما لم يكونوا يتوقعون وجود أي أوربي غير الفلاحين الخانعين في هذا المكان، قلت لهم:

- أيها السادة، لقد دمرتم ممتلكات خاصة، لا يحق لكم الوجود هنا، يجب أن تغادروا فورا.

اندفعوا جميعا في الكلام، كانوا يتحدثون بالفرنسية، و كعادة الفرنسيين كانت النساء أعلى صوتا، تقدمت امرأة منهم تجيد الإنجليزية قليلا، قصت علي بصوت متعثر ما قاله لي رجالي في الخارج، قلت لها:

- لا حق لكم في استعادة النقود، ولا في الوجود هنا، وإذا لم تخرجوا حالا فسوف أخرجكم بالقوة.

تقدم واحد منهم وأهوى بقبضته على وجهي، استطعت أن أمسك ذراعه وأبعدها، التفت إلى الريس خليفة، طلبت منه أن يجمع الخفراء الموجودين في المكان، أصبحت أنا مهددا، لم أعد أستطيع التراجع، ولكن الفرنسيين ما أن رأوا الخفراء قادمين حتى هاجموهم بالعصي والمقاعد الموجودة في المكان، وتلقى الريس خليفة ضربة موجعة على رأسه، ونظر إلي يسألني ما العمل؟ قلت لهم في حزم:

- دافعوا عن أنفسكم..

وللمرة الأولى تجرأ الخفراء ورفعوا العصي والنبابيت وهووا بها على السادة الفرنسيين، على رءوسهم وأجسادهم، المرة الأولى التي يتجرأ فيها المصريون منذ أن هزم قائدهم عرابي، على رفع عصيهم في مواجهة الأوربيين، طاردوهم من داخل المنزل إلى الخارج، وأخذ الفرنسيون يرموننا بالحجارة ولكن النبابيت لاحقتهم حتى فروا جميعا خارجين من المكان، وكان هناك بعض الجرحى من رجالي، وكثير من الأثاث المحطم، اطمأننت عليهم أولا، ثم ذهبت بعد ذلك لعمل محضر بالواقعة في قسم بوليس «البدرشين» ولكني وجدت الفرنسيين قد سبقوني إلى ذلك.

تدهورت الأمور سريعا، تداولت الصحف الواقعة كل واحدة من رؤيتها الخاصة، نشرت الصحف الفرنسية، عن السائحين الفرنسيين الآمنين الذين كان ذنبهم أنهم طالبوا برد نقودهم، ولكن هاجمتهم مجموعة شرسة من البدو يقودهم إنجليزي متعصب، وحاولت

الصحف الإنجليزية الدفاع عني ولكن الصورة لم تكن واضحة لديها، كنت صوتا واحدا في مواجهة خمسة عشرا صوتا فرنسيا، ولم يكن للفلاحين أي صوت، كتبت عشرات المحاضر والتقارير، وذهبت إلى أكثر من جهة للتحقيق، وتم سؤال الجميع أكثر من مرة، ولكن الموقف ظل متوترا، حتى استدعاني اللورد كرومر شخصيا إلى مكتبه.

لم أكن أحب زيارة هذا الرجل، كنت أحس به يتعامل معي كأنني إنجليزي من طينة مختلفة، كان جالسا بوجهه الجامد ونظرته المتعالية في مواجهتي، لمحت بطرف عيني ملفا ضخما مكتوبا عليه اسمي، كان محتشدا بالأوراق، وقصاصات الصحف، وكان هو يبدو متعبا ونافد الصبر، استمع إلى تقريري القصير عن الحادث من دون أي مقاطعة أو استفسار، قال أخيرا:

ـ سوف تذهب إلى «المسيو دي لا بولينير» القنصل العام الفرنسي وتقدم له اعتذارك عما حدث.

صرخت في دهشة : كيف يعقل هذا؟!

قال وقد نفد صبره فجأة:

ـ هذه هي الطريقة الوحيدة لإقفال هذه القضية الشائكة، لا نريد مزيدا من التوتر بيننا وبين الفرنسيين.. اذهب وقدم اعتذارك ولينته الأمر..

أحنيت رأسي وانصرفت خارجا، لم أكن أنوي الاعتذار، كان هذا إذلالا آخر لي، لن أعتذر من أجل حفنة من السكارى مهما كانوا من

كبار الموظفين، لا يهمني أن أحدهم هو مدير شركة الغاز والآخر ابن أخت القنصل الفرنسي والثالث متحكم في إدارة المالية، كنت مقتنعا بما فعلت، دافعت عن نفسي وعن رجالي...

لم أقل لأحد إنني لن أعتذر، ولكن الجميع عرفوا بذلك حين مرت الأيام من دون أن أذهب لمقابلة القنصل، أرسل إليّ كثيرون الرسائل التي يدعونني فيها للاعتذار، للتنازل عن كبريائي حتى لا تحدث أزمة، كانت الأخبار قد وصلت إلى باريس، والخارجية تضغط على القنصل، والقنصل يضغط على اللورد، وهو يضغط علي، ولكني كنت متعبا، ضيق الخلق، كان لدي مايكفي من إحباط، ولم أكن أريد أن أفقد بقية ما لي من كبرياء....».

* * *

.... تساءلت عائشة:

ـ لم تعتذر.. أليس كذلك؟

كانا يجلسان على طرف مقعد خشبي وسط حديقة في ميدان الإسماعيلية، وكان باعة الترمس والذرة المشوية قد بدءوا في إضاءة المشاعل، وامتلأ الميدان كله حتى حافة النيل بنقاط الضوء، قال:

ـ رغم إلحاح الجميع علي وجدت أنني غير قادر.. وغير راغب في الاعتذار.. لم يغفر لي اللورد ذلك فأمر بنقلي لطنطا، بعيدا عن كل ما عرفته وألفته، تغيرت الحفريات التي أقوم بها أصبحت كلها في الطمي وليس رمل الصحراء الجاف، وكل ما أكتشفه هو بقايا الحيوانات وليس الملوك. كدت أختنق، أحسست بالموت في كل

يوم، لقد وضع اللورد ظهري للحائط، لم يترك لي مجالا إلا تقديم استقالتي كما رأيت.

ساد الصمت بينهما، وظل الباعة الجائلون يدورون حولهما دون جدوى، كانت عائشة تحس بضياعه، وتحس بضياعها مثله، كلاهما لم يعد له أرض يقف عليها، قالت:

ـ وماذا ستفعل الآن..؟

ـ لا أعرف.. سأتجول وأرى وأبحث لعل هناك فرصة أخرى، لا أريد أن أعود إلى بلدتي في الشمال وأنا مهزوم.. ما زلت أملك حلما..

ـ أي حلم ؟

ـ سوف أجد من يعاونني على اكتشاف قبر أخناتون، إنه أعظم ملك في التاريخ القديم، إنه مثلي رفض أن يجعل الآخرين يتحكمون في مصيره، رفض أن يخضع للآلهة التي تحكم مصائر البشر، اختار إلها واحدا وصريحا هو الضوء، بحث عن نفسه الضائعة كما يجب علينا أن نفعل.

كانت عائشة عائدة وحدها ليلا، كانت تتجه إلى دار المعتمدية، بينما سار هو في اتجاه آخر، لم يدريا إن كانا سيلتقيان ثانية أم لا، ولكنها كانت تفكر فيه وفي ذلك الملك الغريب الذي حدثها عنه، كان الحرس يقومون بتفتيشها قبل أن يسمحوا لها بالدخول، ولكنها كانت تفكر في أنها فعلا في حاجة إلى من يهديها إلى ماذا تفعل، كانت في حاجة إلى شخص مثل أخناتون.

السيدة زينب

جذب «العربجي» اللجام، توقف الحصان وهو يصدر صهيلا خافتا، واهتزت عائشة داخل الحنطور، قبضت على كيسها حتى لا يسقط منها، كان يحتوي على كل ماتملك من الدنيا، بضعة جنيهات ذهبية قبضتها من دار «المعتمدية»، وفي اليد الأخرى تمسك نسخة من جريدة اللواء، قال «العربجي» مشيرا للمبنى:

ـ هذا هو المكان يا ست..

ترددت في النزول، أحست أنها لم تستجمع أفكارها بعد، ولم تعرف كيف ستتصرف، وجدت أمامها لافتة سوداء، مكتوبا عليها بخط أبيض ناصع «دار اللواء»، تململ «العربجي» من الانتظار، فلم تجد بدا من أن تهبط وتخطو نحو المدخل، صعدت على الدرج المتآكل، لم يكن في نهايته سوى باب واحد، لم تكن بحاجة للاستئذان، كان الباب مفتوحا، دخلت إلى قاعة واسعة مليئة بالأفندية المنكبين على العمل خلف مكاتب صغيرة، مكدس فوقها أوراق كثيرة، وفي الركن توجد ماكينة صغيرة تصدر صوتا لا ينقطع، وفي أعلى الجدار كانت

هناك لوحة كبيرة مكتوب عليها: «ما استحق أن يولد من عاش لنفسه فقط» أخذت تقرؤها بصوت خافت، ولم تفطن إلى أن الجميع قد توقفوا عن العمل وأخذوا يتأملونها، كان واضحا أنها المرة الأولى التي تقتحم فيها امرأة هذا المكان، اقترب منها أحد الأفندية، قائلا:

ـ أي خدمة.. هل لديك شكوى؟

كانت ترتدي عباءة تكسو جسمها، وتضع على رأسها قبعة صغيرة، ولكنها لم تكن تضع أي خمار على وجهها، وبدت ملامحها سمراء ودقيقة وفاتنة، ترددت قليلا.. ثم اندفعت قائلة:

ـ أريد أن أقابل الباشا..

نظر إليها مبتسما دون أن يستنكر جرأتها:

ـ ليس عندنا إلا باشا واحد، هو الزعيم مصطفى كامل، وهو غير موجود الآن، كما أن زيارته يجب أن تكون بميعاد..

تلفتت حولها في حيرة، لا تدري ماذا تفعل، ظلا صامتين لبرهة، أشفق عليها الرجل وعاد يقول:

ـ عبد الرحمن أفندي الرافعي مدير الجريدة موجود.. يمكنك مقابلته.

تبعته إلى ممر ضيق ثم إلى غرفة مكتب داخلية معتمة، تفوح منها رائحة الحبر الزفر، أشار إلى رجل لا يكاد يظهر من خلف الأوراق التي تغطي مكتبه، ولكنه ما إن اعتدل وظهر وجهه المستدير حتى تعرفت عليه عائشة على الفور، كان هو الصحفي الذي تحدث معها

في منزل اللورد كرومر، حدق فيها هو أيضا محاولا أن يتذكرها، قال:

ـ إنها أنت.. أليس كذلك؟! لقد تقابلنا في ذلك المنزل الرهيب، عند هذا اللورد المتغطرس..

أومأت إليه برأسها وهي مبتسمة، أعجبها أسلوبه في إبداء دهشته، وفي وصفه الدقيق للورد، أحس الرجل الآخر أنه لم يعد له لزوم، أحنى رأسه وغادر الغرفة، وأشار الرافعي لها أن تجلس على أحد المقاعد، أزاحت الأوراق التي عليه وجلست بصعوبة، وقف أمامها وهو يقول:

ـ هل أرسلك اللورد للتجسس علينا؟

ضحكت في انشراح:

ـ أرسلني للتجسس على الباشا شخصيا، هل يمكن أن أقابله؟

قال: نحن نفضل أن نسميه الزعيم، ولا مشكلة في مقابلته، ولكنه رجل صعب المراس، يمكنني أن أخبرك بكل المعلومات التي تريدينها بسهولة، ماذا تريدين بالضبط ؟

قالت بجدية: أريد أن أعمل هنا معكم، أنا أجيد الإنجليزية.. وأعرف الفرنسية أيضا.. و..

بدت عليه نظرة مفاجئة ومندهشة، قال:

ـ ماذا تعنين بالعمل معنا؟

قالت: لقد تركت بيت «اللورد»، ولن أعود للعمل فيه، فهل لديك عمل لي؟

لم يرد عليها، تركها في الغرفة وهرع مسرعا إلى الخارج، شاهده الجميع وهو يدخل غرفة الزعيم ويمسك بآلة هاتف ضخمة سوداء، يدير يد الشحن بسرعة، ويدق عليها أكثر من مرة، يطلب من الطرف الآخر أن يوصله سريعا بالرقم المطلوب، لم تدر عائشة ماذا يحدث، وما الذي جعله يتوتر هكذا بعد أن كان يمازحها، عاد إليها لاهثا وهو يقول في سرعة:

ـ سيحضر الزعيم في الحال.. عليك بالانتظار، سنقدم لك الشاي والماء.. والطعام لو أردت..

أحست بالدهشة من هذا الاهتمام المفاجئ، حاول الرافعي أن يبدو متشاغلا بالعمل، وظل الأفندية ينهضون من على مكاتبهم متظاهرين بنقل بعض الأوراق، وهم يلقون عليها نظرات متفحصة، ولم تفعل أكثر من أنها شربت كوبا من الماء.

وصل الزعيم بعد حوالي نصف ساعة، كان رجلا قصير القامة، صغيرا في السن رغم ما يبدو عليه من وهن، كان يتوكأ على عصاه، يرتدي معطفا ثقيلا، وقد كبس الطربوش فوق رأسه، بحيث لم يكن يظهر إلا جانب صغير من وجهه، عندما قاد الرافعي عائشة إلى حجرته، وجدته واقفا في المنتصف، محني القامة على عصاه، رفع رأسه وتأملها، وفوجئت عائشة بعينيه اللامعتين المتقدتين رغم شحوب وجهه، كأنه وضع فيهما كل ما في جسده من مادة الحياة،

تأمل سمرة وجهها، وقوامها الفلاحي الفارع، بدت على وجهه ابتسامة واهنة، قال:

ـ أنت صغيرة حتى تعملي في بيت مثل هذا، هل يمكن أن تحدثيني عن اللورد، عما يفعل داخل بيته، كيف يفكر فينا بوصفنا مصريين؟

لم تعرف ماذا يعني.. قالت:

ـ سيدي الزعيم، أرجو أن تعذرني، جئت لأبحث عن عمل ولم آت للحديث عن اللورد!

أحس الزعيم بالحرج، وتدخل الرافعي قائلا:

ـ العمل أمر مفروغ منه، لقد عيناك مترجمة في اللواء بالفعل، ولكن الباشا يقصد..

ورفع الزعيم يده ليوقفه عن الكلام، وعاد يتفرس فيها بعينيه النافذتين وهو يقول:

ـ لا أريد أن أعرف شيئا عن حياته الشخصية، لايهمني ذلك، ولكنه عدو حركتنا الوطنية، الرجل الذي يقف ضد استقلال مصر، أريد أن أعرف كيف يفكر فينا نحن المصريين، هل يدرك أننا نستحق الحرية؟

لم تدر ماذا تقول، خجلت من أن تحكي له عن الاحتقار الذي يكنه «اللورد» وزوجته للمصريين، وكيف يراهم كتلة مهوشة بلا ملامح ولا أسماء، حاولت أن تتذكر شيئا محددا، قالت:

- كان يقرأ «اللواء» كل يوم.. أنا بنفسي كنت أترجم له بعض المقالات، خصوصا بعد ما حدث في دنشواي..

أشرق وجه الزعيم، وفرك الرافعي يده في جذل، أحسا أنهما لم يكونا يعملان في الفراغ، وأن احتجاجاتهم واعتراضاتهم الساخنة كانت تصل إلى عدوهما الأكبر، قال الزعيم:

- وماذا كان يفعل وقتها؟.. هل كانت المقالات تغضبه.. تثير انفعاله؟

فكرت عائشة قليلا، ثم قالت: كان يرى الأشباح..

- ماذا؟!

- كان يرى أشباح الفلاحين من دنشواي، يتخيل أنهم قد استطاعوا التسلل إلى حديقته وجاءوا لمحاسبته..

فجأة حدث شيء غريب، رمى الباشا عصاه، ونصب قامته كأنه استعاد صحته فجأة، أخذ يتقافز في فرح هو والرافعي، تحولا إلى طفلين كبيرين يصدران أصواتا صاخبة، نهض الأفندية من على مكاتبهم، تجمعوا عند باب الغرفة، وهتف بهم الزعيم:

- استمعوا جميعا إلى هذا.. لورد كرومر بدأ يرى الأشباح.. بدأ يفقد قواه العقلية..

عم جو من الابتهاج المكان، شعر الجميع بأنهم قد حققوا انتصارًا ما حتى ولو كان ضئيلا، التفت الباشا نحوها وهو يضحك، لاحظ سمرتها وملامحها الفرعونية، قال لها:

- كم الأجر الذي حدده معك الرافعي على توظيفك؟

قالت عائشة: لم يذكر أي أجر.

قال الزعيم: تم توظيفك بأجر قدره خمسة جنيهات كاملة..

جاء دور عائشة لتهتف في فرح هذه المرة، لم تعتقد أن الحظ الحسن يمكن أن يحالفها لهذه الدرجة، ولكن من خلف زحام الأفندية ارتفع أحد الأصوات مدهوشا:

- ماذا يحدث بالضبط؟ هل هذه مظاهرة..؟

التفت الجميع، عند المدخل، كان هناك شاب فارع الطول، أسمر اللون، عريض الكتفين رغم رقة جسده، يمسك في يده لفافة مطوية من الورق، نظر مستغربا إلى جو المرح الذي كان غريبا على الجدية التي تسود دار اللواء، تقدم ومد يده الطويلة الأصابع نحو الزعيم وهو يقول:

- تحياتي يا باشا..

لم يلحظ أحد أن بهجة الزعيم قد تلاشت قليلا، صافح الشاب محاولا أن يبتسم في وجهه:

- تحياتي يا فنان.. جئت في وقتك ونحن نحتفل بانضمام أول وأصغر محررة في اللواء، إنها بداية نهضة المرأة المصرية ودخولها إلى ميدان الصحافة، أليست لحظة تستحق ريشتك؟

استدار الشاب نحوها وتأملها بعينيه الصافيتين، كان وجهه طويلا ونحيفا، وله لحية صغيرة مضحكة، أحنى رأسه في خجل، ثم حرك

عينيه مبتعدا عن عينيها، بدأ الجميع في العودة إلى أعمالهم، ولم تجد عائشة ما تفعله فتراجعت حتى التصقت بالحائط، وظل الرافعي يراقب الحوار صامتا، قال الزعيم وهو يمد يده ناحية لفافة الورق:

ـ هذا هو يا «عائشة» محمود مختار.. واحد من شباب الفن الموهوبين في مصر.. ماذا تحمل لنا اليوم يامختار؟

زفر الشاب في تعب، كان واضحا أنه لم يذق طعم النوم، قال:

ـ وماذا أحمل يا باشا؟.. رسوم.. والمزيد من الرسوم..

فرد الورق على المكتب، وتراجع الزعيم حتى يتأملها، كانت خطوطه السوداء قاسية وغليظة كأنها محفورة على الورق، أشكالا فرعونية تعرفها «عائشة» جيدا، شاهدت مثلها وهي تتجول مع الأخت مرجريت، ولكنها هنا كانت مختلفة، كأنها اكتسبت صفة جديدة، قاسية نوعا ما، استغرق الزعيم لحظات في تأملها، وانتهز الشاب الفرصة والتفت نحو عائشة في ألفة كأنه يعرفها من مكان ما، لم تملك إلا أن تبتسم، كان من المبهج أن تتأمل ملامحه، قال الزعيم:

ـ رائع يامختار، ستنشر هذه الرسوم في الصفحة الأولى، من المهم أن نذكر الناس بأن لهم حضارة قديمة، سوف يزيد هذا من عزة أنفسهم ورغبتهم في الحرية.

قال مختار مبتسما: شكرا يا باشا، كنت أريد أن أرسم شيئا يساعدنا على احتمال الحاضر..

عاد الباشا يتأمل الرسوم، ثم حدق في مختار وهو يقول في اهتمام:

ـ ولكن أين الإسلام يامختار، الحضارة التي تنتمي إليها جميعا؟ هل نسيت أننا ننتمي إلى الدولة العثمانية حتى ولو كره الإنجليز ذلك؟

نظر إليه مختار مدهوشا وهو يقول:

ـ لم أنس ولكن الحضارة الفرعونية هي ذاتها التي تميزنا، هي التي تجعل مصر فريدة في نوعها، أما رموز الحضارة الإسلامية فنحن نتشارك فيها مع كثيرين..

ـ ومن قال إننا نريد أن نكون وحدنا؟ لماذا تقف مصر عزلاء أمام الإمبراطورية البريطانية بكل قوتها؟..

ـ أنا لست زعيما ولا بطلا يا باشا، أنا أرسم فقط ما أحس به..

انتصب مختار واقفا كأنه يستعد للانصراف، ولكن الباشا أشار إليه أن ينتظر، كان يأخذ أنفاسه في صعوبة كأنه يعد نفسه لمواجهة أكثر صعوبة، ثم قال:

ـ وهل هذا الإحساس المغلق بالمصرية هو الذي دفعك للذهاب إلى جماعة صحيفة «الجريدة» وجعلك تضع تصميم صحيفتهم؟ ألم تكن تعرف أنهم موالون للإنجليز؟!

تلون وجه مختار، تقدم وبدأ يطوي أوراقه وهو يقول:

ـ ما أعرفه أنهم حزب سياسي ليبرالي، ولطفي السيد رجل وطني، ويسعى للحرية مثلنا جميعا.

ـ أي حرية؟!.. حرية الموالاة للإنجليز؟

تصاعد التوتر فجأة، وتدخل الرافعي الذي ظل صامتا طوال الوقت وقال:

ـ أعتقد أنكما في حاجة للجلوس والتفاهم، هيا بنا يا «عائشة» سأريك المكان الذي ستعملين فيه..

أخذها من يدها وغادرا الغرفة، سارا عبر ممر آخر، كان قلبها يرتجف وهي تسمع الحوار قادما من داخل الغرفة وهو يتصاعد، أشار «الرافعي» إلى مكتب صغير منزو في أحد الأركان، وحاول أن يبتسم:

ـ نحن في حاجة لمترجم يترجم خطب الزعيم ورسائله للإنجليزية، كان لدينا مترجم آخر يجلس في هذا المكان، ولكنه تركنا وذهب إلى صحيفة الجريدة..

قالت «عائشة» وهي تشير برأسها نحو الغرفة:

ـ تلك الجريدة التي يتشاجر الزعيم بسببها..

ـ أجل.. أنا لست غاضبا مثل الباشا من هذه الجريدة.. لطفي باشا رجل عظيم، عيبه فقط أنه لا يكره الإنجليز بالقدر الكافي.

ضحك في بساطة، وتناول من الركن كومة من الجرائد ووضعها أمامها، ارتفع منها هبات من الغبار، أخذت عائشة تسعل، ضحك الرافعي:

ـ أرأيت أن كل ما يأتي من ناحية الإنجليز يثير المتاعب؟

هكذا بدأ يومها الأول في العمل بعيدا عن منزل اللورد، وحدها

في مواجهة الحياة المفتوحة. لم تصدق أنها حصلت على عمل بهذه السهولة، كانت قد أحسنت اختيار المكان، عزمت على أن تنهي كل أعمالها اليوم حتى تثبت لهم مدى جديتها، سمعت صوت الزعيم وهو ينصرف مصحوبا بالتحيات، ثم بدأت الأصوات تخف تدريجيا، واصلت العمل باستغراق، ولكن حين رفعت رأسها بعد فترة اكتشفت أنها قد أصبحت وحدها تقريبا، المكاتب قد خلت من الأفندية، ولكن الماكينة في ركن القاعة لم تكف عن الطنين، لم يوجد إلا عامل تنظيف وحيد يقف مستندا إلى الباب، في صبر، منتظرا حتى تنتهي، كان عليها أن تلملم أغراضها وترحل، ولكن إلى أين؟! تركت المأوى الوحيد الذي كان يخصها في هذه المدينة دون بديل، ظلت جالسة جامدة في مكانها، وعامل التنظيف يرمقها حائرا، تركها وانسحب من الغرفة، أحست بالفزع وبالوحدة، ولكن بعد لحظات وجدت الرافعي وهو واقف أمامها، يبتسم لها في حنو وقد بدا عليه الإرهاق، تناول الأوراق التي أنجزتها وأخذ يهز رأسه وهو يتصفحها، نظر إليها مباشرة، وهو يقول:

ـ لقد كان يوما حافلا بالنسبة إليك.. ولكنك لن تبيتي على هذا المكتب.. أليس كذلك؟

صعد الدم إلى وجه «عائشة» وخفضت وجهها وهي تقول:

ـ لا يوجد مكان أذهب إليه..

ـ إنها مشكلة.. لماذا لم تقولي ذلك في ضوء النهار؟

ظل يفكر قليلا وهز رأسه حائرا ثم قال:

ـ ابقي هنا.. سأعود إليك..

تناولت حقيبتها، وحاولت أن ترتب الأوراق المهوشة على مكتبها،أن تبعدها عن الأوراق القديمة المتراكمة، عاد الرافعي وقد ارتدى معطفه وتهيأ للانصراف، قال لها وهما يهبطان الدرج بلهجة مرحة:

ـ لا أستطيع أن أصطحبك لمنزلي وإلا طردتني زوجتي من المنزل.. سنجد حلا..

سارت معه في شارع «نوبار» الممتد، أصبحت السماء داكنة، وبدأت أعمدة الإنارة تضاء في بطء كأنها تستيقظ، سألها أين تعلمت الإنجليزية؟ وعندما ذكرت له اسم أسيوط، هتف ضاحكا: ياقوة الله.. وسط كل هذا الكم من الصعايدة؟! كان يعرف المدينة جيدا، ويعرف أيضا مكان مدرستها القديمة، عمل في أسيوط محاميا فور تخرجه من مدرسة الحقوق، قضى عاما كاملا في مكتب علوبة بك المحامي الأشهر في الصعيد، ولكن عندما أنشأ الزعيم مصطفى كامل جريدة اللواء استدعاه ليكون مديرا للتحرير بها، ولأنه كان عضوا مخلصا في الحزب الوطني منذ إنشائه، فقد ترك مهنة المحاماة وأسيوط معا وهبط للقاهرة على الفور، لم يقدر على أن يخيب أمل زعيمه ولكنه خيب أمل أبيه، كان يريد أن يراه قاضيا مثله، وكان خائفا عليه من أهواء السياسة وتقلباتها، ولكن الرافعي لم يكن نادما على ترك مهنة المحاماة، كان واثقا بأنه سيعود إليها ذات يوم، فهؤلاء الناس الذين يسيرون حوله في الشارع أجهل من أن يعرفوا حقوقهم، ويجب أن يوجد من يفهمهم ويدلهم على هذه الحقوق، سيؤلف كتابا حول

هذا الموضوع، ولكن بعد أن يلتقط أنفاسه من العمل الوطني قليلا، توقفا أمام مبنى صغير أبوابه زجاجية، قال لها:

ـ صاحب هذا الفندق يوناني، وله سمعة طيبة، لن تجدي مشكلة في قضاء الليلة هنا.

تفحصها اليوناني في حيرة، كان من النادر أن تأتي إلى فندقه فتاة مصرية وحيدة، كان الرافعي يتحدث إليه مؤكدا أنها من طرفه ويهمه أمرها، رأت حولها بهو الفندق ممتلئا بنزلاء من مختلف الجنسيات، ماعدا المصريين، كانت خائفة ألا يقبلها صاحب الفندق، ولكنه أومأ أخيرا برأسه موافقا، اقترب منها الرافعي، أخرج من جيبه جنيها كاملا، هزت «عائشة» رأسها في رفض، ولكن الرافعي أصر على أن تأخذه وهو يقول:

ـ إنه جزء من مرتبك، سلفة تحت الحساب.. سآتي في الصباح، وسآخذك إلى أحد السماسرة ليبحث لك عن سكن.

جلست وحدها أخيرا في غرفتها بالفندق، كانت صغيرة ونظيفة وتتصدرها صورة كبيرة لمبنى «الأكربولس» على تلال أثينا، أغلقت خلفها الباب جيدا، ولكن الأصوات القادمة من الممر والغرف المجاورة ظلت تثير فزعها، كانت جائعة، لم تأكل شيئا طوال اليوم، لم تجرؤ على الخروج من الغرفة، تنهدت وهي تفرد جسدها فوق الفراش، وحركت قدميها عاليا في الهواء، كان شعور الحرية الذي يملؤها أقوى من الجوع، استعادت اسمها، وخبأت علامة الصليب تحت ثيابها، وبدأت حياة جديدة في مدينة جديدة، ولكنها كانت في هذه اللحظة في أمس الحاجة إلى أمها، في مثل هذه المدينة الواسعة

يمكنهما أن يختبئا معا من المؤكد أنها ستجد وسيلة للاتصال بها يوما ما، ولكن عليها أولا أن تجد سكنا، وتستقر.

ولكن اليوم التالي كان بالنسبة لها مرهقا، مر عليها الرافعي في الصباح، كان منضبطا مثل الساعة وأخذها إلى مكتب أحد السماسرة، ولكنه لم يستطع أن يفرغ لها، تركها مع السمسار وذهب هو للجريدة، بدأت الرحلة وسط تلافيف الشوارع والحواري، لم ترتح للسمسار، كان يلوح بيده ويتحدث بصوت عال ويشتم الجميع، ولكنها لم تجد بدا من أن تسير خلفه صاغرة، ولكن هذا يهون أمام أصحاب المنازل الذين قابلتهم، وهم ينظرون إليها نظرات غريبة ومستريبة قبل أن يهزوا رءوسهم بالرفض، يعرفون أن سكنى فتاة بمفردها وسط العائلات، سيلوي أعناق الرجال ويثير حنق الزوجات، ويقتح باب التأويلات، سارت مع السمسار إلى «البنسيونات» وشقق العازبات في المنطقة، كان الإيجار عاليا، يوشك أن يقضي على مرتبها، وكانت كلها ممتلئة باليونانيات واليهوديات، بائعات المحلات، نادلات المطاعم، «أرتيستات» الملاهي، نسوة مستقلات يستمتعن بحياتهن دون زواج، لم يكن في حاجة لفتاة مصرية متزمتة تقتحم عالمهن، صعد بها إلى سطوح العمائر الكبرى، رائحة الصابون والفنيك تفوح من كل مكان، والحبال المنشور عليها الغسيل تحجب السماء، خادمات وشغالات وبوابون وعاطلون من الأرياف أثاروا رعبها، هبط بها إلى البدرومات السفلية، غرف صغيرة وعطنة، مندسة وسط معامل الجبنة القديمة والنبيذ المغشوش وورش الخياطة والأحذية، اتسعت المدينة عليها فجأة ولم تعد قادرة على مواجهتها وحدها، قال لها السمسار مستظرفا: لماذا لا تتزوجين من أي واحد وتحلين مشكلة

السكن؟! لم ترد عليه، كانت متعبة ومقهورة ولم تجد وقتا للذهاب للجريدة، في نهاية اليوم عادت مجهدة للفندق، نظر إليها اليوناني في شك وهي تطلب ليلة إضافية، وكالليلة السابقة أغلقت باب حجرتها وظلت حبيسة فيها حتى الصباح، كانت أحوال السمسار أسوأ من اليوم الذي سبقه، طاف بها في جولات جنونية، ملأ الغبار رئتيها، وانقبض صدرها في الغرف المعزولة التي لا تدخلها الشمس، ضاقت بالنظرات المتواطئة من البوابين، والحركات البذيئة للخادمات، اختلفت الأماكن، وأصبحت الشوارع ضيقة وترابية، والبيوت أكثر بؤسا وازدحاما، هاجمتها روائح بقايا البراز والمخللات وعفونة الأجساد، توسلت إليه أن يخرجها من هذا الكابوس.

لم تصدق عينيها حين ظهر أمامها «شارع توبار» مرة أخرى، وبدت اللافتة المكتوب عليها «دار اللواء» مثل طوق نجاة، كانت متعبة وتعيسة، هتفت بالسمسار:

ـ هذا يكفي..

استدارت وتركته، هتف: يا ست.. أريد عرقي.

لم تلتفت إليه، كانت خائفة من أن تنفجر بالبكاء، لم تدر إلى أين تذهب، دخلت مسرعة من باب الدار ثم توقفت، ولم يكن من الممكن أن تدعهم يرونها وهي في هذه الحال من التعاسة، انهارت جالسة على الدرج وخلعت الحذاء من قدميها، ماذا لو رآها الزعيم وهي على هذه الحالة؟! ظلت جالسة رغم ذلك، منهكة لدرجة الشلل، سمعت صوتا يهتف بها:

ـ لماذا تجلسين هكذا؟.. هل أنت بخير؟

سحبت قدميها العاريتين بسرعة، خبأتهما تحت ثوبها، مسحت بقايا الدموع من عينيها، رفعت وجهها إليه، لم يكن الزعيم، كان هو الشاب الطويل الأسمر، ذا اللحية الصغيرة والعينين الأليفتين، كان يمسك في يده أوراقه المطوية، واصل هبوطه حتى أصبح بجانبها، ابتسم كأنه لم يلاحظ هيئتها الشعثاء، قال ببساطة:

ـ لقد سألت عنك اليوم، قالوا لي إنك غائبة منذ الأمس.

شعرت بالدم كله يصعد لرأسها، قالت في اندفاع:

ـ لماذا؟

ارتبك فجأة، كأنه لم يكن يتوقع السؤال، قال أخيرا:

ـ أردت أن أوضح لك ما حدث بيني وبين الباشا، لم أتخل عن مبادئي، وجريدة «السياسة» ليست سيئة كما يتصور..

كان يعرف وكانت بالطبع تعرف أنه يحاول أن يجد مبررا ليتحدث معها، ولم يكن هذا سيئا، قالت:

ـ سوف يسرني أن أستمع إليك، أنا أجيد الاستماع حقا، ولكني متعبة الآن.

ـ لاحظت ذلك..يبدو وكأنك كنت تائهة في كل شوارع المدينة.

لاحظ حذاءها المخلوع وقدميها العاريتين، أحست بالخجل الشديد، قالت:

ـ أنا غريبة عن هذه المدينة، كنت أبحث عن سكن، وقد فشلت حتى الآن.

أشرق وجهه وهو يقول:

ـ هكذا الأمر إذن، أنت منهكة من اللف والدوران، ولا بد أنك جائعة أيضا، سآخذك حالا إلى مسمط «الركيب»، وبعد ذلك تذهب إلى «أم عباس» لتؤجر لك إحدى الغرف، ما أن تشبعي حتى تحل كل الأمور.

كان فيه شيء آسر لا تستطيع مقاومته، ربما تلك البساطة الساحرة التي يتحدث بها، وربما وعده الغامض بأن يحل كل مشاكلها، تغلبت على خجلها وتعبها ونهضت معه، انتظرها مبتسما وهي تعاود لبس حذائها، سارا سويا في الشارع المزدحم بالناس، كان أطول منها، ولا بد لها من أن تتطلع للأعلى حتى تسمع كلماته جيدا، ترى لحيته السوداء الصغيرة وهي تتحرك، وكانت خطواته واسعة، وعليها أن تلاحقه لاهثة، ويده الطويلة الأصابع وهي تتحرك في الهواء مؤكدا على كلماته، أصر على أن يوضح لها أسباب خلافه العابر مع الزعيم، كانت تعرف بحكم وجودها في دار «المعتمدية» أن الباشوات المصريين لا يكفون عن الصراع فيما بينهم، وكل الذين يجاهرون بالعداء للإنجليز، يتسللون خفية لمقابلة «اللورد»، ويعلنون له عن ولائهم، ويدسون عنده في حق الآخرين، ولكنها كانت متأكدة أن الزعيم لم يفعل ذلك.

دخلا إلى مسمط «الركيب» في ميدان السيدة زينب، كانت قد أسلمته قيادها، ولم يكن أمامها إلا أن تثق به، أجلسهما صاحب

المطعم خلف حاجز خشبي حتى لا تتلصص عليهما أعين الرجال، شعرت عائشة بالأمان، يمكن للمطاردة التي عاشتها أن تهدأ قليلاً، كان الحساء ساخناً، فلما تركاه قليلا تكونت فوقه طبقة من الدهن تجعله لا يبرد أبدا، لسعت لسانها أكثر من مرة، وضحك مختار عاليا وهو يلاحظ ارتباكها، كان المطعم مليئاً بالزبائن، ومسجد السيدة زينب الذي يقع في مقابلتهم مليئاً بالمصلين والمتوسلين، قالت له:

ـ من هي «أم عباس» هذه؟

ـ إنها صاحبة البيت الذي أسكنه في «درب الجماميز»، وبما أنها تحملت سكنى فنان مزعج مثلي لا يكف عن الإمساك بالمطرقة ليلا ونهارا، فمن المؤكد أنها ستعتني بفتاة وحيدة مثلك.

لم يسألها عن نفسها، ولا الأسباب التي جعلتها وحيدة هكذا في شوارع القاهرة، واصل الكلام عن كل شيء وهو يزدرد قطع اللحم الصغيرة ويقسم رغيف الخبز إلى لقم كبيرة كأنه لم يأكل من سنوات، تذكرت الطريقة التي كان «رزق» يأكل بها وشعرت بغصة. تأملت وجهه النحيف ولحيته المضحكة لم يكن يكبرها إلا قليلا، ولكنه كان يتحدث كأنه يمتلك الكون..

لم تسمع من قبل باسم قرية «طنبارة» التي جاء منها، ربما كانت تشبه النجع البعيد الذي فقدته، بيوت من طين و قش، حقول ممتدة من الزرع النضر، وأشجار التوت والجميز والصفصاف، ترع متقاطعة وأكوام من سبخ، وسواق لا تكف عن الدوران وضفادع يبح صوتها من النقيق، كان أبوه هو عمدة القرية، رجلا مهيبا، يستمد هيبته من

أجداده الزهاد والعارفين بالله الذين قدموا من بلاد المغرب البعيدة في طريقهم لحج بيت الله، ولكنهم استقروا في أعماق ريف الدلتا، وعندما ولد مختار كان هو الابن الأوحد لزوجة العمدة الثانية، كانت أمه رقيقة وجميلة ولا تناسبها خشونة الحياة في القرية، وزاد من صعوبة الحياة بالنسبة إليهما معا هو الموقف العدائي لأبناء العمدة الكبار من زوجته الأولى، رأوا في هذا المولود الجديد منافسا لهم في ثروة أبيهم، كرهوه منذ اللحظة الأولى وناصبوه العداء حتى قبل أن يفطم، لم تستطع أمه الضعيفة أن تواجههم، خافت عليه وهو ما زال قطعة غضة من اللحم، أبعدته عن بيت أبيه، ذهبت به إلى بيت أخواله في بلدة قريبة، بدأ يشعر بالوحدة والتعاسة، لم يكن أبوه يدري بوجوده، وأصبحت أمه تزوره على فترات متباعدة، وكان هو يقضي أيامه جالسا صامتا على حافة الترعة:

ـ «في ذات يوم كنت ألعب بالطين كعادتي، فإذا بالطين ينطق بين يدي ويذعن لأصابعي ويتشكل، يأخذ شكل حيوانات القرية، الحمار المستكين، والجاموسة التي لا تكف عن المضغ، والثور الذي يحدق في الفراغ، نطق الطين وتحدث إلي وأعطاني أسرار التكوين، ترك أطفال القرية ألعابهم وتجمعوا حولي، وبكت فتاة صغيرة وهي تحدق في أشكال البط والاوز متوقعة أن تدب فيها الروح»...

وضع «الركيب» أمامهما أطباقا صغيرة فيها أصناف متنوعة، اللسان والجوهرة والفشة والطحال، أكلت قليلا، وظلت تستمع، كانت كلماته ألذ من الطعام:

ـ «عادت أمي إلى بلدة أخوتها، بعد أن مات أبي، عادت إلي،

كنت العزاء الباقي لها، حاولت أن تجعلني أذهب للكتاب حتى أحفظ القرآن، ولكن شيخ الكتاب كان صلبا وقاسيا، وكنت قد تحولت في غيابها، أصبحت روحا برية لا تطيق الجلوس في مكان مغلق، كنت أنطلق للحقول وحواف الترع، حيث يوجد الطين، وعندما نضجت قليلا اكتشفت أن القرية لم تعد مكانا صالحا للعيش، لا يوجد فيها إلا الطين، وخال طيب، وكثير من الأخوة الكارهين، وكان علي أنا وأمي أن نهاجر إلى القاهرة، وفي هذه المدينة بدأت أتعلم وأرسم وأشق طريقي».

خرجا من المسمط، عبرا الميدان إلى مقام السيدة زينب، قرآ الفاتحة ثم غاصا في الحواري المتشابكة خلف المسجد، كانت مبهورة بصفوف الدكاكين الصغيرة، باعة الملابس الملونة والعمائم والسروجية وكوائي الطرابيش وبائعي الطرشي والفول والحب، تحت أضواء الكلوبات الساطعة، أليفة وناعمة كأن وجودها بجانب المسجد أضفى عليها مسحة غير واقعية، لم يكف «مختار» عن الحديث، كان يريد أن يتعلم ويدرس النحت على أصوله في أوربا، ولكنها كانت بعيدة المنال، أشار إلى مبنى عالي الأسوار، شكله مختلف عن المباني التي تجاوره، كان العمال مازالوا يعملون على طلائه وتنظيفه حتى هذا الوقت المتأخر، قال:

ـ هذا هو المبنى الذي أحلم به، المدرسة التي أنتظر أن تفتح أبوابها.

نظرت إلى السور الأبيض الممتد في دهشة، لا يوجد عليه أي لافتة، ولكن العمال يشتغلون بجدية واضحة، قالت:

ـ أي مدرسة هذه؟

ـ مدرسة الفنون الجميلة، سيأتي للتدريس بها أساتذة من فرنسا وإيطاليا، هكذا قال الأمير يوسف كمال الذي يرعى تأسيسها، ستكون بيتا للفن يأويني ويعزيني قليلا عن السفر إلى أوربا.

قالت عائشة باسمة: وما أدراك أنهم سيقبلونك؟

قال مختار: ما إن أقابل مدير المدرسة حتى أصنع له تمثالا من الطين، وسوف يقبلني على الفور.

سارا عبر الأزقة التي أصبحت مظلمة إلا من مصابيح زيتية واهنة موضوعة على عتبات البيوت، كان البيت يحمل رقم خمسة، واللحظة الأصعب هي مقابلة «أم عباس»، صعدا على الدرج، وطرقا باب شقة في الطابق الثاني، وانتظرا طويلا، ظهرت امرأة ضخمة كان واضحا أنها لا تقدر على التحرك من مكانها إلا بصعوبة، ظلت تتأمل عائشة في شك محاولة أن تخمن من تكون، ومن أين أحضرها؟ وقال مختار كاذبا:

ـ إنها قريبتي ولكن من بعيد..

ولم يبد على «أم عباس» أنها صدقت ذلك، نظرت عائشة بعين فاحصة وهي تقول:

ـ أين أهلك يا شابة؟

بلعت عائشة ريقها، ثم قالت بثبات من كان يتوقع السؤال:

ـ ماتوا جميعا في فيضان النيل منذ عامين...

فوجئت «أم عباس»، خففت من حدتها قليلاً، قالت:

ـ وكيف ستدفعين الإيجار، هل ستعيشين على نفقة قريبك؟ إنه يدفع إيجاره بصعوبة.

تصرفت عائشة بشكل حاسم، أخرجت الورقة المالية التي أعطاها لها الرافعي وقدمتها لها:

ـ هذا هو أول مبلغ أقبضه من عملي.

فتحت «أم عباس» فمها بدهشة وهي تقول:

ـ يا قوة الله!.. جنيه مرة واحدة.. أين تعملين؟!

ـ في جريدة اللواء.. مع الزعيم مصطفى كامل..

توالت مفاجآت عائشة، استولت الدهشة على المرأة هتفت في دهشة:

ـ يا رحمن يارحيم!.. هل ترينه؟!

ـ بالطبع أراه.. مكتبه بجانب مكتبي.

بوغتت «أم عباس»، لم تعد تستطيع أن تسخر أو تعترض، كان هجوم «عائشة» صاعقاً، ظلت ترمقهما معاً في حيرة، قالت ببطء:

ـ أيتها الشابة، أنت أجمل ما تكونين، وهذا مايخيفني، لقد عشت طوال عمري مثالاً للشرف، لم يتحدث أحد عن بيتي بكلمة واحدة، ولا أريد أن يتغير هذا بعد أن تسكني عندي، سأعد لك غرفة في شقتي، لا علاقة لك بالبدروم الذي يسكنه قريبك، لا تهبطي الدرج

المؤدي إليه، ولاتدخلي غرفته.. مفهوم؟.. عيون أهل الحي هنا مفتوحة وترصد كل شيء،إذا كنت موافقة فأهلاً بك.

لم تجرؤ «عائشة» على القول إنها لم تعرف «مختار» سوى اليوم. أومأت برأسها موافقة وقد احمر وجهها، قالت المرأة:

ـ والآن انصرف ياسي مختار..بالسلامة.. نريد أن نجهز الغرفة للصبية..

* * *

... في الصباح استيقظت عائشة في فراشها الصغير، أصبح لها غرفتها الخاصة وحياتها الخاصة، نامت جيداً وشعرت بالأمان، على الرغم من أن نبضات قلبها كانت تدق أسرع من المعتاد، سمعت أصوات الأطفال، وهم يلعبون «الحجلة» على قدم واحدة، أطلت من نافذتها على الحارة الضيقة، شاهدت باعة الفول والخبز والطماطم، الجارات وهن يعصرن الغسيل قبل أن ينشرنه على الحبال، تأملتها في دهشة وفضول، كانت مسألة وقت بالنسبة إليهن حتى يعرفن عنها كل شيء من «أم عباس»، وعندما هبطت استعداداً للذهاب للعمل وجدت «مختار» في انتظارها أسفل المنزل، سار معها في الطريق للجريدة، كان جريئاً إلى حد يثير الإعجاب، فرض وجوده بجانبها منذ اليوم الأول، أمام أعين الجميع وتحت ضوء الشمس، كان أهل الحي ينظرون نحوه في اعتزاز، يدركون أنه شخص متميز، لن يبقى في هذا البدروم طويلاً، ولكن مكانه مع الكبراء في الحلمية الجديدة، سارت وهي تحس بالأمان بجانبه، لم يحاول أن يحاصرها بالأسئلة

عن حياتها الماضية، أو يتجاوز حدوده معها، ظل محتفظا بدماثته، منتظرا اللحظة التي تثق به تماما وتفتح له قلبها.

صار المشوار من السيدة زينب إلى شارع نوبار واحدًا من أجمل المشاوير إلى قلبها، حوار ضيقة تشبه خطوط راحة اليد، وأسبلة تقدم ماء معطرا بالورد، ومجاذيب يدورون بالمباخر حول مقام السيدة، مرضى ومقعدون يتوافدون من كل مكان، يتشبثون بحديد مقامها المعشق، ترفع أدعية التوسل والاستغفار، من فوق مئذنة الشيخ الحنفي، ويرددون الأذكار في كل خميس، آه يا أمي.. أريدك أن تكوني معي، أعرفك بمختار، أحكي لك عن تلك المشاعر التي تنمو في داخلي، عن تدافع ضربات قلبي حين أراه في انتظاري، وتلك الرعدة التي تنفض جسدي حين تتلامس يدانا عفوا، وأن تتعرفي على «أم عباس» التي أصبحت لا تنام إلا بعد أن تطمئن على وجودي، ولا تفطر إلا بعد أن أصحو من النوم، كانت شورية «الركيب» ما زالت ساخنة، الحمام يهبط بوداعة على أكشاك باعة الكتب القديمة في وسط الميدان، وفي كل ثلاثاء ترتب الفلاحات كريات الزبدة والبيض في أهرامات متوهجة، وباعة العرقسوس يرتون «الصاجات» وهم يصيحون « مسكر ياخمير».

اقترب موعد افتتاح مدرسة الفنون، وازداد توتر مختار، خصوصا بعد أن سمع إعلان المدير الفرنسي للمدرسة أنه ستكون هناك اختبارات قاسية لكل طالب، عليه أن يقدم نموذجا أصيلا من أعماله، ومعبرا عن شخصيته، ولكن هذا المشروع اللعين جعل «مختار» ينشغل عنها، لم يدر أن خلايا جسدها تتفكك وتعاود التركيب من جديد، خصوصا بعد أن بدأ يتباعد عنها قليلا، لم يتخل عن مشواره

الصباحي، ولكنه لم يعد ينتظرها عند العودة، كانت تسمع صوت مطرقته في منتصف الليل، لم يتذمر أحد من الجيران، ولا «أم عباس» ولكن «عائشة» هي التي صدمت عندما هبطت ذات صباح ولم تجده في انتظارها، باب غرفته مغلق وصامت، كانت قد سمعت صوته وهو يعمل طوال الليل، ولا بد أنه الآن مستغرق في النوم، تلفتت حولها وعندما اكتشفت أنه لا أحد يلاحظها هبطت على الدرجات القليلة ودقت على الباب، توقعت أن يستيقظ سريعا ويستجيب لها، ولكن الباب ظل صامتا، أحست بالحيرة، خرجت من البيت منكسة الرأس، تمنت أن تختفي حتى لا يراها أحد وهي تمضي وحيدة، كأنها تسير عارية بلا حماية، تحولت المدينة لتصبح كابوسا، صعدت إلى «اللواء» وانهمكت في العمل، كان هناك خطابات للزعيم سيقوم بإرسالها إلى مجلس العموم في بريطانيا، ومقال يريد إرساله «للتايمز» البريطانية تتضمن نقدا لسياسة اللورد كرومر في التعليم، انهمكت في الترجمة، شاهدت الرافعي وهو يروح ويغدو، والأفندية يتناقشون، تبادلوا معها بعض المزح، ردت عليهم بعقل شارد وظلت تنتظر نهاية يوم العمل.

حين هبطت درج «دار اللواء» لم تجده في انتظارها أيضا، وسارت وحيدة ومكرهة عبر حواري السيدة الضيقة، سمعت تحيات الباعة والجيران، ولم تدر إن كانوا يسخرون منها أم لا، اقتربت من البيت، ولم يكن هناك من ينظر من النوافذ، هبطت الدرجات الثلاث المؤدية للبدروم وهي ترتعد، كانت تقترب من المنطقة المحرمة التي حذرتها منها «أم عباس» ولكن لم تجد بدا من ذلك، سمعت صوت حركة في الداخل، صوت المطرقة وهي تهوي على الحجر، وكلمات

متقطعة أدركت أنه في الداخل وأن هناك من يتحدث إليه، دقت على الباب وهي غاضبة، توقف الطرق وسمعت ضجة مهوشة، ثم صوت الرتاج وهو يرفع، فتح الباب ولكنه لم يكن «مختار»، كانت امرأة، أجل.. امرأة فارعة الطول، ملامحها واضحة، شعرها عار ومحلول ومهوش، ترتدي ثوبا مفتوح الصدر، يظهر من خلاله تكور ثدييها، وتنحدر فتحته إلى أسفل بطنها، عندما رأتها المرأة حاولت إخفاءها بواسطة الأزرار، كانت تحرك فمها، كأنها تعلك شيئا ما، ونظرت لعائشة بلا مبالاة، صعد الدم إلى رأسها وأحست بالأرض تدور من تحتها، هتفت :

ـ من أنت ؟

قالت المرأة وهي تستند إلى الباب بذراعها البضة العارية :

ـ هذا السؤال واجب علينا ياقلبي، أنت التي طرقت الباب.. أخبريني من أنت أولا؟

أوشكت عائشة أن تقع من طولها، تماسكت والدموع توشك أن تنفجر من عينيها، قالت:

ـ أريد «مختار»..

ـ إنه مشغول الآن..

ولكن قبل أن يغمى عليها ظهر «مختار» وهو قادم من الداخل، يمسك في يده مطرقة صغيرة ومغطى بذرات من التراب الأبيض، تقدم بخطوات بطيئة كأنه متعب من قلة النوم، كعادته مهوش الشعر

ولحيته الصغيرة عالق بها الغبار الأبيض، نظر إليها كأنه يراها للمرة الأولى، قال ببساطة:

ـ أوه يا عائشة. نسيت أن آتي لاصطحابك.. انشغلت والله...

هكذا إذن، تنحت المرأة الضخمة قليلا واستندت إلى الباب، ظل صدرها الضخم حاجزا بينهما، قالت:

ـ أنتما على معرفة إذن، هل تعمل هي معك أيضا؟.. لا يبدو جسمها صالحا.

وصرخت عائشة بكل ما في داخلها من حنق: من هذه المرأة يا مختار؟

كانت تستنجد به أن يقول شيئا ينقذها من ذلك الألم وتلك الحيرة، رفع «مختار» المطرقة وأشار للداخل إشارة غامضة، وقالت المرأة:

ـ ومن ذا الذي لا يعرفني ياقلبي؟! أنا «نبوية المستحية».. يعرفونني الآن.. وسيرددون اسمي في المستقبل أيضا.. أرها التمثال الذي صنعته لي ياسي الأستاذ.

أفسحت المرأة لها طريقا للدخول، كأنها تتحدى مقدرتها على اجتياز هذه العتبة المحرمة، تطلعت عائشة لمختار حتى ينقذها، ولكنه كان يضرب بالمطرقة على كفه شاردا، نظرت المرأة إليها وعلى وجهها ابتسامة ساخرة متحدية، أخذت «عائشة» نفسا وكتمته في صدرها ثم خطت إلى الداخل، كان المكان شبه معتم، ضوء خافت صادر من لمبة غازية، تخلق ظلالا أكثر من الضوء، تحيط بها تماثيل

صغيرة، معظمها غير مكتمل، ولوحات مستندة إلى الجدران، وبقايا رسوم ممزقة، وركام من بقايا الطين والحجر، فراش ناء في أحد الأركان ومنضدة عليها أطباق متسخة.. نظرت عائشة إلى المرأة التي كانت تشير في إصرار إلى منتصف الغرفة، كانت هناك كتلة من الصخر كبيرة نسبياً بالنسبة إلى المكان، وجسد امرأة مكتملة الأنوثة على وشك البزوغ من جوفها، كأنه يهم أن ينهض من الجمود، ينبعث من سكون الصخر، رغماً عن مشاعر الغضب بداخلها، أحست «عائشة» بتلك الحياة التي تدب في الحجر، كانت ملامح المرأة قد اكتملت وهي تحاول أن ترفع رأسها، ولكن خصلات شعرها ما زالت مشتبكة مع كتلة الصخر، وكانت كتفاها مرتفعتين كأنها مستندة على مرفقيها، ولكنهما أيضاً غائبتان في جوف الصخر، كان الجزء الأكثر توهجاً في التمثال هما نهدا المرأة، كانا عاريين، مكتملين حتى جذورهما، والحلمتان مرتفعتان ومشرئبتان، كيف استطاع أن ينحتهما بهذه الصورة؟ كيف استطاع أن يشتهيها إلى هذا الحد؟

أشاحت «عائشة» بوجهها، عاجزة عن التقاط أنفاسها، تعصف بها مشاعر الحنق والغيرة، أصبحت «نبوية المسحتية» أكثر ثقة بالنفس، وأكثر شماتة، ملامح التمثال تشبهها إلى حد كبير، ولكن أضفى عليها نوع من البهاء، بهاء لا يليق بها، استطاع «مختار» أن يخرجه من أعماقه، لم تستطع «عائشة» أن تحتمل صمته ولامبالاته، أدارت ظهرها له وخرجت من الغرفة، أخذت تعدو صاعدة على الدرج المظلم، تعثرت وانكفأت، دقت على باب الشقة العلوية، ناسية أن معها المفتاح، وأن «أم عباس» عسيرة الحركة، فتحت الباب واندفعت داخلة، وجدت «أم عباس» جالسة في وسط الصالة تنظر

إليها في ذعر، ارتمت في أحضانها وهي تبكي، حكت لها عما حدث، المشاعر التي تجتاح جسدها، السيدة التي وجدتها في غرفته، وذلك التمثال الذي يبزغ من جوف الصخر كأنه كائن شهواني، أخذت السيدة تهدهدها، قالت:

ـ وقعت في المحظور يا بنتي، أحببته بقوة، ربما أكثر مما أحبك هو، لا يجب أن تقعي في هذا الخطأ..

قالت عائشة في فزع: ماذا؟!.. هل هو لا يبالي بي؟.. هل له شأن مع هذه المرأة؟

ـ بالطبع لا.. أنا أعرفها منذ أن كانت بنتاً وتسكن في الحارة، تغيرت بعد ذلك، إنها تعمل في أحد بيوت «وش البركة».. وربنا يستر على عباده.. مختار يعرف ذلك.. ولكني متأكدة أن «مختار» ليس من هذا النوع من الرجال.

ـ ماذا تفعل معه في البدروم إذن؟

ـ إنها تساعده، تقف أمامه تطيع أوامره، وهو يدفع لها مقابل ذلك، لقد حدثني في الأمر قبل أن يأتي بها، المسألة لا تتعدى ذلك.. انظري للأمر من هذه الصورة ولا تدعي الغيرة تحرقك..

ولكنها ظلت تحترق طوال الليل، عجزت عن النوم وهي تفكر في التمثال، كانت تلك المرأة تنهض من جوف الصخر وكأنها خارجة من أحضان مختار، شبعانة ومروية، تشبه مرجريت وهي عائدة محلولة الشعر من غرفة رزق.

جاء الصباح أخيراً، هبطت «عائشة» وساقاها تلتفان ببعضهما حول

بعضٍ، لا ترى ما أمامها، ولكن «مختار» كان واقفا في انتظارها، هادئا تماما، وعيناه صافيتان، سار بجانبها، انتظرت حتى خرجا من تلافيف الحواري وأصبحا في الميدان، بعيدا عن أي آذان يمكن أن تستمع إليهما، هتفت فيه:

ـ هل نمت مع هذه المرأة؟

قال ببساطة: بالطبع لا..

ـ ولكنها رقدت أمامك عارية، رأيت جسدها بكل تفاصيله، واضح أنك فعلتها..

ـ لو فعلت ذلك معها لفسد كل شيء، لأضعت نشوة الإبداع، وضعت كل ما أشعر به من رغبة في الإزميل والمطرقة، لو فعلت غير ذلك لجاء التمثال بلا طاقة، أنا سعيد لأنك أحسست بالطاقة التي تشع منه.

لم يبرر أو يحاول التخفيف من عذابها، رغم أنه يرى عينيها المسهدتين، شرح بارد لم تفهمه جيدا، صاحت في حيرة:

ـ ولكنها امرأة مشبوهة.

قال: أعرف، ولكن هذا النوع من النسوة هن اللواتي يرضين بالوقوف أمامي أنا وزملائي، لو سألتك أن تخلعي ملابسك أمامي.. هل كنت ترضين؟!

قالت: اللعنة عليك وعلى « نبوية المستحية» وعلى مدرسة الفنون..

ولكنهما واصلا السير معا حتى «دار اللواء»، وكان في انتظارها في وقت العودة، لم تدخل «نبوية» المنزل بعد ذلك، واعتمد «مختار» على الذاكرة حتى يكمل التمثال.

في يوم افتتاح المدرسة، كان توتر مختار قد بلغ أقصى مدى له، تغيبت عائشة من الجريدة، وأطلت «أم عباس» من نافذتها، وكذلك بقية الجيران، وجاءت عربة «كارو» يجرها حصانان، وهبط بضعة حمالين إلى البدروم وحملوا التمثال إلى أعلى ومختار يتابعهم بتحذيراته، وشعرت عائشة بالخجل من أن يرى الجميع التمثال وهو بهذا العري، أحضرت ملاءة بيضاء وغطته بها وهي تنبه على الحمالين ألا يرفعوها بأي ثمن، سارت العربة، وركب الحمالون بجانب التمثال حتى لا يقع وسار مختار وبجانبه عائشة عبر الشوارع إلى «درب الجماميز»، كان يفرك يديه في قلق، وهي تشد على ذراعه في تشجيع قائلة:

ـ سوف يقبلونك في المدرسة بالتأكيد.. إنه تمثال رائع..

ولكنها كانت تكرهه، وتنوي أن تحطمه إذا ما أتيحت لها الفرصة، ظهر سور المدرسة مصبوغا بالجير الأبيض، وكانت لافتة «مدرسة الفنون الجميلة» قد ارتفعت عاليا فوق البوابة، جمع من الطلبة يقفون بجانب الباب وكل واحد يحمل المشروع الذي سيقدمه، لوحات مغطاة، لفائف من ورق، تماثيل من الجص، قطع مركبة من المعدن، منحوتات من الخشب، أشكال من الزجاج المعشق، مطروقات من النحاس، ولكن التمثال الحجري لمختار كان أضخمها، وأكثرها مهابة، وقالت عائشة وهو يستعد للدخول:

- سأبقى هنا بانتظارك.

ودخل والحمالون من خلفه يحملون التمثال، كانت تتمنى أن يكون التمثال لها، لو أنه طلب ذلك منها فقد كانت ستفعل أي شيء من أجله، لتحقيق حلمه في اجتياز هذا السور الأبيض، استندت إلى الجدار في مواجهة الباب، شاهدت بقية الطلبة وهم يحملون أشياءهم ويدخلون من الباب، وخلت الساحة، لم يبق إلا هي، وحيدة منتظرة، تتخيل «مختار» واقفا أمام لجنة القبول، سيرتبك ولن يجيد الكلام، ولكن التمثال سيتكلم خيرا منه، ولكن هل كان من الضروري أن يكون جسد «نبوية المستحية» هو طريقه للنجاح؟! في هذه اللحظة لم يبق أمامها إلا أن تبتهل لله من أجل نجاحه، أغمضت عينيها، سمعت صوتا يهتف بها:

- واضح أنك رضيت عن التمثال وصاحبه أخيرا!

عرفت «عائشة» صوتها على الفور على الرغم من أنها كانت تضع على وجهها وشاحا شفافا، وتحاول أن تخفي جسمها الصاخب داخل عباءة سوداء، انتهت لحظات الصفاء وهاجمتها مشاعر الغيظ مرة أخرى، قالت لها:

- ماذا جئت تفعلين هنا؟

قالت «نبوية المستحية»:

- هل نسيت أنني صاحبة التمثال يا قلبي؟ أنا شريكة في مستقبل هذا الشاب، وسيقبلونه فقط لحسن ذوقه في اختيار الجسد الذي قام بنحته.

لاجدوى من إثارة الشجار معها، ستكون هي الخاسرة، تأملتها في غيظ مكبوت وهي تستند بجوارها إلى الحائط، هل هذه المرأة قريبة من مختار إلى هذه الدرجة؟ هل تصدق «مختار» حين قال إنه لم يقترب من جسدها، أم أن ما بينهما أعمق من ذلك؟ كانت تريد أن تعرف ولا سبيل إلى ذلك إلا أن تواصل الكلام معها، قالت:

- لماذا تلبسين هذه الملابس وتغطين وجهك؟

قالت: لأنني أستحي يا قلبي، أنا مشهورة بذلك، بعض الزبائن يفضلونني من أجل حيائي، على الرغم من أن هذا يحدث غصبا عني..

توقفت قليلا ثم حدقت فيها بنظرة فاحصة وهي تقول:

- أفترض أنك قد أصبحت تعرفين عني الكثير.. أليس كذلك؟

كانت تتساءل في براءة، وجدت عائشة من نفسها الجراءة على أن تسألها:

- هذا البيت الذي تعملين فيه.. هل يتردد عليه مختار؟..

- طبعا يا قلبي.. ولكن ليس للسبب الذي في رأسك، جاء مرة للبحث عن واحدة تساعده في مشروعه، لقد قبلت بهذا على الرغم من أن نقوده قليلة جدا، لأنني أحب الفن يا قلبي، مختار لا يصلح أن يكون زبونا لنا، ما يتردد على البيت هم الإنجليز وكبار التجار.. ماذا يفعل عندنا طالب مفلس مثل مختار؟

لدهشة «عائشة» تواصل الحوار بينهما، ذهب عنها إحساسها بالفزع، وجدت نفسها تستمع إلى بعض التفاصيل، في استنكار أولا

ثم في دهشة واستمتاع، تحدثت «نبوية» عن عالم البيت الغريب في «وش البركة»، وعن كيفية احترافها لهذه المهنة، وعندما خرج مختار وجدهما يتحدثان معاً في انسجام، كان سعيداً لأن تمثاله لقي القبول من المحكمين كافة، ولم يصدق المدرس الأول «السيد لابلاني» أنه هو الذي قام وحده بنحت هذا التمثال، كان هذا الأستاذ قادما من فرنسا خصيصا لتدريس مادة النحت، وقد أدهشه أن يجد موهبة مثل مختار تبزغ هكذا من دون تعلم سابق، أخذه إلى غرفة جانبية، ووضع أمامه لوحا مليئا بقطع الصلصال، وطلب منه أن يشكل أمامه أي فكرة تخطر بباله، رأى مختار لحظتها صورة معلقة على جدار الغرفة، كانت «فينوس دي ميلو» أشهر تمثال في متحف «اللوفر»، امرأة عارية مقطوعة الذراعين، وعلى الفور تخيلها مختار وهي تخطو أمامه عارية ومزهوة، وأخذ يشكل الصلصال على صورتها، ومرة أخرى أمسك الأستاذ بلحيته مبهورا، ووافق في الحال على قبوله في المدرسة، صاحت «عائشة» في فرح، احتضنها «مختار» في قوة، مصمصت «نبوية المستحية» شفتيها وهي تقول:

ـ أنا الأولى بهذا الحضن يا قلبي.

ولم يملكا إلا أن يضحكا سويا...

* * *

..... فوجئت عائشة بالباشا نفسه وهو يقف أمام مكتبها الصغير، منذ أن تم تعيينها في «اللواء» وهي التي تذهب في العادة إلى مكتبه، ولم تتصور أنه يعرف الطريق إلى مكتبها، كان يقف معتدل القامة، براق العينين، كأن جسده قد برئ فجأة من كل الأمراض التي يعاني

منها، لم يكن يسعل أو يلهث، وكان يمسد شاربه في اعتزاز، قال لها في رقة:

ـ سوف تأتين معي يا «عائشة».

وسار أمامها منتصب القامة، تبعته عائشة وهي مندهشة ومبهورة في الوقت نفسه، كانت تعتقد أنه سوف يكلفها بترجمة خطاب ما، كانت قد ترجمت كثيرًا من رسائله وخطاباته التي كان يواصل إرسالها إلى أعضاء مجلس العموم البريطاني، أو إلى أصدقائه من الكتاب والصحفيين، ولكن الزعيم لم يتجه إلى مكتبه، مرق بين مكاتب الأفندية، خرجا من الباب، وبدأ يهبط الدرج وهي خلفه، بدأ الأمر يصبح غريبا.

أمام الجريدة تقف عربة «الدوكار» التي تخص الباشا في انتظارهما، والسائق يجلس متهيئا يمسك بلجام الحصان، أسرع ليعاون الزعيم على صعود العربة، ولكن الباشا أشار له بأنه قادر على القيام بذلك وحده، وبالفعل قفز من أسفل وجلس على مقعد العربة في دفعة واحدة، نظرت «عائشة» إليه في دهشة ولكنه أشار إليها أن تجلس في مقابله، خبط بعصاه على مقعد السائق وهو يقول:

ـ سر بنا إلى ميدان المحطة.

صهل الحصان وهو يحس بطرف السوط على ظهره، تحركت العربة، والتفت إليها الزعيم وعلى وجهه ابتسامة طفولية:

ـ إنها مناسبة تاريخية، أنت الوحيدة التي يحق لها مشاركتي فيها.

الشوارع مزدحمة بالناس، يسيرون مسرعين في نفس اتجاه العربة، أدركت عائشة سر سرور الباشا وغبطته، قرأت الخبر الذي انفردت به اللواء وأبرزته في عناوينها، بدا كأن وقع سنابك الحصان هي دقات قلب الزعيم، صدره يعلو وينخفض في ارتياح، كأنه يأخذ كفايته من هواء المدينة، أصبح فجأة أخف وأكثر عذوبة، ولكن الطريق المباشر إلى المحطة كان مغلقا بالحواجز، يقف خلفها جنود من الإنجليز متأهبون بالسلاح، بدأ السائق يغير اتجاه العربة إلى الطرقات الجانبية، سار إلى وسط البلد ثم إلى ميدان «الأوبرا»، وانحدرت عبر شارع «كلوت بك» وسط البواكي والأعمدة المتوالية، كان كثير من الخمارات والمقاهي قد علقت كثيرًا من الزينات، ولافتات بخطوط واضحة تعلن للزبائن أن الخمر والنساء الليلة بنصف الثمن، ازداد زحام الناس، وظهرت معالم ميدان محطة سكة الحديد، بدأت العربة تتقدم في صعوبة حتى توقفت، ولكن بعض المتجمهرين تعرفوا على الباشا، أسرعوا يوسعون له الطريق وارتفعت أصواتهم وهم يهتفون باسمه وهم يصيحون:

ـ اليوم يومك يازعيم..!

أشار إليهم بالصمت، لم يكن يريد أن يحول اليوم إلى مظاهرة، أو مناسبة لإظهار الشماتة، أشار للسائق أن يقف بالعربة في أحد جوانب الميدان بحيث يستطيع مراقبة الباب الرئيسي للمحطة، كان هناك جمهور كبير من المصريين، كانوا مكومين في أحد الأركان يحاصرهم الجنود الإنجليز، كانوا صامتين حتى هذه اللحظة، على الرغم من أنهم جاءوا يعبرون عن فرحتهم التي طال كبتها، وفي ركن آخر كان بقية الأوربيين، رجالا ونساء، في أبهى زينة، يتحدثون

في استرخاء، وفي الوسط تعرفت عائشة على اللورد كتشنر ـ بطل السودان كما يطلق عليه ـ وهو يروح ويغدو في قلق، ويتطلع في حقد إلى جموع المصريين الذين تجرءوا على الخروج لحضور هذه المناسبة، وربما كان ينتظر اللحظة التي يعبرون فيها عن مشاعرهم حتى يسحقهم جميعا.

أشار الباشا لعائشة لتجلس بجانبه في مواجهة باب المحطة، سمعته وهو يقول كأنه يحدث نفسه:

ـ إنه انتصار صغير، لم يخرج الاحتلال، ولكن هاهو ذا كرومر يستعد للرحيل، فهل سيمنحني الله العمر حتى أشاهد خروج كل عساكر الإنجليز..؟

ظهرت صفوف من الجنود الإنجليز يتقدمهم حرس الشرف وهم يرفعون السيوف البراقة وعلى رءوسهم القبعات المزدانة بالريش، ظهرت عربة مكشوفة تجرها ثمانية من الخيول مزينة بالريش الملون والمطهمة بصفائح النحاس البراقة، وكان اللورد يجلس شامخ الرأس لا يكاد يرى الواقفين في انتظاره، حشد كل جهوده من أجل هذه اللحظة حتى يتم خروجه بهذه الصورة المدوية، ظل الباشا يراقب تقدم موكبه بعيون مفتوحة، وارتفع صوت الموسيقى العسكرية من منصة بجانب مدخل المحطة، قالت عائشة:

ـ لماذا تكرهه هكذا؟! هل هذا من أجل ما فعله بدنشواي؟

ـ هذه واحدة من كثير.. لقد أذلنا هذا الرجل بما فيه الكفاية، ثبت الاحتلال وجعله قدرا علينا، حرم أبناءنا من التعلم والمعرفة، وأقصانا

عن إدارة البلاد ولم يسمح بإقامة أي صناعة، كان هدفه فقط هو تحويلنا إلى شعب من الجهلة لا تستطيع الاستغناء عن حكمهم.

اقتربت عربة اللورد أكثر، رفع الجنود أسلحتهم ووقفوا في وضع الانتباه، توقفت العربة في منتصف الميدان، هبط اللورد من العربة أمام صف من الضباط والقادة، أخذ يصافحهم، ثم بدأ المصريون الصامتون يهمهمون، كانوا قد صمتوا طويلا، وحانت لحظة الاحتجاج، التفت اللورد ناحية الصوت وانتبه لوجود الجمع الضئيل من المصريين، بدا مستغربا لوجودهم، وأن لهم صوتا، خيل لعائشة أنه يحرك رأسه ونظر في اتجاههما مباشرة، ضاقت عيناه وهو يحاول التأكد من ملامحهما، كانت تعرف أنه قضى الأيام الأخيرة يعاني آلاما حادة في معدته، حتى إنه لم يكن قادرا على هضم أي طعام حتى المعد منه للأطفال، ولكن هذا لم يؤثر في شاربه المرفوع إلى أعلى، ولا في نظرة الازدراء الباردة التي تطل من عينيه، ولوهلة قصيرة انقطعت الهمهمة وساد الصمت، واستدار اللورد ليواصل مراسيم وداعه، ولكن صوتا من بين الحشد ارتفع صائحا:

ـ يسقط سفاح دنشواي! يسقط اللورد الجبان!

شق الصوت مظاهر الأبهة والغطرسة السائدة فوق الميدان، ارتفعت أصوات المئات من الحناجر، امتلأ المكان بنبضات الهتاف الغاضب، اهتزت الصفوف المتراصة، ولكن اللورد حرك رأسه في اعتداد، ووقف حرس الشرف في صفين متقابلين ورفعوا السيوف عاليا حتى يمر اللورد من تحتها، ولكنه ظل واقفا مترددا، يحدق في الناس لعلهم يصمتون، تواصلت الهتافات، وأسند الباشا ذقنه على

عصاه، وبدا واضحا أن كل واحد منهما قد أحس بوجود الآخر، وتصاعدت درجة الغضب بعد أن شاهدوا تردد اللورد، حسبوا أنه قد يعدل عن الرحيل، أخذوا يصيحون:

ـ ارحل..! ارحل يا سفاح..!

تحفز اللورد كتشنر وأشار للجنود فرفعوا بنادقهم، وجهوها إلى صدور الناس، وهتف الباشا في فزع:

ـ يا رحمن يا رحيم..! ستحدث مذبحة..!

ونهض واقفا فوق العربة، متكئا على عصاه، يحاول أن ينصب جسده الواهن، التفتت إليه أعين الجميع، التفتت إليه عينا اللورد بشكل خاص، رآه واقفا بحلته السوداء وطربوشه الأحمر وشاربه المرتفع، كأنه يحذره من القيام بأي حركة خاطئة، تأمل كل منهما الآخر في كراهية مكبوتة، وكتم الجميع أنفاسهم، تطلع إليهما الجميع بنظرات مترقبة، ازداد وجه اللورد شحوبا، بدت عليه ملامح الهرم وأعراض سوء الهضم، قرر أخيرا ألا يطيل لحظة التحدي وأن يتجنب حدوث مذبحة في وداعه، استدار ودخل وسط صفي حرس الشرف، وظل «كتشنر» واقفا متحفزا، ومن بعيد تناهت أصوات المدافع وهي تدوي من بعيد من إحدى ثكنات شبرا، ومع اكتمال الطلقات الواحد والعشرين كان اللورد قد وصل إلى القطار وارتفعت صفارته معلنة بداية الرحيل.

سار الجميع، وسارت عربة الباشا في وسطهم في صمت، كان يلتقط أنفاسه بصعوبة، كان يبدو مجهدا، ولم تبد على وجهه أمارات السعادة التي كانت عائشة تتوقعها، قالت له في قلق:

ـ ماذا بك يازعيم؟ هل أنت بخير؟

ابتسم في وهن، مد أصابعه ولمس ذقنها بخفة، قال:

ـ رحل كرومر.. أجل.. ولكن رحل معه جزء من عمري، كنت أنا وهو صنوان، أخذ الصراع أعمارنا وصحتنا، وأشعر بعد رحيله بأن موعد رحيلي أنا أيضا قد حان.

قالت عائشة في جزع:

ـ أطال الله عمرك ياباشا، المعركة مازالت طويلة..

كانت تعرف أنها تكذب، كان واهنا وقد فقد صحوته المؤقتة، بدأت الحياة تتسرب من جسده، ظل مرتكزا على عصاه، يتأمل الشوارع والأرصفة والسابلة بعينين ممتلئتين بدموع جامدة، يحاول أن يطبع فيهما كل ما يمر أمامه من مناظر، يستوعب كل التفاصيل قبل الإغفاءة الأخيرة، أخذ يتحدث، كانت كلماته تختلط مع وقع سنابك الجواد، وأصوات المارة التي تتعالى كلما تعرفوا عليه:

ـ أجل، إنها معركة طويلة حقا.. ولكنها تحتاج إلى عمري وأعمار رجال آخرين، لقد بدأت هذه الحركة دفاعا عن نفسي، وعن الناس الذين أنتمي إليهم، أتعرفين، حين ذهبت لدراسة القانون في أوربا، اكتشفت أنهم لا يعرفون عنا شيئا، يعرفون أن هناك بلادًا اسمها مصر ذكرها الكتاب المقدس، قاموا بغزوها ذات يوم وأخذها منهم الإنجليز، يسكنها أناس بلا أسماء، ولا وجوه، ولا تاريخ، كتل من العجماوات، إذا نطقوا الفرنسية أثاروا استغرابهم، وإذا حفظوا قانونهم المدني عد ذلك بمثابة المعجزة، كل ما أردته يا «عائشة» هو

أن نستعيد أسماءنا، أن يعرفوا أننا آدميون، لنا شخصياتنا المتفردة، وأحزاننا ومسراتنا، كنت أريد أن يتعرف المصريون هم أيضا على أنفسهم، إنها مأساة يا بنتي أن تنظري في المرآة فلا ترين وجهك ولا تتعرفين عليه، كنت أريد أن يشعر المصريون بوجودهم، وألا يموتوا بهذه الكثافة، لقد ماتوا وهم يحفرون القناة، وماتوا في حرب «عرابي»، وماتوا من الفيضانات والأوبئة والكوارث، ولا أحد يهتم بموتهم، لأنهم يتحولون من شخصيات إلى أرقام، لا مصائر للأرقام، ولا دية لها، ولا حتى وقفة عابرة للتأمل أو الرثاء، وعندما استدعاني «الخديو عباس» حتى يؤلف حزبا سريا يكون هدفه تحرير مصر من الإنجليز لم أصدق أذني، كنا نفكر بطريقة مختلفة، كان يريد أن يحرر عرشه من سطوة الإنجليز.. وكنت أريد أن أحرر ناسي، حتى الخديو نفسه لم يكن يعرف أن لنا أسماء، كان يتحدث العربية بصعوبة، ويخطئ في اسمي أنا ورفاقي كلما تقابلنا، كل من حكموا مصر لم يعتقدوا يوما أن لنا أسماء، ولكني لم أكن أريد للخديو أن ينسى، ولا أن ينسى اللورد كرومر أسماء الذين قتلهم في دنشواي، يجب أن يعرف الجميع أننا لسنا أعشابا برية تنمو على ضفة النيل، أريدهم فقط أن يعرفوا أننا بشر.. لنا ذواتنا المستقلة، وشخصياتنا المتفردة.. ولسنا مجرد أرقام..

ظلت العربة تواصل السير، أصر الباشا على أن يوصلها بنفسه إلى ميدان السيدة زينب، كان وجهه شاحبا وحزينا وهو يودعها، تخيلت للحظة أنها المرة الأخيرة التي ستراه فيها، أحست بحزن عميق، دخلت مقام السيدة وأخذت تدور حول المقام في دورات متتابعة وهي تبكي.

عرفت الخبر في يوم لم تكد الشمس تشرق فيه، يلف المدينة قناع من الضباب يخفي ملامحها، كانت تهبط السلم في جريدة اللواء، كانوا مازالوا في منتصف اليوم، ولم يتم إعداد الصحيفة بعد، ولكن قلبها ظل متوجسا طوال اليوم، رأت «مختاره» في الصباح، وتغير خط سيرهما، اعتادت أن توصله لمدرسة الفنون أولا قبل أن تواصل سيرها إلى الصحيفة، وجدت عبد الرحمن الرافعي جالسا على السلم، كان يبكي مثل الأطفال، وكان وجهه المستدير لامعا بالدموع التي تكسوه، قال لها في كلمات تخنقها العبرات:

ـ لقد تركنا ورحل.. ذهب الزعيم وتركنا كاليتامى..

استندت إلى كتفه وأخذت تبكي هي أيضا، تذكرت كلماته الأخيرة لها، كأنه يرثي نفسه، ويرثي العالم الذي ينهار من حوله، ربت على كتفها، نهض واقفا وهو يستعد للصعود إلى أعلى، قالت له في دهشة:

ـ ألن تذهب إلى الجنازة؟

قال: لقد تركتها للآخرين، يجب أن أعدل الصفحة الأولى في الجريدة، وأن أجللها بالسواد، يجب أن يشعر الجميع بمدى خسارتنا.

سارت وحيدة، لا تكاد تتبين شيئا من الشوارع التي تحيط بها، كانت الحياة تتواصل في صمت، بيع وشراء ومساومة، عربات الترام في الميدان، ومجاذيب السيدة، وزوار المقام، يتحركون كالأطياف، كأنهم يعيشون لحظات نهاية العالم، ألم يكن يجب أن يتوقف كل شيء ولو قليلا؟ دخلت تلافيف الحواري الضيقة لم تسمع أصوات

أهل الحي، أسرعت بكل ما في صدرها من حزن مكبوت، هبطت الدرجات القلائل المؤدية للبدروم وأخذت تدق على بابه، صاحت باسم «مختاره» عاليا من دون أن تهتم بمن يستمع إليها، ولا بد أن الله كان يحبها في هذه اللحظة، فقد فتح الباب ووجدته واقفا أمامها، تعلقت بعنقه وهي تبكي، حملها بين ذراعيه إلى الداخل، انفجرت تحكي له ما حدث في كلمات متقطعة، نظر إليها مذهولا، كانت الدموع تسيل على وجنتيه أيضا، أحس بنوع من الذنب لأنه لم يؤازره كما يجب، لم يدر أنه كان يحترق، كل معركة يدخلها كانت تأخذ جزءا من عمره، احتضن كل منهما الآخر وظلا ساكنين، ولم يباليا بالظلام الذي هبط على المكان، قبل شفتيها، كانتا مالحتين، تعلقت برقبته، كانت هذه قبلتها الأولى، وكانت تنتظرها منذ أمد بعيد، ولكن قلبها المثقل بالحزن لم يدع الفرصة لجسدها ليرتعد ويحس بالنشوة، كانت تستغيث به، لعل الدفء الذي تولد من تلامس جسديهما يهدئ من روعها قليلا، أدخل أصابعه في خصلات شعرها وطرف أنفها، وظلت مستكينة إلى صدره، ولا بد أن «أم عباس» تتوقع عودتها الآن، ولكنها ظلت بجانبه وهي تقول:

ـ أشعل الضوء.. أريد أن أريك شيئا.

توهج المصباح الغازي وهو يقربه من وجهها، رفعت ذراعها وفكت أزرار كمها، عرت معصمها أمامه، بدا رسم الصليب موشوما على جلدها، شاحبا كجلدها، لمسه بأصابعه، ثم نظر إليها متسائلا ومندهشا:

ـ هل أنت مسيحية؟

قالت: كان علي أن أتظاهر بذلك.

قصت عليه كل ما تذكره من لحظات، كل ما كتمته طوال هذه السنوات، كانت تريده أن يعرفها بشكل أكثر صدقا، وأكثر واقعية، باحت له بكل الأحزان التي خبأتها في أعماقها، كل الذين مروا بها رأوا جانبا واحدا من حياتها، ولكنها تجلس الآن بين ذراعيه، تحت وطأة نظراته، لتجعله يراها كما لم يرها أحد، أحست أنها قد أصبحت حقيقية وهو يتطلع إليها تحت ضوء المصباح، وهي تكشف له عن طبقات حياتها المختلفة، كانت الدموع تنهمر من عينيها، خصوصا عندما تتذكر أمها، الحرمان الأكبر الذي عانت منه، الفراق المر الذي يحز في قلبها، وأخيرا هتفت في حرقة وهي تبكي:

ـ كل ما أريده في هذه اللحظة هي أمي، أريد أن أخبرها كم أحبك، وكم أنا في حاجة لوجودها بجانبي، لا أريد أن أعود إلى تلك القرية الصغيرة التي أكرهها، أريدها أن تكون هنا بجانبي في هذه المدينة الواسعة، بعيدا عن الخوف، من عمي ومن الآخرين الذين يهددون حياتها.

قال مختار متأثرا بانفعالها:

ـ سأذهب إليها وأحضرها لك.

نظرت إليه مندهشة وممتنة وهي تقول:

ـ هل ستقوم بذلك حقا؟

ـ يجب علي أن أقوم بذلك حتى أطلب إذنها للزواج بك..

نظرت إليه بعيون دامعة، فجأة تحول اليوم التعيس إلى يوم

سعدها، كان مختار، الفنان المتعالي الذي يذوب الحجر تحت أصابعه، والذي تتنافس عليه كل الصحف، يطلب منها الزواج، قالت غير مصدقة:

ـ هل تريد الزواج مني حقا؟

قال: وماذا كنت تحسبين أن تكون نهاية علاقتنا؟! ستقتلني «أم عباس» إذا فكرت لحظة في التخلي عنك، وكذلك كل مجاذيب السيدة وزوارها.

تخيلته يهبط ذلك النجع، نجع «بني خلف» النائي وحيدا، تقابله الأم العاجزة عن امتلاك أمرها والعم المتحفز، ترى كيف سيتدبر مختار أمره؟ هل يستطيع أن ينتزع أمها من براثن ذلك العم الشرس؟ قالت:

ـ أرجوك لا تفعل الآن.. على الأقل حتى أقول لك ذلك.

قال في دهشة: حسبتك متعجلة على الزواج.. أنا أكسب الآن من الرسم في الصحف ما يكفي وأستطيع أن أفتح بيتا.

ولكنها كانت خائفة، ترتجف وهي تصعد السلم متجهة إلى حيث تنتظرها «أم عباس»، ألقت بنفسها في أحضانها وأخذت السيدة تربت على ظهرها ثم قالت لها:

ـ لقد قضيت وقتا طويلا عنده، لمحتك وأنت تدخلين عنده في أول المساء، إنها مدة طويلة أن تجلسا معا من دون أن تتلامسا، لحظتها سيكون جسدك ضعيفا أمامه.

قالت «عائشة» وهي تبكي:

ـ كنت بحاجة لذلك، مات الزعيم اليوم وأحسست بالوحدة، كما أنه يريد أن يتزوجني.

ـ كنت سأقتله لو أنه فعل غير ذلك، ما دمت قد عرفت الطريق إلى بيته فمن الأفضل أن تسرعي بالزواج منه.

في الصباح كان «مختار» في انتظارها، طوال الليل وهو يقلب فكرة الزواج منها حتى أصبح وقد تأكدت في رأسه، ولم يعد يهتم بأي صعوبات يمكن أن تقف حياله، كان يريد أن يعرف منها المزيد من التفاصيل عن النجع وكيفية السفر إليه، ولكن القاهرة كانت حزينة، يتجمع الناس كل يوم حول جريدة اللواء، يأتون من كل مكان في مصر، طلبة من مدرسة الحقوق، جماعات من عمال الترام، مشايخ من الأزهر، فلاحون من الصعيد الجواني، عمال العتابر من إسكندرية، يأتون ويقفون الساعات الطويلة أمام اللواء، يتطلعون للأبواب والنوافذ المغلقة، يتوقعون أن يطل عليهم الزعيم في أي لحظة، تتلقى «عائشة» نظراتهم المتسائلة كل صباح، عاجزة عن أن تقدم لهم إجابة، كانت اللواء نفسها ترتج، يترصد الموت بها، في كل يوم يتوجه إليها المحررون وهم يعتقدون أنه اليوم الأخير، كان الموت يترصد بالصحيفة، لن يجد الناس على صفحاتها المقالات الملتهبة التي كان الزعيم يكتبها، مهما أعادوا من نشر مقالاته القديمة، ونبذ من أقواله، اختفى الوهج المشع الذي كان ينبعث من قلمه. وبدأت الظلمة تزحف على صفحات اللواء من عمود لآخر.

ولكن قبل أن تكتمل ذكرى مرور عام على رحيل الزعيم، جاء «محمد فريد»، ليدعو على صفحات «اللواء» لأكبر مظاهرة تشهدها

مصر، هدفها هو المطالبة بالاستقلال والدستور، لم يمت حلم الزعيم الراحل، جاء زعيم آخر، يحمل أفكارا جديدة، ويدعو إلى فعل مختلف، كان قد عاش في أوربا طويلا وشاهد حركة الطبقات المسحوقة، ورأى نذر الحرب القادمة، وأدرك أن مصر بوضعها الهش ستكون حملا ضعيفا على مائدة الأقوياء، كان لا بد له من أن يبحث عن مكامن قوتها، نظر للمرة الأولى إلى كتلة العمال المتناثرين والفلاحين الخانعين، هل يمكن أن ينتظموا وتصبح لهم قوة وإرادة؟ كان يسعى ـ رغم كل العقبات ـ أن يقيم لهم النقابات والجمعيات المهنية، ولكنه قبل ذلك كان يريدهم أن يهبطوا للشارع حتى يسمع أصواتهم ويخلصهم من داء الصمت المستحكم، ولهذا وجه دعوة التظاهر من خلال اللواء.

قبل الموعد المحدد للمظاهرة بثلاثة أيام اختفى مختار، لم يقل لها شيئا ولم يودعها، لم ينتظرها في الصباح، ولم يصحبها في المساء، قال لها عم جمعة بائع الفول وأول من يستيقظ من أهل الحي إنه كان يحمل حقيبة صغيرة ومضى مبكرا، وقع قلب «عائشة»، هل فعلها وذهب إلى نجعها البعيد، أم أنه ذهب في إجازة عادية إلى بلدته في وسط الدلتا؟ هل انتهز فرصة نهاية الموسم الدرامي وذهب لتنفيذ الفكرة التي لم تغادر رأسه؟ كان يجب أن يتمهل قليلا، كان يمكن وقتها أن تتخلى عن خوفها وتذهب معه، لماذا لم يخبرها من قبل؟ هل خاف من رفضها وترددها؟ تركها عاجزة، ليس أمامها إلا الانتظار، تتابع ما يدور بعقل نصف غائب، ترى الوفود التي تتجمع، والشعارات التي تكتب، والهتافات التي يتم التدريب عليها، وتحاول أن تقنع نفسها أن الأمور ستكون بخير.

في ليلة المظاهرة لم تنم «عائشة»، ظلت جالسة بجانب النافذة تراقب مدخل الدرب الضيق لعل «مختار» يظهر في أي لحظة، ولكن الدكاكين الصغيرة أطفأت أضواءها، ظهر قمر بعيد في السماء، وظلت السحب متجمعة وعابسة، صعد المؤذن العجوز فوق مقام السيدة الطاهرة وبدأ يؤذن للصلاة، وسمعت صوت «أم عباس» وهي تتحرك بصعوبة في الشقة حتى تتوضأ، نهضت وسارت إلى غرفتها، كانت السيدة العجوز جالسة ملتفة في طرحتها البيضاء وهي تبتهل بالدعاء في خفوت، مسحت الدموع من عينيها والتفتت إلى «عائشة» وهي تقول:

- إنني أدعو من أجلك يا «عائشة».. ومن أجل مختار حتى يعود إلينا سالما.

بلعت «عائشة» ريقها وجلست أمامها صامتة، نظرت إليها «أم عباس» مليا وهي تتساءل:

- هل ما زلت تنوين المشاركة في هذه المظاهرة؟

- إنهم يعتمدون علي لأنظم حركة طالبات المدارس، إن لهن ركنا خاصا في ميدان المظاهرة.

تنهدت السيدة في حيرة وهي تقول:

- وما الفائدة في هذه المجازفة والتعرض للمخاطر ما دام الاحتلال باقيا والخديو نائما؟

تذكرت هذه الكلمات وهي تسير وحيدة إلى ميدان عابدين، كانت المدينة صامتة ومترقبة، والميدان الواقع أمام قصر الخديو خاليا إلا

من عمال النظافة، استندت إلى أحد أعمدة الإضاءة، ودارت بعينيها في الميدان، تحاول اكتشاف الأماكن التي يتجمع فيها رجال الأمن، لم يحضر رجال البوليس بثيابهم الرسمية، ولكن أعدادا كبيرة من المخبرين ورجال القلم السياسي يقفون متأهبين، أحست أنها جاءت مبكرة، ولكنها كانت تأمل أن تقضي أصوات المظاهرة الصاخبة على ما يضج في داخلها من قلق وتوتر، بدءوا يتوافدون إلى الميدان، كالعادة كان أول من جاءهم طلبة مدرسة الحقوق، جمع صغير، يلبسون الحلل الأنيقة والطرابيش الفاقعة الألوان، ولكن حناجرهم العالية انطلقت توقظ النيام وتطالب بالدستور، ثم جاء رجال أعضاء جمعية الصنائع من شبرا بثيابهم الزرقاء، وبعدهم عمال العنابر الذين وصلوا منذ الأمس من الإسكندرية، وقضوا الليل نائمين على مقاعد محطة سكة الحديد، ثم ظهرت أولى طلائع بنات المدارس، يرتدين السواد، ويضعن خمرا بيضاء على وجوههن، قادتهن «عائشة» إلى ركن قصي من الميدان، بعيدا عن أماكن رجال البوليس، كان عليها أن تحافظ عليهن من الاحتكاك مع الآخرين، وأن تحرص على أن تدوي أصواتهن عالية في المظاهرة..

ظل الميدان يواصل الامتلاء بالناس، توافدت حشود كثيرة، تحمل اللافتات وتردد الشعارات، كانت وجوههم السمراء المحروقة قد وجدت فرصة تجأر فيها بالصراخ والاحتجاج، نظرت إليهم «عائشة» وهي واقفة وسط صفوف البنات، بدا كأنه لا نهاية لتوافد الناس، وأن الميدان يتسع لهم جميعا، ثم ظهرت قوات البوليس بملابسها السوداء، كأنها كانت تنتظر توافد الجميع حتى تحيط بالميدان من كل جانب وتغلق كل منافذه، ولكن المتظاهرين كانوا أكبر من أن تحاصرهم

أي قوة، ظل الجنود الإنجليز كعادتهم بعيدين، تركوا الأمر للعساكر المصريين، بوجوههم السمراء الخائفة والمقموعة، امتلأ الميدان بأصوات الاحتجاج والاعتراض، اختفت نبرة الشكوى والتوسل، كانوا قد ملوا من كثرة التوسل، نظرت «عائشة» إلى وجوههم وهي تهتف معهم، ليت الزعيم كان موجودا ليسمعهم وهم يصرخون، يدافعون عن وجودهم الخاص، يملئون الحيز الخاص بهم من فضاء العالم، ويتنفسون نصيبهم من هوائه، تحركت الرسوم الجامدة من على الجدران، دبت فيها يقظة مؤقتة، لا يدري أحد متى ستطول، قد يهجم رجال البوليس في هذه اللحظة ويفرضون الصمت على كل شيء، ولكن الصراخ تواصل، تجمعت كل هذه الأجساد المتفرقة في حنجرة واحدة، تمنت «عائشة» لو كان مختار معها، كانت ستبهره هذه اليقظة المفاجئة كما يهتز عندما تدب الحياة في قلب الحجر.

عند الظهر كان رجال البوليس قد ضاقوا بالمتظاهرين، حاولوا إزاحتهم للخلف بعيدا عن أسوار القصر، وحتى لا تنضم إليهم جموع أخرى من وسط البلد، منعوهم من التقدم بواسطة الدروع الحديدية والعصي، هوت العصي على بعض الرءوس فسالت دماؤها، دخلت المظاهرة في الجد، جاء الإنجليز وهم يركبون الجياد التي أخذت تصهل في غضب، حاولت «عائشة» أن تحيط بالبنات وتبعدهن عن نقاط الاحتكاك، فوجئت بمختار وهو يقف أمامها، شاحبا ونحيلا ومنفوش الشعر وسط الأجساد المتدافعة، لم تصدق نفسها، تعلقت برقبته، احتضنها وسط الزحام، صفقت البنات في حبور، وتوقفت الهتافات قليلا، ولكن عصي العسكر هوت على مقدمة الصفوف، هتفت به:

ـ لا أصدق أنك عدت لي.

قال: بل وحصلت على موافقة أمك على زواجنا أيضا.

ارتج قلبها بعنف، أحست بالعبرات تجيش بصدرها، هتفت في حرقة:

ـ هل رأيتها؟..هل هي بخير؟..هل...

وضع يدها حول ذراعيها، كانت حركة الناس تزداد والأجساد تتدافع من حولهما، تحولت أصوات الهتافات إلى صرخات من الغضب، قال بصوت عال حتى تسمعه:

ـ إنها بخير.. مريضة قليلا.. ولكنها بخير.. تريد أن تراك.. ما أن تستعيد صحتها حتى...

ظهر «حكمدار العاصمة» الإنجليزي وهو يلقي الأوامر، كان يركب جواده وعلى رأسه طربوش أحمر قان، محتقن مثل وجهه، يرمق الجميع في احتقار وهو يتقافز على صهوة الجواد، لم يكن يتوقع أن يتسع مجال المظاهرة إلى هذا الحد، أشار للعساكر فرفعوا العصي إلى أعلى، هتف في صوت أجش:

ـ اضرب.. شديد...

تلفتت «عائشة» كانت تريد أن تبعد البنات أكثر عن أي خطر، تدافع الحشد وصرخت البنات في فزع، واستطاع العساكر أن يشقوا صفوف المتظاهرين، غاصوا بينهم بدروعهم الحديدية والهراوات، أمسك «مختار» بيد عائشة وحاول أن يجذبها بعيدا، هتفت:

ـ لا أستطيع أن أترك البنات وحدهن.. سيسقطن تحت الأقدام.

كانت هي أيضا على وشك السقوط، وصرخ الحكمدار يأمر العسكر أن يضربوا أقوى، دار بالحصان نصف دورة وهو يخرج مسدسه ويطلق الرصاص فوق رءوس المتظاهرين، لم يعرف أحد إن كانت الرصاصة قد أصابت أحدا أم لا، فرد مختار ذراعيه، حاول أن يحمي «عائشة» وبقية البنات من اندفاع المتظاهرين وجموح رجال البوليس، بدأ المتظاهرون يدافعون عن أنفسهم، حولوا الأخشاب التي كانوا يحملون عليها اللافتات إلى عصي يواجهون بها الجنود، اقتلعوا الأحجار التي كانت ترصف الميدان وقذفوا بها العساكر، استمرت المعركة بين الجميع، بدأ سقوط الأجساد على الأرض من دون أن يستطيع أحد تحديد هويتها، صرخت البنات في رعب، واندفع العساكر في اتجاههن، اكتشفوا أنهن الحلقة الأضعف، وصرخ «مختار» يطلب منهن الابتعاد، أمسك بإحدى العصي، حاولت «عائشة» أن تدفعهن إلى مكان بعيد بالقرب من سور القصر، أشار مختار إلى مدخل حارة «البلاقسة»، وفي هذه اللحظة استدار «الحكمدار» فوق جواده وقد سمع صرخاتهن، اندفع نحوهن فجأة بجواده، كان قدومه سريعا ومرعبا مثل ضربة برق، صرخت «عائشة» في رعب وسقطت بعض البنات على الأرض، كان الجواد متجها صوب «عائشة» على وشك أن يدهسها، ورفع «مختار» العصا ولوح بها أمام رأس الجواد الهائج، لا يدري إن كانت أصابت الجواد أم لا، ولكنه صهل بصوت عال، ورفع قائمتيه الأماميتين إلى أعلى محاولا التوقف فجأة، اختل توازن «الحكمدار»، سقط من فوق الجواد، ارتطم جسده بقوة في الأرض.

توقف الجميع، توقفت الأيدي التي تحمل العصي في الهواء، توقف المتظاهرون عن التدافع، وفغر العساكر أفواههم، تجمد الزمن، لحظة خارقة من الصمت، الوحيد الذي تحرك هو «الحكمدار»، استند على الأرض ونهض مترنحا، تراجع «مختار»، اكتشف أن هناك حلقة من العساكر تحيط به من كل ناحية، أيديهم ترفع العصا إلى أعلى، كأنها تكون سورا من الرماح، تحسس «الحكمدار» رأسه، واكتشف وجود بقعة من الدم على أطراف أصابعه، شهق محاولا أن يتمالك أنفاسه، صرخ:

ـ حيوان.. امسك حالا..

أفاق العسكر من ذهولهم وانقضوا عليه، حاول «مختار» أن يدفعهم عنه، انهالوا عليه بالعصي، صرخت «عائشة» وحاولت أن تخترق صف العسكر الذي يحيط به، دفعوها بعيدا، دمدم المتظاهرون في غضب انقض عليهم عسكر آخرون بالعصي، ظهر بعض الضباط الإنجليز وبدءوا في إطلاق النار، هرعت البنات وهن يصرخن نحو مدخل «حارة البلاقسة»، وتراجع طلبة الحقوق حتى أصبحت ظهورهم للسور، واشتبك عمال العنابر مع العساكر، وتعثرت «عائشة» وهي تحاول الوصول إلى مختار، أحست فجأة بألم شديد في رأسها، هوت عليها ضربة قاسية، ترنحت سقطت على الأرض وسادت الظلمة.

لا تدري متى أفاقت، كان الميدان خاليا إلا من بقايا المظاهرة، بعض الجرحى والمغشي عليهم، بقايا للافتات وعصي متكسرة وأحجار مخلوعة، نهضت وهي تترنح، كان الرافعي محنيا عليها،

ينظر إليها في إشفاق، يبدو متعبا ومنهكا، لم يكن يرتدي معطفه، وربطة عنقه ملتوية ومتسخة، وكان قميصه ممزقا، وعليه بقع من الدم، قال وهو يزفر في ارتياح:

ـ الحمد لله أنك بخير، خفت أن تضيعي منا..

حدقت فيه بعيون زائغة، ثم قالت:

ـ أين مختار؟

ـ قبضوا عليه، قبضوا على كثيرين، سوف نوكل محامين من الحزب لمتابعتهم والإفراج عنهم.

كان يحاول أن يطمئنها ولكنها كانت ملتاعة، أحست أنها ضائعة، قالت باكية:

ـ أريد أن أذهب إليه.. أريد أن أعرف مكانه..

قال الرافعي: لا بد أنهم قد أخذوهم إلى «حكمدارية البوليس» في العتبة، سأستغل سلطتي بوصفي محاميا وأخبرك أين هو بالضبط؟

لم تقتنع ولم تهدأ، لم يجد بدا من أن يأخذها معه إلى العتبة، تجمع العشرات أمام المبنى كان البناء مصمتا، غيب الجميع في داخله ولم يبد أنه سوف يستجيب لأي توسل، حل الليل عليهم جميعا وهم ينتظرون في أماكنهم، أوقدت مشاعل الغاز حول أسوار حديقة الأزبكية، وبدأت الحركة تقل في الميدان إلا من بعض باعة الأطعمة، تنظر العساكر الذين يحيطون بالمبنى إلى المتجمعين في توتر، ولم يكن أمام «عائشة» إلا الانتظار، كان يؤلمها أنها المسئولة عماحدث، لولا وجودها وسط المظاهرة ما جاء «مختار» إليها،

ولولاها ما وقع في هذه الورطة، كيف ستعود إلى «درب الجماميز»؟ وكيف ستواجه «أم عباس»؟ كل شيء قد انهار، الحب والزواج وأمنية رؤيتها لأمها.

اشتدت الظلمة وبدأت أضواء الأزبكية في الانطفاء، طاف المخبرون حول المنتظرين في خطوات مهددة، وحل برد الليل على الميدان، انصرف كثيرون يائسين، وظل مبنى «الحكمدارية» صامتا، و«عائشة» غير قادرة عن تحويل عينيها عنه، تتوقع أن تحدث معجزة ما، وأن يطل عليها «مختار» ويجدد وعده بالزواج بها، ويأخذها حتى ترى أمها، نفذ البرد داخل عظامها، وشمت رائحة الذئاب، بعد أن مر عليها وقت طويل لم تشمها، تلفتت حولها، فلم تر ظلا لأي ذئب في الميدان، ولكن من خلف البيوت القديمة، والظلمة المتراكمة، سمعت الكلاب وهي تنبح، كأنها هي أيضا أحست بوجود الذئاب، أحست بشيء يلمس كتفها، التفتت في فزع، ولكنها وجدت أمامها «تبوية المستحية» كانت تقف أمامها بوجهها المليء بالأصباغ، اندهشت «عائشة» لأنها جاءت، قالت لها:

ـ ياقلبي، لا يمكنك أن تبقي هنا طوال الليل.. هذا الميدان خطر، وسوف يمتلئ بالسكارى وعساكر الإنجليز.. يجب أن تنصرفي الآن..

لم تتضايق «عائشة» من وجودها، كانت في أمس الحاجة لمن يقف بجانبها، ويؤنسها في برد هذا الليل، أجهشت بالبكاء، وفتحت «تبوية» ذراعيها واحتضنتها، شمت رائحة عطرها الثقيل مختلطا بالبودرة والعرق، قالت من خلال دموعها:

- لا أستطيع أن أذهب وأتركه في هذا المكان.

- لن يبقى هنا طويلا.. غدا سيرحلونه إلى «قرة ميدان» في القلعة، هناك سوف تجرى التحقيقات...

هبط قلب «عائشة»، كانت تعتقد أن الأمر لن يتجاوز هذا المكان، وسوف ينتهي سريعا، ولكنها تفيق الآن على حقيقة أن هناك قضية وتحقيقات وسجنا، كانت «نبوية» تتحدث من خلال خبرتها الطويلة في الدوران خلف المتهمين والمشبوهين، وتعرف أن قضايا السياسة تأخذ في العادة وقتا أطول، عادت تربت عليها وهي تقول في هدوء:

- صدقيني يا قلبي، لا فائدة من الانتظار، ربما لا يكون موجودا أصلا في هذا المكان، هيا.. سآخذك إلى البيت، ستموت الست «أم عباس» لو لم يعد أحدكما إلى البيت الليلة..

تذكرتها «عائشة» فجأة، لا بد أنها جالسة الآن عند النافذة، قلقة وعاجزة عن الحركة، وصلت إليها أنباء المذبحة التي حدثت في الميدان، ولا بد أن أسوأ الأفكار تهاجمها الآن، حاصرتها «نبوية» بمنطقها، لم يعد في الميدان الواسع إلا العسكر وبعض المخبرين، الجميع أصابهم اليأس والتعب، هي أيضا هدها تعب هذا اليوم الطويل، جذبتها «نبوية» من يدها، سارت بها وهي تربت على ظهرها، أشارت إلى سائق حنطور كان نائما بجوار مكتب «البوستة»، جلست بجانبها على المقعد الخلفي، أحست «عائشة» ببعض من الدفء، أدركت كم كانت وحيدة ومقرورة، بدأ الحنطور في التحرك، وشق

السكون صوت سنابك الجواد، مسحت «نبوية» آثار الدموع من على وجهها وهي تقول:

- لا تغرقي نفسك في الحب يا قلبي، سي مختار طيب أي نعم، ولكن الرجال أنذال، إذا قاطعتهم سدوا عليك منافذ الدنيا، وإذا غويتهم جعلوك حبلى وأفلتوا هم..

نظرت إليها مستغربة من جرأتها، خائفة من أن يكون «العربجي» يسمعها، لم يبد عليه أنه اهتم، الشوارع شبه خالية ومظلمة أكثر من المعتاد، وفكرت «عائشة» أن «أم عباس» سوف تستمع لحكايتها كاملة، ولكنها ستغضب منها كثيرا، لن تغفر لها ما حدث لمختار، كانت «نبوية» تواصل الكلام، تحاول أن تدفع عنهما وحشة الصمت والظلام، تحدثت عن نساء البيت في «وش البركة»، وصلت إليهن أخبار المظاهرة وهن يستعددن لاستقبال الزبائن، قررن على الفور أنه لا مجال للعمل أو المتعة، يجب أن يشاركن الجميع أحزانهن في تلك الليلة الحزينة، ظهرت أضواء مسجد السيدة، وحركة البشر تملأ الميدان، أحست «عائشة» ببعض الأمان، هبطتا سويا، أصرت «نبوية» على أن تصحبها إلى مدخل الحواري الضيقة، ورغما عنها كانت «عائشة» تشعر بالخجل من أن يراها أحد وهي تسير بجانبها، وتمنت لو أن الليل كان مظلما أكثر، ولا بد أن «نبوية» قد أحست بما يجول في فكرها، توقفت قائلة:

- أنت الآن في الأمان... داخل الحي لن يتعرض لك أحد..

التفتت «عائشة» إليها وهي ممتنة لشهامتها، قالت لها:

- هل تستطيعين العودة وحدك؟

قالت «نبوية» في بساطة: الليل هو ستري وغطاي، النهار هو الذي يفضحني...

ـ كنت في حاجة ماسة لمساعدتك، لا أدري كيف أشكرك.

ـ لا لزوم للشكر يا قلبي.. ستقابل.. أنا أزور مقام «أم العواجز» كل يوم خميس...

ودعتها وانصرفت، وظلت «عائشة» واقفة ترقبها وهي حائرة، ثم جرت قدما ثقيلة إلى البيت.

كانت أياما ثقيلة أيضا، احتقن وجه أم عباس وامتلأت نظراتها باللوم، حلفت ألّا تكلمها إلا بعد أن يعود «مختار»، واصلت الانتظار في ميدان القلعة وهي مليئة بالخوف والترقب، تطل عليها مباني القلعة المتجهمة، يرفرف من على أسوارها العالية الأعلام الإنجليزية، رمزا بارزا لسيطرتهم على مدينة مهزومة، رفعوه في اليوم الأول من دخولهم، وسلمهم الخديو بنفسه مفاتيح أبواب القلعة، ولم تنخفض الرايات حتى هذه اللحظة، وفي كل يوم تنحدر صفوف جنودهم بوجوهها المحمرة تنحدر من ثكناتها داخل القلعة في طابور طويل، تستعرض قوتها من سوق السلاح إلى الخليفة، وقفت «عائشة» وسط زحام الأهالي، كان السجن العثماني القديم الحائل اللون يضم خلف جدرانه كل أنواع المساجين، أصابها الرعب عندما وجدت نفسها وسط زوجات القتلة ومهربي المخدرات وقطاع الطرق، فكيف الحال إذن داخل السجن، وماذا يفعل «مختار» وسط كل هؤلاء؟ أي جروح سوف تتركها هذه التجربة المريرة في نفسه؟

بعد أيام طويلة ومريرة بدأ رفاقه يخرجون من باب السجن

المنخفض، تظهر وجوههم الشاحبة وعيونهم الزائغة وهم غير قادرين على مواجهة ضوء الشمس، كأنهم كانوا في جوف أقبية مظلمة، أشرق الأمل في قلب «عائشة» وانتظرت خروجه مع كل لحظة، سيكون وجهه شاحبا، ولحيته طويلة، وسيكون جائعا، ولكنه سيكون متلهفا بنفس درجة لهفتها، ستأخذه في أحضانها، وتقبل كل عين من عينيه حتى ينسى، ولكنه لم يخرج، ظهرت وجوههم جميعا إلا هو، في كل يوم يطبق السجن أبوابه دون أن تراه، ويغلق باب الأمل في وجهها، ويتواصل صمت «أم عباس»، رأت الرافعي وهو يروح ويغدو مرهقا ومعه فريق من المحامين، توسلت إليه أن يعطيها جوابا، ولكنه هز رأسه في أسف:

ـ موقفه صعب جدا، «الحكمدار» شخصيا يتهمه بالشروع في قتله، إننا نحاول المستحيل لنفي هذه التهمة.. ولكن هذا سيأخذ وقتا...

لم تصدق أنه سوف يبقى وحيدا في الداخل، وتبقى هي ضائعة وسط هذا الميدان المخيف كان نهارها حزينا، وليلها مليئا بالكوابيس، كم يوما سيمر عليها وهي في هذه الحالة؟ كم أسبوعا؟ وكم شهرا سيمضي قبل أن تراه مرة أخرى؟

* * *

في منتصف الليل نهضت «عائشة» مفزوعة، كان هناك كابوس يرقد على قلبها، وأصوات ضربات مكتومة تنبعث من أسفل، كأنها استمرار للكابوس، نهضت من فراشها، ومسحت العرق الذي يغمر وجهها، سارت حافية القدمين، كان صوت تنفس «أم عباس» يتناهى

إليها رتيبا ومنتظما، وقفت خلف الباب المغلق وتنصتت قليلا، كان الصوت قادما من أسفل، دقات عنيفة، أصوات تهشيم، شظايا تتساقط، كانت الأصوات قادمة من البدروم الخالي من صاحبه، ماذا يحدث؟ هل تهاجمه الشرطة مرة أخرى؟ أم أن هناك لصوصا يعيثون بتماثيله الوحيدة تهشيما؟ ماذا تفعل؟ لم تكن هناك فائدة من إيقاظ السيدة العجوز، لن تستطيع أن تفعل شيئا، حملت مصباحا صغيرا وفتحت الباب، هبطت السلم فوق درج بارد يبعث في داخلها رجفة متواصلة، اهتز المصباح في يدها وأوشك على الانطفاء، وارتفعت أصوات التحطيم، هبطت الدرجات القليلة المؤدية إلى باب البدروم، وهي ترتجف خوفا، الوقت متأخر ولا يوجد من تستنجد به، ليس أمامها إلا مواجهة من في الداخل أيا كان نوعه، لم يكن الباب مغلقا، ترددت قليلا قبل أن تدفعه، رفعت المصباح وخطت للداخل.

شاهدت «مختار» واقفا في منتصف الغرفة ممسكا بمطرقة، يوشك أن يهوي بها على تمثال امرأة فلاحة، عندما شعر بدخولها، توقفت يده بالمطرقة واستدار إليها، كان طويلا ونحيفا ووجهه غاضبا وقاسيا، تحيط بوجنتيه لحية كثة، وعيناه تبرقان بشدة، شهقت في رعب وفرح، وضعت المصباح على منضدة وجرت إليه، احتضنته بكل قوتها، أحست بعظام صدره النائتة ترتطم بثدييها، دفنت رأسها في عنقه، اشتمت رائحة السجن التي تعبق في مسامه، ولكن وجهه ظل بعيدا عنها، ذراعه التي تمسك المطرقة مرفوعة إلى أعلى، ولم تقترب الذراع الأخرى من جسدها، هتفت في حرقة: الحمد لله أنك عدت لي.. أجهشت بالبكاء وهي ما زالت متعلقة برقبته، لم تفطن إلى أنه يقف جامدا، صامتا، متخشبا، حاولت أن تحتضنه أكثر، أن

تدخل في جسده، تعطيه بعضا من دفئها، ولكنها سمعت صوته وهو يقول: لا تلمسي ظهري.. إنه يؤلمني..

ابتعدت عنه فزعة، رأت نظراته وهو يحدق فيها دون حب أو عداء، كأنها اقتحمت لحظة خاصة به ولا يحق لها الوجود فيها، تطلعت إليه في توسل حتى يتخلى عن تلك الهيئة، يسمح لها أن تمسك بوجهه وأن تقبله لتهدأ روحها، أشاح بوجهه مبتعدا متجنبا النظر في عينيها، هتفت بكل الأسئلة دفعة واحدة:

ـ متى خرجت؟ لماذا لم تصعد إلى أعلى؟.. لم أكف عن انتظارك.. ماذا فعلوا بك؟.. لماذا تحطم هذه التماثيل؟.. لماذا...؟!

رفع يده مشيرا لها أن تصمت، قال بصوته البارد:

ـ أنا متعب.. لا أستطيع الكلام.

قالت في اندفاع: ولكنك قادر على تحطيم التماثيل..

قال في حدة: لم أعد أحتاج إليها.. لم أعد أحتاج إلى شيء.

اقتربت منه في حذر، لم تحاول أن تحيطه بذراعيها حتى لا يبتعد عنها أو يتألم منها، وضعت يدها برفق على وجهه، لم يوقفها، تبينت مدى الألم الذي يطل من عينيه، تحسست لحيته الخشنة، والعرق البارد الذي يغمره، رأت الجروح الصغيرة، والكدمات الزرقاء، والشحوب المميت، لم يطق النظر إليها فأغمض عينيه، وعلى الفور انحدرت منهما دمعتان، هتفت في حرقة:

ـ «مختار».. يا حبيبي يا «مختار».. ماذا فعلوا بك؟!

أمسك بيدها وأنزلها من على وجهه، دون قسوة ولكن في حزم، قال:

ـ لا شيء.. جعلوني أكره نفسي.. وأكره كل ما يحيط بي.. أليس هذا كافيا؟

انتفض جسده كله فأبعدت يدها عنه خائفة، لم تكن تملك ما تقدمه له سوى محبتها ولكنه لم يكن بحاجة إليها، أشارت للتماثيل المحطمة، وهي تقول:

ـ أنت غاضب ومتعب الآن.. لا يجب أن تحطم شقا عمرك في هذه اللحظة.. اهدأ يا حبيبي وسوف يتصلح كل شيء.

زادت الكلمات من غضبه، لوح أمامها بالمطرقة، وهو يصرخ:

ـ لن يتصلح شيء، هذا البلد عفن، شممت رائحة عفنه في السجن، وعرفت أنه لن يستيقظ أبدا، سيظل مقموعا ومضطهدا، وغائبا عن وعيه، لا يوجد فيه سبب للحياة، كل ما فيه يدعو للموت!

ارتفع الصوت، ملأ غضبه المكان، تراجعت حتى أصبح ظهرها للحائط، أمسكت نفسها حتى لا تنخرط في البكاء، انفجرت كل مشاعر الإهانة التي كان يكبتها طوال أيام السجن، لم يجد من ينفث فيه غضبه، غير التماثيل وغيرها، قالت وهي تكاد تختنق:

ـ أرجوك يا «مختار» كف عن هذه الكلمات.. وكف عن التلويح بالمطرقة.

هبطت يده بالمطرقة، أخرج من صدره نفسا عميقا، كأنه يزيح عبئا عن صدره، قال:

ـ لا يجب أن تكوني هنا في هذا الوقت.. أريد أن أبقى وحيدا..

كان يطردها، لم يكن مشتاقا إليها، يحملها سبب سجنه وما لحق به من إهانات، لم تشأ أن تشعر بالإهانة، ظلت مصرة على الحفاظ على الخيط الذي يربط بينهما، قالت:

ـ سأراك في الصباح.. أليس كذلك؟

قال في نبرات باردة: إذا جاء علينا الصباح..

جرت أقدامها متثاقلة خارجة من الغرفة، استندت للجدار وهي تلتقط أنفاسها في صعوبة، لم تسمع صوت التحطيم، ولكن صوته ارتفع مجهشا بالبكاء، هذا الطفل المسكين قد آذوه كثيرا، أهانوا بدنه وجرحوا عزة نفسه، أخذت تطمئن نفسها وهي تدخل غرفتها وتجلس على فراشها.. سيهدأ في الصباح.. ويعود إليها مختار الذي تعرفه، أغمضت عينيها وحاولت أن تنام.. ولكنها لم تنم.

في الصباح لم يكن «مختار» موجودا، هبطت إليه ليصعد ويتناول الفطور معها و «أم عباس»، ولكن الغرفة كانت مفتوحة، والتماثيل نصف المحطمة تحدق فيها بعيون فارغة، ثيابه مكومة، لفات الأوراق التي تحتوي على رسومه متناثرة، كل شيء موجود إلا هو، كأنه لم يخرج من السجن بعد، بكت على كتف «أم عباس»، أحست أن حياتها قد تجمدت، إلى أين ذهب؟ هل عاد إلى بلدته؟ هل سيعود الليلة؟.. غدا، في أي وقت وبأي شكل سيعود؟

وقفت على باب مدرسة الفنون، رأت كثيرا من زملائه وهم يخرجون، تجرأت وتقدمت من أحدهم، اسمه راغب عياد وكانت تعرفه من قبل، قال لها:

- لقد سمعت أنهم رفتوه من المدرسة بسبب نشاطه السياسي.. ربما لن يستطيع أن يكمل دراسته.. من الموسف أن يعاملوا فنانا موهوبا بهذه القسوة..

سارت تتخبط في الطرقات، أدركت مدى فداحة ما حدث، لم يسجن ويهن فقط، ولكن تحطمت أعز أحلامه إلى نفسه، ذهبت إلى صحيفة الجريدة، إلى المقهى الذي يجلس عليه معظم طلبة الفنون ويعرضون فيه أعمالهم، كان على منضدة في وسط المقهى تمثال من صنعه، يمثل ثلاثة من العميان، أحست أنها مثلهم، عمياء تماما تتخبط في الشوارع دون أن ترى شيئا، عادت إلى البيت، إلى السيدة العجوز التي كانت تنتظرها، بكت «أم عباس» بحرقة كأنها تبكي طفلها الضائع، طفلها الذي حملت اسمه ولم تنعم بحياته.

لم يعد إلا في مساء اليوم التالي، شاهدته «عائشة» عند مدخل الحارة قبل أن يسرع بدخول البيت والاختباء داخل البدروم، يسرع الخطا فوق الأحجار الصغيرة المربعة، كأن هناك من يطارده، شكله قد أصبح أكثر بؤسا، ووجهه أكثر سوادا بسبب لحيته الكثة، ظل باهت يوشك على التلاشي، هرعت إلى صالة المنزل، كانت تتوقع أن تسمع خطواته فوق الدرج، أو طرقاته على باب الشقة، ولكن كل شيء ظل صامتا، تطلعت إليها «أم عباس» بوجه متسائل، قالت:

- لقد عاد.. ولكنه لم يأبه بالقدوم إلينا، وإخبارنا بما ينوي عمله.. لقد أصبح يكرهني بالفعل.

نظرت إليها السيدة قليلا، حاولت النهوض وهي تلهث، أسرعت «عائشة» تساعدها، كانت ثقيلة، أصاب الترهل كل عضو من أعضائها،

فتحت «عائشة» أبواب الشقة على مصاريعها وساعدتها على الخروج منه، لم تغادر هذا الباب من سنوات، منذ أن ترملت وأقعدها الحزن والسمنة، جرت قدميها بصعوبة، وأحست «عائشة» بالإشفاق عليها، توسلت إليها أن تعود، ألا تعرض حياتها للخطر بالهبوط على الدرج، ولكن السيدة أصرت على الهبوط رغم تحشرج أنفاسها، يد تتشبث بالسياج، والأخرى تتشبث بذراع «عائشة»، تمتلئ عينا «عائشة» بالدموع، ولكن إصرار السيدة العجوز جعلها تتماسك، توقفتا أمام باب غرفته، لم تجرؤ «عائشة» على أن تطرق الباب، احتمت وراء ظهر «أم عباس»، تركتها هي تطرق الباب وتأمره بصوتها النافذ أن يفتح، لم يكن «مختار» يجرؤ على مقاومة هذا الصوت، فتح الباب وظهر بوجهه البائس الحزين، نظر إليها في دهشة، كانت ما تزال تلهث، وجهها محتقن، ودقات قلبها متسارعة، ورغم ذلك فقد رفعت يدها وهي تشوح في وجهه:

- ماذا تحسب نفسك؟.. لا أهل لك.. لا يوجد من يقلقون عليك، ويريدون أن يعرفوا ماذا يحدث لك.. هل نسيت حقوقنا عليك؟

تراجع وقد أخذ بصياحها، بدا عليه الخجل، لم يبد عليه أنه لاحظ وجود «عائشة»، خطت «أم عباس» داخلة إلى الغرفة للمرة الأولى منذ سنوات طويلة، واصلت الصياح وهي تشير إليها:

- وهذه المسكينة التي انتظرتك في العراء أمام باب السجن وسهرت الليالي، كيف تعاملها بهذا الجفاء؟!..

نظر إليهما معا، كان يبدو ضائعا ومثيرا للأسى، كأن السجن قد اقتلع جذوره، لم يعد له مكان ينتمي إليه، أو أناس يرتبط بهم، كان

يود أن يبكي، أن يرتمي في أحضان السيدة ويحكي لها كل الآلام التي عانى منها داخل زنازين «قرة ميدان»، ولكنه ظل واقفا متماسكا أمامهما، كانتا هما الوحيدتين اللتين لا يريد أن يبدو ضعيفا ومنهارا أمامهما، قال بصوت متحشرج:

ـ لن أستطيع أن أبقى هنا بعد كل ما حدث، سوف أرحل..

هدأت «أم عباس» فجأة ونظرت إليه في ذعر وهي تقول:

ـ ماذا؟!.. ستنتقل إلى سكن آخر؟

ـ إلى بلد آخر.. أغلقت مصر أبوابها في وجهي.. وحرمتني من كل شيء، لم يبق لي إلا أن أبحث عن بلد آخر..

صرخت «عائشة» في خفوت، نظر نحوها ثم أخفض رأسه سريعا، لم يكن لديه ما يخفف درجة فزعها، واصل الكلام بسرعة كأنه يزيح هما من على صدره، قال:

ـ لقد سهرت الليل بأكمله أمام قصر الأمير يوسف كمال في عين شمس، لم أنصرف حتى قابلته، وقد وافق على سفري إلى فرنسا بعد أن علم أن مدرسة الفنون قد رفضتني، هذا هو خلاصي الوحيد.

جلست «أم عباس» على قاعدة تمثال مكسور، وظلت «عائشة» مستندة إلى الحائط عاجزة عن الكلام، كل شيء كان قاسيا لا يحتمل الكلام، قالت «أم عباس» في مرارة:

ـ فعلت ورتبت واتفقت دون أن تخطرنا.. أو تخطر هذه البنت المسكينة التي وعدتها بالزواج؟!

لم يرفع رأسه، لم ينظر في اتجاه عائشة، قال في صوت باتر:

ـ الأمور تغيرت.. لا أستطيع الآن أن أعد بشيء.

نهضت «أم عباس» في صعوبة، استندت إلى كل ماوجدته حولها وقالت في وهن:

ـ خذيني لأعلى يا بنتي..

أخذت «عائشة» بيديها، خرجتا من الغرفة، بدا الدرج بلا نهاية وهما تصعدان مهزومتين، ظلت «عائشة» تسندها، تحاول منعها من التراجع للخلف أو السقوط، لا تسمع صوتا سوى صوت أنفاسها المتحشرجة.

ظل كل شيء صامتا حتى ارتفع أذان الفجر، كان صوت المؤذن متوسلا وحزينا، لم يبد على «أم عباس» أنها تحركت من غرفتها، في ذلك الوقت كانت «عائشة» تسمع وقع قبقابها الخشبي، وهي تنهض وتتوضأ وتردد آية الكرسي، لم يصدر عن غرفتها أي صوت، لم تجرؤ «عائشة» على النهوض والاطمئنان عليها، راقبت ضوء الصباح وهو يواصل الانتشار، ولم تتحرك من مكانها حتى وهي ترى «مختار» خارجا من باب الحارة، بنفس ثياب الأمس، ونفس الهيئة المزرية، مضى سريعا كأنه يهرب من شيء ما، لم يتلفت خلفه، كان يعرف أنها تراقبه ولا يريد أن تلتقي عيناه بعينيها.

عندما غمرت الشمس كل شيء، خرجت «أم عباس» من غرفتها وهي شاحبة الوجه، لم يكن هناك شيء يقال، لم تتناولا الفطور، واصلتا الجلوس صامتتين، تنتظران لا شيء، وفي منتصف النهار،

نهضت «عائشة» وارتدت ثيابها، وعندما تطلعت إليها المرأة العجوز في تساؤل، قالت:

ـ سأذهب لأزور مقام «السيدة زينب».

عبرت الحواري خافضة الرأس، لا تريد أن يرى أحد بؤس الليلة الماضية على وجهها، اندست بين زحام الباكين والمتوسلين والمتشبثين بالمقام، كان مكسوا بالقطيفة الخضراء والمطرز عليه آيات القرآن بخيوط من الذهب، تعالت الدعوات من داخل المسجد العتيق، وأصوات النسوة اللائي يرتدين السواد في صرخات متوسلة، وأحست عائشة برغبة شديدة في البكاء، توحدت معهن في ضعفهن وفقرهن وقلة حيلتهن، هتفت في حرقة:

ـ يا أم العواجز.. يانصيرة المساكين، أعيدي إلي مختار القديم الذي أحببته، ازرعي محبتي في قلبه، لعله يهدأ ويرتاح..

كانت في حاجة لمعجزة حقا لتستعيده قبل أن يضيع منها تماما، ذهبت إلى أحد أركان المقام وتكومت فيه، وقف شخص أمامها، عرفتها دون أن ترفع رأسها، في مثل هذه اللحظات كانت «نبوية» تظهر دوما، تذكرت أن اليوم هو الخميس، هذا هو موعدها، وهاهي ذي تقف أمامها ملتفة بالسواد، مثل عشرات المسكينات العاجزات، وجهها خال تماما من الزينة، وعيناها ممتلئتان بالدموع، هي أيضا تبحث عن عون أو مغفرة، تلاقت عيونهما وتداخلت أصابعهما في تعاطف، سارتا معا خارج المسجد، جلستا على الساحة الرخامية المزدحمة، أحست «عائشة» فجأة أنها كانت في حاجة لهذا اللقاء، على الرغم من أنها لم تكن تنوي أن تذكر لها كلمة عما حدث لها.

جلست «نبوية المستحية» على الأرض وقد ربعت ساقيها تحتها، نظرت إلى وجه «عائشة»، وقالت وهي تحاول أن تبتسم:

ـ أنت لم تنامي طوال الليلة الماضية.. أليس كذلك؟

قالت «عائشة»: هل يبدو الإجهاد واضحا علي لهذه الدرجة؟..

ـ ربما.. ولكني أعرف سبب كل ما يبدو على وجهك.

ـ ماذا.. تعرفين؟

ـ لا أستطيع أن أتحدث هنا وإلا أثرت غضب صاحبة المقام.. فلنبتعد قليلا..

نهضت «نبوية» بحركة نشطة، ومدت يدها وساعدت «عائشة» على النهوض، سارتا معا، تجاهلتا أيدي الشحاذين الممتدة إليهما، وضعت يدها على كتفها فلم تحس «عائشة» بالامتعاض، قالت «نبوية»:

ـ أنا أعرف أن «مختار» يحبك كثيرا.. ولا تملأ عينيه امرأة غيرك.. ولكن ربما كان السجن هو سبب تصرفاته الأخيرة، لقد أردت أن أخبرك بما حدث حتى تنتبهي وتعالجي الأمر معه.

غاص قلب «عائشة»، لم يكن ينقصها أي مشاكل إضافية مع «مختار»، توقفت عن السير، استدارت ونظرت إليها بوجه واجف، بلعت «نبوية» ريقها ثم قالت:

ـ لقد جاء سي «مختار» إلى بيت «وش البركة» بالأمس، دفع المعلوم، وطلبني بالاسم، فوجئت به وهو يقف عند باب غرفتي.

- كان يريد أن ينام معك؟

- رفضت طبعا.. أنا بنت أصول ولا أخون العيش والملح.. أدركت أنه في حالة غير طبيعية، يكفي أن أتطلع إلى منظره والبريق الذي يطل من عينيه لأعرف حالة الجنون التي يمر بها، وقد يؤذيني إذا استسلمت له، صرخت في وجهه حتى إنه شعر بالخجل وتراجع من أمام باب غرفتي...

استمعت إليها «عائشة» مذهولة، هل تصدق كلماتها؟ هل تتحدث عن «مختار» أم عن شخص آخر؟ سألت بصوت خافت:

- هل ذهب إلى امرأة أخرى داخل الدار؟

- الكذب خيبة، لا أستطيع أن أنفي أو أؤكد، لم أغادر غرفتي ولم أسأل أي واحدة من البنات، ولكني متأكدة أنه كان في حالة لا تسمح له بالقيام بأي شيء.

ظلت «عائشة» تسير بجانبها، من دون أن تسمع ما تقوله، في كل مرة تكتشف جانبا غريبا من جوانب «مختار» لم تكن تعرفه حقا، هل كان في حاجة إلى جسد أكثر من حاجته إلى حب؟ ألم يكن حبها وإخلاصها كافيين؟ هل هذا هو السبب في ابتعاده عنها.. وليس السجن هو السبب الوحيد؟

ودعت «نبوية» وعادت عبر الدروب الضيقة، «أم عباس» جالسة في مكانها، لم تتحرك منه منذ بداية اليوم، حاولتا أن تتحدثا معا في كل الأشياء التافهة، إلا عن «مختار»، طهت «عائشة» الطعام حتى تلهيا بالأكل، لم تأكلا إلا القليل، كانت هناك غصة في حلق كل

منهما، نفد الكلام، وجلست «عائشة» بجانب النافذة تنتظر لا شيء، انسحب الضوء وحل الظلام، ونامت «عائشة» في مكانها من شدة الإجهاد.

استيقظت مرتعدة على صوت طرق على الباب، كانت الشقة مظلمة، لم يوقد أحد المصباح الغازي، سارت حافية القدمين، استمر الطرق وهي تحاول أن توقد المصباح، ارتعدت الذبالة المضيئة، وامتلأت الشقة بضوء شاحب، كانت «أم عباس» نائمة في مكانها منذ الظهر مفتوحة العينين، هتفت «عائشة» تسأل من الطارق فلم يرد عليها أحد، كانت واجفة القلب، وليست في حاجة لمفاجآت إضافية، حملت المصباح، وفتحت الباب، كان مختار يقف أمامها، وكان المصباح ينير وجهه الشاحب ويكشف عن لمعة عينيه.

ارتعدت يدها وتراجعت أمامه، شهقت «أم عباس» كأنها ترى شبحا، بينما خطا داخلا للشقة، أسرعت تضع المصباح فوق «البوريه» حتى لا يسقط من يدها، ظل واقفا بالقرب من الباب كأنه يتوقع أن يتم طرده سريعا، نهضت «أم عباس»، استندت إلى عصاها وهي تمتم بأنها ستذهب لغرفتها، نظر إليها وهو يقول:

- لم يكن من الممكن أن أرحل قبل أن أتحدث إليك.

كانت أنفاسها ثقيلة، وجاهد صدرها حتى يلتقط نسمة من الهواء، لو أنه يقبل عليها ويضمها بين ذراعيه، لغفرت له كل شيء، ونسيت ما قالته «نبوية» من سخافات، طويلا ونحيلا وباردا، قال:

- لا يمكن أن تتصوري ماذا حدث لي في السجن، أنا الفنان ابن العمدة وجدت نفسي فجأة بين اللصوص والقتلة والمشردين،

خرج جميع الذين كانوا يتظاهرون بجانبي، وتركوني أتلقى عنهم الإهانة جميعا..

أحست «عائشة» أنها لا يجب أن تظل صامتة هكذا، قالت:

ـ لقد شهدوا جميعا إلى جانبك، كلهم قالوا إنك لم تضرب «الحكمدار» وأن الجواد قد هاج بسبب الزحام، حتى الذين كانوا في أطراف الميدان ولم يروا شيئا شهدوا معك..

ـ ولكنهم خرجوا وتركوني وحدي، وسط العذاب الحقيقي للسجن حيث لا يوجد شهود، وحيث يحدث ما لا يمكن أن أبوح به، لقد خرجت منه وقد فقدت الإيمان في كل شيء.

ـ أنت لست في السجن الآن، يمكننا أن نواصل حياتنا.

ـ بعد كل ماحدث لن أستطيع أن أنسى أو أخضع أو أرضى، لو بقيت هنا سأسير في كل مظاهرة، وسأتقدم أي حركة احتجاج، لن أستطيع الرسم ولا النحت، سيمنعني غضبي وحنقي، سأتعرض للاعتقال وللإهانة من جديد، وسأفقد المزيد من ذاتي، لذلك يجب أن أرحل عن هنا حتى أستعيد نفسي.

قالت «عائشة» وهي تقاوم أن تبكي :

ـ وماذا عني؟ ألم تفكر في ولو للحظة واحدة..؟

ـ ليس أمامك إلا أن تنتظريني..ولكني لست أدري إلى متى

ـ وعد غامض

ـ لا أملك إلا هو...

كان باترا وظل متباعدا، يحافظ على المسافة التي تفصل بينهما، كان فم «عائشة» جافا، قال آخر ما عنده، واستدار بالفعل دون أن يبالي بلمسها، أحست بالغضب فجأة لأنه يعاملها هكذا، صاحت فيه:

ـ هل ذهبت إلى بيت «وش البركة»؟.. هل حاولت أن تنام مع «نبوية المستحية»؟...

استدار ونظر إليها، بدت على وجهه علامات الحيرة، قال بصوت مشوش:

ـ ربما فعلت ذلك، وربما لم أفعل..ليس هذا أنا.. وليس هذا جسدي..

استدار وخرج من الباب وأغلقه خلفه، وظلت جامدة في مكانها، تسمع صوت أقدامه وهي تهبط على الدرج.

نجع «بني خلف»

وقفت «عائشة» على رصيف القطار، بجانبها حقيبة صغيرة، توشك الريح الباردة أن تطيرها، والرجل يقف هناك، على بعد أمتار قليلة منها، يترصدها بنظرات خفية، يمتلئ جلبابه بالهواء، فيبدو طوله فارعا وحجمه أضخم، تحيط برقبته ملحفة من الصوف تكاد تخفي وجهه، وتلتف حول رأسه عمامة ضخمة، لا يظهر إلا شاربه الكث الذي يقسم وجهه إلى قسمين، وتلك النظرة الباردة الصارمة التي طالما بعثت الرعدة في جسدها، لم تكن المحطة مزدحمة بالناس، ركاب قلائل يسيرون في تثاقل وهم يحملون لفائف وحقائب أكبر من أحجامهم، ولم يكن هو يحمل إلا عصاه، كان قادما في مهمة قصيرة، واثقا من نجاحها، أن يعود بها.

كانت «عائشة» وحيدة ومتوجسة، رحل «مختار» خفية منذ أشهر، دون أن يراها، ودون أن يودع «أم عباس»، ترك مفتاح البدروم مع «زهران البقال» على ناصية الشارع، وأوصاه أن يسلمه لها، وأن تلقي ببقايا أشيائه ـ بما فيها التماثيل ـ للزبالة إذا أرادت، بكت «أم عباس» في حرقة وهي تتسلم المفتاح وأقسمت ألا تفتح هذا البدروم أبدا،

وأدركت «عائشة» أنها مهما انتظرته فلن يعود، ازدادت برودة الشتاء وهطلت الأمطار كل يوم، امتلأت الحارات بالوحل، وأصبحت الحركة فيها صعبة، حاولت «عائشة» أن تواصل حياتها العادية بلا جدوى، توقفت «جريدة اللواء» عن الصدور، توالت ضغوط الإنجليز عليها من جهة والسلطان حسين كامل من جهة أخرى، وغادر محمد فريد مصر مقهورا إلى المنفى، وفقد كل من في الجريدة وظائفهم ولم تجد «عائشة» في نفسها القدرة على البحث عن عمل في جريدة أخرى.

اهتزت الأرض والقطار يدخل المحطة، ينفث سحابة سوداء كثيفة، كان قادما من المخزن لأنه كان خاليا، لم يهبط منه راكب واحد، دون كلمة خطا الرجل إلى الداخل دون أن ينتظر دخولها أولا، كان واثقا بأنها ستتبعه، ظلت «عائشة» واقفة، شاهدت الرصيف يزدحم فجأة بالناس، لا تعرف من أين جاءوا جميعا، ركاب يحملون مقاطف من الخوص ونساء متشحات بالسواد وأفندية متأنقون وإنجليزي وحيد يبرم شاربه، تأملت «عائشة» العوارض الحديدية التي تكون جسرا علويا، كانت الحمائم قد صنعت عشا لها، تستطيع بأجنحتها أن تقفز عليه للجانب الآخر دون أن يستطيع أحد اللحاق بها، كانت «عائشة» حزينة لأنها صدقته وسارت خلفه عبر كل هذه الشوارع، من حواري السيدة حتى رصيف المحطة، ولكن كيف كان يمكنها أن تجازف بتكذيبه؟!

عندما نهضت في منتصف الليل على صوت الطرقات العالية على الباب، تخيلت لأول وهلة أنه «مختار»، لم يستطع أن يتحمل فراقها لمدة طويلة فعاد إليها، كانت مستعدة لأن تتبعه إلى آخر مكان في

العالم، ولكن حين فتحت الباب وجدت هذا الرجل يقف أمامها، عرفته على الفور رغم كل السنوات، كأنه قدر يتبعها ولا جدوى من محاولة الهرب، لم يكن يحمل أي شبه من أبيها، كان الأخ غير الشقيق، الشاة الضالة التي لا تنتهي مشاكلها، على حد تعبير الأب، شهقت في فزع وحاولت أن تغلق الباب في وجهه، ولكن الرجل خطا داخلا قبل أن تقوم بأي فعل، وقف وسط الردهة بجلبابه المنقوش، والملحفة الصوفية الملتفة حول عنقه، فرض وجوده عليها، كأن لم تغب عن عينيه لحظة واحدة، هتفت «عائشة» بصوت لاهث:

ـ كيف عرفت الطريق إلي ؟

نظر إليها مليا، كأنه يسخر من هروبها وتخفيها:

ـ أمك بنفسها هي التي أرسلتني، إنها تخشى أن تموت قبل أن تراك..

سقط قلبها على الرغم من أن تلك النبرة العاطفية لم تكن لائقة به، ولكن ذكر أمها جعلها تشهق في فزع، سمعت صوت «أم عباس» تجاهد للخروج من الغرفة، وقفت أمامهما وتأملت الرجل الغريب، أشارت نحوه بعصاها متسائلة عمن يكون، ولكن «عائشة» لم تجرؤ على الكلام، يلتفت الرجل نحوها وهو يضع يده على صدره قائلا في تواضع:

ـ محسوبك «عمران».. عم عائشة..وزوج أمها في الوقت نفسه.

لا تأبه «أم عباس» بحركاته المؤدبة، نظرة واحدة جعلتها تدرك حالة الفزع المميتة التي تعاني منها «عائشة»، تقول:

ـ وماذا تريد؟

لا يبالي بالجفاء الذي يبدو في صوتها، قال في صوت محايد:

ـ الست أم «عائشة»، زوجتي، مريضة جدا..هي التي طلبت مني أن آتي إلى هنا وأخبر ابنتها، أنها تريد أن تراها، هذه أمنيتها الأخيرة.

دقت «أم عباس» بيدها على صدرها، وتراجعت «عائشة»، قالت بصوت مبحوح:

ـ لن أذهب معك إلى أي مكان..

قال بنفس الصوت المحايد:

ـ كما تشائين، ما على الرسول إلا البلاغ، سأعود اليوم من فوري إلى النجع، حالتها لا تسمح لي بالمكوث لإقناعك، قد أخبرتك بحالتها ولن يلومني أحد إذا لم تتمكني من رؤيتها بعد الآن.

تتدخل «أم عباس» وهي تتساءل في خوف: هل حالتها سيئة لهذه الدرجة؟

ـ إنها تموت.. وأنا هنا أسابق الزمن، ولولا أنها طلبت مني المجيء إلى هنا ما تركتها وهي في هذه الحالة.

نظرت «أم عباس» نحوها، متسائلة عن قرارها، لم تدر «عائشة» كيف تجيبها، نصف عقلها يصدقه، ونصفه الآخر يتذكر تحذيرات أمها ألا تثق به مهما كانت الظروف، تقترب «أم عباس» منها وتربت على كتفها، لم تكن قد حكت لها كل شيء، لكنها أحست بحيرتها،

تهمس لها: ألا تريدين الذهاب؟! ترد «عائشة» بصوت مرتعد: أريد أن أراها.. ولكني خائفة منه.

اقترب «عمران» خطوة منهما، وجه كلامه إلى السيدة مباشرة:

ـ سأعيدها حالما تطمئن أمها عليها، إذا قدر لها الحياة فستعود معها إلى هنا بنفسها، ولكن إذا جاء قضاء الله فسأعيدها بنفسي..

كان يتحدث في نبرة هادئة ومقنعة، ولكن من يضمن لها العودة؟ من يحميها إذا ماتت أمها؟ ومن يغفر لها إن رحلت وهي وحيدة وحزينة؟ ليت «مختار» كان معها في هذه اللحظة، الوحيد الذي كان في مقدوره أن يحمي ظهرها، حسمت «أم عباس» الأمر :

ـ رغبات الموتى مقدسة، سأساعدك في تحضير حقيبتك..

غالبت «أم عباس» دموعها وهي تساعدها، ودعتها وهي تخرج، سارت «عائشة» خلفه وهو أمامها، لا يلتفت خلفه، يدق الأرض بعصاه ويملأ الهواء جلبابه كأنه شراع متأهب للرحيل.

ما تزال واقفة على الرصيف، من النافذة ألقى عليها «عمران» نظرة محايدة دون أن يقول شيئا، تقدم رجل عجوز في خطوات واهنة ودق الجرس النحاسي، صفر القطار مستجيبا، ارتجف قلبها وهي تنحني وتقبض على حقيبتها، لم تواجه نظراته، ارتقت الدرج المؤدي للقطار، سارت بين المقاعد الخشبية، جلست في مقابله، أسند رأسه للعصا وأغمض عينيه، كانت تعرف أنه يراها، صفر القطار للمرة الأخيرة قبل أن يبدأ في التحرك، بدأت بيوت بر «الجيزة» في التراجع للوراء، تحركت المآذن وظهرت صفوف من أشجار النخيل،

بدت حافة الجبل بعيدة وداكنة الزرقة من بعيد، وانكشفت صفحة النهر لامعة فأثارت في نفسها شعورا بالأسى والحنين.

أغمضت عينيها، واستسلمت للاهتزازات التي لا تنتهي، ساعات طويلة والقطار يتوقف أحيانا ليهبط أناس ويصعد آخرون، فتحت عينيها فرأت أشجار الدوم والتين الشوكي بجوار القضبان، وخلفها مزارع النخيل والجميز والليمون، اقترب سفح الجبل ظهرت فتحات المقابر المنحوتة في الصخر والقباب البيضاء المتربة لأضرحة أولياء الله، صعد الباعة من المحطات الصغيرة، أخذوا ينادون على بضاعتهم من البلح واليوسفي بأصوات منغمة، وظل الصمت سائدا بينهما، كان يفتح عينيه أحيانا وينظر للأفق البعيد، متجاهلا وجودها، زحفت ظلمة الليل وأخفت كل ما حولهما من معالم وبدا القطار كأنه يدخل نفقا مظلما بلا نهاية.

تهاجمها الكوابيس على الرغم من أن عينيها لم تغفل، شق الضوء الرمادي الأفق أخيرا، ظهرت الحقول الخضراء مغطاة بطبقة هشة من الضباب، وكان هو نائما على عصاه، ظهرت البيوت الطينية متلاصقة في خوف وقد ازداد لونها سوادا بسبب الندى، توقف القطار لساعات ثلاث في محطة نائية ليتزود بالماء وبالوقود، يغادر الجميع القطار إلا هما، جالسان صامتان متواجهان، كل واحد منهما يتجنب النظر إلى الآخر، واصل القطار المسير وتوالت القرى المتناثرة على حافة النهر حتى لم يعد هناك مجال للمزيد.

مصابيح غازية مرتعدة معلقة على أعمدة المحطة لا تنير إلا بقعا ضئيلة، هبطت من القطار، توقفت خارج الكشك الخشبي وتأملت

النجع الذي تلفه الظلمة، هامات من النخيل تخفي تحتها بيوتا تبدو مثل ظل واهن، كان بيت أبيها خارج النجع بعيدا عن زحمة هذه البيوت، سارا في ممر ضيق بين حقول القصب تنبعث منه أصوات الريح القوية، اختلط عواء الذئاب مع نباح الكلاب القادمة من ناحية النجع، أحست بألفة غريبة وهي تسمع صوت الذئاب أخيرا، علامة ترحيب غير مألوفة، أسرع «عمران» في السير، هل كان قلقا على أمها أم خائفا من صوت الذئاب؟ اشتمت رائحة بيتها، الروائح المنبعثة من كل البيوت، جدران الطين، رائحة السبخة والتبن الرايب ومياه الترعة الراكدة وأقراص الجلة والعجول الصغيرة لحظة الولادة، كانت رغما عنها تسير بذكرياتها للخلف، تمتلئ عيناها بالدموع، شوقا وحنينا.

ظهر البيت واضحا رغم الظلمة، كان أبوها هو الذي اختار موقعه وأشرف على بنائه، تمتد خلفه الأراضي التي تخصهم، أسرعت إلى الباب المغلق ودقت عليه بقبضتها، ستخرج أمها في أي لحظة وتأخذها في أحضانها، وليكن ما يكون، ولكن الباب ظل صامتا، أخرج «عمران» من جيبه مفتاحا ضخما مربوطا بخيط من «الدوبارة» وبدأ يديره في الفتحة، هل أغلق الباب على أمها من الخارج طوال هذه المدة؟

انفتح الباب فاندفعت داخله، ظل هو واقفا في الفناء، تقافزت فوق السلالم الطينية إلى حيث توجد غرفة الأم، انبعث من الغرفة ضوء خافت، أمل واهن وسط الشك والظلمة، وقفت لاهثة أمام الباب ونادت باسمها للمرة الأولى منذ شهور طويلة، دفعت الباب الموارب ودخلت الغرفة نصف المعتمة، مصباح غازي تغطيه طبقة من السناج، دولاب مفتوح تطل منه ثيابها، في المنتصف يوجد سريرها النحاسي

مسدل عليه «ناموسية» بيضاء، نادتها مرة أخرى، كانت رائحتها تملأ الغرفة ولكن لا رد، أزاحت الأستار، السرير خال، صاحت منادية، توقعت أن تخرج إليها من مكان ما وتأخذها في أحضانها، ولكن كل شيء ظل صامتا.

شهقت في ذعر وهي تتراجع، خرجت من الغرفة، وقفت في أعلى السلم، وكان هو واقفا في الأسفل، صلدا مثل جدار، هتفت به:

ـ لا يوجد أحد في الغرفة.. أين أمي؟

قال وهو يعبث بشاربه: في المقبرة..

أسندت ظهرها للحائط وانفجرت الدموع من عينيها..يا ربي.. هذا ما كنت أخشاه، يا ربي.. لن أراها بعد اليوم، لم تعد ساقاها قادرتين على حملها، انهارت جالسة على الأرض، لا تشعر به وهو يصعد السلم، يقف أمامها، يراقب عبراتها المتلاحقة بوجه جامد، يقول:

ـ لا جدوى من البكاء الآن، لقد ماتت منذ عشرة أيام..

رفعت رأسها، لا تراه بوضوح، لقد كذب عليها ونجح في استدراجها، سمعته وهو يقول ساخرا:

ـ لقد أجادت أمك تخبئتك، ولكن هذا الأفندي الأهبل الذي جاء من مصر، كشف عن كل شيء.

لو أنها تكون وحدها الآن، لو يبعد ظله عنها قليلا، حتى تبكي أمها وتهدئ من حرقة قلبها، ولكنه اقترب منها الآن، أمسك كتفها وضغط عليه، صرخت من خلال دموعها:

ـ إياك أن تلمسني..!

قال بنفس اللهجة الساخرة: لا أملك إلا أن أفعل.

نهضت واقفة ودخلت غرفة أمها، ملاذها الأخير، أغلقت الباب خلفها وارتمت على الفراش الخالي إلا من رائحتها، بكت في صوت خافت حتى لا يسمع صوتها، نفد «الجاز» من المصباح وسادت الظلمة، كانت قد أصبحت سجينته، لا منفذ لها إلا باب الغرفة الذي يجلس أمامه.

سمعت صوت احتكاك بباب الغرفة، كأنه يحاول أن يخترقه بأظافره، همهم شيئا بصوت مبحوح، لم تفهم ما قاله ولكنها ارتعدت خوفا، سمعت صوت العواء من بعيد، هل يمكن أن يشعر أحد من أهل النجع بوجودها سجينة في هذا المكان؟ هل هناك أمل من خلاصها؟ كان عليها أن تفكر بسرعة، ربما تستطيع أن تعرض عليه صفقة، تترك له جزءا من ميراث أبيها وأمها، ويدعها ترحل في سلام، ربما كان هذا مايسعى إليه، لحظتها سيخرج بها للنور، على الأقل سيذهب بها للبندر لتسجيل تنازلها، لحظتها يمكن أن تنجو، وتكون قد دفعت ثمن غلطتها.

نهضت مفزوعة على صوت ارتطام كبير، باب الغرفة يترنح تحت ضرباته، صرخت ولكن لم يكن هناك مكان تحتمي به، الظلام يسود كل شيء، ولم يكن يريد أن ينتظر الصباح، سقط الرتاج الذي يسد الباب، انفتحت الضلفتان الخشبيتان مرغمتين، وظهر بجسده الضخم، اقترب منها وهي جالسة على فراش أمها ترتعد من الخوف، هل يمكن أن تفيد كلمات التوسل؟ هل تجدي المقاومة؟ تحس بأصابعه تنغرس

في لحمها، شمت رائحة أنفاسه المشبعة بالكحول والتبغ، أجهشت بالبكاء، حاولت أن تضم ساقيها، ولكنه وضع ركبتيه بينهما، مدت رقبتها محاولة أن تبعد وجهها عنه، هوت يده على صدغها في لطمة قاسية، صاح بها: لا أريد بكاء ولا مقاومة. حاولت أن تنشب أظافرها في وجهه، عاود صفعها من جديد، تصاعدت النيران من صدغها وأحست بطعم الدم المالح في فمها، صرخ في وجهها: إذا أردت أن تحافظي على حياتك، لا تقاوميني، قيد معصميها وأبعدهما حتى لا تدفعه بعيدا، ضغط جسدها تحت جسده، واصل القول بصوت لاهث: لم يكن هناك مفر من ذلك، منذ أن قبلت الزواج بأمك وأنا أعرف أني سأنالك، أمك الغبية أخرت الأمر كثيرا، قبضت أصابعه على حافة ثوبها عند الرقبة، جذبه لأسفل ومزقه في حركة مباغتة، شعرت بهواء الليل البارد يلفح صدرها، دفعته عنها، نشبت أظافرها في وجهه، لكن حركاتها كانت أوهن من أن تؤثر فيه، أحست بيده الخشنة وهي تقبض على ثدييها، دفعها للوراء مواصلا تمزيق الثوب باليد الأخرى، مزق ملابسها الداخلية ونزعها عن جسدها في هياج، أصبحت عارية وباردة ومنهكة، ضغط بركبتيه بين ساقيها حتى انفتحا تماما، صرخت عاليا والألم يقتحمها، غاص أسفل بطنها، سمعت صوت لهاثه وهو يقترب ويبتعد عنها، أحست بالغثيان، ودت لو تستطيع أن تتقيأ، لو تستطيع أن تتنفس، لكنه لا يتوقف، يخور مثل بقرة، لا يبالي بجسدها الهامد، يحرك يده في أرجاء جسدها وفق مايريد، رفع ساقيها عاليا، وغير من وضعه، حط على بطنها ثقيلا.. ثقيلا، حاول أن يقتحم فمها بلسانه، وعندما زمت شفتيها وأدارت وجهها عاود صفعها من جديد، مزيد من الألم، مزيد من الدماء تملأ

فمها، ولا ينتهي الكابوس، تحس بجسده وقد تصلب فجأة، ثم يمتلئ داخلها المتهرئ بدفقات دافئة، يشهق في خوار كأن روحه على وشك الخروج، تسمع صوته وهو يقول في انتصار: هذه مجرد بداية.. بعد ذلك ستتعودين.. وستستمتعين..

نهض من عليها أخيرا، غادر الغرفة سريعا، ظلت «عائشة» ملقاة كخرقة هامدة، عاجزة عن الحركة، لمحت شعاعا رماديا من الضوء يتسلل من خلال خصاص النافذة، ارتفع صياح الديكة من فناء المنزل، حاولت النهوض، لملمت ثيابها الممزقة حول جسدها، خانتها ركبتاها وسقطت على الأرض، واصلت الزحف رغم الجروح التي تملأ جسدها، ووجهها المتورم، كانت تريد أن تصل لباب الغرفة، تصرخ لعل أحدا يغيثها، ولكن قبل أن تصل إليه فوجئت به وهو يفتحه، دخل «عمران» مرة أخرى وهو يمسك في يده فأسا، ارتدت في فزع وجمعت الثوب الممزق حول نفسها، هل ينوي قتلها؟ لم ينظر نحوها، كان وجودها على الأرض أمرا مفروغا منه، أمسك رأس الفأس الحديدي وأخذ يعيد تثبيت المفاصل المخلوعة، ارتعدت مع كل دقة يهوي بها، كأنه يهوي به على رأسها، حدقت فيه وهي مشلولة، أعاد تثبيت الباب وأغلقه مرة أخرى، سمعته وهو يعيد تثبيت الرتاج من الخارج، تحولت الغرفة إلى سجن من جديد، بكت في صمت، كانت تريد أن تنهض وتغتسل من كل هذه السوائل التي تلوث جسدها، لكنها ظلت جامدة في مكانها.

تناهت إليها أصوات النجع الذي استيقظ، ثغاء البهائم، وحثيث الفلاحين، ونداءات الأطفال، ولكنها كانت نائية، أصوات قادمة من عالم آخر، استندت على أعمدة السرير حتى نهضت، تحسست

أرجاء الغرفة حتى وجدت ما تبحث عنه، قلل من الفخار مليئة بالماء، كانت تعرف أن أمها تحرص على وجودها، بللت قطعة من ثيابها الممزقة وبدأت في تنظيف نفسها، آلمها وجهها المتورم من آثار الصفع، ولسعتها الجروح وهي تزيح السوائل والدماء التي تغطي بطنها وساقيها، التقطت بعضا من أنفاسها، سارت إلى دولاب أمها وفرزت ثيابها القديمة، اختارت جلبابا منها وارتدته، بعث فيها الدفء والأمان، بقايا من حضن أمها، هو الذي سيحميها، سارت نحو الباب وحاولت أن تهزه، لكنه أصبح محكم الإغلاق، لجأت للنافذة المغلقة، أخشابها كانت مثبتة أيضا بمسامير كبيرة الرءوس، كان قد أعد الفخ جيدا قبل أن يستدرجها، كانت أبعد من أن يستمع أحد إلى صراخها، لم تجرؤ على الاقتراب من السرير، تكومت في أحد أركان الغرفة، ضمت ركبتيها لصدرها، ولفت ذراعيها حول ساقيها ثم غرقت في إغفاءة هي الأولى منذ أن بدأت هذه الرحلة المرعبة.

فتحت عينيها فلم تجد أثرا للضوء، عاد الظلام وانقطعت الأصوات، أحست بجسدها باردا ومتيبسا وجائعا، لم تكن قد ذاقت شيئا منذ أن غادرت منزل «أم عباس»، منذ أن سارت خلفه كالبلهاء وأتاحت له الفرصة ليفعل بها ما يريد، ماذا ينوي أن يفعل بها بعد ذلك؟ سيطعمها أم يعاود اغتصابها أم سيتركها للظلام والجوع حتى الموت؟ لم تجرؤ على التحرك من مكانها، ولم تكن تتوقع سوى الأسوأ.

سمعت صوت أقدامه وهي تصعد السلم، التصقت بالجدار أكثر، لعلها تختفي عن أنظاره، أصدر الباب صوتا خشنا وظهر شعاع من ضوء، خطا داخل الغرفة وهو يحمل في يده مصباحا، دار به ببطء

حتى اكتشف مكانها، علق المصباح على الحائط، وجلس على حافة السرير وتأملها، كأنه يستمتع بشكلها الزري وملامح الفزع التي تبدو عليها، كان يبدو مزهوا بانتصاره على جسدها الصغير، بالتملك السهل الذي لم يتوقعه، قال:

ـ من المؤكد أن الجوع يوشك أن يقتلك، جوع كلبك يتبعك، الطعام كثير ومتوافر، ولكن لن تذوقي لقمة واحدة قبل أن تنفذي كل ما آمرك به.

توقف عن الكلام ليرى ردة فعلها، لا تتحرك ولاتصدر صوتا، يصرخ غاضبا:

ـ لا تتكومي هكذا..انهضي من مكانك..

قفز من على السرير واقترب منها متحفزا، أدركت أنه سيحاول ضربها من جديد، تحاملت على ركبتيها وتحاول أن تنتصب أمامه، عاودتها كل الآلام التي سببها لها، تأمل الثوب الذي ترتديه، هتف غاضبا:

ـ لا أريد أن أرى أمك مرة أخرى، يكفي ما رأيته من أشباح وعفاريت، اخلعي هذا الثوب.

شهقت «عائشة» بالبكاء وهي تقول:

ـ لا تفعل بي هذا..أنا ابنة أخيك..

ـ اللعنة على أخي، وعلى أمك وعليك أنت أيضا، كلكم سلبتموني حقي، أتعرفين ما فعلوا بي من أجل فتاة غبية مثلك؟! حرمني أبي، جدك اللعين، من ميراثي بحجة أن أمي كانت غجرية عابرة، وأعطى

كل شيء لأبيك، وبعد أن مات أبوك أرغموني على الزواج من أرملته العجوز الجافة، واكتشفت بعد ذلك أنه كتب كل شيء باسمك أنت بيعا وشراء.. اللعنة عليكم جميعا..

حدقت فيه مأخوذة بغضبه وحنقه، الرذاذ يتناثر من فمه، عيناه محتقنتان، كانت ذكرى أبيها تدفعه لحافة الجنون، تراجعت من أمامه حتى لا يعاود إيذاءها مرة أخرى، تصلب جسدها وهو يمد يده، ويقبض على ثوب أمها ويمزقه من على جسدها مرة أخرى، حاولت أن تخبئ ثدييها، أو نصفها الأسفل، لايبالي بفزعها، تأمل عريها بفم مفتوح، وهو يقول:

ـ لم أرك جيدا في المرة الأولى، ليس هذا جسد أمك الأعجف كغصن شجرة، هذا هو الجسد الذي حلمت دوما بامتلاكه.

خلع جلبابه، تراجعت وهي تبكي..يا إلهي ليس ثانية، ولكنه تقدم منها، حملها وقذفها على الفراش، جسد ضعيف وجائع وبارد، أحاطها بجسده وتحكم في حركاتها بسهولة، لم تملك إلا البكاء في عجز، قال ساخرا:..المرة الأولى فقط هي المؤلمة، يقبض على ثدييها ويطبق عليها بأنفاسه، ولكن الأمر يظل مؤلما، لا تحاول أن تقاومه حتى لاتزيد من درجة إيذائها.

لحسن الحظ يفرغ منها سريعا هذه المرة، ينهض من فوقها وهو يقول متحديا:

ـ جسدك هذا لن يبقى ميتا طويلا..سأبعث فيه الحياة على رغمك..

ألقى جلبابه على كتفه وغادر الغرفة عاريا، سمعت صوته وهو يغلق الباب من الخارج، ظلت في مكانها، عارية ومفتوحة الساقين، لم تبال حتى بالقيام أو بتنظيف نفسها، فليأت إليها الموت وهي على هذه الحالة.

ظلام آخر يتواصل، برد وعجز عن الحركة، تعمد أن يتركها هكذا ليحطم كل ما في داخلها من مقاومة، تغرق في كوابيس متصلة، وتستفيق مفزوعة عند أي حركة، من الغريب أن بقايا الحياة ظلت في جسدها ولم تغادره، تشعر بأنه سيهبط عليها في أي لحظة، يتسلل شعاع الضوء الباهت من النافذة المغلقة، تلجأ إلى ركن الغرفة، تظل أذناها معلقتين بأي صوت يأتي من ناحية الباب، ولكن يبدو أنه لا يبالي بوجودها، يخرج ليمارس حياته متأكدا أنها ستظل مرتهنة لديه، لا يهم إن كانت حية أو ميتة، ربما كان موتها الحل الأمثل بالنسبة له.

بعد أيام.. أو ربما ساعات، سمعت خطواته وهو يفتح الباب، وقف أمامها وهو يحمل «صينية» من المعدن، انكمشت وهو يتقدم منها، وضع الصينية أمامها وتراجع قليلا، لم تملك إلا أن تلمح الطعام الموجود عليها، طماطم لامعة، وقطع من الجبن وأرغفة من الخبز، تلوت معدتها ولكنها حاولت أن تبقى ساكنة، تطلع إليها ساخرا وهو يجلس على حافة السرير، تحاول أن تمد يدها نحو الطعام ولكنه يزوم غاضبا، توقفت ورفعت إليه عينيها في توسل، قال آمرا: لن تأكلي إلا وأنت عارية، اخلعي ثوبك قبل أن تلمسي الطعام.
تراجعت مفزوعة وهزت رأسها رافضة، تقدم وحمل الصينية، استدار موشكا على الانصراف، راقبته مفزوعة وهو يفتح الباب ويوشك أن

يغادر الغرفة، هتفت به: انتظر.. استدار ولكنه ظل في مكانه، مدت يدها ورفعت الثوب من على جسدها، عرت نفسها بنفسها أمامه، وضع الطعام أمامها وجلس يراقبها، كانت أشبه بحيوان جائع يتحرك تحت أقدامه وهي تمضغ قطع الخبز وتلوك الجبن وتدس أنفها في الطماطم.

كم مضى عليها من الوقت، بين ضوء شاحب، وظلمة مطبقة؟ كم يوما مر عليها وهي في قبضته، يقبل عليها دون توقع، يضربها بلا سبب، وينالها دون مقاومة، يقدم لها الطعام أحيانا، ويزيد من فترات جوعها دوما، ولا يدعها تتناوله إلا وهي عارية، يطوعها وفق إرادته، يوقظ غرائزها الأساسية، الجوع والخوف والرغبة، ويعاقبها دائما بلا تردد، وأخيرا.. يسمح لها بمغادرة الغرفة، يقف بجانب الباب ويشير إليها أن تتبعه، لا يهم ماذا يفعل، لا يوجد ما هو أسوأ، تتبعه خارجة، تقف على رأس السلم للمرة الأولى منذ أيام، تشم هواء الحقول الرطبة، تتشرب عيناها الألوان المختلفة في دفقة واحدة، هامات النخيل والسحب المشربة بالحمرة والحمائم العائدة لأبراجها، تمتلئ عيناها بالدموع، تهبط السلم إلى فناء المنزل، قال آمرا:

ـ ادخلي واقضي حاجتك.

كانت تعرف المكان الضيق الموجود تحت السلم، ظل واقفا بالقرب من الباب، أغلقته عليها وحاولت أن تفرغ أمعاءها وهي تجاهد ألا تصدر صوتا، اغتسلت وخرجت إليه، أشار لها أن تسير إلى منتصف الفناء، لمحت باب المنزل الخارجي، كان مغلقا من الداخل بقفل ضخم من الحديد، عشة الدجاج والبط في أحد الأركان،

والسقيفة التي يوجد تحتها الحمام، وفي الوسط، «طلمبة الماء»، بجانبها طست معدني، الطست نفسه الذي كانت أمها تحممها فيه وهي صغيرة، في منتصفه مقعد خشبي واطئ، ترتعد روحها وهي تتذكر هذا الطقس الحميم، عندما كانت أمها تجلسها وتبدأ في صب الماء الساخن على جسدها، فجأة استيقظت في أنفها كل الروائح الأليفة، الصابون الملون، البودرة المعطرة، رائحة أمها، تقدمت كالمنومة، نسيت أنه موجود وأنه يراقبها، خلعت ثوبها دون خجل من عريها، جلست مقرفصة داخل الطست، ارتعدت عندما شعرت بالماء الساخن يغمر جسدها، يحضره من وعاء من الفخار الأسود تحته نار موقدة، أحست بأصابع تحل جدائل شعرها وتزيل عقده، هل هي أصابعه أم أصابع أمها، غمرت الأصابع جسدها بطبقة من الصابون، ودعكها بالليف حتى توقظ كل خلية من جسدها، ظلت «عائشة» مغمضة العينين، تركت الأصابع تمر على نهديها وبطنها وظهرها وتوقفها في منتصف الطست لتغسل فخذيها وساقيها، لا تحس بأي لمسات خشنة، ينساب الماء كغلالة دافئة تحيط بها في ألفة، تؤلمها الجروح الصغيرة في جسدها، ولكن الدفء يذيب الألم، تبكي من الحنين، والدفء يذيب الدموع، تدب في جسدها حياة جديدة، يحيطها بمنشفة ناعمة مليئة بالزغب، يجفف شعرها المسترسل وبطنها وساقيها، يحملها بين ذراعيه، دون صوت أو اعتراض، ودون أن تغادرها لحظات طفولتها، يصعد بها السلم ومازال الدفء متواصلا.

يضعها في السرير ويزيح المنشفة ويغطيها بجسده، يفعل ذلك ببطء ونعومة كأن طقس الاستحمام ما زال مستمرا، لم يكن هناك

ألم، ولم تكن أصابعه عنيفة ولم تكن أنفاسه كريهة لهذا الحد، كان لهاثه فوقها يبعث في داخلها نبضات غريبة، دفء يتسلل لجسدها رغم عريها، انتفاضة تحاول أن تقاومها، تكتم شهقاتها، تشعر بأن جسدها يتخلى عنها، تستجيب كل خلية فيها للمساته، تحاول أن تتشبث بشيء، لكنها لا تجد إلا كتفيه فتنشب فيهما أظافرها، تمتلئ الغرفة برائحة غريبة تطرد العطن القديم، عرقه وعرقها، خليط من عصارات جسديهما، وتنبعث وميض خاطف من مكان ما، كأن هناك ثغرة قد انفتحت على ضوء بعيد، تصرخ......

انتهى منها ولكنه لم يغادر الفراش، ظل مستلقيا بجوارها، أدارت له ظهرها دون أن تجرؤ على مواجهته، ولكنها أحست بصدره ملتصقا بظهرها، لم تحاول الابتعاد، تخشى أن تجد نفسها وحيدة وسط العتمة والبرودة، وضع فخذه الضخم على إليتها الصغيرة، وارتاحت يده على الجزء المنخفض من وسطها، ترددت أنفاسه بشكل منتظم، ظل جسدها مسترخيا تحت لمساته، كأن جسدها القديم الذي كان يرفضه قد اختفى تماما، تلبسها الآن جسد آخر تستثيره الرغبة ويحركه الجوع، لا مكان للشفقة أو البكاء على «عائشة» القديمة، لم يعد هناك ما تبكي عليه.

تركها في منتصف الليل، لم يأمن بعد في الاستغراق في النوم بجانبها، ذهب معه الدفء، دخلت في دائرة الجوع والانتظار، انتظار ممتد لا يقطعه إلا دخوله عليها، حاملا صينية الطعام أو راغبا في جسدها، عندما تراه تتشرب كل خلاياها رغما عنها، يختلط جوع معدتها ببرودة جسدها، فالطعام لا يكتمل إلا بالعري، والشبع يظل ناقصا حتى تصعد فوق الفراش، كان الزمن يمضي وهي تحت جسده،

تتداخل في عينيها لحظات الظلمة والنور، وتتصل الأيام كأنها يوم واحد، ولم تعد تمر لمسة منه دون استجابة منها، تجمد عقلها منذ أن دخلت هذه الغرفة، لم تعد تجيد الكلام، الملامسة هي فقط آخر الحواس التي تربطها بالحياة، حتى هذه كان هو الذي يحكم إيقاعها، سيطر على جسدها بعد أن أفلت منها، وجعله أسيرا لنفحات الدفء والشبع التي كان وحده قادرا على وهبه إياها، كان هو صلتها الوحيدة بالعالم، إن كان ثمة عالم آخر خارج هذه الغرفة.

في تلك الليلة المرعبة كانت حاجتها إليه أشد، لم يكن البرق قد توقف عن الدوي من منتصف النهار، وعندما جاء الليل ظلت الأضواء الخاطفة تومض من خلال شقوق الأخشاب التي تسد النافذة، حتى الذئاب كانت غاضبة، لعل البرق قد زاد من هياجها وحفز غرائزها، ولم يكن «عمران» موجودا، لابد أنه في «خمارة اليوناني» على الطرف الآخر في القرية، وهي وحدها في هذا الخلاء الشاسع، مغلق عليها أبواب صلدة وأقفال ضخمة، كانت في أمس الحاجة إلى وجوده، إلى ملامسة جلده الحي الدافئ، لو تأخر عليها أكثر من هذا فسوف تموت، دارت في الغرفة لتبعث بالحياة في جسدها، بحثت عن منفذ يصلها بالخارج، وقفت بجانب النافذة، أصبحت أصوات الذئاب أكثر وضوحا، اكتشفت وجود صينية للطعام، عليها ملعقة وطبق متسخ من المعدن، لا بد أنه نسي أن يحملها خارج الغرفة، تناولت الطبق وأخذت تدق به على النافذة، دست الملعقة بين فتحات الأخشاب وحاولت أن تنتزع واحدة منها، ركزت جهدها على أضعف قطعة منها، نجحت فقط في اقتلاع عارضة صغيرة، انكشفت أمامها فجأة لمحة السموات المظلمة، رأت المطر المتساقط، أحست

بقطراته على أطراف أصابعها، تذوقت طعمه على طرف لسانها، صعدت على مقعد صغير، مدت رقبتها ورأت الأرض الموحلة، كانت الذئاب واقفة هناك، مباشرة تحت نافذتها، وترفع رءوسها في اتجاهها، تومض عيونها، كأن أشعة البرق قد تجمعت فيها، شقت الظلمة متجهة إليها، لم تكن تعوي، كانت تترقبها في رثاء، تحدق فيها «عائشة» ساهمة، كانت طليقة بينما هي عاجزة، لم تكن تستطيع أن تفعل لها شيئا، لا أحد حتى ولا هذه المخلوقات الليلية يستطيع أن يمد لها يد العون.

سمعت خطواته وهي تصعد السلم، تراجعت عن فتحة النافذة، تمنت ألا يراها ويعاقبها، فتح الباب، أحست بالامتنان لحضوره، لم تكن تملك ما تقدمه له إلا أن تجري للفراش، تخلع ثوبها وتقدم له جسدها، قربانا عاريا، تنتظر منه أن يتكرم بلمسه، ينظر إليها مندهشا، كان قد شرب كثيرا، وجاء في هذا الجو المكفهر، عازما على أن ينالها سواء شاءت أم أبت، لكنه لم يتوقع أن تبادره هي بهذا العرض، تترقب خطوته إليها وهي ترتعد، من البرد أو فرط الرغبة؟ لا يهم.. المهم أن يصعد للسرير ويضع لمسته عليها.

في تلك الليلة كان جسدها تحته طيعا ومتلهفا ومستجيبا كما لم يكن، تحول من برودة الوحدة إلى دفء الرغبة قبل أن يتوهج بالنشوة، أحس أنه عاجز عن ملاحقتها، تخرج من ذروة لتدخل في أخرى، توقف ورفع جسده قليلا، نظر إليها مستغربا، تفادت نظراته وهي لا تكف عن اللهاث، ولا تستطيع التحكم في الانتفاضات التي تهز جسدها، يتحسس شاربه مزهوا وحائرا، أدرك أنه استطاع السيطرة على هذا الجسد، الآن وإلى الأبد، أزاح الشعر المبلل بالعرق حتى

يستطيع أن يرى تعابير وجهها وينفذ إلى عينيها، قابلته بنظرة غائمة، قال:

ـ لا نستطيع أن نستمر على هذه الحالة، ولا أن نعيش في هذا المكان..

لا تتكلم، يضع يده على بطنها حتى تتوقف عن الارتجاف، يعود للقول:

ـ لنبع هذه الأرض الملعونة، ونترك هذا النجع البائس، نرحل إلى أي مدينة مزدحمة، يمكن أن نعيش فيها دون أن يتعرف علينا أحد.

لا تجد ماتقول، لا مكان لها تلجأ إليه وهي في هذه الحالة، التصق بها من الخلف فاستجابت على الفور للدفء الذي يهبه إياها، أصبحت حيوانه الخاص الذي لم يعد قادرا ولا راغبا في مخالفته، يواصل القول:

ـ سنرحل في الفجر، سأجهز «ركوبة» ونذهب معا للبندر لتدبر أمور هذا البيع، يكفي أن تعملي لي توكيلا وسأقوم بكل شيء.

يضغط على وسطها ويجذبها إليه، يضع فخذه الضخم عليها، تحس أنه يريدها مرة أخرى، تتحرك وتعتدل على ظهرها وتتهيأ له مرة أخرى.

يوقظها قبل أن يظهر الضوء، كانت مستغرقة في النوم بجانبه بلا أحلام، وبلا كوابيس، همس لها:

ـ جهزي نفسك، ارتدي ملابسك وسأنزل لتجهيز «الركوبة»، سنرحل للبندر بعد قليل.

هبط من على السرير، سمعت صوته وهو يهبط على الدرج، نهضت طائعة، سارت للدولاب لتبحث عن أحد أثواب أمها القديمة، وجدت «المقلس»، الثوب الذي كانت تفضل أن ترتديه عندما كان أبوها يأخذها للبندر، تتوقف عن لبس الثوب وهي تسمع أصواتا غريبة قادمة من أسفل، حيوانات تزمجر في غضب، قريبة كأنها في فناء المنزل، سمعت صوت عمران يصرخ غاضبا: اذهبي.. ولكن الزمجرات تزداد في شراسة، ترتدي الثوب بسرعة، لا تجرؤ على فتح الباب، تذهب إلى ركن الغرفة وتتكوم فيها، ترفع رأسها مدهوشة وقد تحولت صيحات «عمران» إلى دمدمات ثم إلى صرخات مستغيثة، لا تصدق أنها تسمع صراخ هذا الرجل القوي، أحست كأن هناك أنيابا تنهش لحمها هي أيضا، توقف صوت «عمران» عن الصراخ ولكن الزمجرات استمرت، ثم ما لبثت أن أصبحت عواء متواصلا كأنها تعلن عن انتصار ما، تحول خوف «عائشة» إلى رجفات متتابعة تهز كيانها، كأنها تصل إلى ذروة أخرى تداهمها من مصدر غريب، ساد الصمت، ليس هناك إلا صوت الريح، مرة أخرى أصبحت وحيدة في عالم يعمه السكون.

ظلت منكومة، تتوقع أن يفتح الباب ويدخل عليها، يصيح فيها أن تتأهب وتتبعه، لكن الصمت طال، سارت إلى الباب وتنصتت من خلفه، مدت يدا مرتعدة وجذبته، كان الباب مفتوحا، خطت خارجة للصباح المعتم، لم تشرق الشمس وبقايا الأمطار تجعل الدرج زلقا، هبطت عدة درجات حتى تستطيع أن ترى فناء المنزل بأكمله، الفرن الطيني، خن الدجاج، السقيفة التي تظلل الحمار، طلمبة الماء، بقايا الموقد تحت جرار الفخار، صف الزلع التي

يوجد فيها الجبن والسمن، كل شيء في مكانه، العم «عمران» كان موجودا أيضا، مستلقيا وسط الطين، جاحظ العينين، عاريا تقريبا بعد أن تمزق الثوب الوحيد الذي كان يغطي جسده، ضخم كما هو، مفتول الشاربين، ولكنه جامد الوجه، يراها وهي تقترب وتتأمل الدماء التي تلوثه، لكنه لا ينهض ويلقيها على الأرض ويضاجعها في التو، تطل النظرة الشهوانية من عينيه ومن شفتيه، ولكنه يظل ساكنا، جسده تم نهشه وامتلأ بالبقع الحمراء واللحم المتهرئ، واضح أن الذئاب قد تناوبت عليه، وكانت قوية بما يكفي حتى إنها أسقطته من عليائه وسلبته جبروته، نظرت حولها، رأت الأرض مليئة بآثار المخالب والأظافر، رأت باب البيت مفتوحا، والقفل المعلق في إحدى ضلفتيه مفتوحا أيضا، لا بد أنه قام بفتحه وهو يستعد لتجهيز الركائب، ولكن الذئاب انتهزت الفرصة وهاجمته، هو الذي فتح لها الباب بنفسه لتودي به، ظلت واقفة أمام الجسد المسجى، لا تجرؤ على لمسه أو مناداته، تخشى أن تأتي بأي حركة فتدب فيه الحياة من جديد، من بعيد تتناهى إليها أصوات أهل النجع وثغاء بهائمهم وهم في طريقهم للحقول، لا تدري ماذا تفعل، تغلق باب المنزل، جلست على الدرج أمامه وتأملت جسده المتأهب للنهوض، ولكنه لا ينهض، تحس أنها في حاجة إليه وأنه لن يوجد من يشبع خلاياها مثله، وفي نفس الوقت تحس أنها قد تحررت منه، تختلط داخلها مشاعر الرغبة والاشمئزاز، تبكي وهن جسدها وضعف إرادتها، تود أن تقدمه للذئاب حتى تقوم بنهشه وتخلصها منه، تحاول أن تتذكر جسد «عائشة» الآخر، تمر بذهنها لحظات عابرة من أيام بعيدة، وردة يعطيها لها أخو إيزيس وهو يطلبها للرقص، تجلس في مطعم بنات

الهوى مع الأخت مرجريت، يرسمها هوارد المجنون في إهاب أميرة فرعونية، تركب العربة بجانب الزعيم، تتلقى من مختار قبلتها الأولى، شذرات من ذكريات تبدو وكأنها لم توجد.

صعدت للغرفة، وجدت الحقيبة التي جاءت بها ملقاة في ركن الغرفة لم تمس من اللحظة التي حضرت بها، فتشت في دولاب أمها، في أماكنها السرية التي تعرفها جيدا، وجدت بعض الأوراق المالية وبقايا الريالات الفضية، دستها في حقيبتها، وضعت شال الأم القطيفة على رأسها، هبطت الدرج، كان مازال مسجى في مكانه وقد مال لونه للزرقة وبدت ملامح وجهه أكثر غضبا وشراسة، أشاحت بوجهها بعيدا وخرجت وأغلقت الباب من الخارج بواسطة القفل، فليبق في مكانه حتى يتعفن.

غطت وجهها بطرف الشال وهي تجتاز الطريق الضيق بين زراعات القصب، لا أثر للذئاب، مر بها بعض الفلاحين وهم يسحبون بهائمهم، أحكمت شد الشال على وجهها، ظهر مبنى المحطة الخشبي يحيط به ضباب هش من أنفاس الأرض، صعدت أخيرا للرصيف المليء بالحصى، المكان ما زال خاليا، القضبان ممتدة مترقبة، تكومت «عائشة» في أحد الأركان، كان هذا كل ما تقدر على فعله أخيرا.

حضر عم بكري ناظر المحطة، لم يتغير مظهره منذ أن كانت صغيرة، ثوبه الزيتي المتآكل عند المرفقين والركبتين، المصباح المطفأ دوما في يده، علقه وقرع الجرس، انتظر حتى سمع صداه وهو يتردد عبر الحقول، تنهد في ارتياح وجلس على أحد المقاعد، مدد ساقيه حتى لامست القضبان، بدأ يوم العمل، لم يلحظ «عائشة»

المتكومة، بدأ الرصيف يمتلئ بالناس قليلاً قليلاً، كانت تعرف بعضا منهم، خبأت وجهها بإحكام، معظمهم من النسوة اللواتي يحملن بضائع القرية للبندر القريب، والقليل من الرجال يتجولون بينهن في زهو الذكورة الزائف، يتحدثون مع ناظر المحطة، لا أحد يذكر أنه قد حدث شيء غير عادي، النجع كله قضى ليلة عادية ما عدا هي، يمتلكون أجسادا عادية تتحرك بحرية ودون خجل، وتتلقى نصيبها من البرد وضوء الصباح إلا هي، جسدها غير قادر على المقاومة، تملك جسد حيوان تعس يستجيب فقط لأحاسيس الحرمان والشبع، ملوثا بالعرق والسوائل والمني والرغبات العمياء وكثير من الخضوع المخجل.

من بعيد ارتفع صوت صفير القطار، ما لبث أن ظهر من خلف حافة الأفق بطيئا ومترنحا، أخيرا تحين لحظة الخلاص من هذا المكان، لا تدري أين تذهب، عليها فقط أن تبتعد، تنتزع جسدها من هذا المكان، لعل إحساسها بالخجل يتضاءل قليلا، دخل القطار المحطة، دق العم بكري الجرس في جذل كأنه لم يكن يتوقع قدومه، تدافعت النسوة وهن يحملن المقاطف، شعرت «عائشة» بمعدتها تتقلص، ملأت المرارة فمها، أسرعت مبتعدة عن الجميع، صفر القطار عاليا، ولكن «عائشة» كانت تترنح، يندفع من جوفها سائل حارق، تميل على الأرض وتبدأ في التقيؤ، تندفع السوائل من فمها على رغمها، بينما يواصل القطار صفيره في إلحاح.

«وش البركة»

فتحت «نبوية المستحية» عينيها في صعوبة، والخادمة السوداء تواصل هزها، من خلال النافذة يتسلل ضوء ساطع، إنها الظهيرة والوقت ما زال مبكرا، قالت الخادمة:

- هناك ضيف يلح في مقابلتك..

تقلبت «نبوية المستحية» وحاولت الابتعاد عنها، تمتمت:

- لا زبائن في الصباح.. ليس في «حيل»..

الليلة الماضية كانت منهكة، حفنة من الجنود الأستراليين جاءوا للمنزل مثل فئران الصحراء، كانوا خائفين من الحرب، ومن شذوذ الأتراك ودقة القناصة الألمان، ظلوا يعانون من الكوابيس حتى في عز الشغل معها، تعاملوا معها بخشونة المبتدئين ولم تجد معهم أي متعة، ولكن الخادمة لا تكف عن الإلحاح:

- إنها ليست رجلا، إنها فتاة صغيرة تبدو مسكينة ووجهها مليء بالخدوش والكدمات.

جسد «نبوية المستحية» أيضا لا يخلو من الخدوش والكدمات، ضريبة المهنة كما يقولون، قالت متأففة:

ـ ليس لي في الستات، دعيها تذهب للست «العايقة».

لا تتراجع الخادمة، تبدو متعاطفة مع هذه الفتاة المجهولة، تواصل هز «نبوية» حتى ترغمها على القيام، سارت حافية القدمين على البلاط البارد، عبر أروقة المنزل الساكنة، اتجهت للقاعة الرئيسية التي تطل عليها بقية الغرف، في البداية لم تر بوضوح الفتاة، كانت تلتف بالسواد وتخفي رأسها بين ذراعيها، كأنها تشعر بالخجل الشديد لوجودها في هذا المكان، كلهن يفعلن ذلك في البداية.. رفعت وجهها فشهقت «نبوية» ودقت على صدرها، كان وجهها يبدو وكأنها ضاجعت كتيبة من الأستراليين، تهتف:

ـ «عائشة».. من فعل بك ذلك؟! وأين كنت طوال هذه المدة؟

ارتمت في حضنها، أجهشت بالبكاء وهي تقول: سامحيني.. ولكنني لم أجد مكانا آخر أذهب إليه، فكرت «نبوية».. هل ضاقت بك الدنيا كلها لتدخلي بقدميك إلى بيت «وش البركة»؟! قالت لها بصوت عال:

ـ ذهبت للسؤال عنك، قالت لي أم عباس إنك عدت لبلدك. ماذا حدث لك؟

لا تجد «عائشة» ما تقوله، الأمر أكثر خجلا حتى من أن يذكر حتى بالنسبة «النبوية المستحية»، نهضت من حضنها وتطلعت إلى الخادمة السوداء التي كانت واقفة تراقبهما، تفهمت «نبوية» مغزى نظرتها

فسحبتها من يدها: سنذهب إلى غرفتي، قادتها عبر الأروقة الصامتة المتداخلة، حتى إن «عائشة» لم تدر كيف ستخرج منها مرة أخرى، كانت الغرفة ضيقة، أكبر ما فيها هو الفراش الذي تمارس عليه «نبوية» عملها، يعبق بالغرفة خليط من روائح العطور الفاقعة والمساحيق والتبغ والنبيذ، دولاب صغير مفتوح قليلا مزدحم بالملابس البراقة، مرآة مستديرة، طست أبيض صغير فيه ماء عكر تخالطه ألوان غريبة، لا تجلس «عائشة» على السرير، تنزوي فوق مقعد صغير في ركن الغرفة، تلتفت «نبوية» إليها وهي تقول:

ـ لم تأت إلى هنا إلا للشديد القوي، ماذا جرى لك؟

قلبت «عائشة» نظرها في حيرة، لا تدري إن كانت تبقى أم تلوذ بالفرار، قالت:

ـ أنا خائفة جدا، ولا أدري أين أذهب، بطني ثقيلة، وفي كل صباح أشعر بغثيان شديد.. و..

مرة أخرى تدق «نبوية» صدرها وهي تهتف: يا نهار أسود.. فعلها سي مختار...؟!

تذكرت أن «مختار» سافر منذ شهور، نظرت حائرة إلى «عائشة» التي غرقت في البكاء، ربتت عليها:

ـ بالطبع ليس «مختار»، مصيبة أن يكون «مختار»، ومصيبة أكبر أن يكون غير مختار.. من هو؟

ـ لا يهم من هو.. ولكن الأمر كله تم رغما عني ودون إرادتي، أريد التأكد من حالتي أولا، هذه هي مرتي الأولى ولا أدري كيف

أتصرف، لم أستطع الذهاب إلى «أم عباس».. جئت إليك لتحافظي على سري..

نظرت إليها «نبوية» حائرة، ماذا حدث لهذه الفتاة البريئة؟! ومن الذي اغتصبها بهذا العنف؟! قالت:

ـ بالطبع أريد أن أساعدك.. ولكن يجب أن توافق «العايقة» أولا...

ـ «العايقة»...؟

ـ صاحبة هذه الدار، أنا مجرد «مقطورة» صغيرة أعمل عندها.. سوف نستأذنها قبل أن نقوم بأي شيء...

نظرت «عائشة» إليها في حيرة، كانت مرعوبة من أن تتعقد الأمور، ولكن «نبوية» دفعتها برفق نحو الفراش وهي تقول:

ـ الجميع نائمون الآن، كل من في هذا المنزل لايستيقظون إلا بعد العصر، ونتناول جميعا الفطور عند المغرب، تماما مثل شهر رمضان، ارتاحي قليلا، هذا السرير يسعنا معا.

ترددت «عائشة» قليلا ثم استلقت على الفراش، لم تتصور أن يشعرها القرب من «نبوية» بهذه الدرجة من الأمان، خلعت الغطاء الأسود من على رأسها، انسدلت خصلات شعرها الناعم مختلطة بقطع من الطين، مدت «نبوية» أصابعها وأزاحتها، قالت: ألا تريدين أن تزيحي هذا الهم عن صدرك وتخبريني بما حدث لك؟! أغمضت «عائشة» عينيها، لا تريد أن تؤلم نفسها بالتذكر، قالت: لم يحدث هذا لي، حدث لجسد آخر لا يخصني، من أجل هذا جئت إليك

لأستعيد جسدي نظيفا. مسحت «نبوية» على شعرها، همست: نامي إذن واهدئي.. لقد جئت للمكان الصحيح، أغمضت «عائشة» عينيها وغرقت في النوم مثل طفل لم ينم منذ زمن بعيد.

أفاقت «عائشة» من النوم بعد ساعات قليلة، وجدت عديدًا من وجوه النسوة يحيط بها، عرفن جميعا بورطة الفتاة الصغيرة وجئن لمشاهدتها، الحكاية التقليدية نفسها التي قادتهن إلى هذا المنزل، نهضت مفزوعة وتراجعت في الفراش حتى التصقت بالحائط، بحثت بعينيها عن «نبوية» فلم تجدها، ازداد خوفها، ولكن وجوههن لم تكن معادية، كن صغيرات السن، أكبر منها بقليل، وجوههن منتفخة من أثر النعاس، ملتصق بها بقايا الطلاء، ملامحهن عشوائية، تنقصها لمسة الحياة، لا يحاولن الاقتراب منها، ينظرن نحوها جميعا في انكسار، يدركن أنه لا يوجد أمامها إلا خطوات صغيرة لتصبح واحدة منهن.

ارتفعت ضجة من الخلف، صوت أقدام وخشخشة حلي وخلاخيل، انزاح صف البنات إلى جانبي الغرفة، ودخلت سيدة بالغة الضخامة، الوحيدة المكتملة الزينة، قناع من الألوان يخفي تجاعيد وجهها، يكسو رأسها منديل ملون مطرز بالجنيهات الذهبية، ويحيط بذراعيها كثير من الأساور التي تصدر صوتا كلما حركتها، كان حضورها مميزا وسط الجمع الصامت، وقفت خلفها «نبوية المستحية»، مثلهن جميعا، مترقبة ومنتظرة، فكرت «عائشة في توجس، إنها العايقة بلاشك، تقدمت المرأة وقالت بصوت آمر: انهضي.. تشبثت «عائشة» بغطاء الفراش، ولكن «نبوية» هزت رأسها في الخلف تطلب منها إطاعة أوامرها، نهضت وحاولت أن تهبط من

فوق السرير، ولكن السيدة أشارت لها أن تبقى حيث هي، وعادت تقول: استديري..مرة أخرى أطاعتها «عائشة» ودارت حول نفسها، تراجعت حتى التصقت بالحائط، عادت السيدة تقول في قسوة: اكشفي عن ساقيك..ارفعي الثوب إلى أعلى، أغمضت عينيها، تمنت لو أنهن يختفين جميعا من الغرفة، أدركت أنها أخطأت عندما جاءت إلى هنا، كانت «العايقة» تقول في امتعاض:

ـ على أي حال.. هذا الصنف لا يعجب سوى الإنجليز..

وساد الصمت، ولم يدر أحد إن كان هذا قبولا أم رفضا، وعادت «العايقة» تقول:

ـ فلنكسب فيها ثوابا.. أرسلوا لها «البلانة».

وأصدرت صوتا آخر من الشخللات وهي تنصرف، تبعتها البنات في صمت، لم تبق إلا «نبوية» وهي تبتسم لها في شحوب، قالت «عائشة» في صوت محتقن:

ـ لقد فضحتني..

ـ جدران هذا البيت لا تقوى على إخفاء الأسرار، لا يوجد قفل على أي باب، وفي الليل ستسمعين تأوهات الجميع وهن يعملن، أنت لست في مدرسة أسيوط يا قلبي.. أنت في «وش البركة».

مرة أخرى فتح الباب ودخلت امرأة، عملاقة سوداء غليظة الملامح، تشق وجنتيها ندوب طولية قديمة، وشفتاها منتفختان، أشد سوادا من بقية وجهها، ومعلق في أذنيها الطويلتين حلقات من

عاج، أحست «عائشة» برعب مضاعف، حتى «نبوية» نفسها كانت تبدو خائفة، حاولت أن تبتسم متحببة وهي تقول:

ـ هذه أم زغلول البلانة، دائما تنقذنا من الورطات التي نقع فيها.

لم تأبه المرأة بها، رفعت يدها وقالت في حزم: اتركينا وحدنا..

وعلى الفور نهضت «نبوية» وانصرفت مغلقة الباب خلفها، استدارت المرأة، تأملت «عائشة» قليلا تحاول التأكد من سنها، قلبت شفتيها، وحركت أصابعها الطويلة النحيلة السوداء في الهواء وهي تقول: افتحي مابين ساقيك، انكمشت «عائشة»، ضمت ساقيها وألصقتهما بصدرها، اقتربت المرأة من الفراش وظلت تلوح بأصابعها، طفرت الدموع من عيني «عائشة» وهمست: أرجوك.. ترفقي بي.. فتحت المرأة فمها وأخذت تتكلم بسرعة، وبلكنة جنوبية، ظهرت أسنانها ولثتها المدبوغة بتونياء داكنة الزرقة، قالت:

ـ أنا عبدة منذ سنوات طويلة، ساقني النخاسون من «عطيرة» وساروا بي في درب الأربعين، خدمت في كل القصور، وأدخلت أصابعي في فروج كل من فيها من أميرات وهوانم وجوار، هذه الأصابع أنقذتهن من الفضائح، الأميرات اللواتي يهوين مضاجعة الأغوات، والهوانم اللواتي يواقعن ساسة الخيل في الإسطبلات والجواري الخائنات حين يرغمهن سادتهن على إفراغ بطونهن، أخفيت أسرارهن جميعا، ووهبت أزواجهن الرضا والغفلة، هذه الأصابع سوف تنقذك أيضا..

لم تبعث الكلمات الاطمئنان إلى نفس «عائشة»، ولكن لم يكن

هناك معنى للمقاومة، لا تستطيع أن تخفي هذا الجزء من جسدها بعد أن تم انتهاكه بالفعل، كانت خائفة فقط من مزيد من الألم والفضيحة، نظرت إليها في توسل، ولكن وجه المرأة المليء بالندوب ظل جامدا، مهما فعلت بها هذه الأصابع فلن يكون أسوأ مما حدث لها، نزعت المرأة سروالها، تأملته كأنها تحاول التعرف على ما به من سوائل، ثم ألقت به واستدارت إليها، ارتجفت «عائشة» وهي تحس بالأصابع تزحف على جلدها، تدخل في عمق أنسجتها، تتلمس السوائل اللزجة على الجدران الداخلية، شهقت «عائشة» وبدأت الدموع تسيل من عينيها، أحست بإذلال لا تملك له دفعا، لم تحاول السيدة أن تهون عليها الأمر ولو حتى بالكلمات، تغزها الأصابع فتتذكر ألم الاقتحام الأول، تتحدث «أم زغلول» وكأنها تقرأ أفكارها: إنها مرتك الأولى على ما أظن.. قبل ذلك كنت بكرا، عضلاتك الداخلية ما زالت قوية، قالت «عائشة» متوسلة وهي تختنق: ارحميني أرجوك، ولكنها ظلت تتوغل بأصابعها حتى وصلت إلى درجة لا تحتمل من الألم، هتفت السيدة فجأة:

ـ عنق الرحم صلب كالحجر يا فتاة.. أنت حامل.. ما في ذلك من شك.

أخرجت أصابعها، تأملت بقايا السوائل اللزجة العالقة بها، مسحت يدها في إحدى المناشف، ضمت «عائشة» ساقيها وسحبت جسمها وتكومت لصق الجدار، تحققت أسوأ مخاوفها، وظلت الفضيحة عالقة بجسدها، أخفت وجهها من «أم زغلول» وهي تشعر بالخجل الشديد، هل حدث هذا في اللحظة التي ضعف فيها جسمها

واستجاب على رغمها؟ هل التقطت خلاياها تلك اللحظة العابرة من المتعة وخزنتها في نسيجها الداخلي؟ قالت «أم زغلول»:

ـ مازلت في مرحلة مبكرة، فليساعدك الله على أن تلفظي ما في بطنك..

بدأت العلاج معها على الفور، كان البيت مجهزا دوما لمثل هذه الأمور، فالتردد أو التباطؤ يزيد من تعقيدات الحمل، نقلوها لغرفة منعزلة بعيدا عن الأروقة التي تعمل فيه البنات، أحضرت «أم زغلول» موقدا وإناء للغلي ووضعت فيه خلطتها الخاصة من أعشاب الغابة، كانت شبه طازجة، تحملها إليها بانتظام المراكب التي تعبر الشلال عند حدود السودان، أضافت إليها أوراق شجر جافة ومساحيق غريبة الألوان، أقعت جالسة أمامها في صبر وهي تغلي وتفور، عبقت بالغرفة روائح غريبة، تحولت الأعشاب إلى مزيج داكن، صبته في إناء الفخار وقدمته لها، شعرت «عائشة» بالغثيان من طعمه ولكنها ابتلعته، أحضرت «أم زغلول» قطعة طويلة من القماش ولفتها بقوة حول بطن «عائشة» حتى أحست كأنها توشك على الالتصاق بظهرها، ثم تركتها داخل الغرفة المظلمة.

لم تعرف كم مر عليها وهي وحدها، ولكنها بدأت تحس بالألم، تقلصت بطنها كأنها تتمزق من الداخل، صرخت تستنجد فلم يستمع إليها أحد، اشتعل البيت بنشاطه الليلي، وانشغل عنها الجميع، وتعالت أصوات الدفوف والغناء وصيحات المنتشين، ظلت الأربطة محكمة حول بطنها، تعوق أنفاسها، حاولت أن تفكها فلم تستطع، ظلت تتخبط وسط جدران الغرفة ثم أخذت تتقيأ في كل مكان.

جاءت البنات متأخرات، كن يحملن الشموع ومصابيح الغاز، وجوههن مزدحمة بالألوان وثيابهن عارية، تزاحمن في الغرفة الضيقة رغم رائحتها الكريهة، انحنين على الأرض يبحثن بدقة عن آثار الدم وسط بقع التقيؤ، هززن رءوسهن في أسف، ونظفن كل شيء بسرعة، أزحن رأسها فوق الوسادة وانصرفن، بقيت «نبوية المستحية» قليلا، لمست وجنتها ونظرت إليها بعيون حزينة.

تكرر الأمر في اليوم التالي، شراب وألم وتقيؤ، تقول «أم زغلول»: هكذا دأب أولاد الحرام.. لايغادرون مكمنهم إلا مع طلوع الروح، تلوت واختنقت، لطخت السوائل فخذيها، ولكن لم تكن فيها قطرة واحدة من دم، قلبتها «أم زغلول» على بطنها وجلست على ظهرها حتى اختنقت، وظل الجنين متشبثا بجدار رحمها، اصفر لون وجهها وجف جلدها، وقالت المرأة السوداء: لا حل سوى «السيخ».. ألم آخر، ومخاطرة لا أحد يعرف مداها ولكن لا مفر منها، سيخ رفيع من الحديد، يحمل بقايا دماء جافة، الطريقة الوحيدة لفتح عنق الرحم وطش القرن كما تقول «أم زغلول»، ظلت «عائشة» مستسلمة وقد فقدت كل أمل في النجاة، أحضرت «نبوية» لها قنينة صغيرة، قالت: هذا «كونياك» أصلي، اشربيها كلها، ستخفف ألمك وتشعرك بالدفء، كان طعمها كماء النار، زاد من ألم معدتها، ولكن لدهشتها ارتاحت قليلا عندما سرى الخدر في جسدها، امتلأت الغرفة بوجوه غريبة، مختار يتطلع إليها، ممتعضا ومتألما وحزينا، ووجه عمران ملطخ بالدم وآثار الأنياب، تسللت موسيقى غناء ورقص من مكان ما، كانت دائخة تسبح في ظلمة لا نهائية، لم تشعر بهن وهن يدخلن الغرفة دفعة واحدة، ولكنها أحست بانقضاضهن عليها، أمسكن

بذراعيها وساقيها، حاولت أن تقاوم في وهن، حذرتها المرأة السوداء من أي حركة مفاجئة حتى لا يخترق السيخ جدار الرحم، فوجئت بألم عنيف ومباغت، خيل أن رأسها على وشك الانفجار، صرخت ثم تلاشى كل شيء وغرقت في ظلام بلانهاية.

استيقظت من ظلمة كالموت، وجدت عليها كثيرا من الأغطية، ورغم ذلك أحست ببرودة في كل أطرافها، لاتجد في نفسها القدرة على الحركة، تأملت الضوء البارد الذي يتسلل إليها من النافذة، من الغريب أنها بقيت على قيد الحياة في تلك الغرفة التي تشبه المقبرة، وسط كل هذه الروائح الكريهة، أحست بالعطش والجفاف، لم تقدر على الحركة، غرقت مرة أخرى في موجة متتابعة من الكوابيس، وأخيرا جاءت «نبوية المستحية» وبقية البنات، سمعت أصواتهن تملأ الغرفة، وهب تيار من الهواء النقي، تقدمن منها بوجوه خائفة وشاحبة، أزلن كل الأغطية التي كانت فوقها، كان هناك كثير من الدماء التي تلوث بطنها وفخذيها والفراش الذي ترقد عليه، شهقن جميعا، وتكومن بجانب الجدار، وهتفت واحدة وهي تكاد تبكي:

ـ طفل آخر ضائع..!

بدأن العمل، أحضرن الطست والماء البارد والصابون الزفر وأكوازا من الليف القاسي، أخذن يزلن الدماء التي ما زالت طازجة ورائحتها زنخة، نزعوا عن «عائشة» كل ثيابها، وغسلوا كل عضو منها، جففوها ونثروا عليها بودرة «التلك»، لفوها في «بشكير» أبيض، وكسوها بثياب قطنية جافة، أصبحت أشبه بكائن أعيدت ولادته من جديد، غيرن ملاءات الأسرة، ونظفن الأرضية، حملن الثياب

والأغطية الملوثة للخارج، فعلن ذلك كله في صمت وتناسق، كأنهن
يؤدين طقسا تعودن عليه، دون تأفف وامتعاض، دون فرح بالخلاص،
لكن يعرفن أنهن يزلن آثار حياة مهدرة.

أحضرن لها طعاما ساخنا، أكلت قليلا، ظل الفراغ الموجود في
بطنها يؤلمها، لم تظهر «أم زغلول» بعد ذلك، كانت تعرف أنها بعد
أداء مثل هذه العملية لا تتلقى إلا نظرات الكراهية، كراهية تطل
من عيونهن لفترة من الوقت على الرغم من أنها قد خلصتهن من
الفضيحة والعار، نامت «عائشة» أخيرا في هدوء تحت أغطية دافئة،
لاحقها بعض الآلام وكثير من الكوابيس، حلمت بمختار للمرة
الأولى، كان بعيدا وتائها، ومع ذلك شعرت بأنها يمكن أن تستعيد
جزءا من حياتها الضائعة.

تعافت ببطء، غادرت فراشها مستعينة بنبوية، لم يسألها أحد إلى
متى ستبقى، ربما كانت خبرة الجميع أن من تأتي بمثل هذه المصيبة
إلى هذا البيت لا تغادره، تعودت أن تسير وحدها في الصباح، عندما
يكون البيت هادئا ووديعا وخاليا من الغرباء، تعبر الطرقات الممتدة
والأروقة المتداخلة والنوافذ ذات الزجاج المعشق، والغرف التي
تنام فيها البنات وحيدات ومتعبات، تسمع أصوات أنفاسهن الثقيلة،
وتشم رائحة عطورهن مختلطة بعرق الرجال، مهنة شاقة حقا، كيف
يتحملن مخلوقات بمثل هذه الخشونة، متاهة أشبه بالغواية، تمتلئ
بذرات من شهوة غير مرئية، تواصل السير حتى تصل إلى القاعة
الرئيسية للمنزل، المكان الذي تجالس فيه البنات زبائن الدار، كل
أروقة المنزل تنتهي بطريقة أو بأخرى إلى هذه القاعة، عالية الجدران،
تحيط بها نوافذ تغطيها مشربيات صغيرة، وفي السقف قبة مربعة

الأضلاع، ينفذ من زجاجها الملون ضوء النهار ناعما ومصفى،
أركان منزوية مليئة بالأرائك والحشايا، معلق على الجدران مرايا
ضخمة، كل واحدة منها تظهر الجانب الآخر من القاعة، بحيث
يرى الجميع بعضهم بعضا في وقت واحد، بقايا طعام وزجاجات
فارغة وقطع من الملابس الداخلية للفتيات، ملونة وهشة وملقاة
بإهمال كفراشات ميتة، كان اتساع القاعة، والضوء المباشر فيها
يشعرها بالخوف، كانت تفضل دوما أن تعود إلى عتمة الأروقة، تهبط
في أحيان قليلة إلى القبو الشديد العتمة الراكد الهواء، تسير وسط
خزين الأطعمة وعقود البصل والثوم والرفوف المتراصة بزجاجات
الشراب وقناني المنشطات الجنسية القادمة من الهند وبلاد الملايو،
تسير حتى تكل من السير فتجد نفسها فجأة أمام باب غرفتها، كان
المنزل هو الذي يقوم بتوجيهها، يفتح شرايينه أمامها ثم يغلقها في
الوقت المناسب.

في تلك الليلة لم يكن المنزل يخصها، ولكنها لم تستطع أن تحبس
نفسها في غرفتها طويلا، سارت حافية القدمين، اختبأت خلف إحدى
النوافذ التي تغطيها المشربيات، راقبت ما يدور مبهورة الأنفاس،
كانت القاعة الرئيسية تتوهج بضوء الشموع، المئات منها موزعة
في كل الأركان، وهج من الضوء والسخونة تشعر عائشة بوهجها
كأنفاس ساخنة، يجلس عدد صغير من «الألاتية» لا يكفون عن عزف
الموسيقى دون أن يبدو أن أحدا يستمع إليهم، تتداخل الألوان تحت
بصرها، ثياب البنات البراقة، ووجوه الرجال المحمرة، واحدة ترقص
وعلى رأسها شمعدان ضخم مليء بالشموع الموقدة، تتحرك تحته
وسط تهليل الجميع، يرافقها شاب نحيل يرتدي جلبابا من الحرير

وحول وسطه حزام، يتحرك بليونة أكثر من الفتاة المثقلة بالشمعدان، يدق على الصاجات التي يمسكها في يده، الزبائن متناثرون في كل أنحاء القاعة ولا يكفون عن التهليل، يصرخون في نشوة، يشربون الجوزة، ويتجرعون كئوس الشراب، والأدخنة المتصاعدة من وهج الشموع تحيط بكل شيء، تجعلهم أشبه بأطياف ملونة، على حافة الوهم والواقع، ليل خاص مليء بالرغبات الصريحة والشهوة التي لا تهدأ.

ـ هل يعجبك ما ترينه؟

التفتت «عائشة» في ذعر، كانت «العايقة» تقف في ظل الرواق، لم تكن قد رأتها منذ اليوم الأول لدخولها الدار، تقدمت نحوها بجسدها الضخم، تأملتها بعيون متفحصة، قالت:

ـ ما زلت شاحبة وواهنة القوى، جسدك في حاجة لأن يمتلئ قليلا، ساعتها يمكن أن تدربك وتصبحين مستعدة للنزول للعمل.

أحست «عائشة» بجفاف حلقها، حاولت أن تتكلم دون أن تبدو مرتعدة:

ـ لا أستطيع..أريد أن أشكرك على ما فعلته من أجلي..ولكنني لا أستطيع..

ـ كلام فارغ.. أعرف أنك بنت مدارس، وتتحدثين بلسان كالإنجليز، وكنت تعملين مع الزعيم، «نبوية» أخبرتني بأشياء كثيرة، ولكن في مثل حالتك هذه المهنة هي الأفضل، ومن يعلم ربما في يوم من الأيام تصبحين «عايقة» مثلي.

أحست «عائشة» بوخز من الألم يغمر كل جسمها، قالت:

ـ مستحيل أن ألمس رجلا..أو أدع رجلا يقترب مني، سوف يقتلني هذا الأمر..

اقتربت «العايقة» منها أكثر، وضعت يدها على كتفها تحاول أن تهدئ جسدها المرتعد، شمت «عائشة» رائحة عطورها الثقيلة، سمعت وسوسات حليها، قالت:

ـ في المرة الأولى كنت الأضعف، الأمر هنا مختلف، ستكونين دائما الأقوى، ميزة لا تظفر بها المرأة إلا في مهنتنا، الرجال يأتون إلينا مستسلمين، يتركون صلفهم وغرورهم على عتبة الدار، يدفعون لنا النقود ويتقافزون أمامنا كالأراجوزات، يفعلون ما نأمرهم به، وفي آخر الليل يبكون على أكتافنا ويطلبون منا أن نكتم سرهم ونداري على خيبتهم، أنت لست وحدك التي تعرضت لغدرهم، كل هؤلاء البنات نزفن دماءهن في تلك الغرفة الجانبية، لكن هذا طهرهن من سيطرة هذا الجنس النجس، ربما لا يمكنك الانتقام من الرجل الذي فعل بك هذا.. ولكنك ستنتقمين من كل صنف الرجال.

توقفت وهي تلهث من كثرة الكلام، وعضت «عائشة» شفتيها، لا تريد أن تبدو وقحة وناكرة للجميل، ولم تكن قد فكرت بعد في مكان آخر تذهب إليه، ولكنها رغم كل شيء كانت تعرف أن هناك شيئا ما في انتظارها غير أن تكون مجرد «مقطورة» في هذا المنزل، نقطة شاحبة من الضوء في نهاية هذا الممر المظلم، عادت تهتف وهي ترتعد: لا أستطيع.. لا أستطيع.. أخذتها المرأة في حضنها،

بدت أمامها فجأة بنتا صغيرة وقليلة الحيلة، البنت التي فشلت يوما أن تكونها أو تحافظ عليها، قالت لها:

ـ لن أرغمك، يجب أن تختاري بإرادتك حتى تستمتعي بهذه المهنة الشاقة..

أبعدتها، أمسكت بيدها وقادتها إلى حيث توجد أريكة صغيرة، أجلستها وجلست في مقابلها، مدت يدها ومسحت الدموع التي طفرت من عينها، قالت:

ـ استمعي إلي، لن تكوني مثلهن، أنت مختلفة عن بقية البنات، كلهن فلاحات أو خادمات جاهلات، لايعرفن القراءة أو الكتابة، يمكنك أن تعاونيني، وتتدخلي في المشكلات التي تحدث بين البنات وبين جنود الحرب الذين يترددون على الدار، الإنجليز والأستراليين وحتى الهنود، لن تلمسي رجلا، ولن يلمسك رجل إلا إذا رغبت في ذلك.

لم تستطع «عائشة» الكلام، ارتمت في حضن «العايقة» وعاودت احتضانها من جديد، قالت لها:

ـ لقد كنت كريمة معي..

ـ لاشيء.. أنت فقط تذكريني بابنتي التي فقدتها، أخذها أبوها ورحل بعيدا عني.. ستكونين حرة.. لن أضغط عليك بعد كل ما حدث لك.

* * *

.... ببطء ودون أن يدفعها أحد، دخلت «عائشة» عالم «وش

البركة»، تواصلت أيامها داخل جدران المنزل حتى شحبت ذكريات العالم الخارجي، لم تصبح واحدة من البنات، ولكنها دخلت في نسيج حياتهن، عرفت أن لحظات الفرح قليلة وأيام الحسرة ممتدة، تابعت صخبهن خلف حاجز المشربية في الليل، انتشاءهن المؤقت برغبة الرجال فيهن، ولكن بعد أن تتداخل ألوان الزينة على وجوههن، تختفي ملامحهن الخاصة، وتصبح لهن هيئة واحدة، يظهرن في ساعات النهار القليلة وحيدات وبائسات وبلا جذور، لكل تعاستها الخاصة، وجرحها الذي يأبى الاندمال، أدخلتها «العايقة» في نظام العلاقات البدائي الذي نسجته، عرفت رجال قسم البوليس القريب من الدار، الذين لا يتحرشون بالزبائن ويتجاهلون الشكاوى والبلاغات المقدمة ضدهم، وعرفت مقدار العطايا التي تمنح لهم كل أسبوع، كم سعر الضابط العالي الرتبة وكم سعر عسكري الدورية الذي يتمسح بالجدران كل ليلة، عرفت أيضا الإتاوات التي يأخذها الفتوات، والذين تستضيفهم الدار مجانا وتخصص لهم أجمل البنات، تعاملت مع سائقي العربات وموردي الأطعمة والمشروبات والمخدرات والمطهرات الطبية والعطور وأدوات التجميل والأدوية المضادة للزهري والسيلان، كان من المدهش أن تقوم «العايقة» وحدها بتنظيم كل هذه الأشياء اعتمادا على ذاكرتها دون ورقة مكتوبة، لم تكن تجيد القراءة ولا الكتابة، ولكن موهبتها الفطرية جعلتها تجيد التعامل مع الباشوات والعربجية، وأدركت بالممارسة أن الزبائن طبقات وأنواع مختلفة، قد يتشاركون في نفس المرأة والفراش، ولكن من المستحيل أن يتشاركوا في جلسة الأنس والمزاج، لذلك وضعت جدولا لكل نوع من أنواع الزبائن، كانت هناك ليلة للفتوات يأتون للدار بثيابهم

«السكروتة» المصنوعة يدويا من القطن والحرير، يحملون الشُوَم والنبابيت ويعكفون على تدخين المعسل والحشيش وشرب البوظة، ليلتهم تكون صاخبة دائما، يتقابل فيها كل الفتوات الذين لا يكفون عن العراك في الحواري الضيقة، يتفقون داخل الدار على تقسيم الحصص وفرض الإتاوات، وتبارك البنات بأجسادهن هذه الاتفاقيات، وكانت هناك ليلة لجنود الحرب، يأتون عطشى فيشربون كميات كبيرة من الويسكي والكونياك، وجوعى لمضاجعة أي امرأة، وتصل متعتهم لذروتها حين يتبادلون البنات فيما بينهم ويتجولون عرايا في المنزل طوال الليل، وكانت هناك ليلة للأفندية والأعيان، فيها القليل من الجنس والقليل من الخمر والكثير من الفتور، كانت ليلة مملة تحرص «العايقة» فيها على أن تستقدم مغنية من ملاهي «روض الفرج» تظل تتأوه وتعيد نفس الكلمات حتى يدوخ الجميع من رتابة صوتها ومن الخمر الرخيص، في يوم الجمعة فقط من كل أسبوع كان المنزل يفتح أبوابه عصرا، يستقبل طلبة المدارس العليا، كان يوما ظريفا لا يقدم فيه إلا شراب البيرة الخفيفة، وتقدم البنات بسعر مخفض أيضا، ولكنهم كانوا يثيرون قدرا كبيرا من المرح والنزق والمشاجرات، ويعتقدون جميعا أنهم قد وقعوا في الحب من المضاجعة الأولى، كانت البنات تحب هذا اليوم، يسرن وسط الطلبة متبخترات كأنهن ملكات وهن يشاهدن النظرات المبهورة في عيون هؤلاء الرجال الصغار، حتى «عائشة» نفسها كانت تنزل إلى قاعة المنزل وتجلس معهن، كان الأمر طفوليا ونزقا، وكان التلاميذ يبلغون نشوتهم قبل الوصول إلى حافة الفراش، يعودون سريعا

للجلوس وسط الجمع مدارين خجلهم وسط تطمينات البنات أن هذا أمر عادي وسيكونون الأفضل في المرة القادمة.

في يوم غريب من ظهر الجمعة شاهدت «مختار» جالسا بينهم، ليس «مختار» الذي كرهها وكره البلد وصمم على الرحيل بعد خروجه من السجن، ولكنه مختار الذي قابلته أول مرة على سلم «اللواء»، هادئ وحالم وواثق كأنه يمسك في قبضته طين الخلق الأول، كان شابا نحيلا، طويلا مثله ومائلا للسمرة، شعره كثيف وخشن بعض الشيء، وله نفس اللحية الصغيرة الهشة والأصابع الطويلة الكثيرة المفاصل، وكان طالبا في مدرسة الفنون، ولكن اسمه لم يكن «مختار» ولم تذكره ملامحها بأي شيء، رغم ذلك ظلت تنظر إليه بافتتان وحنين، لماذا لم يتوقف الزمن في هذه اللحظة البعيدة، لماذا لم تقتصر النشوة على قبلته الأولى لها، كان يتحدث إليها وهي تنظر إليه بعينين غائمتين، تركت له يدها يمسكها ويدخل أصابعه في أصابعها، لمسته حنونة ودافئة، راقبتها البنات من بعيد، وتهامسن في خفوت، وقللن من حركتهن حتى لا تفيق، أرسلتها لمسة الرجل الصغير إلى عالم آخر بعيد، أيام ماضية لم تعد موجودة، أفاقت حين أحست بشفتيه على وجهها، كان قد جذبها إليه بحركة جريئة حتى أصبحت في أحضانه تماما، ولكن حين شمت أنفاسه أدركت أنه ليس «مختار»، ارتعد جسدها كله وامتلأ بوخزات مؤلمة، دفعته بعيدا عنها بقوة حتى إنه سقط على الأرض، نهضت مفزوعة وأخذت تعدو عبر القاعة، لم تهدأ إلا عندما أصبحت في غرفتها وأغلقت عليها الباب.

ولكن البيت نفسه لم يعد صالحا للاختباء، لم يستطع أن ينأى

بعيدا عن الظروف العاصفة في الخارج، اختفى الوهم الذي كان يثيره
وهج الشموع وأنفاس الرغبة، كانت هذه ليلة الفتوات، استعد المنزل
برصّات الحشيش وقرع البوظة المختلطة بماء الزهر، واستعدت
البنات للرقص بالشمعدانات، وجاء الفتوات بزهوهم وشواربهم
المبرومة، وضعوا العصي والنبابيت عند مدخل الدار، وخلعوا البُلَغ
والأحذية وجلسوا في استرخاء السلاطين، كانت «عائشة» كعادتها
في غرفتها الجانبية، تدون الحساب وتقسم البنات على الرجال حتى
لايحدث أي نوع من النزاعات، أصبحت تعرف طاقة كل واحدة
منهن، هناك من لا تحمل أكثر من دور، وهناك من تلح في طلب أدوار
إضافية، تصاعدت دقات الصنوج والدفوف، وبدا أن أحدا لم يكن
يدري أن الحرب الهائلة التي غمرت الكون كله لسنوات طويلة قد
وضعت أوزارها، وأن هناك آلافا من الجنود يترقبون هذه اللحظة..

بدأت الحرب بمشاعر فياضة، حلم الشعراء والشبان بحرب
تستمر لعدة أسابيع تقود الجميع إلى أيام أفضل، وعالم أجمل، ولكن
الحرب تحولت لتصبح مقتلة مروعة لم يشهد الجنود في مثل عنفها،
ولم يعرف الإنسان لها مثيلا منذ العصر الحجري، استمر القتال على
مدى ألف وأربعمائة يوم دون طائل، ظل فيها ملايين الرجال رابضين
داخل الخنادق المليئة بالطين والثلج والفئران، يأكلون كالخنازير
ولهم رائحة الخنازير، استخدمت الغازات السامة للمرة الأولى،
وتركت مئات الجثث تتعفن فوق الأسلاك الشائكة دون أن يجرؤ
أحد على المجازفة والتقدم لدفنها، أطلقت المدافع الضخمة آلاف
القذائف، حولت الأراضي المزروعة والقرى الصغيرة إلى حفر
هائلة تشبه فوهات البراكين، قضت على الجسور والسدود وحولت

مناطق شاسعة إلى مستنقعات يغمرها الماء العفن، قتل كل جانب ما
لديه من رهائن وفرض الحصار على مدن بأكملها حتى مات أهلها
جوعا، طالت الحرب حتى لم يعد أحد يحلم بالانتصار، تحولت
همسات الدعوة بالانسحاب والإقرار بالهزيمة إلى صرخات غاضبة،
وفي النهاية سقط الملايين من القتلى وسقط كل النسور الذين كانوا
يحكمون العالم وهم يدعون أنهم مفوضون بالحكم الإلهي، وانزوت
الآلة خجلى وتخلت عن الجميع.

كان الجنود ينتظرون اللحظة التي تدق فيها الأجراس معلنة انتهاء
هذه المجزرة حتى يقتحموا آخر المواقع، ذلك البيت الكائن في «وش
البركة»، كانوا منتشين بالنجاة، وأرادوا التأكد أن فيهم بقية من رغبة
في الحياة، اندفعوا في الأروقة المتداخلة ووصلوا إلى القاعة الرئيسية
دون أن يستطيع الفتوات الواقفون على الباب منعهم، دخلوا القاعة
وهم يلهثون، كانت رمال الصحراء ما زالت عالقة بثيابهم، لم يكونوا
قد حاربوا بشكل فعلي، لأن الحرب الفعلية لم تصل إليهم، ولكن
أيام الانتظار الطويلة والنوم في الخنادق العفنة وسط فئران الصحراء،
جعلت مياه الحياة تجف في عروقهم، كان الفتوات قد أحرقوا كل
رصات الحشيش، وابتلعوا كل قرع البوظة المختلطة بالزهر، وفجأة
أحسوا أنهم محاصرون بهذه الوجوه المغبرة، لم يكن هناك عدد كاف
من البنات، تقدم واحد من الجنود وانتزع أول فتاة وجدها في طريقه،
أمسك بذراعها وسحبها ناحيته، صرخت الفتاة محتجة بصوت أعلى
من اللازم، ولكنها كانت الشرارة التي أثارت الجميع، استيقظت في
نفوس الفتوات إهانات عساكر الإنجليز وقمعهم للمظاهرات، أحسوا
بمرارات الاحتلال والقمع وانتظار استقلال لم يجئ، تقدم الجنود

بزهو الانتصار في كل المعارك التي لم يخوضوها، أفلت عيار الجميع واشتبكوا معا في عراك ضار كأنها معركة لم تحسم بعد من معارك الحرب، لم يستمع أحد لصراخ «العايقة» وهي تطلب منهم الهدوء، وتعدهم بأنها سوف ترضي الجميع وستطلب مددا من البنات من البيوت المجاورة، وأسرعت «عائشة» تطلب من أحد الرجال الإسراع باستدعاء رجال البوليس، ازداد عنف المعركة، استخدمت المناضد والمقاعد والآلات الموسيقية وصواني الطعام، إلى جانب العصي والنبابيت والبلغ والأحذية، تكسرت المرايا الضخمة المعلقة على الجدران، وتحطمت الشمعدانات، وتناثرت الأطعمة والأشربة والشموع المحترقة، لم يبق إلا الأضواء الخافتة للقناديل المعلقة.

وآخيرا دوت صفارات رجال البوليس، ورغم ذلك لم يتوقفوا عن القتال إلا بعد أن أطلق الضابط عيارا ناريا في الهواء أصاب قنديلا معلقا، توقف الجميع وهم يلهثون، وقد اختلطت ملامحهم التي يغطيها الدماء، وساقتهم الشرطة جميعا، ولكن في منتصف الطريق اكتشف الضابط وجود جنود الإنجليز، كانوا متعبين ومستسلمين، ولكنه ارتعد وأفرج عنهم على الفور قبل أن يسمع ما حدث، وساق الفتوات جميعا إلى القسم.

تعطل العمل في المنزل، وبدت البنات ضائعات وحزانى، لا يوجد مكان آخر يلجأن إليه، لا واحدة منهن كانت قادرة على العودة إلى قفر أهلها الذي غادرته منذ سنوات، جاء العمال من أجل إجراء الإصلاحات، سافرت «العايقة» في رحلة لم تعلن عن سببها إلى الإسكندرية لبضعة أيام واعتكفت «عائشة» في غرفتها.

* * *

.... لم تفتح «عائشة» باب غرفتها إلا في وقت متأخر من الليل، ظلت «نبوية» تدق عليها بإلحاح حتى نهضت من فراشها دائخة وحزينة، دخلت الغرفة وجلستا معا على ضوء اللمبة «السهاري»، ظلت تنظر إليها متأملة، كانت الوحيدة بين بنات الدار التي تدرك سر ماحدث لها، ظلت صامتة لبرهة ثم قالت:

ـ إنه هنا وقد سأل عنك..!

على الفور عرفت «عائشة» من تقصد، وارتعش بدنها، أدركت سر قدومها في ذلك الوقت المتأخر:

ـ اليوم الخميس، ذهبت لمقام السيدة زينب، وزرت «أم عباس».. هي التي قالت لي إن «مختار» حضر في زيارة قصيرة للقاهرة بعد أن انفتحت الطرق، كان متعبا، ولم تسر أموره في أوربا كما ينبغي، خصوصا في سنوات الحرب، ولكنه نزل البدروم وتفقد تماثيله.. ثم سافر إلى بلدتك..

شهقت «عائشة»، هتفت: سافر إلى نجع «بني خلف»؟!

ـ قالت لي «أم عباس» إنه عاد دون أن يعلم شيئا عنك تقريبا، عرف أن أمك قد ماتت، وعمك قد نهشته الذئاب، وأصبح البيت مهجورا، استولى عليه بعض الغجر العابرين وهم يقيمون فيه الآن، لقد عاد يائسا وحزينا وهو يستعد الآن للعودة لأوربا مرة أخرى.

قالت عائشة وهي تحاول أن تحبس دموعها:

ـ ياربي.. لماذا تعذبني بقول هذه الأشياء؟

ـ إنه مازال يتذكرك ويحن إليك يا «عائشة»..

- أنا أيضا أحن إليه ولكن ماذا يجدي كل هذا؟! كيف أستطيع أن أقابله بجسدي هذا وأنا أحس بالخجل منه؟! ستقتلني نظرة الاحتقار في عينيه.

- الرجال أغبياء بشكل عام.. ولكن ربما يفهم.

كان «مختار» جزءا من حياة أخرى، حلم بعيد، أصبح من المستحيل استكماله، ذكرى نسيانها مؤلم واستعادتها أكثر إيلاما، عادت «نبوية» تقول:

- سيأخذ القطار غدا إلى الإسكندرية ومنها سيأخذ السفينة إلى أوربا، قد يغيب سنوات طويلة.. وربما لن تريه بعد ذلك...

تركتها ومضت لتنام، ظلت «عائشة» عاجزة عن النوم، أرقها الحنين لرؤيته، ماذا فعلت به كل هذه السنوات؟ هل كانت جروحه عميقة كجروحها؟ ربما تستطيع أن تراه من بعيد، يمكنها أن تحتمل ذلك رغم ما فيه من أسى، راقبت أضواء الفجر وهي تبزغ خلف نافذتها، لم تكن هناك حركة، البنات كلهن نائمات وعمال التصليحات لم يأتوا بعد، ارتدت ثيابها، سارت في الأروقة، مرت بغرفة نبوية، فكرت أن توقظها ولكنها أحست أن هذه لحظة خاصة يجب أن تمضي فيها وحدها، سارت في شوارع خالية تعصف بها ريح الشتاء، تطير ما فيها من مخلفات وأوراق شجر متساقطة، كانت المدينة تستيقظ ببطء، الباعة يقودون العربات الخشبية، وعمال النظافة يتأهبون لممارسة عملهم، والعسكر يلقون على العابرين نظرات ناعسة، أعمدة ميدان المحطة مازالت مضاءة رغم بزوغ النهار، تلفتت حولها في حذر، لم تكن تريد أن تجد نفسه فجأة في مواجهة «مختار» دون

أن تكون مستعدة لذلك، أخفت وجهها جيدا، خطت داخل المحطة وهي تتخفى وراء الأعمدة، وجدت رصيف قطار الإسكندرية مازال خاليا، فقط بعض المسافرين يتجولون في صمت، لم يكن «مختار» بينهم، ظلت مترقبة خلف العمود، شعرت ببرودة طاغية تجتاحها، تمنت ألاّ يجيء القطار، وألاّ يجيء «مختار»، أن يبقى في مصر ربما يكون هناك أمل، سيكون هذا العالم الموحش أفضل في حال وجوده، سيمنحها الدافع للخروج من خلف أسوار منزل «وش البركة» حتى ولو لم يكن هناك سبيل للارتباط به، ستعيش خادمة تحت قدميه لو أراد ذلك، هل يمكن أن تتغلب على إحساسها العميق بالدنس؟ دخل القطار المحطة هادئا، نفث الدخان، وصفر في خفوت، وتحرك المنتظرون على المحطة وركبوا القطار، لم يظهر مختار، تمنت لو يمضي القطار ويبتعد قبل أن يأتي، ولكنها شاهدت السائق يهبط من القاطرة ويتجه إلى مقهى صغير على الرصيف، كان ما زال هناك وقت، وأخيرا رأته وهو قادم، يسير بنفس خطواته الواسعة التي لم تكن تستطيع ملاحقتها، كان يبدو نحيفا وأكثر طولا، استطال شعر رأسه، وأصبحت لحيته أكثر كثافة، كان يتحرك مثل شبح يسير على أرض غير حقيقية، دق قلبها، ودت لو أنها تهرع إليه وتتعلق برقبته، لم يكن هناك من يودعه، كان وحيدا كما رأته في المرة الأولى، كانت هي وداعه الأخير، وقف على الرصيف، لم يبادر بركوب القطار، ظل يتأمل تذكرته، ويتطلع حوله في حيرة، ثم يلتقط أنفاسه في عمق، أحست بمدى وحدته، إنها لحظتها أن تتقدم، عليها أن تخبره بكل شيء، وأن يتحمل نصيبه من الذنب معها، تركها وحيدة وضعيفة، كان هو الذي أحدث شرخا في المخبأ الذي تحتمي فيه، استطاع

«عمران» أن ينفذ منه، لو أن «مختار» ظل بجانبها لما حدث كل هذا، لكنه صعد إلى القطار وغاب فجأة عن أبصارها، لم تتصور أن تكون هذه لحظاتها الأخيرة معه، رأت السائق ومساعده ينهضان من المقهى ويتجهان للقاطرة، حان الوقت، تقدمت قليلا من الرصيف تريد أن تلمس جدار القطار الذي يحتويه، ولكنها تراجعت حين فوجئت به يطل من إحدى النوافذ، تلفت يمنة ويسرة وهو يتأمل الرصيف الخالي، وبدا وجهه أكثر حزنا، هل يبحث عنها؟

كانت هناك فتاة صغيرة تسير على الرصيف، ترتدي زي المدرسة، ربما كانت تلميذة في إحدى المدارس الفرنسية، كانت تحتضن حقيبة كتبها، تبدو عليها علامات الخوف والحيرة، لا بد أنها لم تقل لأهلها إنها متجهة للمحطة، أشرق وجهها حين رأت وجه مختار وهو يطل من النافذة وأخذت تعدو على الرصيف، سقط قلب «عائشة»، لم تتصور أن تظهر واحدة في حياته بمثل هذه السرعة، وأن تكون في هذا العمر الصغير، هل هي حبيبة أم مجرد معجبة؟ وقفت أمام نافذته، ألقت بالحقيبة على الأرض، قفزت عاليا في الهواء، تعلقت في رقبته وجذبته إليها، أوشك أن يفقد توازنه، ألصقت وجهها به وهي تبكي، ربت «مختار» على ظهرها وبدا عاطفا عليها، لم يحاول التخلص من عناقها، صفر القطار، ابتعدت عنه قليلا وأخذا يتبادلان كلمات سريعة، بدأ القطار في التحرك، أسرعت الفتاة تحاول اللحاق به، ولكنه اكتفى بالتلويح لها، مسح وجهه، ولم تعرف «عائشة» إن كان يمسح دموعه أم بقايا دموعها، زاد القطار من سرعته، حمل «مختار» ومضى، وظلت «عائشة» والفتاة وحيدتين على الرصيف، تأملت الفتاة قليلا من خلال دموعها، كانتا تبكيان معا نفس الرجل، سارت

كل واحدة منهما على مبعدة من الأخرى، نظرت الفتاة نحوها نظرة عابرة، تناولت حقيبتها المدرسية، سارت كل واحدة في طريقها، ولم تحاول أي منهما أن تحدث الأخرى.

* * *

... ارتجف قلب «عائشة» عندما ظهرت مئذنة مسجد السيدة زينب أمامها، تثاقلت خطواتها وهي تسير في شارع الخليج، لم تتصور أن قدميها سوف تتجرءان على دخول المقام مرة أخرى، لمست «نبوية» ذراعها لتحثها على السير، تذكرت «عائشة» كل أحجار الطريق، وأصوات الخيول التي تجر عربات «سوارس» ولافتات محلات الحلوى التي كانا يتوقفان فيها، والروائح المنبعثة من مسمط «الركيب»، استيقظت داخلها كل لحظاتها القديمة مع مختار، كان مشهد المحطة ما زال يؤلمها، يثير حيرتها على الرغم من أنه لم يترك من داخلها كل مشاعر الحنين، ولكن رجفتها كانت تزداد كلما اقتربت من المسجد، تشعر بأنها غير طاهرة، لم تفارقها النجاسة بعد، ولا يليق بها دخول هذا المقام الطاهر.

عندما طلبت منها «نبوية» مرافقتها في هذه الزيارة رفضت في إصرار، كانت تريد أن تبقى خلف جدران الدار، لم تعد تحتمل التعرض لصدمات أخرى، ولكنها ألحت عليها:

- إنها الوسيلة الوحيدة حتى تحمل عنا «الست» بعضا من ذنوبنا.

تماسكت حتى عبرت الميدان الصاخب، وظلت مترددة في الدخول إلى المقام، ولكن «نبوية» أخذت تهمس لها: الست تقبل

الجميع، ولا تفرق بين التائبين والخطاة، سارت بخطوات متعثرة حتى أمسكت بالحلقات الفضية بالمقام، وكانت هناك عشرات النسوة في ملابس سوداء لا يتوقفن عن الطواف، وروائح البخور تنبعث من كل مكان، فوجئت بنبوية وقد انبطحت على وجهها وهي تبكي بحرقة، ارتج جسمها وأصابعها متشبثة بأعواد الحصر المفروشة، تبكي وهي تردد أدعية غير مفهومة، انتقلت عدوى بكائها الحارق للجميع، كان كل واحد من الحاضرين يحمل ذنبه الخاص، انزوت «عائشة» في أحد الأركان وأخذت تقرأ الفاتحة بذهن شارد، زحفت «نبوية» حتى جلست بجانبها وظلتا ترددان الآيات القرآنية في صوت خافت، لم يجرؤا على الكلام الواحدة مع الأخرى،أحست «عائشة» بحرقة، فالست لم تستجب لها، لم تحافظ لها على مختار، ولم تعطها القدرة على صيانة جسدها، كانت دموع «نبوية» قد نفدت تقريبا، وظلت جالسة تلتقط أنفاسها بصعوبة، قالت لها «عائشة»: فلنخرج من هنا، كان وجود جسدها داخل حيز المكان الضيق يثقل عليها، جلستا أمام المسجد، في الساحة المطلة على الميدان، وسط العشرات من الرجال والنساء، وقالت «نبوية» فجأة:

ـ لقد نويت أن أغادر المنزل، بعد ماحدث لم يعد مكانا آمنا، أريد أن أتزوج وأنجب ابنا..

تطلعت إليها مندهشة، حاولت أن تكبت أسئلتها، ولكن «نبوية» قرأتها على وجهها، واصلت القول:

ـ أعرف ماذا ستقولين.. كل فوله ولها كيال كما يقول المثل، أجل..هناك رجل قد رضي بي، ويعرف وضعي تماما، كان يعمل

نجارا في «درب الأنسية».. كنت أعرفه منذ سنوات، إنه مثلي يحتاج إلى بداية جديدة، صادفته بعض المتاعب وفقد دكانه ودخل السجن لفترة من الزمن، سوف يساعد بعضنا بعضا، معي بعض المال ومعه مهنته وسنبدأ معا.

لم تدر «عائشة» بماذا ترد عليها، كانت الكلمات تكشف عن الجانب الخفي للمصلحة، هل كانت مصلحة مشتركة؟ هل كان هناك جانب يستغل الآخر؟ قالت «عائشة»:

ـ أنت تقامرين، سوف تعطيه كل مالك.. هل أنت واثقة به لهذه الدرجة؟

ـ ليس أمامي إلا أن أثق به، أنا في حاجة إلى نصف فرصة، كل البنات داخل البيت في حاجة إلى ذلك، لايغرك الرقص والغناء ورغبة الرجال فينا، «العايقة» لا ترحم، إنها تريد أن تكون بناتها صغيرات دوما، هناك قوادون يوردون البنات الصغيرات لها من الأرياف، إنها تجدد بضاعتها باستمرار، وتلقينا دون رحمة عندما نكبر قليلا في السن، وسيأتي اليوم الذي تطردنا فيه بالتأكيد.

أدارت «عائشة» عينيها بعيدا عنها حتى لاترى «نبوية» عينيها الممتلئتين بالدمع، تشاغلت بالزحام الموجود في الميدان، كانت هي أيضا في حاجة إلى نصف فرصة، ولكن أين هي؟

من أقصى الميدان ارتفعت ضجة عالية، كان هناك جمع من الأفندية وطلبة المدارس قادمين من شارع«المبتديان»، يصرخون بقوة وهم يرفعون اللافتات، همست «عائشة» في حنين: إنها مظاهرة، الزمن يعيد نفسه دوما، دون أمل ودون تغيير، ما زالت صرخات

المطالبة بالاستقلال، وبحق تقرير المصير، والذهاب إلى اجتماعات عصبة الأمم في باريس، كلمات وشعارات جديدة أضيفت، ولم يأت نصف الفرصة بعد، رجال البوليس بهراواتهم وقسوتهم هم الذين يأتون دوما، كان يجب عليها أن تنهض الآن وتنضم إليهم، ولكنها ظلت جالسة عاجزة، متشبثة بحافة الرخام المتآكل الذي تجلس عليه، تغير إيقاع المظاهرة فجأة، توقف الطلبة عن الهتاف وتجمدوا في أماكنهم، هتف واحد منهم فقط وهو يشير إلى منتصف الميدان:

ـ إنجليز...

التفت الجميع يبحثون عنهم، واندهشت «عائشة» لأنهم جاءوا بهذه السرعة، كان هناك إنجليز بالفعل، ولكن رجلا وحيدا، يقف عند نهاية محطة الترام، أمام باعة الكتب القديمة منهمكا في تصفح كتاب منها، لم يفطن للمظاهرة ولم يسمع الصراخ الموجه ضده، ولكنه كان قد أصبح العدو، اندفع نحوه عدد من المتظاهرين الصغار بينما وقف الآخرون من دون أن يشاركوا في الهجوم أو يمنعوه، فطن الرجل أخيرا لما يدور من حوله فرفع رأسه، رأت «عائشة» وجهه بوضوح، صرخت هي أيضا وأسرعت بالهبوط فوق درج المسجد، ولكن التلاميذ كانوا أسرع منها، التقطوا بعض أحجار الطريق وأخذوا يقذفونه بها، رفع الرجل الكتاب ليحمي وجهه، صاح باعة الكتب يحاولون إبعادهم فرشقوهم أيضا بالحجارة، طار حجر ضخم وارتطم برأس الرجل مباشرة، اهتز وفقد توازنه، أسقطته قوة الضربة على الأرض، صرخت «عائشة» واندفعت نحوه، أحس التلاميذ بالفزع فأسرعوا مبتعدين، اختبئوا وسط صفوف المتظاهرين، مالت «عائشة» نحوه، رفعت رأسه المضرج بالدماء، كان مغمض

العينين، لم تدر إن كان قد فارق الحياة أو أنه مجرد فاقد لوعيه، قال أحد الباعة: لا حول ولا قوة إلا بالله.. كان زبونا جيدا.. اقتربت «نبوية» وحاولت أن تجذبها قائلة: هيا ننصرف يا «عائشة»، لا نريد أن نقحم أنفسنا في هذا الأمر، سيتهمنا البوليس بالتسبب في ذلك، قالت «عائشة»: أحضري عربة «حنطور» بسرعة، يجب أن ننقله من هنا، أسرع واحد من الباعة وأحضر حنطورا، وحمله بقية الباعة إليه، وضعوه على المقعد الجلدي، صعدت «عائشة» وجلست بجانبه، استطاعت أن تحس بالنبض في عنقه، وأن تسمع صوت أنفاسه الواهنة، جلست «نبوية» في المقعد المقابل، حمل واحد من الباعة مجموعة من الكتب مربوطة بخيط من الدوبارة، قدمها لهما وهو يقول: هذه الكتب تخصه يا ست، دفع ثمنها قبل إصابته، سار الحنطور، تأملت «عائشة» وجهه كان متعبا وحزينا، كدأبه دائما، قالت: مستر كارتر.. هل أنت بخير؟! قالت نبوية خائفة: فلنذهب به للمستشفى، قالت «عائشة»: لا يوجد واحد قريب منا غير مستشفى «الحوض المرصود» وسوف ندخل في سين وجيم.. سنأخذه إلى «وش البركة»، ضربت «نبوية» صدرها وهتفت: يا مصيبتي!.. ستقتلنا «العايقة»، قالت «عائشة»: إنها غير موجودة.. هل نسيت ذلك؟

نجحتا في إدخاله إلى غرفتها، ورأت «أم زغلول» أن الجرح لا يحتاج إلى أي قَطْب، فقط إلى حشوه بالبن، وظلت «عائشة» جالسة أمامه، تراقب وجهه المستكين، والتجاعيد التي بدأت في التسلل إلى ملامحه، كان متعبا إلى حد الإرهاق، لحيته نابتة، وشاربه متهدل، وخصلات شعره تحولت إلى الرمادي، كيف مرت عليه هذه السنوات الشاقة؟ لا بد أن اللورد قام بإغلاق كل الأبواب أمامه، يبدو هذا ظاهرا

عليه، فقد أناقته، ولم يبق من الجنتلمان القديم إلا شبح رث ما تزال رمال الصحراء عالقة به، أحست بالشفقة عليه، وعلى نفسها، كانت هذه السنوات شاقة على الجميع.

حل الظلام فأوقدت المصباح وعلقته على الجدار، عادت للجلوس أمامه، كان قد فتح عينيه وهو يتطلع إليها مستغربا، عاجزا عن معرفة إن كان ما يراه حلما أم حقيقة، لم يكن يستطيع النهوض، ولكنه مد يده نحوها مستغيثا لتمنحه شيئا يتأكد به مما يراه أعطته يدها فقبض عليها بإحكام، أحس بملمس يدها وتأكد من وجودها، أشرقت أسارير وجهه، قال:

ـ أهو أنت أيتها الأميرة..؟!

ابتسمت له بمرارة، قالت:

ـ لم أعد أميرة.. وواضح أنك أنت أيضا لم تعد ملكا..

حاول النهوض ولكنه أحس بالدوار، أشارت له أن يبقى راقدا، تلفت حوله وهو يتساءل:

ـ أين أنا على أي حال؟ هل هذا بيتك؟

لم تدر ماذا تقول له، أحست أنها لا تستطيع أن تكذب عليه أكثر من هذا، قالت فجأة:

ـ هذا أحد بيوت المتعة في «وش البركة».

غاضت الابتسامة من على وجهه، بدا واضحا أن هذه الكلمات القليلة قد أصابته بالصدمة، قال بصوت خافت ومتردد:

ـ هل تعملين هنا؟

ـ كلا.. ولكنني مقيمة هنا على أي حال..

ـ لايحق لي أن أسألك، أنا نفسي أقمت في منزل عبد الرسول.. مدير الآثار السابق يقيم في حماية أشهر مهرب للآثار، أحيانا ترغمنا الظروف على أن نلقي بأنفسنا في أحضان الذين يكرهوننا.

قالت «عائشة» بصوت خافت، ودون أن تترك يده:

ـ ربما أحكي لك أسبابي ذات يوم، ولكني أريد أن أعرف ماذا حدث لك طوال هذه السنوات..لماذا بقيت هنا ولم تعد إلى بلدك؟

حدق في السقف واختلج وجهه بكثير من الانفعالات، قال:

ـ حاولت العودة، ركبت السفينة في الإسكندرية بالفعل وأطلقت السفينة أول صفارة وأول دفقة من الدخان، استطعت أن أهبط في اللحظات الأخيرة قبل أن يرفعوا السلم، لم أستطع ترك السنوات التي نضجت فيها ورائي، كان يجب أن أكمل رحلتي التي بدأتها في هذا المكان وأنا في سن الثامنة عشرة، عدت مرة أخرى إلى الأقصر لأثبت للجميع أنني لم أطرد، أصبحت أكثر حرية عن ذي قبل، أقمت في وادي الملوك في طيبة، المكان الذي لم أعشق غيره، عدت للرسم مرة أخرى وأنتجت كثيرا من الصور الفرعونية، معظمها زائف ومن تخيلي، وأخذت أبيعها للأثرياء الذين يقيمون في سفنهم على الشاطئ، شاركت أيضا في صفقات بيع الآثار، مسروقة أو شرعية، صحيحة أو مزيفة، لم يعد الأمر مهما، كانت السنوات طويلة وكئيبة،

وكل ما كنت أحاول أن أتجنبه هو أن يتم إبعادي، حاولت أن أختفي عن عيون رجال اللورد، عبرت للجانب الآخر وأقمت في قرية «القرنة» عند عبد الرسول، عدوي السابق، كنت أعرف أن هذا سيضر بسمعتي، سيعتبرونني لصا مثله، شريكا له على الأقل، ولكني لم أكن أسعى للحفاظ على سمعتي، كنت أريد أن أحافظ على وجودي.

سكت مجهدا، بدا أن الدوار قد عاد إليه، لمس الضمادة الملفوفة حول رأسه وهو يتمتم:

ـ ماذا وضعتم في هذا الجرح اللعين؟

ابتسمت «عائشة»، لم تستطع أن تقول له ولكنها بلعت ريقها، ليتها تمتلك القدرة على أن تتحدث مثله، تتخلص من ذلك الهم الرابض على صدرها، وهي تقول:

ـ هل ما زلت مطاردا؟

ـ ليس تماما، خفت حدة المطاردة بعض الشيء، واستطعت أن أعبر للبر الشرقي وأتعرف على اللورد «كارترفون»، إنه واحد من أكبر أثرياء إنجلترا، «إيرل» حقيقي، تعرض لحادث سيارة في ألمانيا منذ عدة سنوات، ولكن صحته ظلت معتلة، وتعود أن يأتي كل عام إلى مصر بحثا عن الدفء والجو الجاف، وقد تحسنت صحته بالفعل، ولكنه وقع في غرام الآثار المصرية، وأراد أن ينقب عنها بنفسه، كانت مغامرته فاشلة، لم يجد شيئا ذا قيمة، ولكنه لم يتراجع، ظل يبحث عن واحد له خبرة في هذا المجال، وهكذا رشحني رئيسي السابق «ماسبيرو» للعمل معه، عاودت التقاط أنفاسي، أصبحت أعمل مع رجل قوي يحميني من بطش المسئولين، والأهم من ذلك

أنني استعدت مهنتي وأصبح من حقي أن أعاود التنقيب من جديد، وأن أسعى للاكتشاف الذي حلمت به طول عمري، يمكنك القول إن أيام التشرد قد انتهت.

مرة أخرى ابتسمت «عائشة»، كان قد استعاد شيئا من فتنته القديمة وتألقه، حاولت أن تسحب يدها من يده، ولكنه لم يتركها، قالت في إحراج:

ـ أصبحت أفضل على أي حال...

ـ أجل، ولكني لم أكتشف شيئا مهما حتى الآن، السنوات تمضي، وفرصتي تضيق، ما زلت في انتظار لمسة السحر تقودني للمكان الذي أبحث عنه، شيء ما ينقصني، أعرف عما أبحث ولا أعرف كيف أصل إليه.

تركت يدها أخيرا، كان رأسه قد أصبح أكثر خفة، استطاع أن يرفع نفسه من على الوسادة ويسند جسده إلى الحائط في مواجهتها، حدق فيها بعينيه الغائرتين، وقال متمهلا:

ـ أتعرفين.. إنها ليست مجرد مصادفة أن نلتقي هكذا مرة أخرى، إنه القدر، لا أعرف ماذا حدث لك، ولكن من الواضح أنه كان قاسيا لدرجة أنه قادك إلى هذا المكان، أنت في حاجة إلى بداية جديدة، وأنا في حاجة إلى إلهام.. كل منا في حاجة للآخر.

خفت ضوء المصباح وبدأ السناج يزحف على الزجاجة، امتدت العتمة حتى أخفت وجهه، لم يبق ظاهرا إلا بريق عينيه، لم تدر إن كانت تفهم مايقصد على وجه التحديد، ظلت تحدق فيه صامتة، واصل القول:

ـ تعالي معي إلى طيبة، كوني بجانبي وأنا أمارس هذا الحفر المجنون، أحتاج إلى أن تهبيني لمسة من الحظ الذي افتقدته تماما، أنت التعويذة الفرعونية التي أبحث عنها.

سكت مجهدا، سمعته وهو يأخذ أنفاسه في صعوبة، كان من الغريب أن تسمع منه هذه الكلمات بعد فترة قصيرة من لقائهما، لم تكن هناك وعود، مجرد نصف فرصة في غرفة معتمة، قالت في تردد:

ـ لا أدري إن كنت أستطيع أن أفعل ذلك، نحن من عالمين مختلفين، لم يربط بيننا غير ثلاث مصادفات عمياء، كيف يمكن أن نلتقي؟! إنني لا أحتمل تجربة قاسية أخرى...

ـ أنا أيضا لا أحتمل فشلا جديدا.. تعالي معي إلى وادي طيبة وسأكون حريصا عليك بحياتي.

وعد غامض، ومبالغ فيه، هذا هو كل ماظفرت به، كان الليل قد تأخر، ولم يعد أي منهما يرى الآخر بوضوح، نهضت وهي تقول:

ـ يجدر بك أن تنام قليلا، سأذهب أنا أيضا للنوم في غرف البنات..

ـ لم تردي علي..

ـ أنت الآن تعاني من آثار الضربة التي تلقيتها في رأسك.. فلنتحدث في الصباح.

سارت في الرواق إلى غرفة «نبوية»، البيت هادئ والقناديل

المعلقة على وشك الانطفاء، تلمست الطريق إلى فراشها ثم اندست بجانبها، تقلبت «نبوية» وهي تغمغم:

ـ هل نمت معه؟.. هل سمحت حالته بذلك؟

لكزتها في جنبها ولم تجب عليها، أعطتها ظهرها، تذكرت وجهه الشاحب وعينيه الغائرتين، وزفرت الهواء الذي كان محبوسا في صدرها، عادت «نبوية» للقول:

ـ أنت تحبينه إذن؟!

ـ إنه رجل لم أقابله إلا مرتين من قبل.. وهذه هي المرة الثالثة، ومع ذلك يطلب مني أن أتبعه إلى آخر البلاد...

طيبة

منذ المرة الأولى التي جاء فيها «هوارد كارتر» إلى محطة الأقصر وهو يكره هذه الرسوم الفرعونية الموجودة على جدرانها، كان يتمنى دوما أن تتاح له الفرصة ليقوم برسمها من جديد، ولكن ذلك لم يحدث، كل مرة كان يحدث نفسه بذلك وهو يهبط من القطار، ولكنه الآن وجد من يحدثه، كانت هي تسير بجانبه، وخلفهما حمال عجوز يلهث تحت الحقائب في صوت متحشرج.

وجدا «الركوبة» في انتظارهما أمام مدخل المحطة، أربعة حمير لونها أبيض مائل للرمادي، على اثنين منها سرجان من الجلد المزين بالنقوش، وفوق رأس كل واحد منهما وردة حمراء، و«عبد العال» واقف في انتظارهما، أسرع بأخذ الحقائب ووضعها على ظهر الحمارين الآخرين، ولكن «هوارد» أصر على أن يحمل القفص المعدني الذي كان يوجد فيه عصفور الكناري الأصفر، ورغم تشاغل «عبد العال» لم ينس أن يلقي عليها نظرة متفحصة، كانت «عائشة» تضع على وجهها حجابا يخفي ملامحها، لم تجرؤ على مواجهة شمس الأقصر ولا عيون الناس بوجه سافر، ساعدها «هوارد» حتى

ركبت حمارها، وسار الجميع إلى شاطئ النيل حيث ترسو «الفلوكة» التي ستقلهم للبر الغربي.

أحست «عائشة» أنها انتقلت فجأة إلى عالم غريب، بينما كان «هوارد» يتصرف بشغف وتلقائية من عاد إلى المكان الذي يخصه أخيرا، كانت البيوت الطينية المختفية تحت النخيل تشبه «نجع بني خلف»، ولكن هنا كانت ترتفع أعمدة المعابد الحجرية، قاتمة الصفرة يلفها غبار يزيد من مهابتها، ومن بعيد بدا النيل ساجيا وشديد الحمرة، كأنه على وشك الفوران، أدركت «عائشة» أنها قد تركت نفسها تمضي بعيدا، ولو عبرت النهر خلفه فلا عودة لها.

في الشارع الموازي للنيل ظهرت صفوف من محلات العاديات وقطع الآثار، ضيقة ومعتمة ومزدحمة بالبضائع، خرج أصحابها عندما شاهدوا موكب الحمير وهو يقترب منهم، حركوا جفونهم حتى تتأقلم مع الشمس، كانت تفوح منهم جميعا روائح العطن، هللوا جميعا حين اكتشفوا أن «هوارد» هو القادم، خليط من الجنسيات، مصريون بالجلابيب والعمائم، وخواجات ـ أغلبهم من اليونانيين ـ يلبسون سراويل قصيرة وقبعات من القش، أحاطوا به، صافحوه وربتوا على كتفه في ود، كانوا في انتظاره، كأن قدومه هو بداية الموسم بالنسبة إليهم، شاهدوا طائر «الكناريا» الذي يحمله، هتفوا جميعا: لقد أحضرت طائرا ذهبيا، ستكون محظوظا وتكتشف كنزا من الذهب، ابتسم لهم، لم يلحظ أحد وجودها وهي ملتفة بالسواد وجالسة فوق الحمار، كتلة مبهمة بلا ملامح، تسابق الباعة، يعرضون عليه آخر ما حصلوا عليه من بضائع، أوان من مرمر، تماثيل نحاسية ضاربة للخضرة، أطباق متكسرة، جعارين صغيرة مهشمة، تدافعوا

حوله طالبين منه أن يفحصها، أخذ يعلق عليها ببعض الكلمات، ويرفض كثيرا منها بإشارات قصيرة باترة، راقبته «عائشة» بعينين مندهشتين، بالتأكيد لم يكن يفعل ذلك حتى يبهرها، كان يتصرف بطبيعته، سمعت بجانبها صوتا يقول:

ـ انظري مدى براعته.. تكفيه نظرة واحدة للأثر ليعرف إن كان أصليا أو مزيفا.

كان «عبد العال» يتكلم وهو يتأملها، يحاول أن يخترق بنظره الحجاب الذي يغطي وجهها، أضاف مكملا كلماته:

ـ وأنت يا ست، ما أصلك وفصلك؟

أشاحت بوجهها بعيدا عنه، لماذا اعتقدت أن لا أحد يراها أو يشعر بوجودها؟ لا بد أن ظهورها الغامض قد أثار تساؤل الجميع، ولكنهم تجاهلوها مؤقتا، هذا الرجل هو الوحيد الذي جاهر بالسؤال، كان «هوارد» يحاول التراجع والخروج من حلقة الباعة دون أن يتخلى عن ابتسامته، لوح لهم وهو يعدهم بالعودة، عاودا السير مرة أخرى لحافة النهر، كان مزدحما بالقوارب الصغيرة والمراكب ذات الأشرعة البيضاء، أما على الشاطئ فترسو الذهبيات الفخمة التي يقيم عليها الأثرياء طوال الشتاء، كل واحدة منها ترفع أعلام البلاد التي تنتمي إليها، كانت المدينة كلها تحتفل بموسم الشتاء الجديد، توقف «هوارد» وهو يتأمل صف الذهبيات الممتد.....

* * *

«........رأيت العلم الأمريكي وهو يرفرف على الذهبية التي

كنت أعرفها جيدا، التفت إلى «عبد العال» وأنا أتساءل: هل عاد مستر «ثيودور ديفيز» إلى هنا؟ قال دون مبالاة: إنه هنا منذ حوالي شهر على الأقل، دق قلبي في عنف، ها هو ذا منافسي القديم يعود مبكرا، شهرا كاملا قبل بداية الموسم، هل سيعاود التنقيب من جديد؟ كان قد احتكر لنفسه حق امتياز الحفر في الوادي لاثني عشر عاما كاملة ولم يدع الفرصة لأحد غيره، وعندما أصابه الملل أخيرا استطعت أنا واللورد «كارنارفون» أن نجد موطئ قدم، هل جاء يسعى لاستعادة هذا الامتياز؟ هل سيستخدم أحدا ليزاحمني في تلك البقعة الضيقة من الأرض، يشاركني فرصتي الأخيرة؟ ربما سمع عن فشلي طوال هذه السنوات؟ هل يعرف شيئا عن «روز» التي انقطعت أخبارها؟ تذكرت تلك اللحظات المؤلمة التي عصفت بي وجعلتني أفقد اتزاني، تطلعت إلى «عائشة» كانت فوق حمارها تتأمل حيرتي وترددي في دهشة، أحسست أن وجوده قد أفسد علي فرحة العودة للوادي، وكان يجب أن أتأكد من ظنوني وهواجسي، قلت لها: انتظريني هنا.. سأعود سريعا. أسرعت الخطا دون أن أنتظر ردها، صعدت السلم المؤدي إلى الذهبية الفخمة، كان السطح مكسوا بسجاد مترب له لون الخوخ، عبرت القمرات والممرات الداخلية، من دون أن يقابلني أحد، وكما توقعت وجدته موجودا في جانب من السفينة يطل على البر الغربي مباشرة، ممددا فوق أحد المقاعد كاشفا جسده للشمس، تحول شعر صدره الكثيف للون الرمادي، ولكن التجاعيد ظلت مختفية تحت قناع من سمرة الشمس، كان يرتدي سروالا قصيرا، ويبدو مرتاحا ومسترخيا لدرجة أنه لم يتحرك حين رآني، ابتسم فقط.. لم أدر إن كانت ابتسامته سخرية مني أم ترحيبا

بي، لم تكن «إميليا» موجودة بجانبه كما هي العادة، ترى من منهما تخلى عن الآخر؟ قال: مرحبا بك يا كارتر.. ما زلت كالعهد بك، لا تفقد الأمل أبدا، وقفت أمامه مرتبكا، دائما ما كان يحيرني التعامل مع هذا الثري الأمريكي، قلت مباشرة: هل جئت لتعاود التنقيب من جديد؟ رفع حاجبه في دهشة وهو يقول: يا إلهي، كلا بالطبع، هذا الوادي قد أجهد تماما من كثرة الحفر، لا طائل من وراء بحثك يا بني، قلت وأنا أحاول أن أتمالك نفسي: هكذا قال «بلزوني» منذ حوالي مائة عام ومع ذلك أعيد اكتشاف نصف الوادي على الأقل، كان هذا الأفاق الإيطالي هو المستفيد الأول من هذا الوادي، أخذ إذنا بالتنقيب من الباشا الكبير محمد علي، ولكنه كان لصا حقيقيا سلب الوادي البكر من كل ما عثر عليه، شحن عشرات الأطنان من الآثار إلى أوربا، وكان الباشا الكبير يعتقد أنها مجرد أحجار لا قيمة لها، وكانت أسواق أوربا جائعة لالتهام هذه النفائس بينما كان الباشا مفتونا بأطباق الإسباجيتي والفلايين الذهبية التي كان «بلزوني» يقدمها له، ضحك «ديفيز» وهو يقول: هذا الرجل كان شرها لدرجة أنه لم يكلف نفسه عناء البحث، أما نحن فقد فعلنا كل ما في وسعنا، اذهب يا بني وحاول البحث من جديد، أما أنا فسوف أستمتع بتلك الشمس الرائعة، وسأشتري منك كل ماتكتشفه، كان قد تعامل معي بلامبالاة دفعت بالغيظ إلى نفسي، تركني حائرا كأنني مازلت واقفا عند نقطة البداية.......»..

* * *

..... عبرت «الفلوكة» بالناس والحمير إلى البر الآخر، وحلقت طيور الماء في دوائر متصلة تحاول اكتشاف القادمين الجدد، طوت

المركب شراعها عندما اقتربت من الشاطئ، رمت حبالها، فأسرع أناس على الطرف الآخر بجذبها وتثبيتها، تأملت «عائشة» الشاطئ الصخري في حيرة، كان يبدو قاحلا ومتجهما أكثر مما ينبغي، بينما «هوارد» يرتعد وهو يشم روائح الهواء الساخن الذي يهب من التلال الرملية، يشهق ويتنفس في عمق كأنه يريد أن يدخل الوادي كله في صدره، أخذها من يدها وأخذ يعدو بها فوق الرمال، أحاط بهما الفراغ والصمت من كل جانب، كان الأمر مختلفا عن «وش البركة» بالتأكيد، توقفا أمام تمثالي «أجاممنون» العملاقين، شعرت بالرهبة وهي تسمع صوت الريح وهي تنفذ من بين تجاويف الأحجار.

لماذا تبعته لهذا المكان؟ هل بلغ بها اليأس لهذه الدرجة؟ أم أنها خضعت لإلحاحه المتواصل؟ بعد أن انصرف من المنزل بعد الليلة الأولى، عاد للمرة الثانية والثالثة، أصبح زبونا مستديما على الرغم من أن العمل كان معطلا، لم يمنعه عن المجيء عودة «العايقة» من السفر، أعطاها كل ما طلبته من نقود لتدعه يجلس مع «عائشة» براحته، ظل يلح عليها: لماذا تبقين في هذا المكان؟! رائحتك لا تشبه رائحتهن، كل بنات الهوى في كل الدنيا لهن الرائحة نفسها، وألوان الزينة نفسها، وحتى طريقة الكلام مهما اختلفت اللغات، ولا يوجد فيك شيء من هذا... استمعت إليه وهي ساهمة وحزينة، كانت تدرك أنه مهما قاومت فلن تستطيع أن تبقى طويلا بمنأى عما يدور في البيت، سوف تنزلق قدماها ذات لحظة، ويتقوض المخبأ الهش الذي بنته حول نفسها للمرة الثانية، وكان البديل الذي يقدمه لا يقل هشاشة، مغامرة في فراغ مجهول، ظل يلح عليها الساعات الطوال، ويؤجل عودته للأقصر يوما بعد يوم، كان خائفا من أن

يواجه إخفاقه وحده، أو لعله أراد أن يستعين بأخرى مخفقة، قالت لها «العايقة»: لا تذهبي معه، لم نأخذ من كل هؤلاء الخواجات غير الكذب والضحك على الذقون..!

وغادرت «نبوية» المنزل ذات صباح، حملت صرة ملابسها وهي سعيدة ومفعمة بالأمل، أقسمت للجميع أنها لن تعود إلا وهي تحمل طفلها بين يديها، ولكنها عادت بعد أقل من عشرة أيام، مضروبة ومهانة وبلا نقود، سلبها الزوج نقودها وأنفقها على الحشيش ثم عايرها بأنها مجرد عاهرة، مسحت «عائشة» دموعها وآثار الدم المتجلط على وجهها، وخافت من كلمات «هوارد» المعسولة أكثر وأكثر، ولكنها بالفعل لم تكن تريد أن تكون واحدة منهن.

في تلك اللحظة ظهر من بين التمثالين شخص آخر، فلاح طويل ونحيف القامة، لا يرتدي غير سروال طويل، وصديري مفكوك الأزرار، على رأسه عمامة وله شارب كثيف أشيب، قدماه الحافيتان ضخمتان، تحطان على الرمال كأنهما وتدين، يحمل في يده عصا ضخمة يدق بها الأرض، نظراته نافذة، لم يأبه بالنظر إلى «هوارد»، ولكنه ألقى على «عائشة» نظرة مخيفة كأنه يستغرب من وجودها في هذا المكان، وتخيلت «عائشة» للحظة أن هذه الأصوات الرهيبة التي تملأ الوادي قد انبعثت من صدره هو، جذبها «هوارد» من ذراعها وأبعدها عن المكان دون أن يتبادل مع الرجل كلمة واحدة، تقابلا مع «عبد العال» الذي كان قادما من ناحية الشاطئ وهو يسوق الحمير، سار خلفهما تاركا مسافة بينه وبينهما، قالت «عائشة» وهي ترتجف:

- من هذا الرجل؟.. لقد أخافني؟

قال «هوارد»: إنه عبد الرسول.. لقد حدثتك عنه..

- حسبت أنكما صديقان..

- كنا كذلك.. منذ أن عدت للوادي وبدأت التنقيب من جديد قد أصبح يكرهني.

سارا وسط السهل المليء بركام الصخور وفوهات المقابر، هدأت حرارة الجو وبدأت تيارات من الهواء البارد تهب عليهم من بين التلال، وصلا إلى مكان واسع، كان الأكثر امتلاء بالحفر الغائرة وكتل الصخر، أشار «هوارد» إليها وهو يقول:

- هذه هي المنطقة التي تخصني، اسمها «دار أبو النجا»، قلبت هنا كل صخرة، ونبشت كل ذرة رمل دون أن أحقق حلمي، وما زال الحظ يعاندني..

تلفتت «عائشة» تتأمل المكان، إنه مليء بصخور لا تعد بشيء، كيف أضاع كل هذه السنوات من عمره وسط هذه البقعة الجرداء؟ ولماذا لم يتخل عن عشقه لها حتى الآن؟ أحست بالتعب من طول السير، ولكنه كان منتشيا لا يحس بطول المسافة، ظهرت أمامهما بناية حجرية ضخمة، أسوارها سامقة وممتدة، قال:

- هذه مدينة «هابو».. بيتنا المتواضع يقع بجانب أسوارها تماما.. قلعة كارتر..

نظرت إلى المكان الذي يشير إليه، كان هناك بيت صغير مطلي

باللون الأبيض، تعلوه قبة صغيرة، كأنه مقام وليّ منعزل، بدأ يتحدث عن البيت بحماسة وشغف:

ـ أنا الذي قمت بوضع تصميمه، الهواء ينفذ إليه من كل جانب، وشرفاته مفتوحة على مدينة هابو.. ويمكنك تأمل النهر وأنت جالسة فيها، فيه أربع غرف..

واصل الحديث في انتشاء وهما يواصلان الاقتراب من البيت، كان يشعر بأنه هو الجذور التي ستبقيه في الوادي دون أن يقدر أحد على اقتلاعه، لم يدخلها إلى البيت مباشرة، أمسك بيدها ودار حوله، أشار إلى الأحجار التي تكون الجدار الخارجي، دققت النظر فيها، كان على كل حجر منها نقش، حروف لاتينية تحورت حتى تأخذ طابع الكتابة الهيروغليفية، قرأت عائشة النقوش «صنع في بريتباي ـ إنجلترا ـ لصالح هوارد كارتر ـ طيبة ـ مصر»، نظرت إليه مستفسرة، ضحك في جذل وهو يقول:

ـ أجل.. صنعت هذه الأحجار في «بريتباي» في «دربرشاير» في مصنع للطوب يملكه اللورد كارترفون، صنعها وشحنها خصيصا من أجلي، لقد أصبح لي أنا أيضا نقوش تحمل اسمي في هذا الوادي، تماما مثل نقوش الفراعنة القدامى..

ابتسمت ولم تملك إلا أن تشاركه سعادته الطفولية، أخذ «عبد العال» ينقل الحقائب من فوق ظهور الحمير إلى داخل المنزل وهو يرمقها بنظرات خفية عاجزا عن كبت فضوله.

بدا البيت رائعا من الداخل بالفعل، نوافذه تطل على أعمدة المعبد السامقة، والقبة التي في سقفه تساعد على دوران الهواء

وتبقيه رطبا على الدوام، أما الشرفة الواسعة فقد كانت مليئة بمقاعد القش وينساب النيل من أمامها، قال:

ـ خذي الغرفة التي تعجبك، كل الأبواب تغلق من الداخل، وسوف تكونين في أمان..

تنهد «عائشة» في ارتياح، لم يحاول حتى الآن التحرش بها، والأهم من ذلك أن «عبد العال» كان مشرع الأذنين وهو يتظاهر بإفراغ الحقائب، ظل واقفا متأهبا حتى أشارت له إلى إحدى الغرف فحمل حقيبتها إليها، دخلت وأغلقت الباب على نفسها وأحست ببعض من الأمان.

استيقظت على صوت دقات متتابعة، للحظة تخيلت أنها ما زالت في منزل «وش البركة» كل شيء غرق في ظلمة مفاجئة، ما تزال ترتدي نفس الملابس العالق بها غبار السفر، المنزل كله غارق في الظلام، وفي الخارج تدوي أصوات مختلطة.. دقات دفوف وأغان وضحكات، ضوء قادم من خارج المنزل، نظرت من خلال النافذة المغلقة، كانت هناك كومة من النار المشتعلة في الفناء الموجود أمام المنزل، وكان «هوارد» موجودا، جالسا وسط جمع من الفلاحين لم تدر كم عددهم، كان البعض منهم يضعون الدفوف في دائرة حول النار ويتحسسونها كل فترة ليتأكدوا من أنها قد أصبحت مشدودة، بعد فترة أمسكوا بها وأخذوا يدقون عليها دقات صاخبة مرحة، وقف الآخرون صفا أمامهم، بسراويلهم الطويلة، وعلى رءوسهم «طواقي» صغيرة ملونة، كانت الضحكات تجعل وجوههم السمراء أكثر إشراقا، وقف «هوارد» في وسطهم، وضع يده على كتف أحدهم

ووضع أحدهم أيضا يده على كتفه أصبحوا صفا واحدا مترابطا، ورفع الفرد الأول في الصف ذراعه إلى أعلى وطرقع بأصابعه وهو يهتف: «أبشرو»، وفي الحال بدءوا يتحركون جميعا على إيقاع الدفوف، تتحرك أقدامهم الحافية على الرمل في خفة، بدأ «هوارد» يتقافز متعثرا لا يستطيع أن يجاريهم، صاحوا فيه ضاحكين حتى يضبط خطواته، كان مرتبكا وسعيدا كطفل، وببطء بدأت خطواته تنتظم معهم، رفعوا جميعا رءوسهم لأعلى وملئوا صدورهم بالهواء، داروا راقصين حول ضاربي الدفوف، يرددون أغنيات صاخبة لم تستطع «عائشة» التعرف عليها، امتلأ الجو بنوع من المرح الرجولي، واكتست وجوه الجميع بالعرق.

توقفوا عن الرقص وهم يضحكون وعادوا جميعا للجلوس حول النار، يواصلون الضحك بأصوات خشنة، يستمعون إلى كلماته العربية ولكنته الغريبة، ويضربونه على كتفه أو يقوم هو بضربهم، في وسط النار كان هناك «كوز» من الصفيح المغطى بالسناج، يمسكه واحد من الرجال بواسطة سلك ملتو ويصب منه الشاي في أكواب صغيرة، يرفع الكوز عاليا ليضمن أن الكوب قد امتلأ بالفقاقيع، وكان «هوارد» يواصل شرب الأكواب المتتابعة معهم، كأنه على أرضه ووسط ناسه، كيف استطاع أن يفعل ذلك؟! كيف مد جذوره وهو الغريب في هذه الأرض ولم يعد لها هي جذور في أي مكان؟

انتهت أدوار الشاي وظلت النار مشتعلة، أحست برعدة مفاجئة حين لمحت وميضا عابرا عند جدران المعبد الغارق في الظلام، بريق العيون الذي تعرفه جيدا، تراقب الجمع الملتف حول النار ثم تعاود الركض والاختباء، إنها الذئاب، لم تكف بعد عن ملاحقتها.

انصرف الرجال أخيرا، سار «هوارد» عائدا للمنزل وهو ما زال يدندن بالإيقاعات الراقصة، رآها وهي جالسة في الظلام، هتف في مرح:

- مرحبا يا أميرة اعتقدت أنك ستنامين حتى الصباح..

أشعل مصباحا، جلس بجانبها، كان وجهه ما زال متوردا والعرق يكسوه، قالت:

- لماذا كل هذا الاحتفال؟

- يحتفلون بعودتي وبدء العمل، والأهم من ذلك أنهم يعتقدون أنني قد تزوجت..

ابتسمت له في شحوب، لم تدر كيف تتصرف؟ وهل من مصلحتها أن يتركهم يعتقدون ذلك أم لا؟ ليس مهما، كانت غريبة في عالم غريب، من بعيد ارتفع صوت الذئاب، استيقظت جميعا، لاحظ «هوارد» ملامح الخوف التي ظهرت على وجهها، رغم ذلك جذبها من يدها وسار بها للشرفة، أشار لبقايا النار الموقدة، قال: هذه النار ستمنع اقتراب الذئاب والبعوض، حاولت التراجع وهي تهتف: أنا حقا خائفة، ظل ممسكا بذراعها وهو يقول: الذئاب صديقتي، تبعتني من غابات «سوالهام» حتى مقابر بني حسن، وحرست بابي وأنا أقيم داخل الدير البحري، إنها ظلالي التي لا تغادرني، تواصلت أصوات العواء، وبدت أشباح أجسادها مخفية في قلب الظلام، كأن عيونها تحدق فيهما مباشرة، زادت رجفتها، مد يده وجذبها إليه، لم تقاوم، كانت في حاجة لمن يلمسها، قال: أنت لا تعرفين أصوات الذئاب، إنها ليست غاضبة حتى تهاجم، إنها فرحة باستقبال الليل، عالمها،

وربما تكون سعيدة لوجودك، لف ذراعيه حول خصرها، أصبحت أقرب ماتكون إليه، أحست بدفء جسده، وأراحت رأسها فوق كتفه، انبعث شرر متطاير من الأغصان المحترقة، وظلت الذئاب تحدق فيهما بثبات، أحست بشفتيه فوق وجهها، وشعيرات شاربه ترحف على بشرتها، وشفتاه تحط على شفتيها، بدأت ترتعد، ضربتها موجة من الألم، وأصبح الدم باردا في عروقها، انفجرت فجأة في البكاء، دفعته على رغمها وهي تهتف: لا تلمسني..! رفع يده من عليها، قال: اهدئي.. لن يحدث شيء على رغمك..

* * *

«......أعاود الحفر مرة أخرى، أوشكت أن أستهلك المنطقة المخصصة لي، كنت قد قسمتها إلى مربعات، وحفرت كل مربع على حدة، تفحصت كل صخرة فيها، وكل ذرة رمل، عثرت على كثير من الأشياء الصغيرة، أعطيتها للورد كارنرفون حتى يضمها لمجموعته، حاولت أن أبقي جذوة الأمل مشتعلة بداخله، كنت أسابق الزمن، فهذا اللورد المعتل الصحة يمكن أن يموت في أي وقت، بل إنه خلال سنوات الحرب اقترب بالفعل من حافة الموت، ولم أتصور أن يعود للحياة مرة أخرى، وكنت متأكدا من أن ابنته المتعالية «الليدي إيفلين» لن تواصل التنقيب من بعده، حاولت التقرب منها ولكنها صدتني، لم تنس أبدا أني مستخدم عند أبيها، ربما كانت تعتقد أنني أستغل شغفه بجمع الآثار لمصلحتي الشخصية، أيا كان الأمر، فالزمن ليس في صالحي، و«آرثر ويجل» الذي أخذ مني منصبي كمدير للآثار يتحين الفرصة لطردي من الوادي، أي نسمة حظ يمكن أن تفيدني في هذه الظروف الصعبة؟ كنت في حاجة إلى معجزة..

عند الظهر، بعد أن قسمت العمال في أماكن الحفر رأيته قادما من جوف الوادي وهو يحمل مقطفا فوق كتفه، كانت الشمس في ظهره فلم أر وجهه بوضوح، حسبته واحدا من الفلاحين الذين يأتون إلى الموقع بحثا عن عمل، ولكنه وقف أمامي وهو يقول: لدي أمر مهم، أدخلته الخيمة التي أحتمي فيها من الشمس، وأغلق علينا الباب حتى لا يراه أحد، عرفت أن اسمه «علي حسان»، مثل معظم الفلاحين من قرية القرنة، يريد مني أن أشتري منه المقطف الذي يحمله، أحجار بلا قيمة، بعضها يحمل نقوشا ناقصة وغامضة، دائما ما تسقط ضربات معاولهم في المكان الخطأ، قطع من الفخار، وإناء من المرمر المتكسر، وجعران مهشم، كل شيء يدل على أنها مخلفات مقبرة، لم تنهب فقط ولكنها دمرت بقسوة، أخذت أقلب في الأحجار حائرا، خيل إلي أنني تعرفت على بعض الرموز فوق خرطوشة ناقصة، لم أصدق عيني، كانت تخص أمنحوتب الرابع، الاسم القديم للفرعون المارق «أخناتون»، تشوش ذهني فجأة، لم أستطع أن أربط هذه المخلفات بالوادي الذي نحفر فيه، تداخلت الأزمنة والأماكن في وميض خاطف، قلت له:

ـ من أين أحضرت هذه القطع؟

ـ ليس هذا من شأنك، جئت لأبيع هذا «المقطف» وإذا لم تشتره فسوف أجد خواجة آخر.

ـ سأدفع لك أكثر إذا دللتني على مصدر هذه القطع.

ـ ستخسر نقودك، لو كان هناك شيء آخر لأحضرته لك.

ـ دعني أنا أقرر ذلك..

- لماذا تصر على ذلك.. هذا غير مجد.

- ربما أستطيع أن أرى ما لم تره أنت..

سكت قليلا، أمسك بذقنه ولمعت عيناه في مكر، ثم قال:

- سآخذ الحمارين.. وعشرة جنيهات كاملة..

كان طماعا، وما يطلبه باهظا، فالحماران وطائر الكناريا كانت كل ما أملك من حيوانات، ولكنه كان يعرف أنني يائس، وافقت مرغما، مد يده فأعطيته النقود مقدما، ورقة واحدة تحمل صورة الملك الجديد «فؤاد الأول» بشاربيه المبرومين، وقاد «عبد العال» إلينا الحمارين مدهوشا وسمح لي الفلاح بأن أركب واحدا بينما ركب هو الآخر، حاول «عبد العال» أن يتبعنا ولكني أمرته أن يبقى ليراقب عمليات الحفر.

سرنا عبر الوادي المنحدر، تركنا دار أبو النجا، ودخلنا إلى واد «خالي العلامات»، لاحت من بعيد أعمدة الدير البحري، أعرف هذه المنطقة مثل كف يدي، أفنيت فيها أهم سنوات عمري، ولكن هاهو ذا الفلاح يدخل بي في متاهة من الصخر والرمل لم أرها من قبل، يلكز الحمار في ثقة ويستدير قبل أن نصل للدير، يدخل إلى ممر صخري ضيق بموازاة حائط الدير، كيف لم أعرف بوجود هذا الممر من قبل؟ نتوقف أمام صخرة ضخمة تبدو وكأنها معلقة في الهواء وتوشك على الانقضاض علينا، أشار إلى أسفلها وهو يقول:

- هذا هو المكان..

حسبته يسخر مني، ولكنني هبطت من على الحمار وترددت قليلا

ثم دخلت تحت الصخرة، سمعت صوت الريح وهي تزوم عاليا كأنها تعتزم إسقاطها، ارتعدت وأنا أرى شقا ممتدا وسط الصخور، كانت هناك فتحة محشوة بالصخور المنهارة، لم تكن مجرد شق في الكتلة الصخرية، ولكنها مشقوقة بواسطة المعاول والأزاميل، أدركت أنني أقف أمام فتحة مقبرة لم أرها من قبل، ومن الواضح أن هذا الفلاح لم يدخلها أيضا، اكتفى فقط بجمع بعض الركام في المقطف الذي حمله إلي، كانت مقبرة بعيدة عن تخيلاتي، وبعيدة عن المنطقة التي أنقب فيها، لم يكن يحق لي العمل فيها ولكن من يبالي؟!.. ربما كان هذا هو الحلم الذي انتظرته طويلا......

* * *

..... لم ينم «هوارد» في تلك الليلة، سهرت «عائشة» بجانبه وهو يتجول حائرا في ردهة المنزل، أخرج عديدًا من الرسوم القديمة التي رسمها للمنطقة عندما كان يقيم في الدير البحري، تتبع حواف الوادي وتعرجات الصخور ونتوءات التلال ليعرف من أين تبدأ هذه المقبرة الغريبة وأين تنتهي، وعندما جاء الفجر كانت تحيط بعينيه هالتان سوداوان، سمعت «عائشة» ضجة الرجال وهم قادمون في وقت مبكر، كان الضباب ما زال يكسو وجه النهر ويحيط بالمدينة القديمة، كانوا واقفين متأهبين أمام المنزل، يحملون المقاطف والمعاول، وعبد العال في مقدمتهم، وكان هوارد قد ارتدى ملابسه الكاكية منذ وقت مبكر ووضع على رأسه قبعة من اللباد، قال:

- سوف تأتين معنا..

هتفت في استنكار: وماذا أفعل أنا وسط كل هؤلاء الرجال؟

أشار إلى كومة من الملابس الكاكية تشبه ملابسه كانت موضوعة فوق منضدة صغيرة:

- يمكنك أن ترتدي هذه الملابس، لقد اشتراها «عبد العال» الليلة الماضية من الأقصر خصيصا من أجلك.

نظرت إليه مدهوشة، لم يكن يمزح، كان ينظر إليها في حزم، قالت:

- ولكن لماذا؟!.. أنت تنقب وحدك منذ سنوات طويلة؟

- هذا يوم مختلف، أنا على أبواب اكتشاف جديد، قد تكون المقبرة التي أحلم بها، أريدك أن تكوني بجانبي، أريد أن أتأكد أن حظي لن يخذلني هذه المرة..

لم يكن هناك مجال كي تضع حجابا أو تخفي وجهها، وكان السروال طويلا بعض الشيء، ولكنها جمعت شعرها في كومة واحدة ودسته تحت القبعة المصنوعة من اللباد، لم تكن هناك حمير فسار الجميع على أقدامهم، ظل الرجال يتابعونها في دهشة طوال الطريق، ولكنهم كانوا يخفضون رءوسهم كلما نظرت إلى واحد منهم، لم يجرؤ أحد على طرح أسئلة، ساروا بخطى حثيثة على الرمل المبلل بالندى، وبدأت مياه النهر تتلون بحمرة شاحبة، وملأت «عائشة» صدرها بأنفاس الصباح، سارت بجانبه وقد استردت ثقتها بنفسها، ليس عليها أن تختبئ بعد الآن.. بدت أعمدة الدير البحري نائمة ومتداخلة في حضن الجبل، انحرفوا جميعا ودخلوا في الممر

الصخري، لم يكن يسمع إلا مرور رجلين متجاورين، أمسك «هوارد» بيدها وهو يساعدها على عبور الصخور المنزلقة، ووقفوا جميعا أمام الصخرة المعلقة.

على الفور بدأ الرجال في تقسيم أنفسهم، الذين يحفرون والذين يحملون الأحجار، أما الغلمان الصغار فعليهم مهمة حمل قرب الماء، دخلوا تحت الصخرة وبدءوا الحفر دون تردد، ارتفعت أصوات ضربات المعاول من دون أن يرتفع صوت غناء، كانت المهمة تقتضي الهدوء والسرعة، هكذا كان اتفاقه معهم، شعرت «عائشة» بتوتر شديد وهي تراقب الصخرة المعلقة، لم يبد أن أحدا منهم يهتم بذلك، عرض عليها واحد من الأولاد كوبا من الماء ولكن رغم جفاف ريقها لم تستطع أن تتناوله، همست له:

- هل هذه هي المقبرة التي كنت تبحث عنها؟

قال في غموض: لا أدري.. الأمر أسهل من أن يكون حقيقيا.

واصل الرجال العمل في دأب، يسابقون شروق الشمس، قبل أن يكتشف حراس الآثار في الدير البحري ماذا يحدث، وقبل أن يأتي «ويجل» ويتهمه بأنه خالف التصريح الذي منحه له، لم يتوقف أحد، أو يطلب طعاما أو ماء، وظل «هوارد» مشدودا إلى فتحة المقبرة وهي تتخلص من الزوائد الصخرية وتظهر ببطء.

لم يتم تنظيف الممر المؤدي إلى داخل المقبرة إلا عندما أصبحت الشمس في منتصف السماء، ارتمى الرجال مجهدين في ظل الصخرة التي ظلت معلقة، حان دور «هوارد» للتحرك، أمسك في يده مصباحا كهربائيا صغيرا، كان اللورد قد أرسله خصيصا له من إنجلترا، لم

يعد هناك حاجة لاستخدام شعلات النار، أمسك بيد «عائشة» وبدآ ينحدران إلى أسفل، دخل معهم الريس «جريجر» رئيس العمال، أخذ يزيح بقايا الأحجار الموجودة في الممر، أحست «عائشة» بالهواء ثقيلا وعطنا، كانت غير قادرة على التقاط أنفاسها، ولكن «هوارد» ظل يواصل جذبها للداخل وهو يدير المصباح في كل اتجاه، كانت الجدران لدهشته ملساء وخالية من الرسوم، شطفت ونعمت واكتست بطبقة من الجص والجير، ولكن كل شيء توقف قبل أن يضع الفنان لمسته الأولى، لمسة السحر التي تجعل الفراغ المتجهم ينبض بالحياة، دار بالمصباح لعله يجد إشارة ما، أي شيء يهديه في هذا الممر المجهول، لم يكن هناك إلا المزيد من الأحجار، حملها العمال إلى الخارج وهم يلهثون، لم يكن هناك هواء، ورائحة عرقهم خانقة، استندت «عائشة» إلى الحائط لترتاح قليلا، أفضى بهما الممر إلى غرفة واسعة بعض الشيء، مليئة أيضا بالركام، كلها أشياء مدمرة، آنية وتماثيل وقوارب خشبية وتوابيت، كل شيء تم تحطيمه دون رحمة، لم يحاول أحد سرقتها أو الاستفادة منها، ظهرت آثار حريق ضخم، الجدران الجيرية ملوثة بطبقة من السناج، بقايا هشة متفحمة من تماثيل وهياكل خشبية، كأن هناك معركة دارت وقائعها في هذا المكان الضيق، تساءلت «عائشة» في خوف:

ـ هل فعل اللصوص كل هذا ؟

قال «هوارد» في ضيق وخيبة أمل:

ـ اللصوص لا يحطمون.. إنهم يعرفون أن هذه البقايا هي مصدر رزقهم، مهما حدث لا يحطمونها ولا يحاولون حرقها، هناك شيء غامض لا أفهمه.

أمر العمال بنقل البقايا التي يمكن الاستفادة منها، لم يكن يريد أن يخرج صفر اليدين، ولكن الفلاح كان على حق، لقد حذره قبل أن يسلب منه الحمارين، ولكنه ظل متمسكا بعناد اليائس، انسحب الرجال، لم يبق إلا «عائشة» واقفة في مواجهته، تتطلع إليه في إشفاق، أخذ يوجه ضوء المصباح إلى كل مكان حتى أصابه الوهن، خفت الضوء تدريجيا وسادت العتمة، لم يبد عليه أنه ينوي الخروج أو التحرك من مكانه، ظلت «عائشة» أيضا واقفة كاتمة أنفاسها، لم تهبه لمسة الحظ التي يسعى إليها، لم تستطع أن تهبها لنفسها أيضا، سمعت صوته وكأنه يفكر بصوت عال:

ـ إنها مقبرة لم تكتمل، حفروها في أعماق الجبل ثم تخلوا عنها، حاولوا إهانتها أيضا، قاموا بحرقها، ووضعوا فيها نفايات غير لائقة، اللصوص لم يفعلوا ذلك، ولكن بناة المقبرة أنفسهم قاموا بكل شيء.. ولكن لماذا؟

لم يكن لديها ما تقوله، ولا هواء تتنفسه، أحست بالعرق وهو يغمر جسمها، وأخيرا سمعته وهو يقول:

ـ لا جدوى من البقاء.. فلننصرف..

كوم العمال بقايا الركام التي جمعوها من المقبرة في الفناء الموجود أمام المنزل ثم انصرفوا، بدأ الليل يهبط على الوادي، وجلس «هوارد» صامتا في الشرفة، سوف تنتشر أخبار مغامرته الفاشلة في الصباح، سيسخر منه موظفو الآثار وباعة العاديات وساكنو الذهبيات الضخمة وقناصل الدول ومندوبو المتاحف، سيضحك عليه ديفيز، ويشمت

ويجلي، وستحل الكارثة عندما تصل الأخبار إلى اللورد كارترفون، يوم ضائع، وحلم آخر ضائع، هل كان عليه أن يستسلم؟

أمر «عبد العال» بأن يشعل ناراً، هبط إلى الفناء وجلست «عائشة» بجانبه، أحست بالنار الموقدة تلفحهما معاً، حاولا فصل الركام وتصنيفه، قطع المرمر في كومة، الخراطيش الناقصة في أخرى، بقايا الأطباق وقطع الفخار والخشب في ثالثة، أعاد ترتيبها لعله يستطيع أن يتم نقشاً، أو يعثر على اسم، كان الليل طويلاً، والذئاب واقفة في الجانب الآخر من السهل تحدق فيهما، نهض وأحضر المقطف الذي باعه له الفلاح بالأمس، أعاد ترتيب محتوياته مرة أخرى، ضمها معاً محاولاً أن يقيم كياناً من العدم، تحسس النقوش ثم هتف فجأة فيما يشبه الإلهام:

ـ إنها مقبرته، كانوا يعدونها له قبل أن يتمرد على كل شيء ويخرج عن سيطرتهم...!

قالت: من تعني؟

ـ أمنحتب الرابع.. الفرعون المارق «أخناتون»، عندما كان شاباً وفرعوناً على طيبة، كانوا يجهزون هذه المقبرة له، ولكنه حين ثار عليهم وغادر مدينتهم، دمروها وحاولوا إحراقها، أهانوها بأن وضعوا فيها بقايا المقابر الأخرى، هذا هو النقش الذي يحمل اسمه وشعاره، ولكنه دفن في الواقع في مكان مجهول، لا أحد يدري عنه شيئاً.

لم يهدأ، ظل يتقافز حولها، عثر أخيراً على قطع متشابهة من البازلت الأسود، كان يدرك أن هذا الاكتشاف بلا قيمة، مجرد تداعيات لحكايات تاريخية ليست مؤكدة، أصبح الليل أكثر برودة، وزحفت

«عائشة» على ركبتيها حتى جمعت له قدراً أكبر من الأحجار ليرى ما عليها من نقوش ناقصة، ذهب سريعاً للمنزل ثم عاد وهو يحمل عدسة مكبرة، قرب الأحجار بعضها من بعض وتأملها، قال:

ـ إنها لوحة.. كان من المقرر أن تعلق على باب المقبرة قبل أن يتم تحطيمها.. كلمات متفرقة « سيدفن هنا..من هو أحق..من ظفر..آمون»، من المؤكد أنها كانت معدة له قبل أن يغيروا رأيهم.. يا إلهي..هاهو ذا أخناتون يبرز لي مرة أخرى..مثل كابوس لا أستطيع التخلص منه..

قالت «عائشة»: ولكنه ليس مدفوناً هنا..

قال «هوارد»: من يدري؟!.. ربما دفن في الشمال، وربما جرى تهريب جثمانه إلى هنا، إنه يملأ الوادي من حولي، لا يظهر ولكنه لا يكف عن إرسال الإشارات لي..

نهض واقفاً، سار على الرمل في اتجاه المعبد المظلم، حيث كانت الذئاب تترصد خطواته..

صرخ بأعلى صوته في مواجهة الصمت:

ـ أعرف أنك هنا.. قريب مني، لماذا لا تظهر لي...؟!

تل العمارنة

من يزيح أقنعة الزمن، وينزع لفائف الكتان عن غموض الحقيقة؟

من يمتلك الحكمة ليعرف سر الموت وشهقة البعث وأبدية الخلود؟

في تلك الليلة كشف «أخناتون» عن لمحة ضئيلة من حقيقة الكون، كانت ليلة لم تكف فيها الذئاب عن العواء رغبة وجوعا، ظهر أمامه قمر متآكل الأطراف، ونجوم بعيدة الغور، وظل هو وحيدا، يحس ببرد الليل مثل إبر رفيعة تخز جلده. كان يقف عاريا وأعزل وجائعا، يبتهل للآلهة التي تخلت عنه، ولم تره آياتها، نفد الطعام والشراب، لم يبق معه إلا بضع لفائف من البردي، كتب عليها بعض الأناشيد والابتهالات، قبل أن يتركه «آتون» ويختفي خلف حافة الأفق، لماذا تتخلى عنا الآلهة فجأة عندما نكون في أمس الحاجة إليها؟.. حتى القمر بدأ ينحدر خلف الأشجار، في الوقت نفسه الذي تحتاج فيه روحه للمحة من الضوء، تطلع للغابة الفضية التي تحيط به،

هذه الأشجار المكسوة بالندى هي ملاذه الأخير، المكان الذي يهب له العزلة وسط عالم يتكاثر فيه الأعداء ويقل الأصدقاء، كيف يمكن أن يخرج من نفوس الناس ضغائن أيام العبودية القديمة، عبودية آلهة مختلفة الأوجه، وكهنة متسلطين؟! أدرك فجأة أنه من العسير أن يتحمل عبء تغيير عالم شديد الاتساع وبالغ القدم..

كان يعرف أن جسده البارد المتوحد لن يدفئه إلا ملمس جسد «نفرتيتي»، زوجته ومعشوقته، ولن يملأ هذا الصمت الموحش إلا ضحكات بناته، نهض رغم آلام مفاصله المتيبسة، انتصب واقفا بشكله الغريب، بطنه منتفخ كالقربة، وركبتاه ناتئتان تبدوان كأنما جرى تركيبهما بطريقة خاطئة، كان جلده العاري قد دبغته الشمس، ومن تحته برزت حواف أضلاعه، بارزة وحادة، أشرقت الشمس وغربت على جسده العاري لمدة سبعة أيام متوالية، كل واحد منها كأنه اليوم الأول لخلق الكون، جلده العاري أول من يتشرب أشعتها وآخر من يحرم من دفئها، هذه لحظات تفرده بالإله الجديد لعله يهبه بعضا من أسراره أو يعطيه كل أسراره.

هبط من فوق التل، تنتظره في الأسفل ثلة من الحرس، يقفون منذ أسبوع كامل، متوقعين هبوطه في أي لحظة، أو عدم هبوطه على الإطلاق، غض الجنود من عيونهم حتى لا يلمح أحد منهم جزءا من لحم الفرعون المقدس عاريا، أسرع كاهن آتون الأعظم وهو يحمل عباءة بيضاء مطرزا عليها بخيوط من الذهب قرص شمس، أشعته تأخذ شكل أذرع مفرودة، وضعها على جسد الفرعون، أحاط به الحرس، كانوا في العادة يرتمون عند رؤيته على الأرض ويعفرون وجوههم في التراب، ولكن الفرعون منعهم من ذلك، اكتفى منهم

بانحناءة صغيرة، سمح لهم بالاقتراب منه حتى إنهم كانوا يشمون رائحة جسده المضمخ برائحة الكافور، بالقرب منهم تقف العربة المجنحة الخاصة به مجهزة بالخيول البيضاء، اللون المخصص للفرعون فقط.

كان النيل يشرف على بحيرة «بايم» الواسعة، التي خرج منها الطين الأول للخلق، وما زال قاعها يحفظ ذاكرة الأرض، مياهها هي التي يتطهر فيها الإله قبل شروقه، تطل منها رءوس التماسيح، وتحوم على سطحها طيور مالك الحزين، منتظرة لحظة الشروق والبعث، وترتسم على مويجاتها مسارات الشمس والقمر والسحب والنجوم، وخلف البحيرة تمتد مخاضة من الطين حتى حافة الغابة القصية، المكان الذي اختاره «أخناتون» ليعتزل فيه، هنا موطن آتون، جاء منها على الرغم من أنها منطقة خطرة، مليئة بالأشواك وأوكار الذئاب وبنات آوى، ولكن الآلهة في العادة تولد هكذا.

ارتجف الفرعون وهو يحس بملمس الكتان على جلده، لم يكن يريد لشيء أن يعزله عن هواء العالم، ولكنه يضم العباءة حول جسده، يتجه نحو العربة، امتطى الحراس جيادهم واصطفوا خلفه حتى يتبعوا عربته، تعود أن يقودها بنفسه، يسير في المقدمة وهو يحس أنه عاد إلى أرض الواقع فجأة، كان في انتظاره دولة مترامية الأطراف وشديدة الاضطراب، في الجنوب يوجد كهنة «طيبة» المتمردون، لا يؤيدونه ولا يتبعون ديانته، وعلى أطراف الصحراء في الشمال، يقف أعداؤه من قبائل آسيا متحفزين، يطلبون ثأرهم منه بعد أن رحل أبوه الذي طالما قهرهم وخرب مدنهم، كان الأعداء أكثر من أن يضمهم كون واحد، ولكن من حسن الحظ أن زوجته وبناته كن دوما في انتظاره،

قطرات حب وحيدة وسط موج من الكراهية، هل كان من الضروري أن يحبه الناس فعلا؟ تذكر الكلمات التي كانت أمه الملكة «تي» ترددها عليه دوما:

- «لا تحرص على حبهم، إنه أمر غير مجد، اجعلهم يخافونك لتكون طاعتهم عمياء»..

ولكن من كان يمتلك قوة كقوتها؟ أبوه «أمنحتب» نفسه، الذي أذل الحيثيين والنوبيين، كان يقف أمامها مرتجفا مجردا من ألوهيته، كانت «تي» إلهة حقيقية تلبستها روح إيزيس، كان حرس القصر يتهامسون بأنها تتحول في الليالي المقمرة إلى ذئبة جائعة، تمرق في طرقات القصر وهي تعوي من فرط الرغبة، ظل يخشاها حتى بعد أن بلغ طور الشباب، وعندما اختار «نفرتيتي» زوجة له، لم تخف «تي» امتعاضها من ملامحها الغريبة، من بشرتها البيضاء ورقبتها الطويلة وعيونها الواسعة التي لا تخلو من حزن، كانت تقول له دوما:

- إنها لا تبدو مصرية كما يجب، أي دماء هذه تلك التي تجري في عروقها؟!

وكان أبوه يكتفي بالنظر إليه مشفقا، كان قاهر آسيا العجوز ينحدر سريعا نحو وهن الشيخوخة وهو غير واثق بقدرة الوريث الذي سيخلفه على العرش من الإمساك بزمام الأمور، ساقان معوجتان، وبطن منتفخ، وملامح جاحظة، ملك مثل هذا.. كيف يستطيع أن يحكم إمبراطورية بهذا الاتساع؟!

دون أن يدري «أخناتون» كان يشد على عنان جواده بيد ويهوي بالسوط الذي يحمله باليد الأخرى، مرقت العربة في الغابة المعتمة

دون أن يستطيع الحرس ملاحقته، كأن هموم العالم التي هرب منها على مدى الأيام الماضية قد أصبحت تلاحقه بقوة.

يعترض طريقه فجأة أحد الذئاب، كان ضخما لم ير مثله من قبل، يقف في وسط الطريق تماما، غير مبال بسنابك الخيل المندفعة نحوه، كشّر عن أنيابه، مسلطا عليه عينيه المضيئتين، ربما هي الملكة «تي» وقد انبعثت تحذره من أمر ما، أصدر الذئب عواء غريبا، شد «أخناتون» الأعنة بشدة حتى أحست الخيول أنها على وشك الاختناق، رفعت قوائمها الأمامية، وحفرت الخلفية خطوطا في الأرض، أحس بنفسه يطير عاليا في الهواء ويسقط وسط دغل من الأشجار، لم يفقد الوعي، ولكن جسده كله كان يؤلمه، كانت الأشواك تخزه من كل جانب، ثم بدأ يرى النقاط اللامعة وهي تقترب منه، جمرات صغيرة، تسلل ضوء القمر من بين الغصون ليكشف عن أجسادها، اقتربت منه حتى إنه اشتم رائحتها الزنخة، ظل غير قادر على القيام بأي حركة، أحاطت به في نصف دائرة، أفواهها مفتوحة وألسنتها متدلية ولا تكف عن اللهاث، كأنها تتدبر أمورها لترى إن كانت هذه الوجبة الهزيلة جديرة بالهجوم.

عوى ذئب منها عاليا، كأنه يدعوها جميعا للانقضاض، أحس بمخالبها وهي تنغرس في لحمه، أغمض عينيه في انتظار أنيابها، لا حاجة للخلود، لا جدوى منه، ثم انبعثت صرخة، لم يكن عواء، كانت صرخة مكتومة وارتجافة وسائلا دافئا متدفقا، توقفت الأظافر ولم تأت الأنياب، وارتفعت أصوات العواء ولكن الجسد الدافئ ظل ملتصقا به وهو يرتجف، فتح عينيه، كان السائل اللزج يغطي

وجهه، و جسد الذئب ملتصقا به وهو ما زال ينتفض، وهناك سهم منغرس في بطنه.

أزاح من فوقه جثة الذئب وحاول أن يرفع رأسه، لاذت بقية الذئاب بالفرار، ولكنه لمح شيئا آخر، طيفا أبيض كأنه قطعة من الضباب، ركز الفرعون عينيه عليه، واصل الطيف التقدم منه، ظهرت معالم جسده، شخص طويل القامة، عريض الكتفين، يرتدي عباءة بيضاء ويمسك قوسا في يد، وفي الأخرى جعبة مليئة بالسهام، مد ذراعه القوية ورفع جسد الفرعون الهزيل من بين الأشواك، قال «أخناتون» في صوت واهن:

- كالعادة وصلت في وقتك المناسب يا «حورمحب»..!

وقبل أن يسقط على الأرض مد «حورمحب» يده، أسند جسده العاري بعد أن تمزقت عباءته، خلع عباءته ولفه بها، بدت عضلات جسده جميلة ومتناسقة، بدون جهد، حمل جسد الفرعون وألقاه على كتفه ثم سار به عبر الغابة.

لم يفق الفرعون من إغماءته إلا بعد يومين، ظن في البداية أنه كان يخوض كابوسا مزعجا، ولكن الجروح كانت تملأ وجهه، والرضوض تؤلم جسده، وجه «نفرتيتي» الجميل كان يطل عليه، وعيناها الواسعتان مليئتان بالخوف، قالت:

- يا آتون.. لقد خفت أن ترحل وتتركنا..

حاول أن يبتسم وهو يقول: لم يحن الأوان بعد..

كانت كلماته إشارة مشجعة لتدخل بناته الست دفعة واحدة،

اندفعن إلى فراشه وأحطن به من كل جانب، هذه لحظات الراحة والأمان في حياته، عندما يشعر بأنه ليس مطاردا أو مهددا، تحسس شعورهن المجعدة، كن يحملن كثيرا من ملامح أمهن، كانت «نفرتيتي» خمصاء البطن، صغيرة ورقيقة ولا تصلح إلا لإنجاب البنات، كان يود أن يأخذن منها بعضا من جمالها، كانت تفيض به على كل شيء، ولكنها لم تعط منه الكثير لبناتها، ضم أكبر بناته «تخنع إسن» إلى صدره، دائما ما يشعر نحوها بنوع من الاعتذار الخفي، كان يتمنى دوما لو كانت ولدا حتى ينهي أي صراع محتمل على العرش، ولكنها كانت أيضا المقدمة لذرية من البنات، كانت «إسن» قد ورثت عن أمها طولها الفارع ولكنها كانت أكثر قوة، كأنها أوشكت أن تصبح ولدا ثم غيرت جنسها في اللحظة الأخيرة.

أحضروا له الخبز الطازج والفاكهة والحليب الطازج، أكل قليلا وأحس أنه يسترد بعضا من قوته، نهض من الفراش ووقف في المشرفة، أطل على مدينته الجديدة «أخت آتون»، كان قد اختار هذا الموقع بعناية بحيث يتوسط مملكته التي تمتد شمالا وجنوبا، وبحيث يبتعد عن طيبة.. مدينة الكراهية والآلهة الشريرة، كانت سهلا يمتد أمام الأبصار، مرتفعًا قليلا عن شاطئ النيل بحيث لا تتعرض لأخطار الفيضان، يحفها النيل من الجانب الغربي، أما الجانب الشرقي فقد كان محاطا بالمنحدرات الصخرية بحيث يحميها من أي هجوم مباغت، ويوفر الصخور والأحجار اللازمة لعمارتها، كما كان هناك في أطرافها واد عميق يمكن أن يصلح مكانا للمقابر لكل الملوك الذين يتأهبون للخلود، وكان العمال والبناءون قد بدءوا بالفعل في بناء مقبرته الجديدة بهذا الوادي، كانت هذه مدينة الضوء كما

حلم أن تكون، تتألق أحجارها الجيرية كل صباح حين تشرق عليها شمس آتون، كانت مدينة إلهية، ليس فيها مكان للعتمة أو الخديعة، ستمضي سنوات قليلة وسيدرك الناس مدى أهمية دعوته، ويدرك الجميع في وادي النيل أو في الأراضي البعيدة النائية أنهم يشاركون في إله واحد.

دخل أحد الحرس، انحنى وهو يعلن قدوم القائد «حورمحب»، كان واحدا من ضمن أفراد قلائل مسموح لهم بالدخول إلى الجناح الداخلي، ورؤية الفرعون دون أبهة أو عرش، دخل بقامته الفارعة وثوبه العسكري المكون من شرائح الجلد وقطع المعدن، كأنه متأهب لدخول المعركة في التو، لم يكن الفرعون يحب هذه الأزياء العسكرية المختالة، ولكنه كان يحب «حورمحب»، لم يفترقا منذ أن كانا صغيرين، هو الذي يتدخل دوما في اللحظة المناسبة ويوفر له الأمان، توقف أمامه وهو يحني رأسه، قال أخناتون:

ـ تحياتي أيها القائد الشجاع، مرة أخرى أنقذت حياتي، وأنا مدين لك من جديد، اطلب ما تريد؟

تقدم «حورمحب» خطوة، وعدل قامته ليؤكد على كلماته:

ـ أريد أن أحارب يا مولاي.

امتقع وجه «أخناتون» وهو يستمع إلى نبراته الحازمة، إنها الحرب مرة أخرى، الكلمة التي عاش أبوه طوال عمره وهو يرددها ومات قبل أن ينهي معاركه، ظل صامتا فترة، كان على وشك أن يرفض طلب قائده، الطلب الذي كان يوازي إنقاذه لحياته، قال:

ـ لا أريد أن تكون «أخت آتون» مدينة للحرب والقتال، أريد أن أهبها للحياة.. للغرس والزرع والحصاد والرقص والعشق والغناء، هذا هو مجدها الحقيقي.

قال «حورمحب» بنفس الحزم:

ـ لو لم تذهب هذه المدينة إلى الحرب فستأتي الحرب إلى شوارعها، يعتقد الأعداء أنك حين غادرت طيبة كنت هاربا وضعيفا، وأن جيوشك منقسمة على نفسها، إنهم يتحرشون بالحاميات المصرية على حدود الشمال، وإذا لم نسر إليهم فسوف يعبرون أرض كنعان المتحالفة معنا، ثم يعبرون أرضنا عند وادي الفيروز ويغيرون علينا.

كتم «أخناتون» أنفاسه، تحول «حورمحب» فجأة من كائن بشري إلى تمثال من البرونز، بالغ الصلادة والتصميم، ولم يكن يدري إن كان من الممكن أن تصل كلماته إليه أم لا، قال:

ـ آتون ليس إلها للحرب، ولن أشن حربا باسمه، لم تعد في طيبة وإلهها الشرير آمون، كان إلها بدائيا لا يرتوي إلا بالدم، لا يعرف إلا لغة الحرب، لذا كان الجميع لا يؤمنون به بل يخافونه، علينا أن نعطي لهؤلاء الغرباء إلها يفهمونه ويحبونه، وسوف يكفون هم أيضا عن الحرب والقتال.

ـ إنها قبائل بدائية يامولاي لا يسمو تفكيرها إلى هذا الحد، ولن يوقفها عن رغبتها المتعطشة للقتل والسلب، لقد أرسل حليفنا على أرض كنعان رسالة يحذرنا من هجومها المتواصل على حاميته،

وعندما يصل الأعداء إلى هناك فهذا يعني أننا يجب أن نحارب على بوابات مصر، حتى آلهة السلام يامولاي تحتاج إلى القوة..

مرة أخرى هز الفرعون رأسه رافضا، جثا «حورمحب» على ركبتيه، كان أكثر الناس علما بالوضع الخطر للبلاد، كان قد رحل وهو محارب عبر الصحراء، نضج وترقى وسط الدم وصليل السيوف، ولكن كان للأعداء ألف رأس، كلما قطع واحد برز آخر، وهاهم أولاء ينهضون من جديد، طالبين الثأر لكل هزائمهم السابقة.. عاد يتوسل قائلا كأنه يتلو تعويذة:

ـ إنهم كالجراد يامولاي، عندما يقبلون على وادينا، لن يبقوا على معبد ولا قرية ولا مدينة، ستتحول الأرض الخضراء إلى خراب، وسيمتلئ النهر بالدماء، إنهم لا يؤمنون إلا بقوة النار، ولا يخلفون إلا رماد الحرائق، علينا أن نذهب إليهم قبل أن يهبطوا علينا ونخوض ضدهم المعركة الأخيرة.

كانت بلاغة «حورمحب» كبيرة، أكبر من طاقة جندي صارم الملامح، ولكن لم يبد على الفرعون أنه تأثر بها كثيرا، قال:

ـ لا توجد أبدا معركة أخيرة يا «حورمحب»، متى بدأت الحرب، فإنها لا تنتهي، ابحث عن حل آخر غير القتال، تفاوض، تصالح..

نهض «حورمحب» من على الأرض، كان وجهه مربدا بالغضب، سار في خطوات سريعة، نزع السيف من يد أحد الحرس، وللحظة ارتد «أخناتون» متوجسا في خوف، ولكن «حورمحب» قلب السيف ووجهه إلى صدره وهو يهتف:

- أنا رجل قتال، لا أجيد التفاوض أو التصالح، وإن لم تأذن لي بالحرب فسأقتل نفسي أمامك الآن.

وقفا متواجهين وهما يرتجفان، كان مصير الدولة الواسعة يتقرر في هذه اللحظة، أي قوة تعتمد عليها: ضوء الشمس أم البريق المنبعث من نصل السيف؟!، كان على الفرعون أن يختار، ولكن ذلك لم يكن في قدرته، لم يرد أن يفقد قائده وصديقه، ولم يدر أين تكمن الحقيقة، في قلبه أم في سيف «حورمحب»، قال في وهن وهو يجلس على أحد المقاعد:

- أعطني وقتا إذن لأتخذ قراري، ليس من السهل أن أدعو للحياة في الوقت الذي أرسل فيه جيوشي من أجل الموت.

استدار «حورمحب» وانصرف دون أن تنفرج أساريره، وظل «أخناتون» جالسا وحيدا، سمع وقع أقدام خفيفة لا تكاد تمس الأرض، شم عطرها وهي تقترب منه، الوحيدةالقادرة على جعله يفيق من شروده، جثت على الأرض أمامه وقربت رأسها من صدره، تأمل عينيها الواسعتين، كانتا مليئتين بالرغبة والحزن، مرر شفتيه على رقبتها كما كان يعشق، أحس برجفة جسدها وهي تستجيب له، كانت تستجيب أيضا في الفراش دون أن تنهكه، ودون أن تطيل في اختبار رجولته، رغبتها دوما على مقاس رغبته، توازي جوعه، وتكتفي بشبعه، احتاج فقط لجسدها دون أي محظية بجانبه، ورغم حاجته الملحة إلى ولد يرث عرشه، لم يتصور أن يجيء من بطن آخر غير بطنها.

رفعت إليه وجها مبللا بالدموع، قالت في صوت خافت:

- جاءت إليك رسالة من طيبة..

نظر إليها مدهوشا، لم تكن الرسائل الواردة للفرعون تدخل أبدا إلى حريم القصر، ولكنها أضافت:

- إنها من «رعموزا»، أرسلها مع ابنه بعد أن أوصاه بأن يسلمها لك شخصيا، وإذا لم يستطع فعليه أن يسلمها لي، لا أحد يعلم بها حتى الوزير الأكبر..

سارت بخفة الفراشات خارجة من الغرفة، وظل هو جالسا عاجزا عن الحركة، و قلبه يدق في توجس، عادت وهي تمسك لفافة البردي، كانت مغلقة وعليها ختم «رعموزا»، قال في دهشة:

- أنت لم تفتحيها!

- لم أجرؤ.. ولكنني أشعر بأنني أعرف محتواها.

فتحها بسرعة، تطلع للخراطيش المتجاورة التي كتبها «رعموزا» بخط يده، لم يشأ أن يتركها لأي من الكتبة، قال في صوت مكتوم:

-إنها مازالت على قيد الحياة.. ولكنها في حالة سيئة.. يقول أطباء المعبد إن مرضها لا برء منه.. إنها في لحظاتها الأخيرة..

كان صوته يرتعد، وقالت «نفرتيتي» محاولة أن تهون الأمر عليه:

- ألا توجد وسيلة لإحضارها إلى هنا؟

- فات أوان ذلك، أنا الذي يجب أن أذهب إليها..

صرخت في فزع: لن تعود إلى طيبة يامولاي، إنها مدينة الإله

الشرير آمون، هناك يوجد كهنته المتربصون، ينتظرون مثل هذه الفرصة.

كانت تحذيراتها كافية حتى يصر على موقفه، لماذا يذكره الجميع دائما بأنه خرج من طيبة هاربا؟ لماذا يعتقدون أنه خائف من العودة إلى هذه المدينة المارقة؟ إنه ما زال الفرعون، ويستطيع أن يقود جيشه إليها بدلا من أن يذهب إلى الشمال، ولحظتها لن يجرؤ أحد من الكهنة على الوقوف في وجه قوته، ولكنه لم يرد استخدامها، لم يرد أن يلوث نهر طيبة بالدم، ورغم ذلك كان يدرك مدى الخطر الذي ينتظره هناك، قال:

ـ سأذهب متنكرا.. لن يعرفني أحد.

شهقت «نفرتيتي» في إنكار:

ـ مستحيل.. أنت ملك، وإذا أردت أن تذهب إلى مدينتك فاذهب إليها كملك، خذ «حورمحب»، وخذ جيشا معك.

ـ «حورمحب» مشغول بالحروب الكبرى، حروبي صغيرة، ورغباتي بسيطة ومثيرة للأسى، أريد فقط أن أودع أمي قبل أن ترحل للعالم الآخر.

ـ أنا خائفة.. كلما تركتني وحيدة متّ رعبا أنا وبقية البنات..

ـ لن أغيب طويلا.. سيكون رحيلي سرا، قولي إنني احتجبت لأنني أكتب ابتهالات جديدة لآتون، لا أريد لأمي أن تراني بوصفي ملكا.. ولكن أريدها أن تتذكر الطفل الصغير الذي كنته ذات يوم..

رأى عينيها الدامعتين، و شعرها المتكوم فوق رأسها، التسريحة

المفضلة التي كانت تظهر جمال رقبتها، أدخل يده في خصلاتها وبدأ يفك ما فيها من مشابك ذهبية، شعر بالرغبة تنتقل من أطراف أصابعه إلى بقية جسده، كان كلاهما يرتجفان، وذهبا سويا إلى الفراش ليخففا من رجفتهما قليلا..

لم يعرف بأمر الرحلة إلا اثنان من أخلص حرسه، رافقته «نفرتيتي» بدموعها عبر السراديب الخلفية للقصر، توقفت هناك واحتضنته بقوة لعله يعدل عن رأيه، ولكنه نزع نفسه منها برفق وسار مع الحارسين على أقدامهم حتى مرسى المراكب، كان قد أوصى الحارسين اللذين تنكرا في هيئة تابعين أن يعاملاه بالحد الأدنى من الاحترام، تركهما يفاوضان «المراكبي» على تكاليف الرحلة دون أن يكشفا عن شخصيته، حرص على أن يسدل على رأسه عباءة تغطي معظم وجهه، كانت المركب مليئة بالجرار، تنقل جرار العسل والتمر من الجنوب، وتعود من الشمال حاملة جرار الخمر والحنطة والكتان، أشار واحد من التابعين إليه وهو يقول: إنه تاجر كبير ذاهب لطيبة لشراء كميات كبيرة من البصل، وسوف ينام على فراش في قاع السفينة لأن صحته لا تتحمل برد النهر.

في منتصف الليل بدأت السفينة الرحلة بعد أن ملأت ريح الشمال أشرعتها، اندفعت مقدمتها وسط الماء المظلم كأفعى أطلق سراحها، انساب صوت البحارة بالغناء وهم يشدون الحبال، ملأت أصواتهم الخشنة سكون الليل، جلس على حافة المركب يراقب معالم آتون وهي تبتعد عنه، اختفت من أنفه رائحة الجير والملاط، لم تكن المدينة الجديدة قد أخذت رائحة البشر بعد، لم تعرف زحامهم ولحظات عشقهم ولا شجاراتهم اليومية، مدينة نظيفة بلا تفاصيل

حياة ولاذكريات تروى، أخذ الشاطئ الطيني يرتفع كسد مظلم ليخفي وراءه كل شيء، تذكر فجأة أنه لم يعط «حورمحب» الجواب الذي ينتظره، وربما كانت هذه الرحلة هربا منه.

في الليلة الأولى لم يستطع النوم، خنقته الروائح الثقيلة في القاع، وأصوات قرض الفئران التي لا تهدأ، صعد إلى ظهر السفينة حيث كان الجميع يشخرون في أصوات متداخلة، لم يبق ساهرا إلا بحار وحيد يمسك بالدفة ويوجهها حتى لا تصطدم بالشاطئ، كانت البلاد كلها في حاجة لمن يقود دفتها، هل كان عليه أن يغير أفكاره ويتخلى عن آلهته، أم يقر بالعجز ويسلمها لـ«حورمحب» ليشن حروبه ضد الجميع، في الأيام الأخيرة من حكم أبيه «أمنحتب»، عندما كان في أوهن لحظات ضعفه كانت الدولة في أوج قوتها، كان ممثلو الدول الغربية لا يتوقفون عن التوافد، يحملون الهدايا ويتوقون لعقد معاهدات المصالحة، لم يكن أحد يدري أن الأسد العجوز قد أصبح خائر القوى، منزوع الأنياب، كان كتبة قصره يتحدثون «الأكادية» و«الآرامية» و«الإغريقية»، وكان هو بوصفه وريثا لهذا العرش متوحدا دائما، يراقب كل ما يحدث صامتا ومتفكرا، يهبط إلى أسواق طيبة، يجلس متنكرا في الحانات المزدحمة بالغرباء، يجالس التجار والمسافرين الذين يجوبون العالم، يحدثونه عن حكماء الشرق البعيد الذين يتناسخون عبر حيوات متعددة، ومقاتلي الشمال الأشداء الذين يشبون وينشئون فقط من أجل الحرب، كان عقله يخزن كل هذه الأفكار الجديدة وهو يجوس في مدينته القديمة، ويدرك أن قوتها زائفة، وأن ذلك المجد عابر ولن يدوم طويلا، على طيبة أن تكف عن محاربة الآخرين قليلا وتنصت إلى صوت أفكارهم، كان

الكهنة يقفون ضد كل هذه الأفكار الجديدة، سيصرون على مواصلة الحرب، لأن كل ثمار الغزوات والانتصارات تصب في معابدهم.

أشرق النهار عليه وهو ما زال مستيقظا، تواصلت أيام الرحيل بين اليقظة والأرق، وأخذ النهر يغير من أشكاله، ازدادت كثافة المياه البنية، وبدت سلاسل متتابعة من الجبال، كان لونها ناصعا تحت الشمس، وتكسوها ظلال قرمزية في لحظات الغروب، يضيق النهر أحيانا عندما تحاصره الجبال من الجانبين وتقترب المركب من طبقات الصخور فتبدو فوهات المقابر و المغارات التي تأوي الهاربين، يخيم الصمت مطبقا حتى إن الطيور تكف عن متابعة المركب، لاتظهر مرة أخرى إلا حين تنزاح الجبال وتمتد الخضرة على الجانبين وتبدو أشجار النخيل والجميز والدوم، يتوقف المركب على حافة القرى الطينية التي تعلوها أبراج الحمام، يهبط البحارة ليشتروا الخبز والخضراوات والفاكهة من الفلاحات.

في آخر أيام الرحلة ازدادت شدة الرياح، وأخذت المركب تنحدر بسهولة على الرغم من أنها كانت تسير عكس التيار، حملتها رياح الشمال مثل طائر أهوج، ولكن البحارة طووا الشراع وغيروا اتجاه الدفة بحيث مالت المركب فجأة ورست على جانب من الشاطئ، وقال المراكبي:

ـ لقد اقتربنا من طيبة ويجب أن نستعد قبل الدخول إليها.. يجب أن نقدم لها التحية الواجبة، إنها سيدة مدن الدنيا..

ظل «أخناتون» واقفا في مقدمة المركب بقلب واجف، لم يعد هناك سبيل للتراجع، هاهو ذا يعود متنكرا وخائفا إلى المدينة التي

كان إلهاً لها، هل يمكن أن يكتشفوا وجوده؟ هل مازالوا يتذكرون وجهه؟ واصل المركب الإبحار طوال الليل، حتى يدخل «طيبة» مع إشراقة الصباح، زينت بسعف النخل وأغصان الجميز والأزهار البرية، تقليد يتبعه كل البحارة عندما يقتربون من سيدة مدن الدنيا، أحضروا الدفوف والطبول وبدءوا في الغناء بينما انزلق المركب وسط الضباب الخفيف الذي ينام فوق المياه.

ظهر أمامهم سهل وافر الخضرة تنتشر فيه أشجار النخيل خلفها سلسلة من التلال الرمادية، ظهرت الأسوار الحجرية التي تبدأ من حافة الشاطئ وتستدير لتفصل المدينة عن حدود الصحراء، بدت القصور المطلة على الشاطئ بأعمدتها السامقة، وارتفعت قمم المسلات والمعابد، هب أريج المدينة الذي يعرفه «أخناتون» جيداً وطالما علق في أنفه، رائحة أشجار الياسمين ومعامل الجعة ومحارق الجير ومدابغ الجلود ومقطرات العطور، وفور أن لمست مقدمة المركب الشاطئ دخلوا جميعاً في ضجة المدينة، احتشد الحمالون والشحاذون والصبية الذين يقودون الحمير، أحكم «أخناتون» رأس العباءة على وجهه قبل أن يستعد للهبوط، كان يفضل أن يصل ليلاً ويغادر ليلاً، ولكن موج النيل وحده هو الذي يحدد وقت الوصول والرحيل، عليه أن يبحث عن مكان يسكن فيه ويتناول فيه الطعام حتى يحل المساء.

سار في المقدمة، وسار الحارسان خلفه بخطوات قلائل، دون أن يغيب عن عيونهما، كانت المدينة مزدحمة فوق العادة، تعيش احتفالاً خاصاً وصاخباً، أصوات الدفوف والغناء تنبعث من خيام كثيرة منصوبة في عرض الشارع، وساحات المعابد مليئة بالناس،

موائد الطعام والشراب في كل مكان، ولكن الذي أثار دهشته حقاً هو كل هذا العدد من العبيد الذين يسيرون بزهو وهم يستعرضون جلودهم السوداء المدهونة بالزيت، وهم يسحبون في أيديهم نسوة من مختلف الألوان، أخذ «أخناتون» يقدح ذهنه محاولاً أن يتذكر المناسبات الكبرى التي كانت المدينة تحتفل فيها بهذا الصخب، لم يتذكر غير مناسبة رحيل فرعون وقيام آخر، فهل كانوا مازالوا يحتفلون برحيله؟

توقف أمام أحد بيوت الجعة، كانت أصوات الرجال والنساء، تتعالى من داخله في هياج، خطر بباله فجأة أن هذا هو المكان المناسب الذي يبحث عنه، سيدخل وسط زحام السكارى ويجلس ساكناً في أحد الأركان ويقضي مايتبقى من اليوم حتى يحل الظلام على المدينة، لا يوجد أمامه حل غير ذلك، أشار لتابعيه أن يقفا بالقرب من الباب لتنبيهه عند وقوع أي خطر، حانة معتمة، روائحها ثقيلة، قائمة على أعمدة من النخل ومكسوة بالسعف، بحيث يمنع حرارة الشمس، سار بين المناضد والأرائك المتفرقة التي يجلس حولها الشاربون وأمامهم أكواب الجعة الضخمة مغطاة بالرغوة البيضاء وأطباق البصل الأخضر والفول والترمس، لم يكن «أخناتون» يحب الجعة كثيراً، لأنها كانت شراب «آمون» المفضل، وكان الكهنة يملئون معابده بالدنان في وقت الاحتفالات، عليه الآن أن يجلس ويتظاهر بأنه يشارك الجميع الشراب والسكر، وبالفعل أقبل صاحب الحانة على الفور ووضع أمامه كوباً مترعة.

أرهف أذنيه ليستمع إلى الأحاديث المتناثرة، كانت تردد بكل الألسنة واللغات، فلاحون جاءوا من على طول الوادي، من النوبة

حتى منف في الشمال، آكاديون جاءوا عبر الصحراء من بلاد ما بين النهرين، وبحارة من جزر الشمال، صيادون من السواحل ورعاة من البراري وبدو من الصحراء، كانوا يتحدثون في ألفة، وقد أزال الشراب ما بينهم من حواجز، تذوق الجعة، كانت حامضة ومقززة، أغمض عينيه وتمنى لو لم يكن في هذه المدينة، كان جالسا وسط زوجته وبناته، في مدينة غضّة ناضرة غير محملة بأوزار العالم القديم، رفع عينيه فوجد أمامه امرأة سوداء عارية الصدر، مالت عليه حتى أصبح ثدياها تحت أنفه تماما، كانت واحدة من «حاملات البهجة» اللواتي يكثرن في الحانات، ويأخذن الزبائن إلى البيوت المخصصة لهن على أطراف المعابد، سألته في صوت مبحوح إن كان يريد أن يرتاح عندها قليلا، احمرّ وجهه رافضا، لوت وجهها في امتعاض وابتعدت عنه، انضمت لمجموعة أخرى من النساء وأخذن يتهامسن ويضحكن في صوت عال، أدار وجهه للناحية الأخرى، كان المكان مليئا بكثيرات من النساء، أنواع وألوان مختلفة، ولكن ما أن أدار وجهه مرة أخرى حتى وجد أمامه عبدا أسود عاري الصدر، أخذ يحرك أمامه عضلات صدره وذراعيه، كان يعرض خدماته عليه، أي نوع من الخدمات، قال بصوت مخنوق.. يا إلهي.. كلا.. ارتفعت ضحكات صاخبة من منضدة النساء، لوح له العبد بقبضته في غيظ، كانت الحانة كلها في حالة من الإثارة والهياج لم يستطع احتماله، ولكنه لم يكن يستطيع الخروج، لمح بطرف عينه امرأة أخرى تجلس وحدها، لم تكن تشرب الجعة كالباقيات، ولكن كان أمامها كأس من شراب نبيذ الأعناب المرتفع الثمن، جميلة وترتدي ثيابا فاخرة، تبدو كأنها لا تنتمي إلى هذا المكان، كان يعرف وجهها، رغم مساحيق الزينة التي

تغطيه، كان متأكدا من أنه التقى بها أكثر من مرة، ربما داخل القصر، أو في حفلات المعبد، امرأة مهمة، أو على الأقل زوجة لرجل مهم، ملامحها ظلت مطبوعة في ذاكرته رغم مغادرته للمدينة لكنه لا يذكر اسمها، ما الذي جاء بها إلى هذا المكان؟ هل يمكن أن تتعرف عليه؟ ولو كانت عدوة قديمة، فسوف تصيح وتدل الناس عليه، كان يجب أن ينهض مبتعدا، ولكنه وجد المرأة قد رأته بالفعل وسلطت عينيها عليه، تتأمله في استغراب، بحث في جيبه عن قطعة نحاسية يتركها لصاحب الحانة، ولكنها كانت قد تحركت من مكانها وبدأت تتجه نحوه، تسد عليه طريق الخروج، هل كشفته و قررت أن تواجهه؟ اقتربت من منضدته ومالت أمامه، أوشك ثدياها أن يخرجا من فتحة ثوبها، سمع صوتها وهي تقول:

ـ لا يجب أن تجلس وحدك في مثل هذا اليوم.

استدارت حول المنضدة وجلست بجانبه، التصقت به حتى أحس بواحد من ثدييها ينام على ذراعه، رغم غرابة الموقف تنهد في ارتياح، لم تتعرف عليه، ربما بسبب لحيته التي طالت أثناء رحيله في النهر، أو لأنها لم تتصور أن يكون فرعون مصر جالسا في هذا المكان الخانق، عادت تقول في إلحاح:

ـ أنت غريب أليس كذلك ؟

قال أخناتون: أجل

قالت المرأة في صوت مبحوح من فرط الرغبة وهي تغرس ثدييها أكثر في ذراعه:

ـ لاتقل لي اسمك ولا من أين جئت، أريدك فقط أن ننتهز الفرصة سويا قبل أن يعتدل الزمن.... كل الرغبات مباحة الآن.. لا يوجد شيء ممنوع.. هيا.. انتهز الفرصة قبل أن يعتدل الزمن.

مدت يدها في جراءة ووضعتها على فخذه، اقشعر بدنه، ولكنه لم يستطع أن يكبت تساؤله:

ـ أي عيد صاخب هذا الذي تحتفل به المدينة؟

قالت المرأة في دهشة: أنت غريب عن المدينة إذن، يالحظي..! أنا أعشق الغرباء..

وأخذت يده ووضعتها على صدرها، كان ناعما ودافئا، أحس بالعرق البارد يغمر جسده، قالت:

ـ نحن نعيش في الأيام النسيء، لقد انقضى العام القديم، وبقيت ثلاثة أيام حتى يأتي العام الجديد، نحن جميعا نعيش الآن خارج الزمن، خارج كل ما هو ممنوع ومحظور، كل شيء مباح، لقد جئت للمدينة في الوقت المناسب.

حاولت أن تجلس على حجره وأن تضع لسانها في فمه، ولكنه أزاحها حتى تجلس بجانبه في رفق، كان في حاجة لأن يسمع منها أكثر، وكان مغتاظا لأن أعياد آمون مازالت تفرض سطوتها على الجميع، قالت:

ـ لا تخف مني ياعزيزي، أنا لست فتاة محترفة، أنا زوجة محترمة، ومن الطبقة الراقية في هذه المدينة أيضا، ولكنها فرصة أن أمتع جسدي، وما أن يأتي العام الجديد حتى ننسى جميعا ماحدث..!

ـ وأين زوجك؟

ـ أوه.. لا تكن مملا.. إنه يفعل مثلي في مكان ما.. انظر حولك.. كل من في الحانة.. زوجات محترمات، يبحثن مثلي عن غرباء من أجل متعة غير مشروطة، أعطني فقط قطعة صغيرة من الفضة حتى يرضى عني آمون..

كان ذكرها لآمون كافيا لأن ينتفض واقفا، أمسكت بيده وحاولت أن تجذبه إليها:

ـ أنت لا تعرف ما سوف تخسره..

نزع يده منها، أخذ يتخبط بين المناضد حتى وجد طريقه للخارج، لم يصدق أنه خرج للهواء النقي مرة أخرى، سار يتخبط في الشوارع والتابعان يراقبانه، لم تكن هذه مدينته، حتى في أكثر الاحتفالات جموحا لم يرها في هذه الحالة، كان المساء يهبط والمشاعل تتوهج في كل مكان، يمتلئ الهواء بروائح القطران، وتختلط صيحات البشر وتأوهات النسوة مع أصوات الرقص والغناء، تعيش المدينة لحظات عارمة من الهياج حيث لا وجود للزمن ولا سطوة للآلهة، الباعة يزحمون الطرقات ببضائعهم المفروشة على الأرض، توابل وعطور نفاذة وقلائد من خرز وعاج من إفريقيا وسجاد ناعم وأعشاب ومقويات من آسيا، خيام وعشش وأكواخ مقامة وملتفة بعضها حول بعض، ينبعث من داخلها تأوهات النسوة عاليا، مناضد خشبية حافلة بكل أنواع الأطعمة، غجريات يقرأن الطالع، نساء إفريقيات يرقصن عرايا حول نار موقدة، يغرسن كعوبهن في الطين ويدرن في الهواء كفراشات سوداء، نسوة من الأشراف يجررن عبيدا من أعناقهم

إلى أكواخ من البوص، امرأة تقف إلى جانب الطريق وهي تعرض سعرها على ورقة من البردي، السعر كان رخيصا، لأن الجنس كان مباحا ومجانيا تقريبا، سار بجانب أسوار معبد الكرنك، سمع من الداخل صوت تراتيل الكهنة وأصوات الصنوج بينما يمتلئ السور الخارجي بالبغايا واللوطيين والعذارى اللائي يبعن عذريتهن بقطعة من الفضة.

أصبح أخيرا بالقرب من القصر الملكي القديم، لم يكن يبعد كثيرا عن معبد الكرنك، يخيم عليه الظلام وتحوم حوله الخفافيش، الأشجار التي تحيط به تحولت إلى أحراش وعزلته تماما عن المدينة، لم يكن أحد بالقرب منه كأن الجميع يخشونه، رغم أن أمه الملكة لم تغادره، ولم تعلن معاداتها لآمون، لم تؤمن كثيرا بإلهه الجديد، رفضت أن تغادر طيبة وتلحق به، ظلت في جناحها القديم لا يوجد حولها إلا بضعة من الخدم المخلصين، لم تتصور أن تحيا بعيدا عن المدينة التي شهدت مجدها، تلفت حوله قبل أن يتقدم في الممر الذي يحفه صفين من النخيل، ظهر القصر بأعمدته وأسواره الحجرية، مظلما ومنزويا صغيرا لا يمكن الوصول إليه إلا عبر جسر خشبي يمر فوق مخاضة من الطين، قديما كان الحرس يقفون في هذا المكان، يمنعون الأغراب من الاقتراب، أما الآن فلا أحد! أمر التابعين أن يقفا على مقدمة هذا الجسر، وتقدم وحده إلى الداخل، أصدرت أخشاب الجسر صوتا تحت أقدامه كأنها تهدد بالانهيار، وأصبح الجو باردا، كل ما يحيط به قد اكتسب طابعا بريا متوحشا، زحفت غصون اللبلاب والأشجار الجهنمية والأشواك البرية على مدخل القصر، وعلى الجانبين انتصبت تماثيل متكسرة مليئة بالفجوات التي

تسكنها الخفافيش، عندما سمعت وقع أقدامه هاجت فجأة واندفعت في سحابة سوداء، ارتقى الدرج المتسخ وأصبح أخيرا داخل القصر، انبعثت صرخة حادة، صوت امرأة ملتاعة، تتألم لدرجة اليأس، هل كان هذا صوت الملكة؟! ارتجف، هل جاء متأخرا؟!.

خطا مسرعا داخل الأبهاء الحجرية، شم عطور الملكة «تي» في كل مكان، لم تتخل بعد عن عادتها بعد في رش العطور في كل الأماكن التي تحيط بها، لها خلطتها الخاصة والمميزة التي تأتيها من بلاد النوبة، وتترك أثرا منه في كل مكان تذهب إليه، ظهرت بعض الجواري، تأملنه في استغراب، لكنه لم يتوقف، تقوده الرائحة إلى غرفتها، شاهد شخصا قادما من جوف القصر، يحاول أن يحرك جسده السمين وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة، توقف على الفور حين رآه، تعرفه عليه رغم العتمة، كان هو «رعموز» حاكم طيبة الذي ظل على ولائه له رغم ضغوط كهنة آمون، خر جاثيا أمامه، ولكنه أنهضه وقال في لهفة:

ـ كيف هي؟

قال: سوف تنقذها طلعتك من الموت يامولاي..

كان يكذب، كانت رائحة الموت مختلطة برائحة عطرها، عادت الصرخات مرة أخرى، من المؤكد أنها هي هذه المرة، ارتجف كلاهما، قال «رعموز»:

ـ إنها تعاني من نوبات قاسية من الهياج، كأن روح «سخمت» قد تلبستها، إنها تحطم كل شيء، وتنشب أظافرها في وجه الجواري والخدم، وقد أصبح الجميع يخافون الاقتراب منها.

عاود السير في ممرات القصر المعتمة، لمح باب غرفتها فأخذت خطواته تتباطأ، وتأمل المكان من حوله، مشاعل على وشك الانطفاء، وصف من النسوة المتشحات بالسواد جالسات مستندات للجدار الحجري، خفافيش ترتطم في الجدران كأرواح ضلت طريقها، تاركة على الأحجار بقعا من دم، ستائر ممزقة وآنية متكسرة، هواء راكد تختلط فيه رائحة القيء مع القطران المحترق، أصوات أشياء تتكسر في عنف، جارية تخرج من الغرفة وهي تعدو هاربة، سار مترددا حتى دخل غرفتها.

غرفة واسعة، تضيئها عشرات الشموع الموضوعة على امتداد الجدران، ينعكس ضوء القمر من الشرفة المفتوحة على النيل، رأى فراشها في جانب من الغرفة تتحرك من حوله الأستار الشفافة، نفس الفراش الذي مات عليه أبوه، أزاح الستائر بأصابع مرتعدة، ورآها مستلقية مغمضة العينين، جسدها يابس وبالغ النحول، نحيفة كعود من البوص، حليقة الشعر، داكنة البشرة لدرجة لم يرها من قبل، أحس بساقيه تخذلانه فجلس على جانب من الفراش، وجهها - رغم الشحوب والغضون - ما زال محتفظا بمهابته، مهابة تثير الرعب.

اختلجت ملامحها فجأة، تحلم أم تتألم، أم أنها شمت رائحته البشعة؟ فتحت عينيها وحدقت فيه بدهشة، عيناها الغائرتان تحاولان التعرف - في هذا الرجل المتعب المزوي الهيئة - على فرعون مصر، سليل الآلهة، ابن أقوى ملوك الأرض، كان شبحا كئيبا لا يتبدى إلا من خلال كابوس، ورغم ذلك أشرق وجهها في حزن وابتسمت في وهن، تعرفت عليه رغم رفضها له، مدت أصابعها وقبضت على يده،

كانت واهنة ولكنها تشبثت به، لم تكن تريد أن ترحل عنه الآن، قالت في صوت واهن:

- أيها الغريب، أنت لم تعد تشبهه كثيرا..

ظل يحدق فيها صامتا، لم يعد أي منهما يشبه نفسه، حاولت النهوض فلم تستطع، قالت وهي تلتقط أنفاسها في صعوبة:

- ألست فرعونا وضيعا بعض الشيء، تأتي إلى مدينتك خائفا ومتنكرا؟! توقعت أن تأتي بجيشك وتحرقها كلها...!

- أردت فقط أن آتي لرؤيتك، لا.. أن أشعل حربا.

انتفض جسمها، قال في إشفاق:

- هل تتألمين؟

حاولت أن تبتسم، وجاء صوتها خافتا ولاهثا:

- لم يعد هناك معنى للألم يا بني، جربت كل أنواعه، ولم يعد أي ألم إضافي يحدث فرقا.

كانت بجانب فراشها منضدة كبيرة مليئة بقوارير الأدوية والدهون ومساحيق الأعشاب، كلها لم تعد مجدية، تأملت ملامحه في جدية:

- أليس هذا غريبا؟! أنت الذي لم تشبه أباك يوما من الأيام، أصبحت فجأة تشبهه في هذه اللحظة، يا للزمن!.. كان شابا وقويا.. خصوصا عندما كنت عروسا وجاء إلي في «أخميم» ليحملني إلى قصره الملكي.. آه.. لم يعد هذا القصر ملكيا بدونه..

في هذه اللحظة أحس أن عليه أن يميل عليها، ويأخذ جسدها النحيل بين ذراعيه، ينام على صدرها للحظات كما تعود أن يفعل وهو صغير، ولكنهما ظلا متباعدين، لم تشعر «تي» بحاجتها لأن تقترب منه أو تلمسه أكثر من ذلك، كانت تنظر إليه في حدة متفحصة، قالت فجأة:

ـ لماذا فعلت كل هذا بنا؟ لماذا قلبت الكون رأسا على عقب؟ ألم تكن قويا بما يكفي ليستقيم الكون؟

وضعت كل بقايا طاقة الحياة في عينيها الغائرتين، حدقت فيه بحيث بعثت في نفسه رهبتها، كان هذا السؤال قد أضناها طويلا، ولا بد أنها أجلت موتها انتظارا للإجابة عنه، أحس بجفاف حلقه، جاء من أجل الوداع وليس الحساب، أشاح بوجهه بعيدا وتمتم في صوت خافت:

ـ لأنني كنت أكره آمون.. لم أؤمن به يوما..

قالت بصوت متهدج:

ـ كاذب.. كنت تؤمن به مثلما آمن به أبوك، وهو الذي جعله سيد الآلهة، وأنت نفسك كنت توشك أن تبني له معبدا كبيرا، ما الذي غيرك هكذا فجأة؟!..

لم يحدث ماحدث فجأة، لقد قاوم نفسه وعانى من حصار الكهنة طويلا، ولكنه ذات لحظة لم يحتمل، وصل إلى حده الأقصى عندما كرههم وجعله هذا يكره الجميع، قال:

ـ لماذا تصرين على معرفة ذلك؟

عادت تقول وقد تهدج صوتها:

ـ لأن هذا سيريحني من ألم التفكير.. سيهدئ نفسي قليلا حين أعرف أنه كان هناك سبب، كل ما أشعر به سيهون بجانب تهمة المارق التي يلصقونها بك، قل لي شيئا صادقا يشفي نفسي..

اتخذت إهاب الملكة، وانعكست أضواء الشموع في عينيها فحولتهما إلى جمرتين متقدين، لو قال لها أي شيء فلن تصدقه، ستكشف الكذب في تعبيرات وجهه، ولم يكن يريد أن يتحدث عن أسبابه الدفينة، عن ألمه العميق الذي لازمه من أيام طفولته حتى هذه اللحظة، قال مترددا، مشفقا عليها وعلى نفسه:

ـ أنت لن ترغبي في سماع ما أقول..

قالت في إصرار: مهما كان، سأتحمله.

تكلم بنبرات مترددة، لم يكن واثقا بما سيقوله، ولكن صدره ضيق بما يحمله، لم يجرؤ على أن يبوح بسره لأحد، حتى لإلهه الجديد، استحضر الكلمات العسيرة من أغوار نفسه، تذكر تلك الليلة البعيدة عندما اكتمل القمر وتحولت كائنات طينية إلى مسوخ، كان نجم «الشعري» قد توسط السماء وفيضان النيل قد ضرب الضفاف في عنف حتى تفتت السدود، أرسل في عروق الأرض النطفة الأولى التي ستخصب كل الحقول، وتوقظ السواقي النائمة، في هذا الوقت تستيقظ كل أرواح السحر الأسود للمشاركة في الاحتفالات الخاصة التي تقام من أجل آمون، كان يقف وقتها على عتبات الشباب، تنبض عروقه بالخصب والتوق والرغبة، لم يكن مسموحا له بعد بحضور الاحتفالات التي تقام داخل المعبد، كف أبوه عن الحرب وأصبح

واهن القوى، راقدا على فراشه معظم الوقت، كان آمون هو الذي يحكم طيبة طيلة الوقت، يتخفى الكهنة تحت أقنعته، كان أبوه الملك هو الذي رفعه فوق بقية آلهة الأقاليم، جعل منه الإله الذي يحتوي على صفاتها كلها مجتمعة، جعل الجميع في طيبة يشعرون بأنه إله مطلق لا ند له، بين الكهنة له مكان خفي ومعتم في قدس الأقداس، لا يعلم إلا القليل عما يدور في داخله من طقوس.

كان «نفرو» تابعه وصديقه هو الذي أوحى إليه بالفكرة، كان ابن «رعموز» عمدة طيبة، وقع الاختيار عليه دون كل أولاد النبلاء ليكون رفيقا للفرعون منذ طفولته، يشاركه في مجالس الدرس ورحلات الصيد، ظلا متقاربين، ينموان معا ويتعلمان الكتابة ويخرجان للصيد، ويرتديان أحيانا نفس الثياب، هو الذي أيقظه في تلك الليلة المقمرة واقترح عليه التسلل إلى داخل المعبد ليشاهدا طقوس الإخصاب التي تقام تكريما لآمون، كان «نفرو» مليئا بالحركة والحيوية لا تكف جواري القصر عن مطاردته، بعكس الفرعون الصغير المتوحد الشديد الذي ينفر من الجميع، عرف «نفرو» مكان الممر السري الذي يصل بين القصر ومعبد الكرنك، دلته عليه إحدى جواري القصر في لحظة نشوتها.

سار خلفه خائفا، ومرعوبا، ولكن «نفرو» كان مندفعا، يفور جسده بنضج مبكر ويتوق من يريد أن يعرف خفايا هذه الطقوس، هبطا إلى الحديقة، القمر يغمر العشب بالضوء، وكل شيء تشوبه مسحة من السحر والترقب، سارا داخل النفق المظلم، وسط هواء مكتوم وحار، ولم يجرؤا على أن يحملا مشعلا، ظلا يتخبطان في الظلام، كان الممر نظيفا، مرصوفا بالأحجار، يكفي لعبور رجل وهو راكب

جواده، أو امرأة على محفتها، منحدرا لأسفل كأنه يقودهما إلى عالم آخر.

في نهايته بدا ضوء واهن، وعندما خرجا من فتحته وجدا نفسيهما مباشرة وسط الفناء الداخلي للمعبد، كان مفتوحا أمامهما كأنه يدعوهما لمواصلة التوغل، سارا بين عشرات المشاعل، وأطلت عليهما عيون التماثيل الحجرية الضخمة، بدت صفحة البحيرة المقدسة وهي ترتعد تحت أنسام الليل، لم يكن هناك أحد من الكهنة، ولم يكن مسموحا للحرس بأن يصلوا إلى هذا المكان، دارا حول المسلات المشرعة، وتسللا إلى الأروقة الداخلية المغطاة بالرخام، شاهدا تمثالا لآمون له رأس كبش بقرون ملتوية، يحدق فيهما بتواطؤ، دق قلب الفرعون الصغير في سرعة، ولكنه واصل التقدم خلف «نفرو».

ارتفعت دقات الدفوف وأصوات الموسيقى من مكان ما داخل المعبد، تقدما وهما يتخفيان خلف الأعمدة، ظهر أمامهما البهو الداخلي لقدس الأقداس، أكثر المناطق عمقا وسرية داخل المعبد، متوهجا بضوء المشاعل ويعبق به البخور، يغطيه سقف خشبي مليء بالنقوش، جاثم على أعمدة شامخة، لها شكل زهرة اللوتس، المكان مزدحم بالرجال والنساء، لم يلحظهما أحد، كانت الطقوس في قمة اشتعالها، نساء عاريات تماما، أجسادهن متوهجة تحت ضوء المشاعل، يدرن في حركات راقصة على إيقاعات الموسيقى الصاخبة، تحت أنظار عشرات الكهنة الذين يقفون في صف بجانب الجدار وهم يحدقون في أجسادهن بنهم.

تأمل النسوة في دهشة، كان يعرفهن جميعا، لم يرهن عاريات من قبل، ولكنه كان يعرف وجوههن جيدا، كن يأتين للقصر، يقضين الساعات الطويلة في جناح الملكة وفي حديقة الفرعون، كن زوجات لأشراف طيبة وأعيانها وقادتها، نسوة محترمات ونافذات، من الذي خلع عنهن ثيابهن وعراهن هكذا؟! ظللن يدرن في صخب، ثم تقدمت امرأة شامخة ووقفت أمام المذبح، كانت تسدل على جسدها غلالة من الكتان، ظلت واقفة في صمت ودون حركة، حتى دخلت مجموعة أخرى من الكهنة، صدورهم أيضا عارية وأرديتهم قصيرة، يدفعون كبشا سمينا تم تربيته داخل المعبد، يشبه رأس الإله آمون، حملوه إلى مذبح عال من الرخام، وضعوه عليه وهم يقيدون قوائمه، تقدم الكاهن الأكبر، كان الفرعون الصغير يعرفه جيدا، يمسك سكينا حادا، توقف أمام الكبش وأخذ يردد بعضا من الأدعية ثم هوى بالسكين على عنقه، أطاح برأسه في ضربة واحدة، انبعثت منه نافورة من الدم، تقدمت المرأة، وخلعت الغلالة التي تغطيها، تدفق الدم على جسدها العاري، تراجع «نفرو» وهو يشهق، لم يجرؤ على متابعة المشهد، أحس أنه قد تورط وشاهد أكثر مما ينبغي، تراجع بظهره ثم أخذ يعدو حتى اختفى، بينما ظل هو الفرعون الصغير واقفا جامدا ومشلولا...

* * *

..... نهضت الملكة، دب فيها نشاط غريب، نظرت إليه وقد بدت على وجهها تعبير غريب، هتفت:

ـ هل تسللت وشاهدتني وأنا عارية..؟!

ولكنها لم تستطع أن تنزع نفسها من الفراش، تلفتت حولها في عجز، أشارت له بيدها:

ـ توقف.. لا تكمل..

لم يعد يستطيع التوقف، حتى لو توقفت الكلمات على لسانه، كان عاجزا عن إيقاف سيل الصور التي تمر في ذاكرته، استيقظ السر الذي حاول أن يمحوه من ذاكرته طوال هذه السنوات، كأن هناك ثقبا في جدار الذاكرة قد فتح وبدأ كل شيء في التدفق، دون وعي أو رغبة عادت تفاصيل تلك الليلة المرعبة تهاجمه...

* * *

..... استلقى جسدها المغطى بالدم فوق المذبح، تلون بالحمرة وأصبح لامعا ومتوهجا بالرغبة، خلع الكاهن الأكبر أيضا رداءه، بدا جسده العاري ضخما، وعلى وجهه قناع يشبه وجه الكبش، الرمز اللعين للإله اللعين، تقدم الكاهن من المذبح، تهيأت له وفتحت ساقيها، أوشك الفرعون الصغير أن يفقد وعيه، لم يتصور أن أمه، فرعونة مصر، سليلة الآلهة المقدسة، التي تثير رعب الجميع، زوجة الفرعون الذي هزم نصف الأرض، مستلقية كأي عاهرة أمام رجل برأس كبش، يهبط عليها وهي تستقبله مرحبة، بالدم الذي يكسوها والرغبة التي تتصاعد مع تأوهاتها، ينتظم جسداهما معا في إيقاع واحد، تعلو أصوات الكهنة في هدير مبحوح كأنها تدعو بقية النسوة العاريات، يهرعن جميعا ويدهنّ أجسادهن ببقايا الدم، يرقدن تحت أقدام الكهنة الصغار السن الحليقي الرأس وهن يرتجفن من فرط الشهوة، هبطت دموع أمنحوتب وهو يرى جسد أمه يدهس، بقلبها

الكاهن الضخم من ظهرها لبطنها، ويواصل الغوص في جسدها دون أن توقفه، شهق بالبكاء عاليا فلم ينتبه إليه أحد، طغى سعار الأجساد المحمومة على صوت عذاباته، انسحب عائدا في النفق الطويل الموحش، ظل جالسا فيه بقية الليل وهو يبكي ويرتجف، لن يستطيع أن ينظر في وجوههم مرة أخرى، لا الكاهن الأكبر الذي يعتلي جسد سيدة العرش، ولا الكهنة الصغار الذين يدهسون أجساد الشريفات من نساء طيبة...

* * *

..... انسابت دموعه أمامها، الفرعون يبكي، تستيقظ في داخله ذكريات شبابه الضائع المهان، قالت في يأس:

ـ كان هذا طقسا مقدسا، علينا أن نقوم به كلما فاض النيل، الذي رأيته لم يكن جسدي، منذ أن اكتسى بالدم أصبح جسدا يخص الإلهة «ياموت»، وكان هذا هو زوجها الإله آمون!

قال وهو يرتجف: بل كان طقسا من دعارة كهنة آمون، لقد كرهته منذ هذه اللحظة، وكرهت طيبة، وكرهت....

سكت قبل أن يكمل، ولكن الملكة نهضت، دبت في جسدها طاقة غريبة، حاولت الابتعاد عنه بقدر ما تستطيع، توقفت بجانب الشرفة المطلة على النهر، استندت إليها وأخذت تبكي، كانت هذه أول مرة يرى فيها بكاءها، تمتمت:

ـ يالبؤسك يا دني «...! ستموتين وابنك يكرهك، ستمضين في ظلمة العالم الآخر وأنت محاطة بأشد أنواع الكراهية مرارة...

ساد الصمت بينهما، لا يسمع إلا صوت أنفاسها وهي تنتزعها في صعوبة، أدركت فجأة أنه فعل هذا كله خجلا منها، حاول أن ينقذ عرشه من الإخفاق الذي كان محكوما عليه، لم يكن يصارع كهنة أقوى منه نفوذا فقط، ولكن يكنون له الاحتقار أيضا، بدأ عهده وهو خائف منهم، قرر أن يبني معبدا لآمون، أكبر معبد شيد له على الإطلاق، اختار له موقعا بعيدا عن الكرنك، لعله يكون أقل دنسا، انتهى بناء جزء كبير منه وهو يحاول أن يقنع نفسه بأنه أكثر إخلاصا منهم جميعا لآمون، ولكن حين بدأ البناءون في تشييد قدس الأقداس، بكل ما فيه من غرف مظلمة وسراديب ملتوية ومذابح غامضة، صعدت رائحة الدم إلى أنفه،أدرك أنه لا يستطيع أن يمضي أبعد من ذلك، لا يستطيع أن يخدع نفسه ويبني مكانا آخر لممارسة الدعارة المقدسة، أوقف البناء ليفكر قليلا، ولكن الكهنة لم يسمحوا له بذلك، تحدثوا إليه بنعومة وحزم، عليه أن يواصل البناء، وأن يصادر المزيد من الأراضي للإنفاق عليه، وأن يضمن لهم نصيبا أكبر من حروبه القادمة، لم يكن يريد الحروب، ولا أن يخضع للابتزاز، ولا أن يكون فقط نصف فرعون يليق بأم منتهكة العرض، وقرر لحظتها، وهم واقفا أمامهم، أنه لن يتم هذا البناء مهما كلفه الأمر.

كان وحيدا، في أهون لحظات ضعفه، وزوجته تحمل جنينها الثاني، وكان يدرك أن جسدها الرهيف لن ينجب سوى المزيد من الإناث، وسيزيد هذا من ضعفه ووهن عرشه، كان عليه أن يبحث عمَّن يساعده، ولكن الكهنة بادروه بالهجوم، سلطوا الرعاع على منزل «رعموزا» حاكم طيبة، نهبوه وحاصروا بقية رجاله، رسالة مباشرة ليدرك من له مقاليد القوة في المدينة، وجد نفسه يحمل قاسيا

ويعبر الممر السري بين القصر والمعبد، يقف وحيدا في مواجهة تمثال آمون الضخم، ذي رأس الكبش الملطخ بالدماء، الإله الذي انتهك شرف أمه، رفع الفأس وهوى عليه، ولكن حد الفأس لم يخدش منه شيئا، ظل صلدا يعلن تحديه له، خرج الكهنة من مكمنهم داخل المعبد وحاصروه، لم يكن قادرا على التراجع، وكان على الكهنة أن يخالفوا ناموس الكون ويقتلوا ابن الإله، في هذه اللحظة ظهر «حورمحب» تعويذته ورقيته، دائما ما يظهر في الوقت المناسب لينقذه وهو على حافة الموت، كان ينفذ وصية أبيه الأخيرة في أن يبقى بجانبه، أحس أمنحوتب أن الآلهة لم تهبه الجسد الذي يصلح لمجابهة الخطر، ولكنها أعطته «حورمحب»، هو الذي تدخل في هذه اللحظة لينقذه من بين أيديهم ويعود به إلى قصره سالما، هو الذي ظل بجانبه وهو يقول مرتعدا: هذه المدينة لا تسعنا معا، إما أن يرحل آمون، وإما أن أرحل أنا، وجاء رد «حورمحب» قويا وموجزا: «الفرعون لا يرحل من على عرشه»، كان رجلا عسكريا خالصا، يحتقر الكهنة في أعماقه، لا يرى فيهم إلا ديدانا عالقة، لا تجيد سوى امتصاص حصاد الفلاحين وغنائم الجنود وماء النهر وملح الأرض.

انقضى الليل على الفرعون وهو يظن نفسه مهزوما، ولكنه استيقظ في الصباح على صراخ الكهنة، وجنود «حورمحب» يطاردونهم، يقتحمون معابدهم ويكسرون تماثيل آمون على رءوسهم، كانت ضربة صاعقة، والفوضى عارمة، ولكن الانتصار لم يتحقق كلية، جمع الكهنة أنصارهم من المتعصبين والمتعطلين، وبدأت الحرب في شوارع طيبة، كان موسم الحصاد ما زال بعيدا وامتلأت طيبة

بالناس الذين توافدوا يبكون تحت أقدام التماثيل المحطمة، لم يستطع الجيش أن يخوض حرب الشوارع كل يوم، أو يضرب أناسا لا يقومون إلا بالبكاء والتوسل، وصل الفرعون إلى نقطة اللاعودة، لم تعد طيبة مدينة صالحة للعيش، لم يعد كافيا كل ما فيها من روائح العفن القديمة ولكن أضيفت إليها أيضا رائحة الدماء....

..... وقفت «تي» ترتعد في مواجهة البرد القادم من النهر، أدرك أن ساقيها لن تستطيعا أن تحملاها طويلا، سار إليها، حمل جسدها المرتعد بين ذراعيه، كانت خفيفة، كأن جوفها مفرغ من الداخل، سجاها على السرير، نظرت إليه غير قادرة على الكلام، كان هذا فقط كل ما تريده منه، تلك اللمسة الحانية، حتى وإن كانت غير مكتملة، قال لها:

ـ أيتها الملكة، يا أمي، لا أستطيع أن أكرهك، فلتفارقني الحياة قبل أن أفعل ذلك، ولكني أحب إلهي الجديد آتون، هو الذي أنقذني في ذلك الصباح الدامي، وأمرني أن أترك طيبة، لقد تجلى لي في محنتي عندما كنت وحدي وأنقذ روحي، وهو الذي وهبني القدرة على الرحيل إلى «أخت آتون»..

ظلت مغمضة العينين، متعبة كما لم تكن أبدا، بدأ سكون الموت يفرض نفسه على المكان، ولكن من العسير أن تغادر الروح الجسد، فهي تخرج بصعوبة من طرف الأصبع الأصغر للقدم اليسرى، ذرات شفافة، كل واحدة منها تحمل جزءا من حياة، من ذكرى، تخرج ذرات الأعمال المضيئة في خفة ويسر، وتخرج ذرات الأفعال القاتمة في شهقات من الاحتضار، ظلت تشد على يده، حتى لا تجرفها رياح

الموت بعيدا، وبدأت الجواري الهاربات في العودة للغرفة ووقفن ملتصقات بالجدار، كن يحملن الشموع، يضئن لها الطريق إلى العالم الآخر، أحسسن جميعا بوجود الموت.

لكن القادم كان «رعموز»، لاهثا ومنزعجا، لم يبال بالملكة المسجاة، ولا بجو الحداد المخيم على المكان، هتف بالفرعون:

ـ لقد عرفوا بوجودك هنا يامولاي.

ـ ماذا؟!.. بهذه السرعة؟

ـ امرأة ما.. شاهدتك في إحدى الحانات وتعرفت عليك.. ذهبت وأخبرت الكهنة بذلك..

فعلتها عاهرة آمون القديمة، كان يعرف أنها مسألة وقت حتى يصلوا إلى هذا المكان، لا بد من وجود عين لهم في كل قصر، فما بالك بقصر الملكة الأم، قال «أخناتون» :

ـ لن أترك أمي وحدها، دعهم يأتوا..

شدت أمه على يده، فتحت عينيها وقالت في وهن:

ـ انج بنفسك ياولدي، سيؤلمني أكثر أن يصيبك الأذى بسببي..

ـ تعالي معي إذن..

ـ دعني أمت في هدوء.. في بيتي وفي فراشي..

من خارج القصر تعالت صيحات وصرخات شرسة، سمعت أصوات الأحجار وهي تلقى على القصر، تبدد هدوء الليل أمام صيحات الغضب، قال «رعموز»:

ـ إنهم يحتلون طريق الشاطئ، وقد قتلوا الحارسين اللذين كانا معك، ولن يستطيع العبيد والحرس مقاومتهم طويلا، هيا بنا يامولاي..

قبلها على جبينها، فابتسمت له بوهن، رفعت أصبعها تشير إليه أن يسرع بالانصراف، والجواري يراقبن مايحدث في فزع، لا يدرين أي مصير ينتظرهن، سار خلف «رعموز»، كان جسده الضخم يتقافز عبر الطرقات، متجها إلى خلفية القصر المطلة على النيل، هبطا الدرج الحجري المؤدي للمياه المظلمة، قال «رعموز»:

ـ أنت تحسن السباحة يا مولاي، وهذا هو طريقك الوحيد للنجاة..

قال «أخناتون» في تردد: وهي؟

ـ سأدافع عنها بحياتي، طوال هذه السنوات لم يجرءوا على المس بها، ولن يجرءوا الآن.. ألقى «أخناتون» بجسده في الماء، بلغ إحساسه بالمهانة أقصاه، الشاطئ مليء بالرعاع الغاضبين الذين يحملون المشاعل والسيوف، ضرب الموج البارد بذراعيه، مرة أخرى يعاود الهرب، كان الأجدر به أن يقف في مواجهتهم وأن يموت كفرعون، ولكنه لم يكن ليترك ثأره في هذه المدينة الفاسدة، لن يتوقف، ولن يستسلم لهم، سيعيش حتى يظفر بثأره، لو مسوا أمه بسوء فسيعود ويحرق مدينتهم، واصل ضرب الماء في اتجاه البر الغربي، إنه بعيد ومظلم وموحش، ولكنهم لن يجرءوا على مطاردته ليلا إلى هذا المكان، كانوا يخشون أرواح الموتى التي تستيقظ ليلا، لا بد أن «تي» تموت في هذه اللحظة، فقدها قبل أن يحسن الاعتذار

لها، وفقد طيبة قبل أن يجيد التعامل معها، تحول من فرعون إلى مطارد، يوشك الماء البارد أن يغيبه في أعماقه، توسل لجسده حتى يمنحه القدرة على المقاومة، تشبث بأعواد الغاب الجارحة وحاول أن يجد طريقه إلى الشاطئ، أخيرا تخفت أصوات ضجتهم ولا يبقى إلا بصيص من أنوارهم، ابتعدوا عنه وانتقل هو إلى عالم آخر، جذب جسده من برودة الماء إلى لزوجة الطين.

زامت الريح وهي تندفع من فوق تلال الموتى، وجد نفسه يبكي، أحس بمدى مهانته، لم يصبح مطاردا فقط ولكن لن يأتي عليه النهار إلا وهو جثة هامدة، لا بد أن الكهنة يعدون فرق المطاردة الآن، راقب الشاطئ الآخر، وحركة المشاعل تتحرك فوقه بجنون، هل يعدون القوارب للعبور إليه؟ ألن يردعهم سكون العالم الآخر وحرمته؟! سار مترنحا يتخبط بين الصخور ويتعثر في الحفر، سمع من بعيد عواء الذئاب، لا بد أنها أيضا تنتظر لحظة سقوطه، سمع حركة من خلفه، حفيف أقدام، انحنى على الأرض وأمسك حجرا، رفعه عاليا ووقف متأهبا، ولكن الذئب الذي توقعه لم يظهر، رأى فوق أحد الصخور شبحا يقف منتصبا، هل استيقظت الأرواح بالفعل؟! بدا شبحا نحيفا، لا يرتدي إلا خرقة ممزقة من الكتان، ويمسك في يده غصن شجرة، كتم أخناتون أنفاسه، ولكنه سمع الشبح وهو يقول:

- لا بد أنك ارتكبت إثما كبيرا وإلا لما طاردوك بهذه الحدة!

كان رجلا، آدميا مثله، هو واحد من سكان المقابر، أو المطاريد، الأمر سيان، لن يكون أسوأ من الموجودين على الشاطئ الآخر، تقافز هابطا إليه من فوق الصخور، ضرب الأرض بعصاه:

- اتبعني قبل أن يعبروا النهر إليك.

استجمع «أخناتون» قوته وسار خلفه، ابتعدا عن النهر وصعدا فوق التلال، غاصا بين الصخور، شاهدا النهر من أعلى وقد بدأ يزدحم بالقوارب، تحمل المطاردين، ومشاعلهم تنعكس على سطح الماء، ولكن الرجل لم يأبه بالنظر خلفه، لم يكن أمام «أخناتون» إلا أن يتبعه، ازدادت برودة الثياب المبللة حول جسده، وتقطعت أنفاسه، ولكنه لم يكن يستطيع التوقف، واصلا الصعود اللاهث كأن التلال بلا نهاية، أشار له الرجل أن يتوقف، كانت القوارب قد وصلت إلى الشاطئ، وقفز الجنود وهم يحملون المشاعل، توقفا خلف إحدى الصخور وهما يكتمان أنفاسهما، ظل الجنود يروحون ويغدون على السهل الرملي بجانب النهر، لم يفكروا في الغوص في التلال حيث توجد المقابر ويرقد الموتى، قال الرجل هامسا:

- سنواصل الابتعاد إلى مكان لا يصلون فيه إلينا..

بعد سير مجهد، وصلا أخيرا إلى كهف محفور وسط الصخور، مقبرة لم تكتمل، دخل الرجل وسط الظلمة كأن خطواته تحفظ المكان، ظل «أخناتون» واقفا عند المدخل، أقعى الرجل على الأرض وأخذ يضرب الأحجار بعضها في بعض، ظل يكرر الضرب حتى انبعث منها الشرر، بدأت النار تشتعل في كومة القش، وأخذ الرجل ينفخ فيها بسرعة، خطا «أخناتون» داخلا وهو يتنهد في ارتياح، كان جسده قد أوشك أن يتجمد من البرد، تأمل محتويات المكان: فراش من قش، أدوات من حجر وأوان من فخار، جلس أمام النار، كان الدخان كثيفا، وواصل الرجل إطعام النار بالحطب، قال «أخناتون»:

ـ هل أنت حارس للمقابر، أو هارب مثلي؟

قال الرجل: أنا رجل ميت، أو بالأحرى عائد من الموت..

كانت ملامحه تظهر أمام ألسنة النار بصعوبة، كان شاحبا وجافا كالصخر الذي يحيط به، تناول أحد الأواني الفخارية، وأخذ منه بعض كيزان الذرة، جافة ويابسة، ووضعها على النار، بدأ الحطب يطقطق وينبعث منه الشرر، قال الرجل:

ـ كنت مجرد عبد، جسدا بلا حياة ولا روح، مات سيدي وكان يجب أن أدفن معه، حتى أقوم بخدمته في العالم الآخر، ولكنه كان سيدا قاسيا، تحملت خدمته في هذا العالم على مضض فما بالك بالأبدية؟

قال «أخناتون»: هل دفنوك معه؟

ـ أدخلوا تابوته، وعلى رغمي أدخلوني إلى القبر معه، وسدوا علينا الباب بالحجر والملاط، كانت هناك آنية مليئة بالطعام، وكنت مستسلما لمصيري، ولكن الجو كان خانقا، ووجدت أن من الصعب أن أتحمل الموت البطيء، لم يكن قد فعل معي ما يستحق أن أموت من أجله، لم أستطع أن أستسلم لفكرة الموت حيا، أصبحت أسيرا لفخ مميت، يجب أن أفلت منه. وهكذا بدأت بحثي المجنون عن مخرج، من حسن الحظ أن مجموعة أسلحة سيدي كانت مدفونة معه، كان تاجرا جبانا، لم يستخدم في حياته سلاحا قط، ومع ذلك كان يجمعها بشغف، أخذت سيفا قويا منها وأخذت أزيح الملاط الذي كان يسد المنفذ، كان ما يزال طريا، وكنت أخشى أن ينفد الهواء من داخل المقبرة قبل أن أجد طريقا للخارج، كنت أريد

أن أمزق أكفان سيدي، أجعله يواجه الأبدية بعظام عارية، لم يكن هناك وقت لذلك، واصلت إزاحة الملاط، وخلخلة الأحجار، كلما تعبت جلست قليلا وتنفست عن نفسي بالبصق على تابوت سيدي، ظل الرمل يهمي علي، وكلما أزحت حجرا واجهني آخر، وفي ذات لحظة كنت أحاول تحريك أحد الأحجار فأخذني وهوى في الفراغ، غصت في ظلمة مؤلمة، وكان التعب والإعياء يؤلم جسدي، وعندما فتحت عيني وجدت سماء بعيدة، ونجوما متألقة، ظفرت بحياتي، أزحت بقايا الملاط وأخذت أعدو وأصرخ وأستنشق الهواء النقي، كنت سعيد الحظ أنني خرجت ليلا، ولو رأوني في النهار لقبضوا علي وقتلوني، لم يكن أمامي إلا البقاء هنا، وسط الموتى، ولكنني حي على الأقل...

كانت النار قد بعثت بالدفء في أرجاء المكان، وأصبحت كيزان الذرة على وشك الاحتراق، أكلا معا، واكتشف «أخناتون» أنه لم يذق طعاما منذ مدة طويلة، كانت معدته تتقلص، وقال أخيرا:

ـ أنا أحتاج إلى الرحيل شمالا..

قال الرجل: إنه طريق طويل وغير مأمون...

ـ لو رافقتني، فسوف تصبح أغنى رجل في مصر، لا أريد إلا صديقا أستعين به على طول الطريق.

أطرق الرجل مفكرا قليلا، ثم قال:

ـ دعك من وعود الثراء، حالتك لا تسمح بإطلاق مثل هذه الوعود، ولكني فعلا في حاجة لأن أمضي بعيدا عن الخطر الكامن في هذا المكان.

كان اسمه «كا»، أي الروح، هو الذي أطلق على نفسه هذا الاسم بعد أن نجت روحه من مصيدة الموت، كان قد ألف الشظف وحياة المطاردة لذا فقد نام بعمق، بينما بقي «أخناتون» قلقا ومتوترا طوال الليل، لا يصدق أن هذا كله قد حدث في يوم واحد، لم يكن هناك وقت يضيعانه في هذا المكان، كلاهما كان مطلوبا، سيأتي المطاردون ويفتشون كل ثقب في التلال، لم ينم طوال الليل، حتى بعد أن انطفأت النار، وعوت الذئاب في جوع، ما إن انزاحت الظلمة قليلا حتى أيقظ «كا»، بدآ الرحيل عند الفجر، انحدرا على الجانب الآخر من التلال، بعيدا عن توقعات المطاردين، وواصلا السير بعيدا عن شاطئ النيل.

سارا طوال اليوم الأول وسط وديان جرداء، وظهر النيل من بعيد مثل شريط فضي عاجز عن الحركة وسط الجبال الموحشة التي تحاصره من كل جانب، وواصلا السير الحثيث، ولكنهما كانا يأملان أن يستطيعا عبور هذا القفر وهما على قيد الحياة، لم يسأله الرجل كثيرا عن نفسه ولا سبب مطاردته، ولزم «أخناتون» الصمت، حتى لو تكلم فقد كان من المستحيل أن يصدق أنه يسير بصحبة فرعون مصر، ناما مجهدين تحت ظل شجرة سنط، كانت تقف وحيدة وسط الخلاء، بردا جسميهما من ماء النهر، كان الجوع قاسيا، وأوراق أشجار السنط قاسية.

كانا حريصين طوال الوقت على ألا يرصدهما أي مركب سابح في النهر، وجدا بعض أشجار التين الشوكي نابتة وسط الصخور، وكانت خبرة «كا» كبيرة في استخرج مذاقها المسكر الخشن، وبعد يومين من المسير بدأ الجبل يبتعد عن النهر قليلا، وظهرت الأرض الخضراء، لم يصدقا أعينهما وهما يشهدان الخضرة وهي ممتدة على حافة النهر،

شاهدا بعضا من الرجال واقفين تحت ظلال النخيل، كانوا يقومون بعجن الطين المختلط بالتبن بأقدامهم، يصنعون المادة اللازمة لصنع الفخار وقوالب الطين، وكانت هناك امرأة تقف أمامهم، تمسك في يدها سوطا صغيرا كأنها تشرف عليهم، أحسا أنهما أفلتا من وادي الموت وعادا إلى الحياة، التفتت المرأة نحوهما، تأملتهما قليلا دون خوف أو دهشة، أشارت للرجال أن يواصلوا العمل، اقتربت منهما وحدقت في وجهيهما بجراءة وهي تقول:

- أنتما في بلدة «نقادة» من النادر أن يصل إلينا أحد عن طريق البر.. هل أنتما هاربان؟

لم يكن هذا غريبا، تعودت تلك القرية المنعزلة على هذا النوع من الزوار اليائسين، كانت في العادة تزودهم بالطعام دون أن تسمح لهم بالإقامة، ولكن هذا لا يتم دون موافقة الأم الكبرى، صاحت المرأة محذرة الرجال من أي تهاون في العمل في غيابها، ثم سارت أمامهما إلى داخل القرية، كانت الحقول مليئة بالرجال الذين يعملون بلا كلل، بينما تقف النساء على رأس كل حقل، بعضهن يمسكن العصي، همس «كا» وهما يسيران خلفها:

- هذه البلدة غريبة.. النساء هنا يتحكمن في الرجال..

دخلوا من تحت بوابة صخرية إلى طرقات القرية، بيوت محفورة في الصخر، وجوه أهلها تشبه تعرجات الجبال، لا تشبه في تكوينها أو معمارها أيا من القرى الطينية المتناثرة على حافة النهر، أحاط بهم جمع من النسوة المستطلعات، مددن أيديهن ولمسن جسديهما، وتحسسن بشرتيهما، وشممن الرائحة المنبعثة منهما ثم ابتعدن

ممتعضات، تلفت «أخناتون» حوله مندهشا، كانت كل بيوت القرية تحمل علامات «ست» إله الظلام، ربما من أجل ذلك لم تجد بأسا من استقبال كل ماهو منبوذ ومطارد، ست هو قاتل الضياء، قطع جسد «أوزوريس» إربا، وترك الأراضي المزروعة للفلاحين والتافهين من البشر واستأثر بالصحراء والفلوات المفتوحة، كانت هذه القرية الموجودة على حافة الصحراء منحازة له، تضع تماثيله ونقوشه في كل مكان، أهمها تمثال لحيوان غريب، فيه شيء من جسد الحمار ومع ذلك يلبس تاجا ويمسك صولجانا، كانت أم القرية امرأة طاعنة في السن، تعيش في فجوة محفورة في بطن الجبل، قالت لهما:

ـ هنا قرية الأمان المؤقت، لن تسلمكم لأي حرس أو جنود أو كهنة، فنحن نكرههم جميعا، ولسنا ندين بالولاء لأي فرعون أو إله، إلا للإله «ست» الذي تكرم علينا وقتل كل الآلهة، ولكن عليكم ألا تبقوا طويلا، لا نريد أن نختلط بالأجناس الأخرى..

قال «أخناتون»: لا نستطيع أن نمضي عن طريق النهر..

قالت العجوز: الجميع يراقبون النهر خصوصا إذا كان هناك هاربان.. ليس أمامكم إلا الانتقال من قرية لأخرى حتى تغيبا في سهوب الشمال..

ـ وكيف نفعل ذلك؟

ـ فلتشتريا بغلين.. هل معكما نقود لذلك..؟

صمت «أخناتون»، نظر إلى «كا» في تساؤل، قالت المرأة:

ـ في هذه الحالة سوف تواصلان السير على أقدامكما..

نهض «كا» واقفا على قدميه، أدخل يده في حزامه، أخرج صرة من القماش المتهرئ، كان بها قطع صغيرة متسخة، ولكن لونها الأصفر كان ينبئ عن معدنها، قدمها للمرأة متسائلا:

ـ هل هذه كافية..؟

برقت عينا العجوز: ولكنها ملوثة بدماء جافة..!

ـ مهما كانت.. فهي ذهب.. لحم الآلهة.

وفي اليوم التالي، بينما كانا يضعان بعض الأطعمة على البغلين، ويستعدان لمواصلة الرحيل، سأله «أخناتون» عن قطع الذهب الملوثة، قال «كا» بلا اهتمام:

ـ إنها أسنان سيدي، انتزعتها من فمه، لم يكن في حاجة إليها على أي حال.

تواصلت أيام الرحيل، وتداخل النهار في الليل، دورة الكون التي لا تهدأ، في كل مساء ترحل مراكب الشمس من السماء وتتركها خالية للنجوم المتألقة من بنات «نوت»، وتهب عليهم رياح باردة تحركها أجنحة النسر «حورس»، وبدأ إحساس «أخناتون» بالأمان يتزايد كلما ابتعدا عن طيبة، كانا يتوقفان في القرى الصغيرة، أحيانا يلتقطان بعض الثمار النيئة من الحقول، وأحيانا يتعطف عليهما بعض الفلاحين بأرغفة من خبز القمح والشعير، كانت هذه هي الوجبة التي يتطلعان إليها دوما، فالخبز هو طعام الفلاحين والفراعنة والآلهة على حد سواء، يتذكر «أخناتون» أنه حين أصبح فرعونا كان أهم طقوس تنصيبه هو توزيع الخبز على الجميع، ثم الذهاب للمعبد وتقاسم

رغيف من الخبز مع الإلهة حتحور، يعبر الحاجز الفاصل بين عالم البشر والآلهة حين يتناولان معا لقيمات من نفس الرغيف، ولكن لحظات الشبع كانت نادرة، خصوصا عندما يقترب الجبل من حافة النهر تبدأ المناطق المقفرة ويتواصل الجوع، تظهر جبال «أمنت» ذات الصخور المثيرة للحزن، كان سفحه هو المكان الذي شهد تصارع الآلهة، وخلف صخوره اختفت الشمس في أول كسوف لها، ولم يعد لها الضياء إلا بعد أن بعث «أوزوريس» في النهر لا تكف القوارب عن المرور، تحمل الحرس والكهنة الغاضبين، يراقبان الضفاف بعيون متحفزة، يتخفى الاثنان لأيام كاملة، ثم يعاودان السير، تبدو جزر صغيرة في عرض النهر، كل واحدة منها كانت عضوا غارقا من أعضاء «أوزوريس»، تجمع حوله الطمي والطحلب وكونت تلك الجزر التي لا تفارقها الخصوبة، تطوف حولها التماسيح التي تأكل قلوب العصاة، وأفراس النهر التي تتثاءب فاغرة أفواهها الضخمة، وعندما يبتعد الجبل المترصد قليلا، تنمو نباتات البردي على ارتفاعات عالية، علامة حياة ضد الخواء والقفر، تكتسي الأرض بالخضرة، ويعلو خوار الأبقار المقدسة، كانت هدية الآلهة، حولت جسد الإلهة «حتحور» إلى بقرة، أنزلتها الآلهة من السماء ووهبتها بسخاء للفلاحين الكادحين على طول الوادي.

لم يكونا يعتمدان على طلب الطعام طوال الوقت، كانا يهبطان للعمل مع الفلاحين، يحفران القنوات الصغيرة ويقيمان السدود وينظفان الترع من النباتات التي تمتص الماء، كان «أخناتون» قبل لحظات الغروب يراقب طيور مالك الحزين وهي تتجه دوما للشمال نحو مصب النهر، أرواح هائمة تبحث عن مستقر دائم، وعندما

يجمعان ما يكفي من طعام كانا يواصلان الرحيل، يمران عبر قمائن الطوب، ومحاجر الجير، ومعامل الفخار، لا ينامان إلا تحت ظل شجرة الجميز، شجرة الحياة التي تمنح الأمان لكل المطاردين وتمنع الضواري من الاقتراب منهم، لم تكن هناك أحلام ولكن كوابيس لا تهدأ، تعلم «أخناتون» ألا يخاف من الذئاب، وأن يؤنسه صوتها في الليل المظلم، كان طول المسير قد جعل أشكالهما مزرية ومتسخة، أصبحت ملامحهما غير واضحة ولم يعد أحد يأبه بالنظر إلى وجهيهما، استولى الغجر على البغلين، وسلبهما المطاريد كل ما معهما من طعام، أمضهما الجوع لأيام طويلة، ولكنهما استطاعا الوصول إلى «دندرة»، حيث قام الإله «بتاح» يعجن أول طين للفخار، وجدا مكانا للعمل في أحد القمائن، لقاء وجبة تسد رمقهما ومأوى يحتميان فيه من البرد، كان سعيدا وهو يمارس هذه المهنة، كانت هذه الطينة تحتوي على جميع العناصر اللازمة لخلق الحياة، فهي قادرة على التحور لتأخذ أشكال كل المخلوقات، تعلم «أخناتون» كيف يشكل الفخار الخشن قبل أن يدخله النار، وكيف يلونه بعد أن يحرق، كان الصناع مقيدين بالألوان التي وضعها الإله القديم، الأخضر كالحقول الوافرة الخضرة، عليها رسم الثعبان «أوتو» الذي كان يرضع «حورس» في طفولته، والأحمر كلون النيل وهو يفور ويتأهب للفيضان، أدرك أخناتون - وهو يختلط بكل الذين مر بهم، من الفلاحين والرعاة والبنائين والنجارين وحتى الغجر وقطاع الطرق - أنه مصنوع مثلهم من مادة الفخار، وليس من ضياء «أوزوريس» كما كانوا يخادعونه قديما، فقد الزمن إيقاعه بالنسبة إليه، وتداخلت المهن التي مارسها، وظن أنه سوف يظل سائرا في الطريق للأبد، كان

يخفير، تزداد يداه خشونة ومهارة، تتفرطح أصابعه وتجيد القبض على الأدوات كما يفعل كل العمال الأجراء، الآن يدرك ما قيمة اليد التي كان يرسمها الفنانون على معابده، ولماذا تنتهي أشعة الشمس بأيد بشرية، تراجع بطنه البارز إلى الوراء وأصبح أكثر تماسكًا، استقامت ساقاه، أصبح يجيد التعامل مع مختلف الأعمال اليدوية والتوازن بين أيام الجوع والشبع، والنوم في العراء أو حتى تحت ظل سقيفة.

عندما وصلا إلى مدينة «أبيدوس» أدرك «أخناتون» أنه قد اقترب من نهاية رحلته، خطا داخلًا إلى معبدها الضخم الذي تتصدره تماثيل حيوان «ابن آوى»، حارس الموتى، كانت تتقافز من حوله طوال رحلته، وقد أكد له كاهن صغير السن، أن رأس «أوزوريس» الحقيقية مدفونة في هذا المكان، وأن ابن آوى يقوم على حراستها من آلهة الشر، وأن المئات من الناس يحجون في كل مناسبة لهذا المكان، تقدم «أخناتون» للمكان الذي أشار إليه الكاهن، جلس أمامه وهو يرتجف، قال في همس:

ـ أنا لست أكرهك، لا أقوى على ذلك، أنت لست ذلك الإله الشرير آمون، أنت تعذبت كثيرًا، ودفعت ثمن ألوهيتك غاليًا، تناثرت كل أجزاء جسدك في طول مصر وعرضها، بأنها من بلد، لا تهدأ إلا حين تقطع أوصال آلهتها.

واصلا السير، برزت أمامه فجأة الغابة القصية الأوراق من خلف الظلام، والبحيرة الممتدة ساجية كقلب وحيد، اشتم رائحة «أخت آتون» قبل أن يراها، رائحة الجير والملاط التي كانت تعبق بأنفه قديمًا، لا يعرف كم يومًا مر عليه، وكان واثقًا بأنه لو سار في شوارعها

الآن فلن يتعرف عليه أحد، جلده مدبوغ ولحيته الكثة تخفي ملامحه، الثياب التي يرتديها مثيرة للرثاء، كان في حاجة لأن يجمع شتات نفسه، ظهر سور المدينة الحجري من بعيد، تهتز عليه نيران المشاعل مع هواء الليل، أشار «أخناتون» لرفيقه أن يتوقف، أحس أنه لن يجرؤ على دخول المدينة الآن، كان في حاجة ليسترد أنفاسه التي أرهقها طول المطاردة، قال:

ـ لا بد أن المدينة قد أغلقت أبوابها، سنقضي اليوم تحت أسوارها..

لم يفهم «كا» جدوى الانتظار قال: لا أعتقد أنك هارب من هذه المدينة أيضًا..!

استند «أخناتون» إلى إحدى الأشجار، بدأت السكينة تهبط عليه، تأمل يديه الخشنتين، وقدميه المفرطحتين اللتين امتلأتا بالشقوق، أحس أنه لم يعد بحاجة إلى أي إله، كان محقًا عندما آمن بالشمس التي تغمر الجميع كما تغمره، ولكنه لن يدع شيئًا يستعيده، قال «أخناتون»:

ـ طوال هذه الرحلة لم تسألني من أكون، ولم أخبرك أنا بذلك، لأنني أعرف أنك لن تصدق، أنا فرعون هذه المدينة، فرعون هذه البلاد كلها!

نظر «كا» إليه في دهشة، لم يدر إن كان يصدقه القول أم يسخر منه، قال:

ـ كنت أعرف أنك سيد بطريقة أو بأخرى، لم أر على بدنك وسم

العبيد، أو شظف الفلاحين، ولكنك تبالغ هذه المرة، الفرعون إله، وليس إنسانا عاجزا ومطاردا!

ـ ربما كنت على حق في ذلك.. ولكن لم يبق أمامنا إلا القليل من الوقت لتعرف أنني كنت صادقا..

ـ إذا كنت فرعونا حقا فلنقترب من بوابات المدينة وتصرخ في الحرس حتى يفتحوها لنا..

ـ لن أدخل مدينتي وأنا على هذه الحالة، لا أطلب منك إلا أن تتبعني ما بقي من هذه الرحلة، إنها مغامرتك الأخيرة، إما أن تبقى عبدا هاربا من الموت، وإما أن تصبح تابعا مخلصا لفرعون..

نظر إليه «كا» بعينين تبرقان، لم تكن هناك مغامرة فلم يكن يوجد ما يخسره، سيرتحلان معا حتى النهاية، واصلا السير متجهين إلى سور المدينة، ارتعد جسد «أخناتون» شوقا وهو يتخيل نفسه وهو يحط بشفتيه أخيرا على رقبة «نفرتيتي» الطويلة، وهو يستقبل البنات في أحضانه ويغيب وجهه في جدائلهن، سيكون أول الداخلين إلى المدينة مع أول أنوار الصباح، مع الباعة والفلاحين وعمال البناء والخدم، سيمضي من فوره دون أن يراه أحد إلى جناحها، ويأخذها هي وبناته في أحضانه، وينهي بذلك مرحلة من حياته دون حنق ولا انتقام.

توقفا فجأة وهما يسمعان صوت الأنفاس اللاهثة وهي تتردد في سكون الليل، تلفتا حولهما وقد أمسك كل واحد منهما بعصاه، عاشا معا مثل هذا الموقف أكثر من مرة، أصبحا يجيدان الوقوف وظهر كل منهما للآخر ويقاومان، لمعت بقع صغيرة من الضوء، وميض نجوم

زائفة، وانبعثت رائحة زنخة، وصوت هدير خافت، ولكن الذئاب لم تظهر، كانا قد دخلا منطقتها وعليهما أن يغادراها فورا، بدآ يسيران مبتعدين، ولكنهما شاهدا مخلوقا ضئيلا جالسا متكوما تحت إحدى الأشجار، شبحا ضئيلا لحيوان غريب، يتحرك وينهض واقفا على قدميه، خدعة أخرى من سراب الغابة، يصدر عنه صوت، ليس عواء حيوانيا، ولكنه خليط من العويل والتوسل، ضعيف وواهن وليس فيه ذلك التحفز الحيواني، نظر كلّ إلى الآخر في حيرة، كان طفلا صغيرا، هزيلا ونحيفا وعاريا، وجهه متسخ لا يظهر من ملامحه إلا عينان لامعتان، وقف مادا ذراعيه في توسل وهو يواصل ذلك العواء الغريب، ما الذي أحضره إلى هذا المكان؟ لماذا لم تلتهمه الذئاب؟ هل هو ذئب مسحور؟

قبل أن يأخذا قرارهما بالابتعاد، كشف ضوء القمر عن أجساد الذئاب وهي تحيط بهما في دائرة واسعة، أفواهها مفتوحة وألسنتها متدلية، ظلا واقفين كل واحد منهما ظهره إلى الآخر، خائفين من أن يأتيا بأي حركة حتى لا يثيراها، ولكن الذئاب واصلت الاقتراب ببطء حتى رأيا عيونها الواسعة وأنيابها الحادة، أخذا يلوحان بالعصي، عوت فجأة واندفعت نحوهما، لوح «أخناتون» بعصاه وضرب واحدا منها على رأسه، أصبح يجيد الضرب والمناورة والدفاع عن نفسه، ولكن الذئاب لم تتراجع، عاودت الهجوم، أحس بواحد منها ينشب أظفاره في ساقه، ضربه بلا هوادة، سمع صوت «كا» وهو يقول في وهن: لقد انكسرت عصاي، صاح فيه: ابحث عن غصن شجرة بسرعة، ضاقت دائرة الذئاب، أحس أن ظهره قد أصبح عاريا، سقط «كا» على الأرض، وعلى الفور قفز فوقه اثنان من الذئاب، صرخ

محاولا دفع أنيابهما بعيدا عنه، استدار «أخناتون» وأخذ يضربهما، ولكن الذئاب كلها اندفعت نحو الجسد الساقط، أنشبت فيه أظافيرها وأنيابها، ظلت منكبة على الجسد لا تريد أن تترك فريستها بسهولة، ولكن «أخناتون» كان يضرب بجنون، انتقل إليه بعض من سعارها، ويتقافز بخفة لتفادي هجماتها، لم يعد ذلك الفرعون المرفه، الذي يتراجع أو يهرب، لم يتراجع، كانت الذئاب هي التي تراجعت، تركت الجسد المسجى وأخذت تعدو هاربة، كان هذا انتصاره الأول، ولكنه باهظ الثمن، جسد «كاء» ملقى على الأرض يغطيه الدم، وضع يده عليه، كان ينتفض ويحاول أن يلتقط أنفاسه في صعوبة، لم يكن «أخناتون» يدري ماذا يفعل، كشف الأسمال التي كانت تغطي صدر «كاء»، كان جسده كله مليئا بالجروح وآثار الأنياب، قال «أخناتون» في إشفاق:

ـ ستنجو ياصديقي.. وستصل لمدينتي..

ابتسم في شحوب، ولكن جسده كان ينتفض، الألم أكثر مما يحتمل، أغمض عينيه، انتظر أخناتون أن يعاود فتحهما ولكنه لم يفعل، هز جسده برفق لم يستجب له، كان الموت الذي يلاحقه من وادي طيبة، قد لحق به أخيرا في هذا المكان.

سمع صوتا يتأوه بجانبه، المخلوق الصغير يتطلع إليه، حدق فيه حتى يتأكد أنه طفل بشري، مسح بأصابعه الأوساخ التي تخفي ملامحه، تحسس السائل الرغوي الذي يحيط بفمه، كان ما زال لزجا، هل هي آثار رضاعة؟ هل كانت الذئاب تقوم بإرضاعه؟ منذ متى وهو هنا؟ وكم يبلغ عمره الآن؟ نظر إلى الجسد الهامد، هل فقد روحا فأرسل «آتون» له روحا أخرى؟

نهض «أخناتون» وأخذ يجمع أوراق الشجر المتساقط، وضعها على جسد «كاء» الممدد بلا روح حتى تغطى تماما، ظل جالسا بجانبه، وجلس المخلوق أيضا، وخيم الصمت على كل شيء، مرت أمام عينيه لحظات الرحلة الغريبة بما فيها من خوف وجوع وترقب، كيف ناما متجاورين وأكلا في قصعة واحدة، عبد ميت وفرعون مارق، بدأ الأفق يصبح شاحبا، وانطفأت المشاعل على أسوار المدينة، نهض، ألقى نظرة الوداع الأخيرة، أمسك بيد المخلوق الغريب، همهم في رضا وهو يقبض بأصابعه الصغيرة على يده، وعندما اكتشف «أخناتون» أنه غير قادر على السير بشكل طبيعي حمله وسار به نحو أسوار «أخت آتون».

دخلا المدينة مع الأضواء الأولى للفجر، وسط جمع من عمال البناء ومنظفي الشوارع وفلاحات القرى اللواتي يحملن الخضراوات والبيض والطيور، لم يكن في منظر «أخناتون» البائس، ولا الطفل الهزيل العاري ما يريب، حمله وسط شوارع المدينة شبه الخالية، وسط هدوء شاحب دون حياة قبل أن تشتد الشمس، لماذا تأخرت يقظة المدينة إلى هذا الحد؟ كان هناك كثير من النسوة يلبسن السواد ويجلسن بجانب الجدران كأنهن في حالة انتظار دائم، بضع عجائز يتوكأن على العصي في وهن، والقليل من الحرس على الأسوار، وأقل منهم أمام قصر الفرعون، كل شيء كان حزينا، غلب النوم الغلام الضئيل وهو على كتفه، وبدا أبكم لا يجيد أي كلمة من كلمات البشر، حاول الفرعون أن يصعد على الدرج الرخامي، ولكن الحارس استوقفه، نظر إليه بقرف واضح، لم يكن يسمح لأي شحاذ بالتقدم، حاول «أخناتون» أن يعرفه على نفسه، بجعله يتأمل ملامحه،

ولكن شكله كان غريبا ورائحته لا تطاق، وجه الحارس سن الرمح إلى صدره وطلب منه الابتعاد، تراجع وجلس بجانب العجائز والمتسولين الذين ينتظرون الصدقات من الناس المهمين الذين يدخلون إلى قصر الفرعون.

بدأت الشمس في الصعود واستيقظ الطفل جائعا، تطلع نحوه بعينين ضارعتين ثم أخذ يعض على أصابعه، لم يدر ماذا يفعل، خرجت مجموعة من خدم القصر، يحملون محفة عليها عدد من أرغفة الخبز، تدافع الشحاذون والعجائز، أخذ الخدم يحاولون أن ينظموا المتدافعين حتى يأخذ كل واحد نصيبه، ولكنهم كانوا يعرفون أن عدد الأرغفة يكون دائما أقل من عدد الجوعى، لمح أخناتون الوزير «آي» واقفا على مبعدة يراقب عملية توزيع الخبز، تذكر أنه كان قد كلفه بالإشراف على هذه المهمة، حانت الفرصة أخيرا، نهض الفرعون وهو يمسك بالغلام، نصب قامته، ونفخ صدره، تقدم ناحية الوزير في اعتداد، لم يبال بالرماح التي يوجهها الحراس إلى صدره، نظر إليه «آي» في فزع، ثم حدق في وجهه باستغراب، وفغر فمه مذهولا وهو يسمع كلماته الآمرة:

ـ أفسح لي الطريق إلى قصري يا «آي».

* * *

.......بكت «نفرتيتي» كما لم تبك من قبل، وتعلقت البنات برقبته، ولكن حين شاهدن الغلام تراجعن، وقفن متوترات وهن يراقبنه في حذر، كان أشبه بحيوان غير مروض حتى بعد أن تم تنظيفه

واكتسى جسده بثوب من الكتان، كان يأكل بنهم، ويحدق فيهم في نفور، ويتحفز عندما يحاول أحد الاقتراب منه، قالت «نفرتيتي»:

ـ من هو؟

قال: هدية من آتون.. لم نرزق ولدا فأرسل لنا هذه الهدية..

قالت: إنه حيوان بري لم يروض، لا يعرف الكلام، أنا أخشى من وجوده بيننا..

ـ سيتعلم، ويصبح إنسانا، إنه توت.. توت عنخ آتون.. لأن آتون هو الذي أرسله لنا..

بدت ملامحه رقيقة بعد أن ظهرت، كان نحيفا، جلده الرقيق يكسو أضلاعه بصعوبة، المخيف فيه هي أسنانه الحادة وأظافره الطويلة وتفضيله للطعام النيئ، كان على «نفرتيتي» أن تعتني به، وأن تعين له خادما لإطعامه، ومعلما ليلقنه كيفية النطق، نظر «أخناتون» إلى وجهها الصغير الرقيق، إلى عينيها الواسعتين المليئتين بالقلق، قالت:

ـ ماذا حدث لك في رحلتك؟

بادرها بالقول: ماذا حدث لمدينتي؟ لماذا تبدو حزينة وبائسة إلى هذا الحد؟!

ـ إنها الحرب.. لقد خرج «حورمحب» إلى الحرب..!

ـ ماذا؟!... لم آذن له بذلك.. كيف حدث هذا؟

صاح غاضبا وقد أحس بالخيانة، من أجل هذا بدت المدينة خائفة

ومتوترة، مليئة بالنساء والعجائز وأسوارها خالية من الحراس، جاء «آي» وهو يرتعد، ومعه رؤساء الحرس والأشراف والمسؤولون عن تجهيز المؤن والخيول والأسلحة، لم يكن باقيا منها إلا القليل، كان «حورمحب» قد جمع كل ما يقدر عليه وسار إلى الشمال، صرخ فيهم:

ـ كيف أطعتم أوامره، وأذعنتم له؟

قال «آي»: لم نكن نستطيع أن نوقفه، جاءت الرسل من الشمال تخبرنا أن قبائل الحيثيين يقتربون من حدودنا، لقد تخطوا أرض كنعان و..

ازداد غضب الفرعون:

ـ لقد تشاركتم معه إذن في لعبة الحرب هذه، كيف تصدقون هؤلاء الرسل وتلك الرسائل المزيفة؟! كان «حورمحب» يدفعنا منذ البداية إلى حرب لا نريدها، كيف تأكدتم أننا في خطر؟..

ـ مولاي.. إنه قائد الحرب، وهو يعرف ما يفعل..

ـ وأنا الفرعون.. وأعرف ماذا أفعل أيضا.. انصرفوا جميعا من أمامي..

كانوا كلهم يرتعدون، لم يتصوروا أن يصل غضبه إلى هذا الحد، أخذ «حورمحب» كل ما يقدر عليه من رجال ومؤن وسلاح، أعد جيشا بسرعة ودون أن يباركه أحد، ترك «أخت آتون» عزلاء أمام كهنة الجنوب الذين يمكنهم الهجوم عليها في أي وقت، كان يعتقد أن في إمكانه السير إليهم، ولكنه الآن يخشى أن يسيروا هم إليه، يهاجمونه

في عقر مدينته، كان لا بد أن يجمع المزيد من الحراس والجنود، لم يعد يريد الانتقام، يريد فقط أن ينقذ حلمه المهدد بالضياع.

في الليل كانت رائحة البخور تعبق بالمكان، وشعر بصدره وهو يضيق، اشتاق فجأة إلى هواء البراري المليء برائحة الزرع والسبخ والطين والأعشاب البرية، هتفت به «نفرتيتي»:

ـ ترفق بي يامولاي.. ستكسر أضلاع صدري..

كان جسدها أيضا يتضوع بخليط من عطور، ناعما وشاحبا وسهل الكسر، لم يكن يمارس معها الحب بقدر ما يصب فيها كل ما يعتمل في داخله من غيظ وحنق وجوع، نهض من الفراش وأطل على أسوار المدينة، ازداد عدد الحرس وأضيئت المئات من المشاعل، كان يريد أن تبقى المدينة مضاءة طوال الليل، لعل ذلك الضوء المتواصل يعطيه إحساسا بالأمان، نهضت «نفرتيتي» ووقفت خلفه، أحس بجسدها العاري وهو يلتصق به التماسا للدفء، قالت:

ـ أنت ترتجف ياسيدي..

ـ أشعر بأنني لم أعد إلى بيتي بعد، وأنني ما أزال ضائعا وسط البراري..

ـ هل كانت رحلة شاقة؟

ـ كانت مخيفة، رأيت أناسا لا نعرف عنهم شيئا، إننا نحكمهم ونرغمهم على عبادتنا وتقديس ذكرانا من دون أن نبالي بالنظر إلى وجوههم، نسخر كل طاقاتهم، وأعمارهم القصيرة من أجل أشياء مضحكة، هؤلاء الفلاحون الذين يجيدون الغرس والحصاد،

والبناءون الذين برعوا في قياس الأبعاد والارتفاعات، وقاطعو الأحجار، ومركبو الأصباغ والعمال والرسامون والنحاتون والنقاشون، كل المعارف التي اكتسبوها كان بلا فائدة، لقد استنزفنا أعمارهم وسخرناهم على مدى أعوام طويلة لبناء أهرامات ضخمة ولكن لا طائل من ورائها، ما جدوى أن يدفن فيها ملك معتوه مثلي؟! طوال هذه الرحلة أشاهد هذه الأطواد والمعابد الضخمة والمسلات وتماثيل الملوك والآلهة، أعمار ضائعة، وجهود مهدرة، لماذا نفعل بهم ذلك؟! لماذا لا نتركهم يزرعون ويحصدون كما تعودوا أن يفعلوا، ونكتفي بما نأخذه من حصص الغلال والأموال؟ كل هذه الأحجار التي قطعوها من الجبال التي سووها بالأرض، لماذا لم نترك لهم الفرصة ليبنوا بها السدود التي توفر لهم المياه وتحميهم من الغرق في الفيضان، أو حتى يقيموا منها جدرانا لبيوتهم الطينية الدائمة الانهيار؟ لماذا بعد كل هذا نضربهم بالسياط ونسوقهم إلى الحرب؟!

أحست «نفرتيتي» بالإشفاق عليه، قالت:

ـ إنهم عبيد.. لا أرواح لهم..

ـ ماتكشف لي في هذا الهروب التعس أن لهم أرواحا، وأسماء يتنادون بها، ومصائر لا نأبه بها..!

كان يشعر بالمرارة، حاولت التهوين عليه:

ـ على الأقل أنت لم تفعل ذلك، لم تبن أهراما ولا معابد..ولم تذهب بهم إلى الحرب، حدث ذلك من دون علمك!

قال: أبي فعل ذلك، وجدي فعل ذلك من قبله، أشعر بأنني أحمل وزرهم جميعا..

استلزم الأمر أياما طويلة قبل أن يستطيع الفرعون أن يلم شمل مدينته مرة أخرى، أحضر المزيد من الفلاحين وجعل منهم حراسا، وعندما جاءت إليه الرسل بأن الملكة «تي» قد ماتت في الليلة نفسها التي كان فيها هناك، لم يقتحم أحد قصرها، ودفنت في المقبرة نفسها بجوار زوجها، هدأت حدة نفسه، قرر أن يترك طيبة لمصيرها، لن يدخل في حرب معها، ولكنه أصبح يخشى أن تأتي طيبة إليه، أحضر كل أبناء الأشراف وجعل منهم حراسا على أسوار المدينة بحيث لا يغمض لهم جفن.

واستلزم الأمر شهورا طويلة قبل أن يجد «حور محب» واقفا أمامه، يرتدي ملابسه الحربية، صدره الضخم مغطى بصفائح النحاس، عليها بقايا دم المعارك وغبار الطريق، صبغت الشمس جلده، وزادت من قسوة ملامحه، كان قد ترك كل قواته خارج المدينة حسب تعاليم الفرعون، ودخل المدينة مترجلا دون عربته الحربية، وقف أمامه وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة، قال «أخناتون»:

ـ وصلتني أنباء هزيمتك..

خفض «حور محب» رأسه، لم يكن «أخناتون» يحب الحرب حقا، ولكن الهزيمة دائما ماتكون قاسية، ومهما تكن متوقعة فهي لا تطاق، لم يكن أمامه في هذه اللحظة إلا أن يأمر بإعدام القائد، فقد عصى أمره منذ البداية وتلقى الهزيمة في النهاية، ولكن «حور محب»

كان ممرورا، ما زال طعم ملح الصحراء في فمه وغبار الدم والصهد يجريان في عروقه، قال:

ـ لقد تخلى الجميع عني، وعدتني بالدعم والعون ثم تركتني واختفيت، كنت في حاجة إليك، إلى سلطاتك حتى أستطيع أن أكون جيشا صالحا للقتال، حتى يطيعني حكام الأقاليم المترددون، وجباة الضرائب البخلاء، النتيجة أنني ذهبت نصف مستعد، كنت أشبه بالمغامر وليس كقائد حربي.

ـ لم يطلب منك أحد أن تغامر..

ـ لم يكن هذا من أجل مجدي الشخصي، لقد ذهبت لإنقاذ حدود الشمال، كانوا على وشك الدخول إلى وادي الفيروز، لو لم أذهب إليهم لوصل الأعداء إلى هنا..

ـ لو لم تذهب لتوقفت الحرب قليلا، هكذا لن تتوقف أبدا، كلما جمعنا قوتنا سنهاجمهم، وكلما استعادوا قوتهم سيهاجموننا، ويستمر القتال دون جدوى وبلا نهاية، لا يوجد انتصار مطلق، ولا هزيمة ساحقة، كان يمكن أن نبحث عن شيء آخر غير هذا..

ـ أنا قائد، ومهمتي هي القتال لا التصالح مع الأعداء..

ـ لم تعد كذلك، اترك أسلحتك وإشاراتك، لم تعد قائدا لجيوش مصر بعد الآن.

توقف «حورمحب» مذهولا، لم يصدق أنه يمكن أن يعزله بهذا الشكل، كان عليه أن يأمر بقتله أو يضعه في سجن ناء لا يعلم أحد بوجوده، أي قرار ما عدا ذلك هو مخاطرة أو جنون، لا أحد يأمن

شر المقاتل القديم، ولا يستطيع أن يبعد يديه عن السلاح طويلا، وقائد مثل «حورمحب» إما أن يكون على رأس جنوده وإما أن يكون في القبر، ولكن الفرعون لم يكن قادرا على قتله، فهو لم يكن فقط الصديق والمنقذ في وقت الخطر بل كان قائد مصر منذ عهد أبيه، خاض معه كل الحروب، وهزم كل تلك القبائل البدائية، قال في هدوء:

ـ الأفضل أن تقتلني يامولاي..

لم يشأ «أخناتون» أن يفهم مغزى كلماته، قال:

ـ أدرك ذلك.. لم يكن أي فرعون غيري يفعل إلا هذا.. ولكنني في حالة لا تسمح لي بقتل صديق قديم..

ظل «حورمحب» واقفا أمامه، كأنه يدعوه ليغير قراره، ولكن «أخناتون» أدار ظهره له حتى لا يواجه عينيه الممتلئتين بالغضب، لم يصدق أحد من رجال الفرعون عينيه وهم يشاهدون «حورمحب» خارجا من القصر على قدميه وهو حي، نظروا إليه هو يجتاز طرقات المدينة ويذهب إلى قصره، ولكنهم كانوا يعرفون جميعا أنه لن يمضي الليل عليه وهو في المدينة، لن يبقى فيها يوما واحدا بعد الآن.

في المساء قالت له «نفرتيتي» وهي حزينة:

ـ لقد خلقت لنا عدوا جديدا.. كان عليك أن تقتله..

قال وهو يحاول الابتسام:

ـ يالك من سفاحة رقيقة الحاشية، كل ما كنت أريده هو أن أمنع «حورمحب» من القتل، لا أن أتحول أنا إلى قاتل..

كان حالماً، كالعهد به، هكذا فكرت «نفرتيتي» وهي تغمض عينيها في أسى، وعندما جاء الصباح، كان الوزير «آي» هو الذي حمل الخبر إلى الفرعون مبكراً:

ـ شاهده حرس النيل وهو يخرج حاملاً كنوزه وسلاحه ونساءه ولم يجرؤ أحد على التعرض له، لم تكن هناك أوامر بإيقافه على أي حال، يقولون إنه في طريقه إلى طيبة الفاسدة..

تلقى «أخناتون» الأخبار بوجه جامد، كان هو الذي هيأ له الطريق للهرب، لم يشأ أن يتواجه معه على البقعة من الأرض نفسها، وداخل المدينة نفسها، ولكن «آي» لم يستطع أن يخفي دهشته، قال ناصحاً:

ـ بقايا جيشنا ما زال خارج المدينة، يمكننا أن نطارده يا مولاي ونسد عليه الطريق للجنوب..

قال «أخناتون» في صوت خفيض:

ـ لا يوجد جيش يطارد قائده، في الأغلب سوف ينضم إليه، خذ هذا الجيش، أطعم الجنود واكسهم وداو جراحهم، واصرف نصفهم، ودع النصف الآخر ليدافع عن مدينتنا..

انصرف «آي» حائراً، كان الفرعون مصراً على التفريط في كل مصادر قوته، ويزيد من قوة المناوئين له، ورغم ذلك فقد قام بتنفيذ أوامره، حل الهدوء على المدينة، ورحل الجنود سعداء، وتذمر من بقي منهم، ولكنهم عرفوا أن أجورهم ستتضاعف وستخصص لهم بيوت يقيمون فيها ونسوة يتزوجونها، داخل المدينة وليس في الحفر

الضيقة خارجها، وكان على «آي» أيضاً أن ينفذ المزيد من الأوامر الغريبة، أن يمنع العمل في إقامة أي نوع من المعابد أو المسلات أو الأهرامات بعد ذلك، وأن يجمع الرسامين ويأمرهم بعدم رسم صور الملوك والآلهة على جدران المدينة، ولكن أن يرسموا الفلاحين وهم يغرسون البذور ويسوقون الأبقار ويحتضنون عيدان القمح في كل موسم، أن يصوروا الحدادين والصيادين والبنائين، أن ينقشوا صور المغنيات والراقصات وضاربات الدفوف وكل صناع الفرح والبهجة، الأهم من ذلك أن يهجروا اللون الذهبي، لون الخوارق والمعجزات، واللون الأسود لون الحزن والحداد، أن يأخذوا الألوان من خضرة العشب وزرقة السماء وحمرة النهر عندما يفور بالخصب والحياة.

ولكن أغرب الأوامر حقاً كانت في انتظار «آي» عندما توجه إلى القصر في هذا الصباح، كانت القاعة مزدحمة بأشراف المدينة، كل الذين آمنوا بعقيدته الجديدة وتبعوه إلى هذا المكان، وكانت الملكة «نفرتيتي» تجلس بجانبه على العرش، لم تكن تفعل ذلك إلا عندما يكون هناك أمر خطير، قال الفرعون:

ـ أريد أن أضع حداً للحرب بيننا وبين قبائل الحيثيين في الشمال..

هتفوا جميعاً في حماسة، هذا ما كانوا ينتظرونه: أن ينقضي موسم الحصاد، ثم يتم استدعاء الفلاحين الشباب، وجمع كل الغلال وإيقاد كل المسابك، وصنع جيش جرار لم تشهد مصر مثله يكون قادراً على خوض معركة ساحقة ونهائية ضد قبائل البرابرة، ولكن الفرعون صمت طويلاً حتى هدأت الضجة، وصمتت كل الأصوات المتداخلة، قال:

ـ لم أكن أفكر بهذه الطريقة المعقدة، لو كنت أريد الحرب لأبقيت على «حور محب»، إنه الأفضل رغم هزيمته، كنت أفكر في إرسال وفد من أشراف مصر من أجل عقد صلح بيننا وبينهم.

تحولت الأصوات في القاعة إلى اعتراضات خافتة وغاضبة، بدت خيبة الأمل على الوجوه، قال «آي»:

ـ مولاي الفرعون المقدس.. لم تتعود أبدا أن نرسل وفدا للتصالح، إنها قبائل بدائية لا تعترف بعهد ولا اتفاق، لقد قام والدكم الفرعون الأعظم بإخضاعهم أولا، حتى قبلوا التصالح معه، لو طالبنا صلحهم سيعتقدون أننا ضعفاء، وهم يعتقدون ذلك بالفعل، من المستحيل أن نطلب الصلح ونحن مهزومون، فلن يكون هذا إلا تصالح المهزومين..!

قال الفرعون في تصميم:

ـ لا أريد حربا.. وقد عزلت «حور محب» لأنه لم يكن يتحدث إلا عن الحرب، سنكون وفدا عالي المستوى من أشراف مصر، سيذهبون إلى بلاد البرابرة، ويتحدثون بصدق عن رغبتنا في السلام، علينا أن نشعرهم بمدى صدقنا، سنخبرهم عن إلهنا الجديد، وعندما يؤمنون به ستصبح جميعا أتباع إله واحد، ولن نتحارب بعد الآن.

كان من الصعب مناقشته عندما يؤمن برأي ويعتقد في صوابه، كانوا جميعا أكبر منه سنا، يعرفون الماهية الحقيقية لهذه القبائل، وتاريخها الدموي الطويل، ولكن الأشراف تجمعوا على رغمهم، تركوا الفرعون يختار من بينهم أفراد الوفد، اختار من بينهم عشرة، واختار معهم من يجيد التكلم والتدوين بلغة الحيثيين، كان يريد أن

تعقد معاهدة من لغتين، وألا تكتب فقط على أوراق البردي، ولكن أن تحفر أيضا على أحجار من الصوان الصلد.

خرجت المدينة كلها لوداع وفد الأشراف وهم يركبون القوارب حيث يأخذهم النهر شمالا، بعدها سيركبون الخيول والعربات ويعبرون الصحراء إلى وادي الفيروز ومنها إلى أرض كنعان(ثم إلى مواقع الحيثيين)، كانوا محملين بهدايا من الذهب تحمل علامات الشمس الممدودة الأيدي وأغصان من سعف النخل وسنابل القمح تعبيرا عن الرغبة في السلام، ودعهم الفرعون بابتسامة مشرقة، وبادلوه هم ابتسامات شاحبة.

هل يمكن أن تأتي هذه الخطوة بلحظات الهدوء والسكينة؟ أن ينعم بحياته بعيدا عن العنف والتهديد؟ لقد جاهد طويلا ليحول هذه المدينة الصغيرة إلى فردوس هادئ ومختفي عن جحيم العالم المستعر، هكذا كان «أخناتون» يفكر وهو يجلس هادئا في الشرفة المطلة على حديقة القصر، تناهت إليه ضحكات رائقة من بعيد، لم تسمعها جدران قصره منذ زمن، صادرة من مكان لا يدخله غريب، الحديقة التي يشعر فيها أهل القصر فيها بالراحة والانطلاق، نهض وتوجه إلى مصدر الضحكات، توقف متأملا المشهد الذي أمامه، كان هناك طقس يقام تحت الشمس، فوق العشب الأخضر، جنب نافورة يرتفع منها رذاذ الماء عاليا، كانت البنات الخمس يجرين عاريات، لا يستر أجسادهن الصغيرة شيئا، والطفل البري يجري بينهن عاريا أيضا، جسده داكن قليلا عن أجسادهن، أكثر متانة وقد بلغ مرحلة الفلمة، تعلو صدور البنات وتنخفض محملة بأنفاسهن الصغيرة، ويجري هو أيضا خلفهن وقد بدأ عضوه الجنسي في

البروز، يتلامسون، يتكومون ملتصقين، يستلقون على العشب، تتناثر على أجسادهن قطرات الماء التي تلونها أشعة الشمس، كان الجو مليئا بنبضات حسية، بصخب ومرح وضحك ومداعبات وتلامس، فقد الغلام جزءا من طبيعته البرية، أصبح يسمح لهن بالتقلب عليه، ويسمح ليده بلمس أجسادهن بخفة، لم يشعر «أخناتون» بالحنق ولا بالغيرة، لا من يده وهي تمس أثداءهن للحظات عابرة، ولا من مؤخراتهن الصغيرة وهي تصطدم بجسده، كان الطقس مفعما بالحياة المتدفقة في هذه الأجساد الصغيرة، أكثر مما هو مليء بالدنس، وقطرات الماء المتناثرة تغسل كل ما فيه من رغبات دنيئة، كان عليه أن يتقدم ويمنعهن، ولكنه لم يجرؤ على ذلك، في هذا الجو المفتوح، فوق العشب النضر، تحت هذه الشمس الساطعة لا توجد خطيئة، الخطيئة تكمن فقط في الغرف السرية وأقبية المعابد وقدس الأقداس، سمع صوت «نفرتيتي» من خلفه وهي تقول:

- إنهن يكبرن بسرعة، وهو ينمو في وسطهن.. يجب أن تفعل شيئا..

في اليوم التالي اصطحبه معه للصيد، ركبا معا نفس العجلة الحربية، وتركه يمسك بأعنة الجياد، علمه كيف يوجهها ويسوقها برفق وحزم، لاحظ أن صوته قد بدأ في التحشرج علامة على اقترابه من سن البلوغ، سارا ببطء على حافة البحيرة الممتدة، وتوغلا في الغابة التي أرضعته فيها الذئاب من أثدائها، كان «أخناتون» يراقبه وهو يتوقع أن تستيقظ في داخله ذكريات الغابة البرية ويحن إليها، ولكنه ظل يقود العربة كأنه قد أصبح في عالم آخر، حاول أن يعلمه قذف الرماح ورمي السهام، ولكن أخناتون نفسه لم يكن صيادا ماهرا

على أي حال، انتظر قليلا حتى حان وقت الراحة بالقرب من حافة البحيرة المتألقة، قال له:

- عليك ألا تراهن عاريات بعد الآن، ولا تدعهن يرينك عاريا، سوف تفقد رغبتك فيهن، وتفقدهن الرغبة فيك.

أومأ الغلام برأسه في طاعة، كان قليل الكلام بشكل عام، واصل «أخناتون»:

- مقسوم لك واحدة منهن فقط، هي التي ستكشف لك عن جسدها، وستجعلك ملكا على مصر، فلا تخنها، ولا تكشف عن جسدك لغيرها..

نهض الفرعون وسار للعربة، والغلام خلفه وهو عاجز عن النطق، لم يتصور أن يكون ملكا، منذ أن دخل القصر وهو يدرك مكانته المتدنية، حتى «أخناتون» نفسه لم يتصور أنه سيمزج دمه الملكي مع ربيب للذئاب، ولكن هل كان هناك حل آخر؟! قال له أخيرا وقد لاحت أسوار المدينة:

- غدا سوف نقوم بطقوس الختان لك.

كانت هذه هي البداية، الختان هو ميزة المصريين عن غيرهم من القبائل البدائية، التكريس الأول لدخوله إلى عالم النضج والبلوغ، مرحلة الطهارة التي يجب أن يمر بها حتى يصبح فرعونا، كان قضيبه يجب أن يبدو واضحا للعيان، حتى يثق الجميع بقدرته على الإنجاب ومواصلة الحياة.

بدأت احتفالات الختان، وبدت نية الفرعون واضحة أمام

الجميع. لقد عثر على الوريث الذي كان يبحث عنه، لن يترك بناته فريسة لأي طامع أو مغامر. زينت المدينة بسعف النخل وأغصان السنديان، وأضيئت المشاعل فوق الأسوار وفي وسط الميادين، دقت الدفوف، وامتلأ الجو بالبخور. وتقدم الكهنة حليقي الرءوس، كان هذا شرطا ضروريا لكل من يمارس أنواع الطب والعلاج، يحملون ألتهم مصقولة ولامعة وحادة ملفوفة في رقائق من الكتان، وصندوق للقناني التي تحتوي أمزجة من الأعشاب المخدرة التي تخفف الألم.

ولكن الغلام بدا مفزوعا وشاحبا، وأكثر ضآلة من أن يكون لائقا لتولي العرش. تقدم توت، بعد أن تحمم وتعطر. يلبس رداء أبيض ناصعا، بعد أن يتم قطع القلفة ويتناثر على هذا الرداء قطرات الدم سوف يتم الاحتفاظ به، علامة على بلوغ «توت» مرحلة الرجولة، يستطيع أن يتباهي أمام الآلهة التي تحتم على كل أتباعها من فراعنة وكهنة أن يكونوا مختونين. ازدحمت القاعة بأشراف المدينة، وتصدر الفرعون القاعة وهو جالس فوق عرشه. أجلسوا «توت» على مقعد صغير، ووضعوا بين قدميه طستا من الذهب. كان مرعوبا، تصطك ركبتاه، ولكن الكهنة أمسكوا يديه وأبعدوا ركبتيه، وعندما ارتفعت صرخاته عالية، دقت الدفوف، وتقدم الأشراف من الفرعون، ينحنون أمامه ويقدمون له التهاني، لم يبال أحد بالغلام الذي فقد وعيه والذي كان الكهنة يقومون بتضميد جراحه. كانوا جميعا يعرفون أن زواج الولد بابنة الفرعون كاف لأن يعتلي العرش. ولكن هل كان هذا الغلام البري لائقا بعرش الآلهة؟

دقت الدفوف وتمايلت الراقصات، و«نفرتيتي» تتأمل كل شيء

بعينين حزينتين. كانت تتمنى أن يكون الملك قادما من رحمها، وليس مجرد متشرد أرضعته الذئاب، ولكن «أخناتون» كان منتشيا، يشرب خمرا جاءت من أجله خصيصا من منطقة «بوتو» في تل الفراعنة، مصنوعا بنفس طريقة الإلهة «حتحور» حين كانت تعصره بقدميها الحافيتين، لتبعث بالدفء في نفوس عشاقها، ولكن الصمت ساد فجأة، سكتت الدفوف وتوقفت الراقصات، تراجعت الجواري، ونهض الأشراف مذهولين، في وسط القاعة كان يقف رجل غريب الهيئة، ممزق الثياب، أشعث، مغطى بالتراب، مليء بالجروح، شخص بائس وزري، لا أحد يعرف كيف استطاع أن يدخل إلى القصر. نهض «أخناتون» واقفا، أحس أنه يعرف هذا الوجه، قال الرجل بصوت عال سمعه الجميع:

ـ لقد عاد وفد أشراف مصر يا مولاي.

استدار دون أن ينتظر جوابا، سار بخطوات مترنحة ومتعبة إلى خارج القصر. لم يجرؤ «أخناتون» على أن يرفع صوته أو يوجه له أمرا. نهض وبدأ في السير خلفه، نهضت «نفرتيتي» تحاول أن تلاحق خطاه، سار الجميع من دون صوت، من دون أن يجرؤ أحد على التنفس، كان الظلام مخيما، والمشاعل تهتز وتلقي الضوء على إحدى العربات التي تقف في ساحة القصر. عربة بدائية مكونة من أغصان شجر لم تشذب، مربوطة بعضها إلى بعض بخيوط من الألياف، يجرها حصان واحد متهالك، تفوح منها رائحة عفنة لا تطاق. تراجعت «نفرتيتي» وبقية النسوة والجواري وقد أوشكن على الاختناق، ولكن الفرعون واصل الاقتراب. رأى وفد الأشراف، أو بالأحرى بقاياه، وقد تحول إلى كومة في قاع العربة، تغطيها

عباءات ملوثة بالدم، تقدم الرجل الغريب، وكشف عن الكومة، رءوس مقطوعة، عيون محملقة توشك أن تخرج من محاجرها، أذرع مبتورة، أصابعها ملتوية في توسل، محاولة يائسة للدفاع عن نفسها، أرجل مقطوعة، بطون مبقورة وقد انتزعت أكبادها، تحول الوفد كله إلى مزق من الأعضاء المبتورة والجلد المتهتك والعظام المتكسرة والرائحة العفنة، توقف الفرعون مذهولا، كان قد قدم عشرة من أفضل أشراف مصر ـ يلبسون دائما عباءات من الكتان الأبيض الموشى بالذهب، ويضعون عطورا من الصندل والعنبر ويجيدون النصح ورواية الشعر وقصص الأسلاف و الدعابات ومبادل الآلهة القديمة ـ فريسة سهلة لقبائل الشمال، استيقظت الغربان وتكاثرت فجأة في سماء المدينة وأخذت تنعق معلنة عن جوعها، أشار الرجل الرث الثياب إليها وهو يقول:

ـ إنها لم تكف عن مطاردتنا، تابعتني من أرض كنعان التي يحتلها الحيثيون الآن.. حتى هنا..

أفاق أخناتون على أصوات النعيق، إن لم يكن هذا كابوسا فماذا يكون؟! كان المشهد الذي أمامه حقيقيا، بكل ما فيه من رعب وأسى، شهقت بعض النسوة وبدأن في البكاء، زوجات وحيدات تحولن إلى أرامل، يبكين آخر ما بقي من أزواجهن، تلفت أخناتون حوله مفزوعا، يريد أحدا يشرح له ما حدث، لكن كل من حوله من رجال كانوا ممتقعي الوجوه، يأخذون أنفاسهم في صعوبة، كأن الجثث الممزقة ترقد فوق صدورهم، التفت إلى الرجل الرث الثياب وهو يقول:

ـ من أنت؟

ـ أنا شاهد الموت الأخير ياسيدي، الوحيد الذي تركه الحيثيون حيا، لم تكن لي قيمة، قيمتي الوحيدة، هي أن أعود بجثث الأشراف وأروي فصول مأساتهم.

التفت «أخناتون» للوزير «آي» بصوت عال:

ـ جهزوا هؤلاء الرجال النبلاء للدفن، وأقيموا لهم المراسيم التي تليق بهم (وأشار للرجل الرث الثياب) اتبعني وارو لي ما حدث.

في داخل القصر، كان توت ملقى على الأرض ينزف متأوها، وكان الخدم يفرون من أمام الرجل الرث الثياب كأنه رسول الموتى، ترددوا كثيرا قبل أن يدخلوا القاعة ويحملوا الفتى النازف ليضمدوا جراحه.

كان العائد من الموت واحدا من الكتبة الذين رافقوا الوفد، ذهب معهم لأنه يجيد الحيثية كتابة وتكلما، شاهد المذبحة، وعاني من المهانات التي سبقتها، عندما علم ملوك الحيثيين الذين أصبحوا يحكمون أرض كنعان بعد أن اجتاحوها، أن هناك وفدا من أشراف مصر قادم للتصالح معهم، استمعوا إليهم في سخرية، لم يعجبهم أن هناك إلها جديدا يولد من العدم، كانوا جميعا يؤمنون «بست» إله الظلام، ولم يكونوا على استعداد لتغييره، ربطوا أعناق الأشراف العشرة في الحبال، طافوا بهم في الشوارع المتربة وبين خيام الجلد وبيوت الغاب معلنين عن انتصارهم، ضربوا وجوه الأشراف بالنعال، وسموهم بشارات الأسرى والعبيد على جلودهم، كان هذا ثأرهم من جيش أمنحتب الذي طالما أذلهم، كان النصر قد جاء لهم سهلا ومدويا، جمعوا كل السكان في ساحة المدينة، وأوقدوا نارا ضخمة

أحرقوا فيها كل الهدايا التي حملها الوفد، ثم بدءوا الاحتفال بذبح الأشراف وتقطيع أوصالهم، أكلوا أكبادهم، ولطخوا صدورهم بدمائهم وهم يرقصون على دقات طبول الحرب.

توقف الرجل عن الكلام منتظرا المزيد من الأسئلة، ولكن الفرعون ظل صامتا وشاحب الوجه، كومة الأعضاء المبتورة تجيب عن كل الأسئلة، لا تعلن عن إخفاق حلمه فقط ولكنها تنذره بأنه أصبح يقف على حافة الخطر، والأهم من ذلك أن «حورمحب» كان مصيبا، وكان هو المخطئ، تخلى عنه آتون ولم يوجهه للطريق الصحيح، كان هو نفسه قد بدأ في الشك فيه فكيف يؤمن الآخرون به؟!

علقت شارات الحداد في كل أرجاء المدينة، فتحت المقابر المغلقة على عجل وبدءوا في تجهيزها، واجه المحنطون مشكلة فصل الأشلاء، وإعادة كل عضو لصاحبه، حتى لا تذهب جثة للعالم الآخر وهي ناقصة، لم ينم الفرعون في هذه الليلة، كانت حرارة «توت» في ارتفاع، وعضوه الصغير متورما، والبنات يدرن حوله وهن يسخرن منه ضاحكات، ونظر أخناتون إلى وجهه المحتقن وأحس أن كل شيء يضيع، وأن عليه أن ينقذ عرشه من الضياع، وجاء «آي» في موعده تماما، وقال أخناتون بشكل مباشر:

ـ علينا أن نذهب إلى الحرب، لا مفر من ذلك، عليك أن تجمع الجيش وتعيد تدريبه، سنسرع باستدعاء «حورمحب»، هو الوحيد القادر على خوض هذه المعركة.

حدق فيه «آي» دون أن يحير جوابا، لم يكن يتوقع هذا النوع من

رد الفعل، لقد أعلنت قبائل الشمال الحرب وعليه أن يواجهها حتى وإن لم يكن يؤمن بذلك، قال الوزير مترددا:

ـ أخشى ألا يكون هذا ممكنا يامولاي، ليس لدينا الأموال الكافية لتجهيز مثل هذا الجيش.

نظر إليه الفرعون مدهوشا، قديما لم يكن هناك من يناقشه، لم يكن هناك شيء يمكن أن يعطل إرادته، حدق في الوزير غاضبا، قال مبررا:

ـ لم تكن حصيلة الضرائب جيدة هذا العام، لقد منع عنا كهنة الجنوب ضرائبهم، وقد قويت شوكتهم بانضمام القائد المارق «حورمحب» لهم

هل خسر الحرب مقدما؟! هل فقد التمويل اللازم والقائد القادر في ضربة واحدة؟! قال:

ـ سوف أفتح خزائن قمحي، سأقدم كل ما أملك من ذهب..

ـ ومن أين تحضر الرجال، لقد سبقنا «حورمحب» إلى ذلك.. إنه يستعد للهجوم علينا..

لماذا لم يعلم بكل هذا؟! لماذا أخفوا عليه كل الكوارث؟ هل كانوا ينتظرون حتى يسقط بالفعل؟ قال:

ـ لماذا لم تخبرني بكل هذه الأشياء في وقتها؟!

ـ كنا نعتقد أننا سنتمكن من التغلب على هذه المشاكل دون أن نزعجك، ولكن الكوارث توالت بشكل لا يمكن التحكم فيه..

دار «أخناتون» في القصر كالمجنون، شاهد عيني «نفرتيتي» وقد ازدادت حزنًا، والبنات وقد شحبت وجوههن من شدة الخوف، وعضو توت الصغير ما زال متورمًا، صعد لأعلى القصر، تلفت إلى الشمال وإلى الجنوب، من سيأتي أولا؟ قبائل البربر أم أتباع الأمس؟ من سيسبق الآخر للظفر بدمه؟ قال لزوجته:

ـ سوف يشفى هذا الولد بعد يوم أو يومين، أريد أن أعده للزواج من «عنخ إسن».

همست نفرتيتي حائرة: لماذا العجلة؟ إنها أكبر منه سنا، وهو ما زال ضعيفًا ومريضًا..

ـ أريد أن يكون الفرعون الجديد جاهزا..

لم تفهم ماذا يعني، ولم يكن في حالة تسمح لها بمناقشته، كانت تعرف أن كل شيء مهدد بالانهيار، ولكن الابنة «عنخ إسن» هي التي بادرت بالاعتراض، هتفت في أمها:

ـ كيف يمكن أن أتزوج هذا اللقيط ذا العضو المتورم؟! أريد رجلا حقيقيا.

نظرت إليها نفرتيتي، بدأ جسمها في الفوران، وافتر ثغرها عن طابع شهواني لا يخطئه أحد، كانت تفضل أن تبقى عارية معظم الوقت، وتملأ غرفتها بالمرايا، وتتابع حرس الفرعون بعيون غائمة تختلط فيها الرغبة بالخوف، ولكنها الآن تعبر عن رغباتها بطريقة واضحة وصريحة، قالت لها الأم:

ـ لقد اختاره أبوك ليكون الفرعون الذي يجلس بجانبك على العرش.

قالت في غضب وقح: لا يهمني من يجلس بجانبي على العرش ولكن من ينام بجانبي على الفراش..!

قالت الأم في غضب: أيتها الآنسة الصغيرة، هذه الكلمات لا تليق بملكة مصر ولكن ببغايا الطرقات..!

وانصرفت «عنخ إسن» غاضبة، وعندما مرت بغرفة توت نظرت إليه في احتقار، أخذت تتطلع إلى حرس القصر بعيون جائعة.

* * *

.....لماذا ابتعدت عني إلى هذا الحد، وجعلت الأعداء يدنون مني إلى هذا القرب...؟!

كان «أخناتون» وحيدا كما لم يكن من قبل، يتأمل قرص الشمس الذي ينحدر ببطء خلف الأفق، لن تنفع عشرات المشاعل مهما استعرت ألسنتها من أن تنقذ قلبه من الظلمة التي تزحف عليه، السحب تفقد ألوانها، وينسحب الضوء من الأفق، هل يمكنه أن يرى أول شعلة يحملها الغزاة حين يأتون؟ سوف يقف طويلا في انتظارهم، وعندما يمل من الانتظار سيأتون فجأة، كم فرعونا وقف مثله ينتظر أن تأتيه الضربة؟ كان هو الوحيد الذي فقد أسلحته وضاعت منه آلهته.

استعاد الغلام صحته، وفك الكهنة الأربطة من حول عضوه، ولكن «آخت إسن» ظلت غاضبة، كان لا بد من تحديد يوم لإتمام العرس، ولكن الوقت لم يكن مواتيا لأي نوع من الاحتفال، كان

دار «أخناتون» في القصر كالمجنون، شاهد عيني «نفرتيتي» وقد ازدادت حزنا، والبنات وقد شحبت وجوههن من شدة الخوف، وعضو توت الصغير ما زال متورما، صعد لأعلى القصر، تلفت إلى الشمال وإلى الجنوب، من سيأتي أولا؟ قبائل البربر أم أتباع الأمس؟ من سيسبق الآخر للظفر بدمه؟ قال لزوجته:

ـ سوف يشفى هذا الولد بعد يوم أو يومين، أريد أن أعده للزواج من «عنخ إسن».

همست نفرتيتي حائرة: لماذا العجلة؟ إنها أكبر منه سنا، وهو ما زال ضعيفا ومريضا..

ـ أريد أن يكون الفرعون الجديد جاهزا..

لم تفهم ماذا يعني، ولم يكن في حالة تسمح لها بمناقشته، كانت تعرف أن كل شيء مهدد بالانهيار، ولكن الابنة «عنخ إسن» هي التي بادرت بالاعتراض، هتفت في أمها:

ـ كيف يمكن أن أتزوج هذا اللقيط ذا العضو المتورم؟! أريد رجلا حقيقيا.

نظرت إليها نفرتيتي، بدأ جسمها في الفوران، وافتر ثغرها عن طابع شهواني لا يخطئه أحد، كانت تفضل أن تبقى عارية معظم الوقت، وتملأ غرفتها بالمرايا، وتتابع حرس الفرعون بعيون غائمة تختلط فيها الرغبة بالخوف، ولكنها الآن تعبر عن رغباتها بطريقة واضحة وصريحة، قالت لها الأم:

ـ لقد اختاره أبوك ليكون الفرعون الذي يجلس بجانبك على العرش.

قالت في غضب وقح: لايهمني من يجلس بجانبي على العرش ولكن من ينام بجانبي على الفراش..!

قالت الأم في غضب: أيتها الآنسة الصغيرة، هذه الكلمات لا تليق بملكة مصر ولكن ببغايا الطرقات..!

وانصرفت «عنخ إسن» غاضبة، وعندما مرت بغرفة توت نظرت إليه في احتقار، أخذت تتطلع إلى حرس القصر بعيون جائعة.

* * *

.....لماذا ابتعدت عني إلى هذا الحد، وجعلت الأعداء يدنون مني إلى هذا القرب..؟!

كان «أخناتون» وحيدا كما لم يكن من قبل، يتأمل قرص الشمس الذي ينحدر ببطء خلف الأفق، لن تنفع عشرات المشاعل مهما استعرت ألسنتها من أن تنقذ قلبه من الظلمة التي تزحف عليه، السحب تفقد ألوانها، وينسحب الضوء من الأفق، هل يمكنه أن يرى أول شعلة يحملها الغزاة حين يأتون؟ سوف يقف طويلا في انتظارهم، وعندما يمل من الانتظار سيأتون فجأة، كم فرعونا وقف مثله ينتظر أن تأتيه الضربة؟ كان هو الوحيد الذي فقد أسلحته وضاعت منه آلهته.

استعاد الغلام صحته، وفك الكهنة الأربطة من حول عضوه، ولكن «آخت إسن» ظلت غاضبة، كان لا بد من تحديد يوم لإتمام العرس، ولكن الوقت لم يكن مواتيا لأي نوع من الاحتفال، كان

الفرعون يطوف بنفسه على أسوار وتحصينات المدينة، يشرف على الجنود ويفحص الأسلحة، والقادة والبناءون يتبعونه إلى كل مكان، يأمر بسد الثغرات، ومضاعفة سماكة الأسوار الضعيفة، كان كل شيء متحفزا، وأحس الجميع بالتوتر الذي يخيم على المدينة، ولكنه كان لا يني يسأل نفسه، إلى متى نستطيع الصمود؟

أحس بالحاجة ليلتقط أنفاسا حرة في الهواء الطلق، لعل آتون يرضى عنه، ويعود للتواصل معه، يلهمه إلى حل للخروج من هذه الفوضى المميتة، حدقت فيه «نفرتيتي» في خوف وهي تستمع كلماته:

ـ الخلاء مرة أخرى؟! كل هذه التحصينات حول المدينة وتتركها وتذهب إلى الخلاء.. أليس هذا خطرا؟!

ـ هذا ما أحتاج إليه في تلك اللحظة، سأذهب سرا وأعود سرا.

لم تستطع أن تقف في مواجهته، كان قد تحول إلى روح قلقة لا تهدأ طوال الليل، يتجول متخفيا داخل المدينة، عرضة للحوادث والإهانات، فهل يصلح الخلاء من حالته؟ تسلل من أحد أبواب المدينة الخلفية دون أن يشعر به أحد إلا قلة من الحراس المخلصين، عفروا وجوههم في التراب وهم يتوسلون إليه أن يصحبوه حتى يسهروا على حمايته، ولكنه سار وحيدا كما قدر له أن يكون، خلع نعليه فغاصت قدماه في الطين، أحس بالبرودة وبوخز الحصى، اجتاز الممرات التي لم تشذب، تخطى الترع والمصارف المتشابكة، خلع عباءته ووقف عاريا تحت النجوم، أحس ببرد الليل وهو يلامس جلده ويمنحه السلام الذي افتقده، كم يبدو واهنا! وكم يبدو العالم

بالغ القدم! كان يلهث وهو يصعد التل القديم، سيبقى عاريا حتى تتفتح مسامه وتتدفق أولى أشعة الشمس، ليلة طويلة ولكن لا بد منها حتى يستقيم العالم قليلا، بدأ يرتجف، أخذ يتلو الأدعية التي لم يتلها منذ زمن، أدرك أن لحظته قد حانت عندما بدأت بطنه في التقلص، لم يستطع أن يكتم صيحة التأوه التي خرجت من فمه على رغمه، انسال من فمه سائل داكن، جلس منهكا على الأرض، تشبث بالعشب والحصى، لم يعد هنا شيء ثابت، كل شيء رخو، لا يمكنه التمسك بشيء، ولا الثقة بشيء، غمر العرق البارد وجهه، تلوى مجهدا على الأرض، وأدرك أنه لن يستطيع النهوض مرة أخرى، لن يقبض على الصولجان، ولن يجلس على العرش، ومن بعيد سمع صوتا يقول له:

ـ هل أنت بخير يا مولاي؟!

كانت نبراته محايدة، بلا شماتة ولا تعاطف، ولكنه كان الصوت نفسه، خشنا وعميقا، يدوي في فضاء الصمت دون أن يقدر الصدى على ترجيعه، تقدم ووقف أمامه بقامته العملاقة، وعباءته البيضاء والرمح الذي لا يفارق يده، يحدق فيه بلا تعاطف، وكان الفرعون عاريا، ملقى على الأرض وجسده ملطخا بالتراب المبلل بالندى، قال «أخناتون» وهو يحاول التماسك:

ـ كالعادة يا «حور محب» جئت في اللحظة المناسبة، منذ متى وأنت تراقب المكان؟

قال «حور محب»: منذ أيام.. كنت أتمنى أن أقابلك قبل أن أضطر لاقتحام المدينة وتقع المذبحة.

ـ جيشك حاضر إذن؟

ـ أجل.. إننا نحاصر المدينة منذ فترة، حراس الأسوار يروننا كل يوم، وكذلك الفلاحات والعمال الذين يدخلون المدينة كل يوم، ولكن لا أحد يتكلم.

ـ يبدو أن الجميع يتواطئون على إسقاط مدينتي دون إخباري بذلك... ماذا كنت ستفعل بي؟... هل كنت ستقتحم قصري وتقتلني؟

قال «حورمحب» في صوت متحرج: ما كنت لأجرؤ على ذلك.

ـ ولكني لم أترك لك مخرجا.. هذا هو الأمر إذن..

ـ الدولة تنهار يا مولاي.. علي أن أسرع لمواجهتهم في الشمال، ومدينتك تقف في طريقي، يجب أن أجتازها أولا مهما كان الثمن..

ـ وأنا هو الثمن.. ثمن بخس لمهمة جليلة، أليس هذا ما تقوله لنفسك كل صباح؟!

صمت «حورمحب» قليلا، نظر حوله كأنه يحاول أن يكبت انفعاله، وكان هذا غريبا، أن يظهر التأثر على الرجل الذي لم يتأثر أبدا، قال:

ـ تمنيت أن أجد حلا.

كان الفرعون يلهث، داهمته موجة أخرى من الألم، تشبث بالتراب والعشب وهو يحاول ألاّ يتحرك من مكانه، تغطي وجهه

بالعرق البارد، تحرك «حورمحب» نحوه ليقدم له يد المساعدة، ولكن «أخناتون» أشار له أن يتوقف في مكانه، قال بصوت حاول أن يكون قويا وواضحا:

ـ وهل تخيلت أنك وجدت هذا الحل؟

تردد «حورمحب» قليلا، نظر حوله للفراغ الصامت والبحيرة الساكنة، والقمر الميت، قال:

ـ أجل، علينا أن نغطي العظام العارية لهذا البلد، نتخلى عن هذا الإله الذي أفسد الجميع، وأن نعود جميعا إلى طيبة.

ظل «أخناتون» يتأمله في هدوء، كان يحاول أن يكتم كل ما في داخله من ألم، قال:

ـ يا له من حل بالغ القسوة! كان عليك أن تقتحم قصري وتقتلني أولا..

فجأة انهار «حورمحب» ترك الرمح، هبط من عليائه، جثا أمامه على ركبتيه، هتف بصوت أجش:

ـ مولاي أتوسل إليك..!

ـ يا آتون، لكل نقاط ضعفه، كيف يمكن أن تهزم الأعداء، وأنت تنهار هكذا أمام فرعون عاجز ومريض، ألا ترى ماذا تفعل بنفسك؟

ـ مولاي.. السوائل تغمر جسدك، والروائح التي تنبعث منك كريهة..هل أنت مريض؟

ـ أنا أموت..

- ماذا..؟!

- تناولت سما، اشتريته من عشاب بالمدينة لم يتعرف علي، قلت له إنني سأضعها لعشيق زوجة.....

هاجمته نوبة من المغص، تقطعت كلماته وأخذ يتلوى على الأرض، تمرغ فوق الحصى والتراب، كان جسده نحيفا كأنه يوشك على التلاشي، وفكر «حورمحب» يا إلهي كم يبدو بائسا ومعذبا، أحس بالدموع تملأ عينيه، كل هذا العذاب وما زالت الأبدية تبدو بعيدة ونائية، هل هناك فرصة لإنقاذه، أم أن كل شيء قد تأخر؟! وبدت ملامحه غاية في الشحوب تحت ضوء القمر، قال «حورمحب»:

- مولاي.. أستطيع أن أحملك و..

- لا تفعل.. ولكن استمع إلى كلماتي.. زوج ابنتي «آخت إسن» لهذا الولد «توت».. اجعله فرعونا.. واصنع لي مقبرة سرية.. حتى لا ينبش كهنة آمون الأوغاد تابوتي..

- سأفعل يامولاي.. أقسم أنني سأفعل..

تقلص جسده مرة أخرى، وتلاحقت أنفاسه، تشبث بيد «حورمحب» كأنه خائف من أن يمضي بعيدا، ولكنه ملك يموت بين الرغام والأوحال، بلا شيء يخفف من ألمه أو حزنه، يعتري الوهن جسده، وتفقد أصابعه قوتها، ينسحب ببطء من هذا الكون، يغوص أكثر في الرغام، يتوقف صوت أنفاسه ببطء، ويهدأ جسده، ولكن عينيه ظلتا مفتوحتين.. وتردد «حورمحب» طويلا قبل أن يغلقهما بيده.

طيبة.. أخيرا

وقفت «عائشة» تحت ظل البوابات الحجرية، كانت قد سارت طويلا بين حقول الشعير، وسمعت العيدان وهي توشوش لها تحت الريح كأنها تحذرها، لم تهتم، يبدو الوادي أليفا وطيبة تحت ضوء النهار، ترتدي نفس الملابس الكتانية التي أحضرها لها «هوارد»، تجعلها تشعر بأنها تنتمي أكثر إلى هذا المكان، في هذا اليوم كانت وحيدة، تركها «هوارد» منذ الصباح المبكر وأخذ معه «عبد العال» وعبرا النهر للضفة الأخرى، قال لها إنه قد يغيب عنها طوال النهار، ولاخطر عليها في التجول في أي مكان، كانت تعرف ذلك، رأت الوداعة في عيون الفلاحين وهم يقتلعون الأعشاب الضارة ويحنون على أعواد الشعير ويتلفظون بالحمد أمام سنابل القمح، كانت منهم، أهانوا جسدها وكسروا روحها، ولكنها منهم، انتهى بها السير عند بوابة مدينة «هابو» ورأت الثعبان المرسوم على واجهتها يحدق بها، ترددت قليلا ثم خطت إلى داخل المعبد.

أحاطت بها جدران من الأحجار، أكسبها القدم نوعا من المهابة والصلابة، شاهدت في أعلى السور شرفات ممتدة، أعدت ليقف

عليها الجنود وهم يدافعون عن المدينة، سارت عبر غرف صغيرة الحجم، تنفذ إليها الشمس من كوات صغيرة، تبدو مثل قصر قديم يقيم فيه الملوك، ربما كانوا يأتون إلى هنا طلبا للحماية، عندما يجتاح الأعداء البر الشرقي، دخلت إلى فناء واسع، امتلأت الجدران فجأة بالنقوش الزاهية الألوان، نقوش لملك عظيم، قال لها «هوارد» في زيارته الأولى معها لهذا المكان إنه رمسيس الثاني، يجلس مسترخيا وسط محبوباته من النساء، يقدمن له الأزهار والعطور وكئوس الشراب، ينظرن إليه في وَلَه ويبتسم هو في سعادة، لكن السعادة لا تدوم طويلا، كلما واصلت «عائشة» سيرها تجد أن النقوش قد تغيرت، ترك الفرعون فراشه الوثير وركب عربته الحربية، اختفت المحبوبات وظهر الأعداء في مواجهته وهم يحملون الرماح والسيوف، تبددت من وجهه أمارات الرضا وحلت بدلا منها قسوة باردة، تداخلت الأعمدة والممرات، رأت تمثالا من البازلت الضارب للخضرة، وبجانبه آخر ساقط على الأرض، نفس الملك في لحظة الانتشاء ولحظة السقوط، وصلت إلى الفناء الداخلي، أصبح المكان أكثر عتمة، ولكن النقوش ظلت واضحة، ظهر الملك أخيرا وهو يقدم قرابينه للآلهة، خافض الرأس وشديد التواضع، هل كان يشكره على الانتصار..أم يعتذر له من الهزيمة؟

سمعت أصوات حفيف أجنحة، أصواتا تشبه صرخات خافتة، تلفتت حولها في رعب فلم تر أحدا، ازدادت الضجة، رفعت وجهها إلى أعلى وجدت السقف قد امتلأ بالخفافيش، تدور وتتصادم، ترتطم بالجدران الصلدة وتسقط متكسرة الأجنحة كأرواح عمياء، تراجعت «عائشة»، حاولت أن تعود من نفس الطريق الذي جاءت

منه، ولكن الخفافيش هبطت من أعلى وبدأت تدور حولها، غاب الضوء فجأة وسادت عتمة مريبة، فقدت الاتجاه الصحيح للخروج من هذا المكان، أخذت تعدو، خيل إليها أنها تلمح ظلال حيوانات أخرى تمرق بين الأعمدة، كأن الذئاب هي الأخرى قد استيقظت، واصلت العدو أكثر، اكتشفت أنها قد ضاعت وسط متاهة الأعمدة، وما زالت الخفافيش تواصل مطاردتها، توقفت مذعورة حين شاهدت في نهاية الأروقة شخصا آخر، كان جالسا بجوار أحد الأعمدة، أمامه كومة من النار وعليها «كوز» من الصفيح لصنع الشاي، كان يترقب قدومها بعينيه النافذتين، كأنه يعرف أن الخفافيش ستقودها إليه، تحدث في صوت جعله سكون المعبد باعثا على الرهبة:

ـ تقدمي أيتها المرأة التي أيقظت مخلوقات الليل..!

كان «عبد الرسول» الرجل الذي شاهدته في أول يوم لنزولها في البر الغربي، نفس اللباس والعمامة، وقدميه الكبيرتين الحافيتين، وقفت جامدة في مكانها، خائفة من أن تتحرك فتعاود الخفافيش مهاجمتها، لم ينهض الرجل من مكانه، عاد يقول:

ـ هذه الخفافيش لم تهاجمك عبثا، إنها حراس المعبد، تمنع عبور الأبواب والممرات في وجه كل من تراه خطرا على المكان..!

قالت وهي ترتعد: أنا لست خطرا..دخلت هذا المكان قبل الآن ولم يحدث شيء..

قال الرجل في سخرية حقيقية:

ـ دخلت في صحبة الخواجة، أعرف ذلك، وأعرف أيضا أنه

جاء بك إلى هنا بعد أن أغلق الوادي أبوابه في وجهه وهو يريدك أن تفتحي له أسراره..!

شعرت «عائشة» بالخوف، كان هذا الرجل يعرف الكثير عنها، قالت:

ـ لم أخبره بشيء، كما أنني أصلا.. لا أعرف شيئا عن هذا المكان..

ـ لم تستيقظ مخلوقات الليل عبثا أيتها المرأة، أنت تقفين الآن في قلب المعبد حيث كانت الآلهة تتلقى قرابينها وتكشف عن أسرارها، وقد تبعتك الذئاب من اللحظة التي دخلت فيها الوادي حتى وصلت إلى هذا المكان.

دوى صوته في أرجاء المعبد، لم يتحرك من مكانه، لم يكن ينوي إيذاءها، هكذا يبدو الأمر، ولكنها شعرت بالخوف منه لأنه يرصد خطواتها لهذه الدرجة، قالت بصوت جاف:

ـ الذئاب تتبعني دوما.. ولكن هذا لايعني شيئا..

ـ كان أجدادنا يعرفون أن الذئاب هي فاتحة الأبواب المغلقة، عيونها المضيئة تخترق حجب الظلام، كل من في الوادي يعرف أنها من المخلوقات المضيئة، كل من يقرأ النقوش على جدران المعابد يعرف أنها كانت ترعى «حورس» وهو صغير.. ربما كنت أنت أيضا واحدة من هذه المخلوقات.

كان غامضا، لاتدري إن كان يحذرها أم يهددها، ولكن من المؤكد أن نظرته لها كانت خاطئة ومبالغا فيها، قالت:

ـ ربما تحسبني شخصا آخر، علي أن أنصرف الآن..

فوجئت بصوته وهو يرتفع غاضبا:

ـ سوف ترين ما ترين، وتعرفين ما تعرفين على رغمك، كل ما أخاف منه هو أن تنقلي ما تعرفينه لذلك الرجل ذي العينين الباهتتين، إنهم يملئون الوادي، ولو أعطيناهم أسرارنا فسوف يقلبون الأرض علينا ويقذفون بنا في النهر.

ارتعدت «عائشة»، هذا الرجل جعلها تشعر بشكل ما أنها مذنبة، خفض من صوته، ومد يده نحوها بكوب من الشاي الساخن، هزت رأسها في رفض، ولكنه عاد يشير بعصاه إلى أحد الأحجار المربعة:

ـ ارتاحي قليلا على هذا الحجر، لن أوذيك، اشربي الشاي لو أردت، فقط استمعي إلي..

جلست في مقابله، ولكنها لم تجرؤ على مد يدها لكوب الشاي، قال في صوت هادئ:

ـ هؤلاء الخواجات يعتقدون أنهم وحدهم قادرون على قراءة هذه النقوش، نحن أيضا نقرؤها ونفهم مغزاها أفضل منهم، لأنها نقوشنا نحن، لكننا لا نقول لهم ذلك، نتركهم يعتقدون في جهلنا وقلة إدراكنا، سأقول لك حكاية منقوشة فوق جدران هذا المعبد، لا أعتقد أن هذا الخواجة الذي جئت برفقته قد عرف عنها شيئا: عندما كانت الحرب تدور بين «حورس» و«ست» إله الظلام، استطاع هذا الأخير أن يقتلع إحدى عيني حورس، كانت عينا مقدسة، ترى ما

لايراه إنسان، ما زالت هذه العين ضائعة حتى الآن، امتلكها أناس كثيرون في لحظة من الزمن، واكتسبوا القدرة على اختراق الحجب، ولكنهم فقدوها عندما لم يحسنوا استخدامها.

قالت «عائشة» رافضة أن تصدق كل هذه الخرافات:

ـ أنا لا أملك شيئا من هذا..

ـ من يدري؟!.. كل ما أريد أن أقوله هو أن تأخذي حذرك من هذا الغريب وإلا سيحل عليك العقاب، هذا كل ما لدي من كلام ويمكنك الانصراف الآن.

نهضت من أمامه، لم تصدق أنه لم يؤذها رغم كل ما قاله، ومن الغريب أنها وجدت طريقها بسهولة، وأن الخفافيش كفت عن مطاردتها، الهواء في الخارج ما زال دافئا والخضرة زاهية والنهر صافي الزرقة، أفاقت أخيرا من كابوس معتم، أخذت تعدو بسرعة حتى وصلت إلى البيت وأغلقت خلفها كل الأبواب والنوافذ، جلست في سريرها وأسدلت حولها «الناموسية» كأنها تريد أن تختفي عن عيني العجوز النافذتين، تختفي عن كل الأعين التي ترصدها.....

* * *

«... أيام الانتظار والجنون لا تريد أن تنتهي، هذا اللورد العجوز يغادر مكمنه البارد في الشمال، ويأتي إلى الأقصر طالبا مقابلتي بشكل عاجل، حتى الآن كانت علاقتنا ممتازة، لم أنس أنه انتشلني من أيام التشرد والضياع، ولا أعتقد أنه نسي أنني قد أضفت إلى مجموعته الأثرية قطعا نادرة لا يحلم أي متحف بامتلاكها، لكن السنوات تمر،

وبحثي اللاهث لا يهدأ، منذ أن اكتشفت هذه المقبرة الفارغة وأنا أسعى في الوادي كالمجنون، وخلفي فريق الحفارين، حائرون لا يدرون ماذا أريد بالضبط، أنا نفسي لم أكن أدري، كانت كل الصخور والكهوف والحفر الفارغة تسخر مني، كان يجب أن أهدأ قليلا حتى أقابل اللورد الذي جاء خصيصا من أجلي، نهبط من «الفلوكة» إلى البر الشرقي، أنا و«عبد العال» والحمار الجديد الذي اشتريناه من سوق القرية، لم يكن جيدا، كان بلون التراب، ومهما حاولنا غسله لم يكن ليستعيد لونه الأصلي، ولكنه كان المتاح، ولم يكن فألا حسنا أن نصحبه عبر النهر، ولكني كنت في حاجة لمن يحمل المخلاة التي نضع فيها احتياجاتنا، ازداد عدد «الذهبيات» الفاخرة الراسية على الشاطئ، وتنوعت الرايات المرفوعة، إنجليزية وأمريكية وفرنسية وحتى الألمان الذين هزموا وأفلسوا في الحرب الأخيرة، كانت لهم ذهبية صغيرة، بالطبع كانت «ذهبية ديفيز» رابضة في مكانها، لعله ما زال مسترخيا بصدره الأشهب العاري تحت شمس الشتاء، بينما أسعى أنا إلى الجحيم الذي ينتظرني داخل «الونتر بالاس».

تركت عبد العال والحمار، كانت الشرفة الخارجية للفندق والمصممة على طراز الحدائق الإنجليزية حافلة بالنشاط، وجوه متوردة تجلس في دعة، تشرب عصير الليمون والبيرة الباردة وتتأمل الأشرعة البيضاء فوق النهر، يتبادلون الأحاديث وهم يستعرضون قطع الآثار المزيفة التي اشتروها للتو، بدوا جميعا غرباء، كأنهم يرتدون أقنعة متقنة الصنع، لم يكن اللورد موجودا بينهم، لعله راقد في فراشه بعد أن تناول حفنة حبوب من أدويته الجديدة، يرنو إلى الشمس من خلف الأستار ويتوهم أن خلاياه قد أصبحت دافئة، عبرت البهو

المزدحم وتبادلت بعض التحايا مع موظفي الفندق، تأملت النقوش الفرعونية التي تملأ الحوائط وتمتد حتى السقف، بعضها كانت مأخوذة من رسومي، ولكنها نفذت بطريقة فجة، صعدت الدرج المؤدي إلى الجناح الذي يقيم فيه، توقفت قليلا حتى أسترد أنفاسي، طرقت الباب ففتحت لي الليدي «إيفلين»، منذ أشهر قليلة كنت أعتقد أنها أجمل امرأة في الوجود، تكفيني منها لمسة واحدة من أطراف أصابعها، ولكنها تبدو الآن مثل تمثال متحرك من الشمع، حركات محسوبة وخطوات معدودة، منحتني نصف مصافحة، وشبه ابتسامة، وقدمت لي كأسا من المارتيني بحبة كرز واحدة، لم أكن أعلم أنها تشرب مبكرا هكذا، ثم تركتني وحدي فجأة.

بعد فترة سمعت سعال اللورد وهو متجه نحوي، يرتدي معطفا منزليا من الصوف الإنجليزي، كان شاحبا، وسمح لي بأن أمسك بمرفقه وأقوده إلى أحد المقاعد، جلس أمامي وهو يحدق في، منتظرا أن أبدأ الكلام، أعلن عن إنجازاتي المتواضعة حتى يهز رأسه في سخرية غامضة، لم أتكلم، تأملني بعينيه المتعبتين وقال فجأة:

ـ سمعت أنك اكتشفت مقبرة خالية تماما..

لم أتوقع أن تكون هذه بداية حديثه، تساؤلا ساخرا مع شيء من التشفي، انتشر الخبر سريعا، ولكن هكذا الحال دائما، عمال الحفر ينقلون الأنباء للمهربين، ومنهم للباعة وبقية التجار حتى يصل لسكان الذهبيات وللورد العجوز مع قهوة الصباح، قلت:

ـ ليس تماما وإنما....

لم يتركني أكمل، قال بملل حقيقي:

ـ ربما سبقك آخرون إلى اكتشافها، هذا الوادي لم يعد يطاق، كل حجر فيه اكتشفه اثنان أو ثلاثة على الأقل.

بدأ يشرب من كوب من الماء بجانبه، وظل كأسي كما هو، قلت:

ـ ربما كانت هناك بعض الخبيئات، ولكن هذه المقبرة تسد ثغرة في التاريخ.. لقد اكتشفت فيها لوحة متكسرة تذكر فيها اسم الملك الذي سيخلف أخناتون، لابد أنها تعني الملك توت عنخ آمون.. هذه المقبرة لم يكتشفها أحد.. ولم يسرقها أحد أيضا..

رفع يده ليسكتني، بدا غير مقتنع بكل ما أقوله، لاحظت أن أصابعه الطويلة قد نحفت وتجعدت حتى أصبحت أشبه بمخلب طائر، قال:

ـ كفى ياسيدي.. علينا أن نوقف هذا الأمر.. من المستحيل أن نظل نحلم إلى الأبد..

قلت في يأس وقد أصابتني كلماته بإحباط مفاجئ:

ـ يمكننا أن نواصل الحفر لفترة أخرى، سأخفض من تكلفة العمال، سأخفض أجري لو أردت..

هز العجوز رأسه في عناد، كان مستاء أكثر مما تصورت، قال:

ـ المشكلة ليست في التكاليف، أعرف أنها ارتفعت بعد هذه الحرب اللعينة وأصبح اليوم الواحد يكلفنا خمسة جنيهات كاملة، ولكن المشكلة الحقيقية هي أن السنوات تمضي والموت أصبح

قريبا من فراشي، لقد أصبحت موقنا بأنني لن أعيش حتى أرى هذا الاكتشاف، دعنا ننتهي من هذا الأمر يا «هوارد»...

قلت في صوت جاف:

ـ ولكنك وعدتني بعدة شهور إضافية، وعدتني بأن تواصل العمل حتى نهاية الموسم..

ـ وهل تضمن لي أن يبقى الموت منتظرا؟..

شعرت بالغيظ من الطريقة العاطفية التي يتحدث بها، استسلام زائف، وتظاهر مختلق بانتظار الفناء، مرت عليه سنوات الحرب القاسية من دون أن يموت، بينما مات الملايين في زهرة العمر، ألقيت إليه بالورقة الأخيرة لعلي أجذب اهتمامه، قلت:

ـ هذه المقبرة التي يظن الجميع أنها خالية، اكتشفت فيها عدة أشياء مثيرة للاهتمام..

مرة أخرى رفع أصابعه الشبيهة بالمخالب وقال بنفس الملل الإنجليزي المعهود:

ـ لا مزيد من النسخ المكررة، أمامك شهر من الآن حتى تنهي كل شيء..

ونهض واقفا، قلت محتجا:

ـ أنا في حاجة لبعض الوقت..

لم يرد علي، ظل يحدق في بعينيه الفاترتين، ولم أسمع سوى صوت أنفاسه، قلت متحفزا:

ـ سأواصل العمل على نفقتي إذن..

ـ إلى متى؟!.. شهر.. شهرين.. عام..؟ صدقني يا هوارد.. لقد أجهد هذا الوادي..

أين سمعت هذا الكلام من قبل؟ من الذي ظل يكرره على أذن اللورد العجوز حتى أقنعه به؟ جاءت الليدي «إيفلين»، وقفت عند باب القاعة، نظرت إلي في صمت بارد، تتهمني بطريقتها بأنني سوف أقضي على البقية الباقية من صحته، لماذا ظلت بهذا البرود ولم تشعر بي طوال هذه السنوات؟ لم يكن أمامي بد من أن أنهض وأحني لهما رأسي وأنصرف دون أن أمس شرابي، لم أكن سأشربه على أي حال، هبطت الدرج وأنا ألتقط أنفاسي في صعوبة، شعرت بأنه لا أحد يأبه بي، جلست في الشرفة وأنا أفكر، هل من المجدي أن أعود إليه مرة أخرى، أن أجعله يرى مدى الخسارة التي سوف نخسرها معا؟ هل يجدي أن أتوسل إليه؟ كنت موقنا بأنني قريب جدا من اكتشافي لدرجة أنني لن أتوسل لأحد، سأواصل الحفر على نفقتي، ولن أعود لأيام التشرد مرة أخرى..

أخذتنا «الفلوكة» عائدين للبر الغربي، ضحايا معركة خاسرة، الحمار هو السعيد بيننا لأنه أكل وجبة مشبعة من البرسيم الطازج، «عبد العال» كان تعيسا لأني رفضت شراء كثير من الأشياء التي كنا نحتاج إليها، وبخاصة الشاي والسكر، عصب الحياة بالنسبة له، كنت تعيسا وتفاصيل السوق المملة ستزيد من تعاستي، في البر الآخر شاهدت عبد الرسول وهو يعبر الوادي متوكئا على عصاه، تاركا على الرمال آثار قدميه الحافيتين، لم يلتفت نحوي ولكني

أعلم أنه يراني، يترقب اللحظة التي أرحل فيها عن هذا الوادي، سرت بجانب الحمار الهزيل، لعل السير يهدئ من توتري، رأيت الفجوات التي حفرتها، والصخور التي قلبتها، والوادي الذي ظل يحجب عني أسراره، كانوا هم أعلم مني بهذه الأسرار، أظل أنا أكد في التنقيب لسنوات طويلة، بينما هم يكتشفون كل الأماكن الخبيئة في بساطة آسرة، يقرءون الرموز ويدركون أسرار العلامات بطريقة لم نتوصل إليها بعد، كيف كان يمكن أن أجاريهم أو أفلت من سطوة عبد الرسول على هذا الوادي؟.....».

* * *

..... تقف «عائشة» في انتظاره في الشرفة وهي شاحبة اللون، هذا هو المنفى الأخير لهما معا، قاد «عبد العال» الحمار إلى الملحق الموجود خلف المنزل، وجدت نفسها تهرع نحوه، تحتضنه وتقبله قبلة ناقصة، فيها كثير من الاحتياج والخوف، ابتعدت عنه سريعا، خلع «هوارد» قبعته وارتمى مجهدا على أحد المقاعد، جلست هي أمامه على الأرض، نظرت إليه بعينيها العسليتين وحركت رموشها الطويلة كجناحي فراشة، اكتشف «هوارد» وهو يحدق فيهما أنه يعشقها حقا، لم يبق له غيرها في هذا الكون الواسع، قالت:

ـ ماذا بك؟.. تبدو حزينا أكثر من اللازم..!

أحس بالإشفاق على نفسه، لم يستطع أن يكبت مشاعر الغضب المحتدم في داخله، قال:

ـ كل شيء انتهى، هذا اللورد العجوز أعطاني مهلة لمدة شهر واحد فقط، بعد ذلك سوف يوقف التمويل..

شهقت في جزع وهي تقول: وماذا ستفعل؟

أدركا أن مصيرهما قد ارتبط معا، وأن نهاية عمله في الوادي ستكون نهاية علاقتهما، نهاية ارتباطه بهذا البلد الغريب، قال محاولا أن يطمئنها:

ـ لن أستسلم يا عائشة، سأواصل الحفر على حسابي، سأجد تمويلا آخر و..

لم يدر كيف سيفعل ذلك، ولكنه أحس أنها في حاجة ماسة لمثل هذه الكلمات، للاطمئنان الزائف، كان على وشك البكاء، نهضت عائشة من الأرض وجلست بجانبه، احتضنت وجهه بكفيها، ومسحت الدمعة التي نفرت من عينيه، ظلا جالسين، متلاصقين وممسكي الأيدي.

كان هذا اليوم بداية لأيام مجنونة حقا، لا يكاد «هوارد» ينام الليل، يستيقظ مع الضوء الأول للفجر، يقود مجموعته من الحفارين وحملة المقاطف وقرب الماء عبر الهضاب والصخور والركام دون هدف، يخوضون في مجاهل «دار أبو النجا» التي أصبحت هشة ومليئة بالتجاعيد، وما أن يبدءوا في الحفر حتى يغير رأيه، يظل يقفز فوق الصخور والحفر ليكرر التجربة في موقع آخر، لم تعد هناك أهمية لكمل مخططات الحفر التي وضعها، لم يعد يميز أي بقعة حفرها من قبل، وأيها لم تمسها المعاول، يصرخ فيهم.. إنهم لا يفهمونه ولا ينفذون أوامره، يواصلون الحفر دوما في المكان الخاطئ، ولا يهبونه إلا المزيد من الصخور الميتة، كان يريد أحجارا تنطق بالعلامات وتكشف الأسرار، ينظرون له في بلاهة ولا يدرون

أيا من أوامره المتعارضة يطيعون، تحول البحث إلى كابوس يلاحقه في اليقظة والنوم، لا يكاد يمس الطعام، يترك «عائشة» لساعات طويلة في الليل والنهار دون أن تعلم أين يذهب، يعود دوما متعبا وخائر القوى وملطخا بأتربة سوداء، ويظل عبد الرسول يعبر الوادي من أمامها متوكئا على عصاه، يواصل تحذيرها من أشياء لاتدري ما هي؟ كانت بالفعل ترغب في مساعدة «هوارد»، ولكنها لا تعرف كيف تقوم بذلك، كانت تدرك أنه لو استمر به الأمر على هذه الحال فسوف ينهار، ازداد جسده نحولا، وتهدل شاربه ولم يعد يخلو من الغبار، وتمنت لحظتها أن ينتهي هذا الشهر المرعب ويرحلا من هنا لعل هناك بداية جديدة في مكان آخر.

في ذلك الصباح استيقظت لتجده قد سبقها إلى اليقظة، كان شخصا مختلفا، غادره مس الجنون فجأة، كان هادئا، حليق اللحية نظيفا ومنتعشا، بدا من الطريقة التي ارتدى بها ثيابه أنه لا ينوي النزول اليوم لمواصلة الحفر، قال لها باختصار:

ـ سنذهب معا للأقصر اليوم..

لم تدر ماذا تقول له، تطلع إليها لتعرف مدى حاجته لوجودها، كانت خائفة من مواجهة العيون المترصدة في البر الشرقي، ولكنه أخذ يقنعها بأن تلبس تلك الثياب الغربية، وأن تمضي معه سافرة الوجه، كان بشكل أو بآخر يريد أن يعترف بها، يريد أن يراها الجميع بجانبه، لم تستطع أن تخفي سعادتها لأنه استعاد الهدوء والسكينة، ولأنه سيأخذها معه على الملأ، دون حجاب.

كان «عبد العال» في انتظارهما ومعه ذلك الحمار الغريب اللون،

ركبت «عائشة» وسارا بجانبها، عند الشاطئ جاءت «الفلوكة» وحملت الجميع، وكان «عبد العال» يحمل المخلاة فوق كتفه في اهتمام، لاحظت «عائشة» أنها ممتلئة بعض الشيء، بدا «هوارد» سعيدا غير مبال، لم تدر ماذا يدبر بالضبط ولكنها لاحظت النظرات المتواطئة بينه وبين «عبد العال»، فور أن وصلوا بالمركب إلى الشاطئ الشرقي، طلب من «عبد العال» أن يذهب بحماره، بعيدا عن الأعين المترصدة داخل الفندق، وأن يضع أمامه كمية كبيرة من البرسيم ليبقى هادئا، قاد «عائشة» إلى شرفة «الونتر بالاس» المزدحمة برواد الصباح، تلفتت حولها في خوف وتردد، كان الرجال في كامل أناقتهم، النساء في ملابس بيضاء، يحتمين من أشعة الشمس بقبعات ذات حواف متسعة، وضع الجرسونات أمامهما بعض أكواب المشروبات الباردة، طلب منه «هوارد» أن يحضر كل ماهو متوافر من صحف إنجليزية ومصرية، وضع الجرسون أمامهما كومة منها، قال لها:

ـ سوف تنتظرينني هنا.. لن أغيب عنك طويلا.. يمكنك أن تتسلي بتصفح هذه الجرائد ومراقبة هؤلاء البلهاء، وسوف أعود سريعا..

تركها وهبط إلى الشارع، ظلت تتابعه حتى اختفى من أمامها، أحست أنها متوترة، تتطلع إلى الجرسونات في قلق، متوقعة أن يطلبوا منها المغادرة بعد انصراف «هوارد»، لم تجرؤ على تصفح كومة الجرائد، ولكن لم يقترب منها أحد....

* * *

«... تركت «عائشة» وسرت في الشارع الممتد مع النهر، مازال «عبد العال» في انتظاري بجوار الحمار المتهمك في أكل

البرسيم، أخبرته بكل تعليماتي، أشرت له إلى الذهبية التي ترفع العلم الأمريكي، كان عليه أن يحمل المخلاة ويتظاهر بأنه واحد من باعة الخضار وأن يصعد الذهبية، ينتظرني هناك دون أن يتكلم مع أحد، بعد انصرافه ظللت واقفا في مكاني، تطلعت للشارع الممتد لعلي ألمح أي واحد من رجال «ويجل»، كنت أعرفهم جميعا لأنهم كانوا رجالي من قبل، عندما اطمأننت إلى خلو الشارع منهم توجهت أنا أيضا للذهبية، أحنى الخادم النوبي رأسه أمامي وهو يخبرني أن السيد «ديفيز» ما زال نائما، من المؤكد أنه قد أقام واحدة من حفلاته الصاخبة التي لا تنتهي إلا مع الفجر، وشرب كثيرا من الويسكي الأمريكي الرديء الصنع، طلبت من الخادم في حزم أن يسرع بإيقاظه، لم يكن وقتي يحتمل الانتظار، أخذت المخلاة من «عبد العال» وأمرته بالعودة للحمار.

بعد فترة طويلة جاء «ديفيز» وهو يفرك عينيه، تفوح منه رائحة الخمر والسجائر، كان مندهشا لرؤيتي في هذا الوقت المبكر، محتارا في منظري المتوتر والمشدود، أشار لي أن أجلس في مقابلته، أمر الخادم أن يحضر البيرة الباردة لعلني أسترخي، وحتى يفيق هو قليلا، قلت له مباشرة:

ـ جئت لأبيعك شيئا..

رفع حاجبيه مستغربا وهو يهمس:

ـ لا تقل لي إنك وجدت شيئا في هذه المقبرة الفارغة..

ـ كان يجب أن أجد شيئا.. لا أستطيع أن أحتمل كل هذه الدرجة من سخرية الجميع..

لم أخبره بأنني لم أرض بهزيمتي الأولى، ظللت مصرا على الذهاب وحدي والتفتيش من جديد في المقبرة الخالية، كنت محموما أتحدى غريزتي، والحظ الذي تخلى عني، أحس «ديفيز» أن ورائي شيئا، وأن تلك الجدية التي تبدو علي ليست عبثا، و عليه ألا يجازف بالمزيد من السخرية، أصبح ودودا فجأة، مد يده تحوي زجاجة البيرة، رفضت على الرغم من أنني كنت في حاجة إليها، كنت أعرف أن ديفيز رجل ثري، ربما الأشد ثراء بين الجميع، ولكنه كان يدرك أنه رغم سوء الحظ الذي لازمني فإنني دائما أسبقه بخطوة، قال:

ـ والآن.. ماذا تحمل لي؟..

قلت: هل أنت متأكد من أنك تريد الشراء؟..

ـ سأشتري أي شيء تبيعني إياه..

أخرجت محتويات المخلاة وفردتها أمامه، نفضت الرمال التي كانت ما تزال عالقة بها، ورغم ذلك فالصندل الذهبي لم يفقد لمعته، ومكحلة العقيق الأخضر تحتفظ ببقايا مسحوق الكحل الناعم، وجعران من الكوارتز الضارب للزرقة، مليء بالخدوش والشروخ، لكنه متماسك ومهيب، وعقد من الكهرمان المتوهج لا تنقصه إلا قطعتان، رأيت الانبهار يبدو واضحا في عيني «ديفيز»، لم يتصور أنني عثرت على هذا الكنز في صمت، ودون أن يشعر به أحد، قال:

ـ ما هذه الأشياء؟ في أي مقبرة عثرت عليها؟..

قلت بثقة ودون تردد:

ـ إنها تخص إحدى الزوجات الآسيويات للملك رمسيس الثاني..

لم يطرف لي جفن، ظل يحدق في فاغر الفم عاجزا عن تكذيبي، قال في تردد:

ـ هل أخبرت اللورد بذلك؟

ـ لا شأن للورد بهذا، كل ما عليك أن تعرفه أن هذه الأشياء اكتشفتها خارج منطقة البحث الخاصة به، إنها حقي وحدي..

كنت صادقا في هذا، عرضت حياتي للخطر من أجلها، عدت وحدي للمقبرة الخالية أكثر من مرة، أدخلت يدي في كل الشقوق معرضا نفسي للدغ الثعابين ولسع العقارب، جلست الساعات الطويلة دون خوف من الذئاب، ماذا كان يمكن أن يفعل يائس مثلي ؟ وأخيرا عثرت على هذه الخبيئة، كانت داخل أحد الشقوق العميقة، ملفوفة داخل لفائف من الكتان، ربما دسها واحد من الكهنة أو اللصوص ونسي مكانها، قال «ديفيز»:

ـ سآخذ هذه الأشياء بالطبع، ولكن أنت تعرف..علي أن أتصل بمتحف «المتروبوليتان» أولا.

ـ سأبقى في الانتظار حتى تكمل اتصالك..

كنت أعرف أنه توجد على ذهبيته كل وسائل الاتصال عبر البحار، كتبت له السعر الذي أريده، لن يستغرق وقتا طويلا، وليس أمامه مجال للتردد، انصرف من أمامي، تركت له الفرصة ليتفحص القطع ويتأكد أنها أصلية، والأهم من ذلك أنه لن يستطيع أن يأتي بشيء

يضاهي قصة الزوجات الآسيويات، كان علي بعد ذلك أن أعود لعائشة، تميمة الحظ التي عثرت عليها أخيرا...».

* * *

جاء «هوارد»، قفز على الدرج وتخطى المناضد قبل أن يجلس أمامها، كان رائق المزاج على الرغم من أن الحزن لم يغادر عينيه، قال:

ـ عقدت صفقة صغيرة..أستطيع الآن أن أواصل الحفر لفترة من الزمن..

أحضر الجرسون طعام الإفطار، جبنا أبيض وزبدا وبيضا وخبزا مقددا، وضع المزيد من العصائر والألبان، أزاح هوارد لفة الصحف جانبا وهو يقول:

ـ غدا سوف تتحدث عني كل هذه الصحف..

ابتسمت له «عائشة» وقد بدأت تألف المكان، أخذا يتناولان الطعام، امتلأ المكان بالناس، ربت أكثر من شخص على كتف «هوارد» محييا، جلس عازف ربابة عجوز على الدرج الخارجي وأخذ يغني أغنية مفجعة عن أخ قتل أخته من أجل الشرف، أسرع الجرسون وطرده بعيدا، ولكنه ظل يواصل العودة، هبت نسمة باردة من ناحية النهر، فتح «هوارد» صدره وأخذ نفسا عميقا كأنه يريد أن يحبسه في داخله، قالت «عائشة» في دهشة:

ـ لماذا أنت متمسك بهذا المكان إلى هذه الدرجة؟.. أليس هذا غريبا؟!..أنا أتوق للهروب منه

قال «هوارده»: أشعر بأن شراييني قد امتلأت برمال هذا المكان، عندما أذهب إلى «سوانهام» ويحيط بي الضباب ويمتلئ الهواء برائحة المطر أكاد أختنق، الطريقة الوحيدة لمواصلة الحياة هي أن أظل هنا..

توقف أمامهما شخصان، رجل عجوز وامرأة شاحبة، ظل العجوز واقفا دون أن يستطيع أن يخفي دهشته، بينما رمقتهما المرأة بنظرة مليئة بالكراهية وواصلت سيرها، نهض «هوارده» واقفا، ومد يده ناحية الرجل ببطء ودون اندفاع، كأنه كان يتوقع هذه اللحظة، قال:

- صباح الخير يا سيدي اللورد.. جميل أن أراك تستمتع بهذا الدفء..

لاحظت «عائشة» أن المرأة قد توقفت على مبعدة وهي تصب عليهما نظراتها الكارهة، أشار اللورد إلى «عائشة» وهو يقول:

- جميل أن أراك تستمتع أنت أيضا يا «هوارده»، صديقتك جميلة، هل تقدمني إليها؟..

- إنها أميرة فرعونية.. اكتشفتها في البر الغربي..

ضحك اللورد قائلا باقتضاب: لم تضع السنوات هدرا إذن.. ربما كان هذا أروع اكتشافاتك..

أحنى رأسه ومضى إلى حيث تقف السيدة الغاضبة، لم تكن «عائشة» في حاجة لإيضاح حتى تعرف أن هذا هو اللورد «كارنرفون» وابنته، أحست بطعم مر في حلقها، قالت له:

- هل جئت بي إلى هنا حتى يشاهداني معك؟

قال «هوارده» ببساطة فائقة:

- أجل.. أردت أن أريهما أن لي أشياء هنا لن أتخلى عنها في سهولة.

نظرت إليه حائرة، هل جاء بها حقا يدافع عن وجوده هنا، أم ليثير غيرة هذه المرأة الشاحبة؟ قالت:

- وابنته.. هل أردت أن تثير غيرتها؟..

- أشك إن كانت ترى غير صورتها في المرآة أصلا..

اكتشفت «عائشة» أنها هي التي تشعر بالغيرة، شعور طغى على المنطقة الباردة التي كانت تحتمي بها وتمنع نفسها من الاقتراب منها، قالت:

- لقد وصلت رسالتك إليهما.. أنت لست وحدك..

سارا معا في شوارع المدينة، دخلا الحواري وتحدثا مع الصعايدة وشربا عصير القصب وماء الرمان، اشترى لها شالا من القطيفة الأحمر وضعته على كتفيها وتحسست أهدابه الناعمة، رأى «هوارده» وجهها وقد ازداد توردا، فأصر على أن يشتري لها قلادة من الذهب تشبه تماما التي ترتديها حتشبسوت، لفها حول رقبتها فضحكت وشعرت بسعادة حقيقية، لم يدللها أحد إلى هذه الدرجة، أحست أنها ملكة حقيقية، جلسا في مطعم صغير أكلا الكباب الحار وشربا شوربة العدس بنخاع العظام وحبسا بالشاي الثقيل، سارا بين صفين من تماثيل الكباش حتى دخلا في مناخة أعمدة معبد الكرنك، سارا بين الأعمدة المنتصبة في شموخ والتي تبلغ عددها المائة واثنين

وعشرين عمودا، بين بقايا المعابد والمذابح وقدس الأقداس، قرأ لها النقوش، وفسر لها خراطيش الملوك، كانت قد بدأت تتعلم منه كيف تقرأ مفردات هذه اللغة الغريبة، جلسا على حافة البحيرة المقدسة، وبدت على الناحية الأخرى من النهر واجهة معبد الدير البحري تحيط به غلالة مثيرة للشجن، وضع يده على كتفها وضمها إليه قليلا، ارتعدت وتركت نفسها للمسانه، أحست بلحظة نادرة من الأمان وعدم الخوف، كانت روحها التي انكسرت منذ زمن تبغي الالتئام، تود أن تتخلص من كل ماتختزنه من أسرار تثقلها.

تحدثت إليه بصوت مرتجف، المرة الأولى التي تكشف فيها عن معاناتها الطويلة بكل ما فيها من تفاصيل خفية، تذكرت الليلة التي حدثت فيها «مختار» ببداية الحكاية، وكيف قبل جفونها وضمها إليه، ولكن الزمن كان بريئا، ولم تكن تشعر بهذا الخجل من جسدها، كشفت عن ذراعها وأرته علامة الصليب، وكيف حاولت أمها أن تجنبها فخ عمها، ولكنها وقعت فيه، هل كان لإرادتها دخل في ذلك؟ من المخجل الاعتراف بالرغبات التي تسكن ظلمة الجسد، ولكنه اغتصبها وانتهك روحها، جعلها تفقد جسدها القديم، وتستبدل به هذا الجسد الذي يراه أمامه، تخضبت خلاياها على رغمها وحملت آثار هذا الاغتصاب، كانت تعاني من إحساس عميق بالدنس، وقادها في نهاية المطاف إلى منزل «وش البركة»، ظل ممسكا بيدها وهي تبكي وترتجف، كان يحسب أنه الإنسان الأسوأ حظا في العالم، ولكن ها هي ذي تلك الأميرة الفرعونية تخرج من نقوشها وتقص عليه حكايتها المروعة، احتضنها وربت على ظهرها وهو يقول:

ـ كلنا ندفع الثمن بشكل أو بآخر، كان هذا زمنا قاسيا علينا جميعا..

سارت بجانبه، مستندة إليه، وكانت الأرض ما تزال رخوة، والأفق شاحبا، مسحت دموعها حتى لا يراها «عبد العال»، كان في انتظارهما بجانب الشاطئ والحمار واقف بجواره، حملتهم «الفلوكة» فوق صفحة النهر، وانبعث غناء خشن من أحد القوارب، صياد وحيد بدا كأنه يغني خصيصا لهما، اقتربت الضفة الأخرى، موحشة وأليفة، قفزت على الأرض فأحاط بها السكون من كل جانب، ورفضت أن تركب الحمار الهزيل، سارت مع «هوارد» على مدق من الرمل، وتبعهما «عبد العال» من على مبعدة ومعه الحمار، شاهدت الفلاحين قادمين من حقولهم بصحبة البهائم مثل أشباح، تحيط بهم غلالة من الغبار المتصاعد، كانوا يسيرون نحو «القرنة»، ثم أصبح الوادي خاليا وتحول لون السحب من الأرجوان إلى لون الرماد، بدأ «هوارد» يتكلم وهو يشير للصخور والحفر الغائرة في تجاعيد التلال، حكايات وقصص عن كل مكان، سمعتها قبل ذلك، لكنه كان يتحدث بانشراح، ولكن البهجة بدأت تنسحب من صوته وهما يقتربان من «دار أبو النجا»، المنطقة التي أوسعها بحثا وتنقيبا دون أن يظفر بشيء، كانت الصخور متجهمة وحادة الأطراف، كأنها أخرجت من الأرض على رغمها، والحفر غائرة كأنها ستبلغ الجانب الآخر من العالم، كل ذلك دون جدوى، صاح وهو يرتعد:

ـ حفرت هنا.. وهنا.. وهنا.. لم يبق إلا أن أحفر تحت جلدي..

مدت يدها ومسحت بها على وجهه، حاولت أن تهون عليه

كما هون عليها، كأنا على وشك أن يفقدا معا آخر مكان لهما تحت الشمس، تبددت سعادة اليوم القصير، اعترضت طريقهما كومة كبيرة من الصخور، وكان لابد أن يدورا حولها حتى يصلا للمنزل، أشارت «عائشة» للصخور وهي تتساءل مندهشة:

ـ أنت الذي صنعت هذا الركام؟..

ـ أنا وكل الذين سبقوني.. كل الذين حاولوا التنقيب وباءوا بالإخفاق.

ـ لماذا لم تزحها من مكانها وتحفر تحتها؟..

ـ لم أستطع.. كانت أكبر من احتمالي.. (أشار بيده إلى مكان في العتمة) هنا مدخل مقبرة رمسيس الثاني، في كل يوم يأتي إليه عشرات الزوار، ولو ألقيت عليهم الصخور فسوف يشحذ رجال «ويجل» أظافرهم ويقومون بطردي من الوادي..

ـ كان عليك أن تقوم بذلك..

ـ إنه مثلث صغير من الأرض بلا قيمة، وبخاصة أنه يقع بالقرب من مقبرة تم اكتشافها بالفعل.

قبل أن يفرغ من كلماته فوجئ بها وهي تتسلق الصخور، كانت العتمة قد أحاطت بها، وأرادت أن تشاهد أضواء الضفة الأخرى، دون أن يدري وجد «مواردة» نفسه يتبعها، تنهد «عبد العال» في غيظ ولم يجد بدا من الجلوس بجانب الحمار، واصلت الصعود، وقفت فوق منبسط من التراب والحصى والصخور الصغيرة على سطح المقبرة القديمة، ظهر انعكاس الضوء على صفحة النهر، لمحة ضئيلة من

الأمل وسط هذه العتمة الآخذة في التكاثف، وصعد «موارده»، وضع يده حول وسطها ووقفا معا تحت برد المساء.

خلعت الشال القطيفة من على كتفها وفردته على الأرض، جلسا متجاورين، بدا الليل صافيا بعد أن رحلت السحب، وظهرت السماء غنية بالنجوم كما لم ترها من قبل، قال في همس:

ـ كنت أريد اكتشافا يثبت جذورنا معا هنا.. ولكنني أعدك بأنني لن أفترق عنك في أي مكان..

قالت وهي تبتسم:

ـ لم تنفد مهلة اللورد بعد.. ولا أحد يدري ماذا تخبئ هذه الأرض لك..

أصبح كل شيء بعيدا وبقي سكون هذه اللحظة، خفت حدة الذكريات الأليمة، وإحساس المهانة والاغتصاب، هبت عليهما أنفاس الليل، خليط من سخونة الرمال وبرودة النهر، مد يده واحتوى وجهها بين كفيه، ارتعدت وحاولت ألا تبعد نفسها، لمست شفتاه شفتيها في خفة، لم يكن هناك خوف ولا اشمئزاز، كان هناك دفء يتسلل إلى داخلها، يحتك شاربه بطرف أنفها، تسرب الخوف من جسدها وحل بدلا منه رغبة وجوع، أحست بالحصى وهو يغز ظهرها من خلال شال القطيفة، كان مؤلما في البداية ولكن ذاب الألم حين أحست بجسده يحتويها، بدأت أصابعه تزحف تحت ثوبها ففكرت في دهشة.. ياربي.. جسدي لا يرفضه، لفت ذراعيها حول عنقه، ضمت رأسه حتى أحست بأنفاسه الحارة بين ثدييها، تملأ جسدها بالدفء، تدير رأسها، تبحث عن شفتيه وتدس بينهما

شفتيها، تحس بهواء الليل يتسلل بين ساقيها، تحاول أن تمنعه حتى لا يصل إلى الجزء المؤلم من جسدها، لكنها لدهشتها لا تتألم، تحس بجسدها خفيفا وهو يقتحمها في ضربات متتابعة، تحاول أن تثبت نفسها على الأرض فتغرس أظفارها في ظهره، تكتم تأوهاتها حتى لا تحملها الريح إلى أسفل التل، تلمح من خلف قرن الجبل قمرا أصفر مترددا يطل عليهما، لم تكن في حاجة إليه، كان هناك ضوء يولد في داخلها، كأن كل النجوم قد تسللت إليها، طردت كل ما فيها من عتمة، وأطفأت ما تشعر به من عطش.

من أسفل التل يرتفع صوت «عبد العال» وهو يصرخ:

ـ يا خواجة كارتر.. الديابة..!

أفاقت «عائشة»، نزعت جسدها من دفء جسده، لملمت ثوبها وضمته حول جسدها، لم يسمعا صوت عواء، ولكن الحمار الهزيل بدأ ينهق في فزع، وعاد «عبد العال» يصرخ وقد تزايد فزعه:

ـ إنها تشم رائحتنا.. وجودنا هنا خطر..

مد «هوارد» يده وساعدها على النهوض، ولكن ركبتيها كانتا ضعيفتين، لا تستطيعان حملها، بدآ يهبطان التل وهما يلهثان، كان ضوء القمر يفرد نوره على الرمل حتى حافة النهر، ولكن «عبد العال» أشار إلى العتمة المتكاثفة عند بوابات المعبد وهو يقول: إنها هناك، تقف هناك مترصدة، ربما تهاجمنا في أي لحظة، تبدد الدفء من جسد «عائشة»، قال «هوارد»: سلوكها غريب، إنها لا تعوي ولا تتحرك.. هناك شيء غير عادي، قال «عبد العال»: مهما حدث فسوف تهاجمنا في أي لحظة، بدأ يفك شال العمامة الضخمة التي كانت

ملتفة حول رأسه، كان الشال طويلا بشكل غير عادي، أخرج من جيبه علبة ثقاب وأخذ يحاول إشعال طرف الشال، لم تنجح محاولته في أول الأمر ولكنه واصل إشعال أعواد الثقاب حتى اشتبكت النيران في طرف الشال.

سار «عبد العال» في المقدمة وهو يحرك الشال بيده في حركة دائرية، ازداد توهج الطرف المشتعل، وتناثرت منه قطع محترقة، فراشات مضيئة، هتف: تعاليا خلفي.. سارا متلاصقين، ظل يدير الشال وهو يقول: لأجل هذه المواقف نحمل فوق رؤوسنا عمائم ضخمة، من بعيد بدت عيون الذئاب براقة ومضيئة، تخترق حجب الظلام وتحرس أبواب الموتى.

لم يصدقا أنهما قد وصلا إلى البيت قبل أن تحترق العمامة بأكملها، لم يحاول «عبد العال» أن ينظر في وجهيهما اكتفى بأن ألقى بقايا الشال على الأرض، وقاد الحمار سريعا إلى ملحق المنزل، لم ينتظر حتى يستمع لكلمة شكر، بدأت الذئاب تعوي في غضب مسعور، وظل العواء متواصلا حتى الصباح...

* * *

«.....استيقظت مبكرا، سمعت صوت المؤذن قادما من ناحية المعبد، كان الهواء باردا وطيور النهر تواصل الدوران بحثا عن رزقها، وعائشة نائمة وباب غرفتها مغلق، لم ترض أن أشاركها فراشها الليلة رغم كل ما حدث بيننا، فضلت أن تبقى وحدها مع أنها كانت ترتجف، وعواء الذئاب لا يهدأ، رأيت عبد العال وهو يقف متوجها ناحية مكان شروق الشمس وهو يصلي على الرمل المندى،

كان الضوء ينتشر ببطء من خلف قرن الجبل، كل شيء يأتي من هذه الناحية فلماذا لا يتحقق حلمي في هذا المكان، انتظرت حتى فرغ «عبد العال» من صلاته، كنت أعرف ذلك عندما يدير وجهه للجهة اليمنى ثم اليسرى، تقدمت منه وأنا أقول:

ـ اذهب واجمع الرجال.. سنبدأ عملنا مبكرا اليوم..

قال متبرما بالطريقة التي أعرفها:

ـ لم نتناول إفطارنا بعد..

ـ لا يوجد وقت.. اذهب قبل أن يسرحوا للغيطان أو يعبروا للبر الآخر..

ظللت واقفا حتى رأيته وهو يخرج الحمار من حظيرته ويركبه متوجها نحو القرية، لم أنتظر في مكاني، سبقت الجميع حتى وصلت للبقعة التي تتراكم فيها الصخور، لم تبد متجهمة كما اعتدت أن أراها دوما، كانت تتلون، تتشرب كل درجات الضوء، كأن هناك حياة جديدة تدب فيها، أدركت لحظتها أن انتظاري لم يكن عبثا، وأن هذا الملك الذي راوغني طويلا على وشك أن يكشف لي عن قناعه، صعدت فوق الصخور مثلما فعلت بالأمس وأنا أتبع «عائشة»، كان الشال الأحمر ما زال مفرودا فوق الحصى، حملته بين يدي ودسست فيه أنفي، كان يحمل رائحتها، ورائحة لحظة العشق التي عشناها معا، إشارة واضحة وجلية لي أن أبدأ من هذا المكان..

عندما عاودت الهبوط كان الرجال قد تجمعوا أسفل المنحدر الصخري، نظروا إلي في دهشة، كان غريبا أن نتجمع في هذا المكان

الذي تجنبناه طويلا، كان الركام هائلا ومتشابكا ومن الصعب التخلص منه، ولكن هذا كان آخر الحلول، قلت:

ـ سنزيل هذا الركام ونحفر تحته..

نظروا إلي، رأيت عيونهم اللامعة، ووجوههم السمراء التي يبدو الجلد مشدودا عليها دوما، دون دهون زائدة، كانوا قد تعودوا على إطاعة الأوامر مهما بدت غريبة، يعرفون أن الطرق كثيرا ما تكون ملتوية بالنسبة لنا، بينما تخرج الأرض كنوزها لهم بسهولة كأنها تناديهم، نظر بعضهم إلى بعض في حيرة، كانت المهمة صعبة والصخور ثقيلة وأطرافها جارحة، ستهلك أكتافهم وتقصم ظهورهم، صحت فيهم:

ـ ماذا بكم؟.. لماذا لا تتحركون؟

تقدم الريس جريجر خطوة إلى الأمام، قال من دون أن يجرؤ على النظر في وجهي:

ـ نريد يومية خمسة قروش لكل رجل.. وقرشين للأولاد..

هتفت مندهشا ومستنكرا، كانت الحرب قد رفعت الأسعار حقا ولكن ليس إلى هذا الحد، قلت:

ـ هذا كثير.. أنتم تحاولون استغلال الموقف..

ـ انظر ماذا تطلب منا ياخواجه، هذه الصخور ستهلكنا، لقد ظلت طويلا هنا حتى تماسكت بعضها في بعض، سيكون من الصعب وربما كان مستحيلا انتزاعها من هذا المكان..

كان على حق، ولكني لم أكن أريد أن أبدو سهلا ومتنازلا، وبخاصة أنني لا أعرف كم يوما سيطول الأمر، قلت:

ـ سأدفع أربعة قروش

نظر إلى رجاله فقابلوه بوجوه جامدة، من الواضح أنهم كانوا قد فوضوه في الحديث عنهم ولم يريدوا التدخل، قال:

ـ هذا قليل ياخواجه، ويمكن أن يكون هذا آخر عمل نقوم به، والأهبل هو من يخاطر بحياته من دون ثمن..!

تراجع للوراء حتى وقف بينهم، كأنه يستمد منهم القوة لمواجهتي، صمت مندهشا من موقفهم، كنت معتمدا على عشرتي وألفتي معهم طوال هذه السنوات، يبدو أنني كنت مخطئا، أو أنني اقتربت من هدف دون أن أدري، وهذا الملك ينتظرني هناك لا يفصل بيني وبينه إلا بضعة قروش، رأيت عيونهم اللامعة وهي ترقبني، كانوا خائفين أيضا من أن أرفض، وصلنا معا في لحظات قصيرة إلى نقطة اللاعودة، الرجال يحملون المعاول، والأصغر سنا يحملون المقاطف والغلمان يحملون قرب الماء، وأنا محمل بحلمي اليائس، وبلحظة حب غير متوقعة، كان يجب أن أجد وسيلة للحفاظ على ماء وجهي، قلت:

ـ حسنا.. ستكون خمسة قروش كاملة.. لكننا لن نتوقف عن العمل حتى يؤذن المغرب..

زفروا في ارتياح، انفرجت لحظات التوتر، بدءوا ينتشرون في المكان بطريقتهم التي أعرفها، طريقة محفوظة يقومون بها سواء كانوا يبذرون البذور أو يجمعون المحصول أو يحفرون ترعة أو يبنون بيتا،

إنها الطريقة نفسها التي بنوا بها هذه المعابد الضخمة والأهرامات المتجهمة، بالقروش الزهيدة ذاتها، بدأ الأقوياء يخلخلون الأحجار من موضعها بأيديهم المجردة، واستعان الأقل قوة بالمعاول المدببة، وحمل قصار القامة المقاطف المجدولة من خوص النخل، وملأ الغلمان القرب الجلدية بالماء، أقاموا لي خيمة على جانب من التل الصخري، وحضرت بعض نساء القرية من أقاربهم، أقمن موقدا وبدأن في عجن الخبز، أحضرن زلع الفخار المليئة بقطع الجبنة القديمة والملفت المخلل، دبت في الموقع حياة كاملة فأدركت أن هذا الصخر سيتحرك من مكانه لا محالة.

مضت ساعات الصباح في عمل لا يهدأ، جاء مفتشو الآثار، ألقوا علينا نظرات عابرة ثم انصرفوا، لا بد أنهم أحسوا بالشماتة لأنني أخذت على عاتقي مهمة إزاحة هذا الركام، سيخلو الطريق لمقبرة رمسيس الثاني وسينسبون الفضل لأنفسهم، ولن أنجح أنا إلا في الاصطدام بجدران مقبرة قديمة، ارتفعت الشمس لمنتصف السماء، توقفوا عن العمل وأخذوا يتناولون وجبتهم الأولى.. وربما الأخيرة لهذا اليوم، أخذوا يقطعون الأرغفة الرقيقة اللينة وهم يتضاحكون، يضربون رءوس البصل بأكفهم الضخمة ويلتهمونها في تلذذ، يتناولون الجبن القديم والمخلل، يعوضون ـ بخبرتهم ـ الملح والمعادن التي يفقدونها كلما نزفوا عرق أجسادهم، لم أكن قادرا على مشاركتهم الطعام، حتى الوجبة الخفيفة التي أحضرها لي «عبد العال» لم أمسسها، واصلوا بعد ذلك حمل الأحجار وجرف الأتربة بقية النهار، ولم يبد على التل أنه نقص شيئا أو أنه من الممكن إزاحته من مكانه.

عدت إليها متعبا في نهاية اليوم، تركتني أقبلها وأتحسس جسدها، ولكنها لم تتجاوب معي، هل كانت نادمة على أنها مارست معي الحب بالأمس، أم أن ذلك الحاجز الشرقي اللعين من المحرمات قد استيقظ في داخلها؟! هل كان إحساسها بالذنب يصبح أقل لو تم الأمر بالاغتصاب وليس من خلال الرغبة والمشاركة؟ أشرت إلى كومة الأحجار الموجودة في الفناء أمام المنزل، كنت قد أوصيت عبد العال بأن يأخذ أوني الأحجار التي هبط بها الرجال من أعلى التل ويصنعوا منها هذه الكومة على شكل هرم صغير، أعطيتها الشال الأحمر الذي نسيته، ابتسمت في حزن وشرود، قبلت عنقها وشفتيها، كانت طيعة ولكنها لم تكن دافئة، قالت لي أخيرا فيما يشبه الاعتذار، إن صوت العواء الغاضب للذئاب قد أقلقها طوال الليل وبعث بالرهبة في قلبها، أحسست أن الحواجز التي بيننا لم تسقط بعد، كانت كومة الجرائد التي أحضرناها من البر الشرقي لم تمس، وبعض رسومي القديمة مفرودة على المنضدة، هل كانت تقضي الوقت في تأملها، لمحت بين الأوراق صورة لخرطوشة فرعونية، كنت قد كتبت فيها اسم الليدي الباردة «إيفلين» بالحروف الهيروغليفية، ترى هل استطاعت «عائشة» التعرف عليها؟ لم يكن أمرا مهما، حاولت أن أجذبها إلى غرفتي وأمارس الحب معها من جديد، كنت متأكدا أننا لو فعلنا ذلك بطريقة مريحة وفي غرفة مغلقة، في لحظة حميمة، فسوف يذوب كثير من الأشياء، ولكنها لم تستطع، امتلأت عيناها بالدموع حتى خشيت أن تنفر مني مرة أخرى، دخلت غرفتي وأنا أشعر بخيبة الأمل، لم أستطع النوم رغم شدة تعبي، كان عواء الذئاب ما زال غاضبا، قادما من ناحية المعبد، كأن ذئاب الوادي كله قد تجمعت بالقرب من

منزلنا، ترى ما الذي أثارها إلى هذا الحد؟ بعد لحظات وأنا بين النوم واليقظة أحسست بباب الغرفة وهو يفتح، ودخلت «عائشة»، ارتمت بجانبي على الفراش، احتضنتها، كانت ترتجف بشدة، ترتعد مفاصلها وتصطك أسنانها وهمست في رعب:

ـ إنها تترصد بي...

أقول مندهشا: من؟

ـ الذئاب.. في لحظة خيل إلي أنها سوف تهاجمنا..ثم أخذت تتقاتل بعضها مع بعض، وما زالت تتقاتل حتى الآن..

هل كانت تتخيل؟..ولكن الأصوات تتواصل.. لم تنم وأقلقت نومي أنا أيضا..

....تمر أيام أخرى، طويلة وشاقة، رمل جاف وشمس حارقة وطبقات لا تنتهي من الصخور المتراكمة، صفوف العمال لا تهدأ، تنقل الأحجار من التل العنيد إلى منحدر صخري بحيث لا يعوق حركة مرور الزوار ومفتشي الآثار، نملأ الحفر التي حفرناها من قبل، ولا تريد الأرضية الأصلية أن تظهر، لا يتراجع حزن «عائشة» ولا يهدأ غضب الذئاب، تبكي على صدري، أقول لها: إنه مجرد عواء، طوال عمرها تتبعك دون أن تؤذيك، تقول: ليست الذئاب فقط، ولكني أخاف منه أكثر، في كل يوم يأتي إلى هنا، يقف على مبعدة من المنزل، يظل يحدق في اتجاهي وهو واقف ممسكا بعصاه، أقول لها: من؟ تقول: هذا المدعو عبد الرسول، أصرخ مدهوشا: إنه مجرد لص آثار، سوف أقطع رجله من هذا المكان، ترتعد وهي تقول: لن

تستطيع.. إنه واحد من الأرواح التي تملأ هذا الوادي، هذا المكان مرعب ومسكون.

هكذا مضى الأمر على تلك الوتيرة الشاقة، ينهكني رفع الأحجار طوال النهار، ويؤرقني عواء الذئاب الغاضبة طوال الليل، رأيت الرجال يترنحون من التعب والإرهاق، بدأت أعراض التبرم ونظرات اللوم تظهر واضحة في عيونهم، شعروا بأنهم يقومون بعمل لا جدوى من ورائه، أصبحنا جميعا تحت وطأة عبودية هذه الأحجار، كانوا على استعداد للتضحية بتلك القروش الخمسة اللعينة حتى يتخلصوا منها ومني، ولكنني لم أكن أستطيع التوقف، كنت أرتعد تحت صهد الشمس، كانت حياتي كلها تتوقف على اكتشاف هذه البقعة الصغيرة من الأرض..».

* * *

..... تجلس عائشة وقد أحست بالاختناق، تواصلت الكوابيس، فلم تعد تفرق بين اليقظة والنوم، لم تجد في نفسها رغبة في تناول الطعام أو في الخروج، كانت تعلم أنها ستجد في الفناء الخارجي آثار الذئاب مختلطة بأقدام عبد الرسول، وجدت على المنضدة لفة الصحف القديمة، كان قد وضعها في المخلاة وأحضرها معهما من البر الشرقي منذ أيام طويلة، كانت هناك صورة تشبه وجهها في الصفحة الأولى، تأملتها في استغراب، لم تكن صورتها بالتأكيد، كانت مخططا لتمثال حجري، وجهه يحمل كل ملامحها، فلاحة مصرية ترفع يدها كأنها تستقبل الشمس، بينما يدها الأخرى موضوعة فوق رأس تمثال صغير لأبي الهول، كان مختار قد عاد من سنوات

غربته في فرنسا، كان وجهه يبدو متعبا، ولكن الصورة الباهتة لم تستطع أن تخفي البريق الذي يشع من عينيه، كان يتحدث عن مشروعه لإقامة تمثال ضخم يرمز للنهضة والبعث الجديد، ذكرى بعيدة من عالم آخر، لم ينس ملامحها بعد، ولكن المشكلة أن هذا لم يعد وجهها، ولم يعد هذا جسدها، تفتت روحها، وتشوه كل شيء وأخذ مسارا قدريا لا رجعة فيه.

سمعت أصوات عويل قادمة من الخارج، لم تكن أصوات الريح، كان عويلا حقيقيا قادما من ناحية المعبد، ترددت قليلا ثم سارت ببطء للخارج، لمحتهن بجانب الحائط الحجري، صفا طويلا من النسوة يلبسن السواد، ويغطين رءوسهن بأغطية سوداء أيضا، يواصلن اللطم والبكاء، يتمايلن مثل كثيب من رمال سوداء تهزه الريح، حسبتهن في البداية جزءا من جنازة متجهة للمقابر، لم يكن هناك رجال، ولم يكن هناك ميت، لم تدر ماذا يبكيهن بالضبط، ولكن استمرار العويل زاد من رجفتها، أحست فجأة أنهن جئن من أجلها، يبكين مصيرها، حاولت التراجع والاختباء داخل المنزل، ولكن واحدة من النساء استدارت نحوها وحدجتها بنظرة قاسية، شهقت «عائشة»، كانت المرأة تحمل وجه أمها، كأنها بعثت من موتها من جديد، وكأنها جاءت تبكي المصير التعس لابنتها، أغلقت «عائشة» كل النوافذ، وأوصدت كل الأبواب، وظل صوت العويل يحاصرها.

* * *

«... مثلما تحدث المعجزات، جاءت لحظة سحرية، استطاع الرجال فيها أن يخلوا كل الأحجار، بدا سطح الأرض أخيرا، داكنا

ورطبا من كثرة ما غابت عنه الشمس، انهرنا جميعا من التعب، وانحنى الرجال بجباههم على الأرض يشكرون إلههم البعيد، ولكن كانت أمامنا أيام أخرى من التعب، علينا أن نستعد لحفر الأرض الصلبة ونحن غير متأكدين من الوصول لأي نتيجة، حاولت أن أحدث «عائشة» عما وصلت إليه ولكنها كانت تذوي، كانت نظراتها مليئة بالحيرة والألم، قالت لي فجأة وهي تبكي:

ـ لماذا لا تتوقف عن الحفر..؟! لماذا لا تغادر هذا المكان المرعب..؟!

نظرت إليها مدهوشا، لم أتصور أن تحاول إيقافي بعد أن بذلت كل هذا الجهد وأصبحت بهذا القرب، هي التي حددت لي المكان، وضعت شالها الأحمر كعلامة لا يخطئها أحد، الأصوات تناديني، والملك ينتظرني في جوف الأرض فكيف أخلف ميعاده بعد كل هذا الانتظار؟! لا تريد أن أتوقف:

ـ هذا المكان سيدمرنا معا.. لقد رأيت كابوسا مروعا.. هذه الذئاب لا تغضب من دون سبب..

أصرخ فيها غاضبا:

ـ وإلى أين تريدين منا الذهاب..؟ هل نعود لبيت «وش البركة»...؟!

حدقت في مصعوقة، عضضت على لساني، كنت قد جرحتها بقسوة.....

استيقظت في الفجر حتى أتصرف قبل مواجهتها، ولكني وجدتها

يقظى، جالسة في الشرفة الأمامية، تتطلع للمعبد الذي يلفه الضباب، والفناء مليء بآثار الذئاب، كأنهم قد أقاموا هنا طوال الليل، كانت كومة الأحجار التي صنعت منها هرمي الصغير متناثرة في كل مكان، نظرت إلى وجهها، عيناها خابيتان، تحيط بهما دوائر من السواد، شفتاها تتحركان، تتمتمان بكلمات غير مسموعة، ربما كانت تتوسل إلى إله مجهول حتى يعوقني عن المضي، ولكن لم يكن لدي وقت لهذه الترهات، إن كانت تريد أن تغادر المكان فلتذهب وحدها، لن أضحي بحلم عمري من أجل هواجس امرأة..

تستعد النساء لإعداد الخبز، ويرص الرجال المقاطف ويرممون المجاريف ويملأ الغلمان القرب الجلدية من النهر، إنه يوم آخر، مجهد ولكنه مختلف، على الأقل هذا ما أحلم به، علي أولا أن أبعد وجه عائشة الحزين عن ذهني، شربت مع الرجال كوبا من الشاي الثقيل، هتفت معهم باسم الله قبل أن يهووا على الأرض بمعاولهم، يقلبون التربة السوداء، تبدو وكأنها لم تمس قبل هذه اللحظة، تحمل رائحة من أزمنة عتيقة وموت بلا بعث، رفعوا المجاريف وملئوا المقاطف وسووا أطراف الحفرة حتى لا تنهار، واصلوا الغوص في طبقات الأرض دون توقف، كان الجو مليئا بنبضات غريبة، كنا جميعا في انتظار ماهو غير متوقع، رأيت قطعة من فخار قديم، وآنية من مرمر، وزجاجا متكسرا، وقطعا من نقوش غير مكتملة، تربة ثرية يحلم بها أي منقب، لكنها لم تكن هدفي، كنت أنتظر الملك الذي علقت مصيري بوجوده..

عند الظهر فاحت رائحة الخبز واختلطت برائحة باطن الأرض ولكني لم أدع أحدا يتوقف، ظللت أضغط عليهم من أجل المزيد

من الحفر ولكن الشمس كانت قاسية، والتعب قد نال منا جميعا وما زال الملك بعيدا، أشرت لهم أن يتوقفوا وأن يأخذوا فترة للراحة وتناول الغداء، ولكن واحدًا من الغلمان الذين كانوا يحملون قرب الماء صاح فجأة:

- أرى أطراف أحد السلالم.. هناك درج..

هرعنا جميعا، قفزنا داخل الغرفة، ارتطمت أجسادنا بعضها في بعض، ارتفع الغبار فلم نعد نرى شيئا، تلقفنا ونبشنا التراب، صرخنا عندما انهار جزء من الحائط الرملي، ولكن الدرج كان موجودا، أزحنا التراب والحصى بأيدينا، وجدنا الدرجة الأولى والثانية والثالثة، كلها متجهة إلى أسفل، إلى جوف الأرض، نسينا الطعام وحرقة الشمس وحاجتنا للراحة، انهالت الأتربة متدفقة علينا ولكننا اكتشفنا درجات أخرى، بكيت دون أن يلحظ أحد دموعي، كانت وجوهنا جميعا مكسوة بالتراب، كان الرجال يصيحون بسم الله مع اكتشاف كل درجة، وأنا أغوص معهم إلى زمن آخر، والظلام يهبط علينا كالقدر، أضأنا المشاعل وواصلنا الحفر، وصلنا للدرجة الخامسة والعشرين، أمسكت مشعلا واقتربت من الحائط الذي يواجه الدرجة الأخيرة، كانت هناك صخرة عرضية، مشطوفة ومحددة الحواف، تخفي تحتها بابا أو سردابا، وكان عليه نقوش، رفعت المشعل واستطعت أن أقرأ النقوش بوضوح، كانت خرطوشة وحيدة، تحمل اسما وحيدا.. «توت عنخ آمون».. أيها الملك الذي راوغني طويلا.. لقد عثرت أخيرا على مستقرك......».

* * *

..... يريدون منه العودة إلى طيبة.. لكنه لا يعرف إلا أنها مدينة مخيفة، يريدون أن يزوجوه بفتاة تكرهه وتنظر له كحيوان بري، ويلبسونه تاجا يثقل على رأسه وصولجانا يضمه إلى صدره، ويثقلون جسده بالملابس المذهبة ولا يتركون الفرصة لروحه حتى تنطلق إلى البراري التي يعشقها، حتى اسمه القديم، يعطونه اسما مختلفا، وإلها مختلفا.. ولا أحد يأبه بسؤاله: ماذا يريد؟ كيف يمكنه أن يعبر عما في نفسه وهم بهذا العداء، أو يخاطب «حور محب» وهو بهذه الصرامة والإصرار..؟

كان «توت» مختبئا داخل القصر، يتمنى ألا يصلوا إليه ليرغموه على فعل كل هذه الأشياء، كان يريد فقط أن يؤجل الأمر، حتى يبكي أباه الراحل، ولكن حتى هذه الفرصة الأخيرة لم يسمحوا له بها.

تغيرت مدينة «أخت آتون» منذ أن اقتحمها جنود «حور محب» من دون مقاومة تقريبا، كان الوزير «آي» هو أول الضحايا على الرغم من أنه أيضا لم يقاوم، رفع محاربو الجنوب علامات الإله آمون عاليا وهم يجتازون شوارع المدينة المستسلمة، تقدمهم صف من الكهنة برءوسهم الحليقة، وهم ينظرون إلى الجميع بصرامة، ألقى حرس المدينة بأسلحتهم وخرجوا للترحيب بالمحاربين، إلا أنهم نظروا إليهم باحتقار، حمل «حور محب» أخبار موت الفرعون إلى القصر، دخل للمرة الأولى جناح الملكة «نفرتيتي»، اشتم عطرها وشاهد فراشها، وفوجئ بأنها قد تلقت الخبر بثبات، كانت حزينة ولم تكن مصدومة، كانت تدرك بإحساس غريزي أنه خرج ليموت، تمنى «حور محب» لو أنه في هذه اللحظة يتخلى عن صرامة المحارب، ويركع تحت قدميها، يخبرها عن مدى رغبته في أن يدفن فراشها

الذي أصبح بارداً، ولكن البنات بكين في حرقة، وحاول «توت» أن يتزوى بعيداً، ولكن «حورمحب» قال له في حزم:

ـ عندما تنتهي أيام الحداد، ستقام مراسيم الزواج، ستتزوج الابنة الكبرى «عنخ إسن» وتصبح فرعوناً لمصر.. كانت هذه وصية الفرعون الراحل وقد وعدته بتنفيذها.

ألم يكن من الممكن اختيار فتاة أخرى منهن؟ لماذا يبدو ثمن العرش باهظاً هكذا؟ ولكن من الذي يجرؤ على مقاومة «حورمحب»، أحكم جنوده قبضتهم على كل جزء من المدينة، وأغلق كهنته معابد آتون، وقبضوا على كهنة الإله الذي سقط، لم يجرؤ أحد على أن يسأل عن مصير فرعون مصر «أخناتون»، كيف مات؟ أين دفن؟ وأي طقوس أقيمت حتى تعبر روحه بسلام للعالم الآخر؟ لم تجرؤ المدينة المهزومة على ذلك، ولا الشمس الغائمة، ولا الأشراف الذين توافدوا يعلنون ولاءهم لحورمحب واحترامهم للإله العائد آمون، كانوا خائفين على مصائرهم، يرتعدون من انتقام كهنته، من الذي يأبه بفرعون مارق، لا يدري أحد أين أودت به دروب الأبدية؟ وكانت أوامر «حورمحب» باترة وحاسمة:

ـ أمامكم أسبوع واحد لمغادرة هذه المدينة، «أخت آتون» لم تعد قائمة بعد الآن..

جاءت نهاية المدينة سريعة، ولكنها محتومة، كانت حلماً عابراً في بلد لا يتنفس إلا الكوابيس، انتشر الجنود، وانبعثت روائح القطران من كل مكان، أدرك السكان في فزع أنه سينفذ تهديده، وسيقوم بإحراق مدينتهم فور انتهاء المهلة، بدأ التجار يفرغون محلاتهم

ومخازنهم من البضائع، توجهت السفن والمراكب إلى الشاطئ ووقفت متأهبة، واستعد ملاحوها لأيام متواصلة من العمل، أخذت البيوت تخرج أحشاءها، أكوام من الأثاث والثياب والأواني والقليل من الذكريات والأسى، ملئوا بها بطون المراكب، هبط المئات من الفقراء للشوارع يبحثون عن وسيلة للخروج، أخذ الكهنة يعملون في عنف في إزالة كل نقوش الشمس ذات الأذرع، وقف «توت» وحيداً في شرفة القصر يشهد المدينة وهي تحتضر، يصعد «آتون» من خلف الأفق عاجزاً، ويعاود الاختباء سريعاً في كل يوم، كانت بنات الفرعون خائفات من الخطف أو الاغتصاب، ولكن الجنود حاصروا القصر من الخارج، قاموا بحمايته من العامة والغوغاء والكهنة، لم يجرؤ أحد على الاقتراب من طرقات القصر، كانت المركبة الملكية واقفة في النهر في انتظار خروج أهل الفرعون، ولكن «نفرتيتي» لم تتحرك من غرفتها، كأنها لا تشعر بما يدور حولها ولا تشم رائحة القطران التي يعبق بها هواء المدينة، وحل اليوم الأخير سريعاً، وجاء «حورمحب» بنفسه إلى القصر ليساعدهم على الرحيل إلى مدينة «طيبة» المخيفة، لكن بنات الفرعون استقبلنه بأعين مفزوعة، الصديق القديم لم يعد صديقاً، كان رجلاً قاسياً لا يريد لأحد أن يعارضه أو يقف في طريقه، قالت الابنة الكبرى «عنخ إسن»:

ـ أمنا لا تريد أن تغادر المدينة، لا أحد منا يريد أن يعود إلى طيبة..

لم يكن أمامه وقت لهذه المناورات النسائية، سار إلى جناحها، تنحت الجواري عن طريقه، وجد الملكة جالسة أمام النافذة، تتأمل الأفق في جمود، سمعت خطواته والتفتت إليه كأنها لا تراه، قال:

- مولاتي، هذا هو اليوم الأخير، يجب أن تغادر جميعا...

قالت في صوت حازم:

- أنت وكهنتك الذين حددتم هذا اليوم، لن أغادر مدينتي، لن أذهب إلى تلك المدينة المعادية التي كان زوجي يكرهها وكانت تكرهه.

أحس بالحيرة، لم يكن يجرؤ على إرغامها على المغادرة، أو الاقتراب منها أو حتى مس جسدها بأطراف أصابعه، قال:

- هذه المدينة ستحترق...

- سأحترق معها إذن، هنا مات زوجي وهنا سأموت..

تماما كما فعلت الملكة «تي» وكل الملكات الحمقاوات، ظل واقفا أمامها لعلها تلين، تظهر له أنها تراه، وترى مدى خوفه عليها، ولكن وجهها ظل جامدا، تطل منه عينان متعبتان، اختفى منهما الوميض الآسر، الفتنة الغامرة، الوعود الغامضة، أصبحتا حدقتين من معدن باهت، هل تكرهه؟ هل كانت تكرهه طوال هذا الوقت؟ لم يعد هناك جدوى من الكلام، استدار وانسحب من أمامها، كان الجميع قد بدءوا يهجرون القصر، صفوف من الجواري والعبيد والخدم، لم يتصوروا أن الملكة ستجلس وحدها في مدينة على وشك الاحتراق، ومرة أخرى واجه البنات بعيونهن المفزوعة، قالت «عنخ إسن» :

- لن نغادر هذه المدينة ما دامت أمنا لن تغادرها.

قال «حورمحب» من بين أسنانه:

- أنت بالذات أيتها الأميرة الصغيرة يجب أن تأتي معي، وسأحملك إلى السفينة على رغمك لو اقتضى الأمر، يمكن لبقية أخواتك البقاء لو أردن...

- ستحرقهن جميعا ؟

- لن تحرق هذه المدينة، لقد وهبتها الحياة من أجل الملكة «نفرتيتي»، ولكن الخراب راقد خلف أسوارها، لن يبقى هنا إلا الأفاعي والغربان والذئاب، سيأتي الجميع خلفي سواء أرادوا أو أبوا..

قاومتهم «عنخ إسن» كثيرا وهم يحملونها إلى السفينة، ضربت الحراس بقبضتها وأنشبت أظفارها في وجوههم، نظرت في كراهية إلى «توت» وهو يسير بجانبها خافض الرأس، قاد «حورمحب» الجميع كأن روح آمون - ذلك الإله الشرير - قد حلت فيه، بدأت السفن والمراكب والقوارب الصغيرة تزحف فوق سطح النهر، يلاحقها على الشاطئ زحف آخر من الجياد والبغال والحمير والجواميس والأبقار محملة بالأثقال، كلها تتجه جنوبا، وبدت أسوار المدينة شاحبة وصامتة، مات فيها الضياء، وسوف تموت فيها أجمل نساء الأرض، فكر «حورمحب» فيها وهي جالسة تغرق في صمت النهاية، لم تعطه الفرصة، ولم تعط لنفسها فرصة حتى تستفيق من أحزانها وتبدأ المصائر في التقارب، كيف لم تشعر برغبته فيها طوال هذه السنوات؟

حمل النهر الجميع بإرادتهم أو بغيرها إلى طيبة، كان الكهنة هم الذين استقبلوا الجميع، رمقوهم بنظرات متشفية، ولكن لم يكن هناك

وقت للانتقام، مات الإله الجديد، وماتت المدينة البديلة، ومات الفرعون المارق، ولم يبق أمام كهنة طيبة إلا الاحتفال بسيادتهم على مدن الوادي كافة.

أعيد فتح قصر الفرعون القديم، جلست «عنخ إسن» في ركن منه، وجلس «توت» في جانب آخر، لم يلتقيا أو يتبادلا أي نوع من الحديث، ورغم ذلك تواصلت إجراءات الزفاف، زينت «طيبة» بطريقة مبالغ فيها، وأعلن أن الفرعون الجديد قد غير اسمه ليتوافق مع الإله آمون، وإن أول أعماله هو بناء معبد جديد في وسط ساحة الكرنك، يؤكد من خلاله طاعته وتبجيله للإله المعبد، كان «توت» خائفا ومنعزلا ولا يدري شيئا مما يدور من حوله، لا يدري من الذي غير اسمه، ولا من أمر بمنح معبد للإله الجديد، المدينة كلها مشتعلة بالحركة، تحتفل بانتصارها السهل، «توت» وحده فقط هو الذي يحس بالهزيمة ويفتقد «أخناتون»، الرجل الذي وهب له حياته الجديدة، وها هو ذا يأخذ عرشه، ويتزوج ابنته ويغير إلهه، كان خائنا، ويعرف ذلك في أعماقه، ولكنه أعجز من أن يقوم بشيء.

في يوم الزفاف احتشد القصر بالجميع، الكهنة والقادة، ووجهاء طيبة القدامى والذين تخلوا عنها، الذين تابوا والذين خنعوا، و«حورمحب» يحرك الجميع بدقة وصرامة، كان هذا الزفاف هو البداية التي عليه أن ينتهي منها قبل أن يبدأ بتغيير كل شيء، جاءت «عنخ إسن» ترتدي ثوبا أسود، لم تغادر حدادها بعد، وكان توت جالسا على العرش، رأسه عار، ويده فارغة، لم يكن قد اكتسب شيئا من أبهة الملك، بدا كغلام مذعور يبحث عن طريق للهرب، ويخشى الاقتراب من «عنخ إسن»، جلست بجانبه وهي ما زالت

خانقة، تتذكر أمها وأخواتها اللاتي انتزعوها من وسطهن من أجل هذا الزواج التعس، نظرت إلى الكهنة الذين يقومون بإتمام مراسيم الزفاف وهي على وشك الانفجار، كان كاهن «آمون» الأكبر يقدم لهما إناء مليئا باللبن الممتزج بالعسل وهو يقول:

ـ هذا العسل هو شراب الشمس، واللبن شراب القمر، يمتزجان معا كما تمتزج حياتكما المقدسة، كل منكما يكمل الآخر، أنت الإلهة إيزيس التي تقدم العرش لزوجها، وهو الذي سيولد بفضلك من جديد ليصبح شبيه أوزوريس وستظلان معا حتى يستدير الزمن، ويظهر «الشعرى» وتتوالى مواسم الفيضان، ويمنحكما آمون القوة والسيطرة فوق كل الكائنات في هذا البلد الذي تحبه الآلهة، أبارك زواجكما وأعلنك فرعونا جديدا باسم «توت عنخ آمون».

أوشكت «عنخ إسن» ألا تشرب، ولكن نظرة قاسية من عين «حورمحب» جعلتها تبلل شفتيها، وشرب «توت» وهو يشعر بالغثيان، تقدم الكاهن الأكبر ووضع التاج على رأسه، كان ضخما بالنسبة لرأس «توت» الصغير، مكونا من اللونين، الأحمر لمصر العليا، والأبيض لمصر السفلى، تتوسطه الحية الحامية، تنبعث منها ريشتان، الحق والعدالة، وفي وسط التاج تطل عين حورس المدببة الأطراف، تبدلت هيئة «توت» فور أن لبس التاج، أصبح أكثر طولا وأكثر بروزا وهو جالس على العرش، شعرت «عنخ إسن» بالحنق أكثر عليه، وودت لو تنهض وتتركه جالسا وحيدا، هذا المتشرد الذي سرق عرش أبيها وربط مصيره بها على رغمها، ولكن الطقوس لم تنته بعد، يقدم الكاهن له الصولجان، صولجان آمون الكفيل بدحر الأعداء، المصنوع من شجرة الجميز، له رأس ذئب، تغطيه طبقة من

الذهب لتمنحه الضياء إلى العالم الآخر، دخل العبيد وهم يحملون أطباقا خشبية كبيرة، عليها أرغفة طازجة من الخبز، ما زالت الأبخرة تتصاعد، حملوها وتوقفوا أمامه، نهض الفرعون وأمسك بالأرغفة وأخذ يوزعها على الجميع، تلقى «حورمحب» الرغيف الأول، وتلاه الكاهن الأكبر، ثم بقية الأشراف والأعيان، وعندما استدار نحوها نظرت إليه بقسوة فتراجع، لم يلحظ ذلك سوى «حورمحب» لأن الطقوس كانت قد اكتملت في هذه اللحظة، دوت أصوات الدفوف عاليا، ودخلت عشرات الراقصات إلى منتصف القاعة، وأخذن يتمايلن على الإيقاعات، في الخارج هلل الآلاف من العامة منتشين بينما هبطت من القصر أطباق الخبز ودنان الجعة، وأخذ الخدم يوزعونها بالمجان، وسادت المدينة حالة من البهجة افتقدتها منذ زمن، وضاجع الرجال النساء بلا تفرقة، لعل الطاقة المتولدة من شهوات شوارع المدينة تبعث بالقوة في صلب الفرعون الجديد.

لكن الفرعون شخصيا وقف عاجزا أمامها في نهاية الليل، انصرف الجميع، ووقفت «عنخ إسن» عارية تماما، تتحداه بجسدها الناصع الذي بدأ بالتفجر، كانت قد أخذت لون جلد أمها، ورهافة قوامها وسحر عينيها، قالت له:

ـ لن تلمسني.. لن أسمح لابن الذئاب أن يصعد إلى فراشي.

دوى صوتها عاليا وحادا، وكانت آذان القصر كلها صاغية، ولم يجد «توت» بدا من الانسحاب من أمامها، يبحث عن غرفة بعيدة لينزوي بها، وظل يسمع تأوهات الجميع وهم يمارسون الحب بلا قيود.

في الصباح حاول أن يبحث عن انتصار ما في شوارع المدينة الغربية، ألبسوه عباءته المذهبة، ووضعوا التاج على رأسه، وركب عجلته الحربية التي تجرها ثمانية من الخيول، طاف موكبه الحافل في أنحاء المدينة، يتبعه «حورمحب» في عربة أخرى، متأخرا عنه بعض الشيء، عندما وصل إلى معبد «الكرنك» أحاط بهم الكهنة وهم يحملون المباخر، وخرجت عذارى المعبد وهن ينثرن الأزهار تحت أقدامه، ولكن ذلك لم يخفف إحساسه بالغرابة، هتافات الناس، أشكال البيوت، رموز الآلهة وتراتيل الكهنة، كان وحيدا ولن يخفف شيئا من وحدته.

بعد ذلك جلس على العرش لساعات طويلة وهم يمرون من أمامه، ينحنون على الأرض ويعبرون عن احترامهم، يذكرون أسماءهم وألقابهم الكثيرة وهو عاجز عن أن يتذكر شيئا، يضعون الهدايا تحت أقدامه، أواني ذهبية وعقودا من الجوهر وملابس ثمينة، أكواما تتجدد يحملها الأتباع إلى الداخل، ولا يدري هو ماذا سيفعل بها، وأخيرا صفق «حورمحب» بيده فانصرف الجميع، وكان «توت» متعبا ومرتعدا، ولكن «حورمحب» ظل واقفا في مواجهته، جادا وصارما كدأبه، قال:

ـ من الغد ستصدر أوامرك حتى يترك الفلاحون أراضيهم والعمال أعمالهم، يجب أن نجمع أكبر جيش عرفته البلاد، لقد اجتاز الأعداء وادي الفيروز، وسرعان ما يصلون للأرض السوداء، لا يجب أن نردهم فقط ولكن يجب أن نطاردهم داخل أراضيهم ونحطم مدنهم.

إنها الحرب دائما، كل واحدة تلد أخرى، ولكن «توت» كان مرعوبا، كل الذين يوفرون له الحماية سيتركونه ويذهبون، ويبدو أن «حور محب» عرف ما يفكر فيه فقد قال:

ـ سأترك معك حراسا من أخلص رجالي، سينفذون أي أمر تريده، وسيقتلون أي شخص تريد قتله دون تردد، عليك فقط أن ترفع صوتك..

قال «توت» بصوت خافت متحشرج: أرفع صوتي..؟!

ـ أعط أوامرك للجميع بقوة، ولا تكرر أمرك مرتين، حتى الملكة، لا تنتظر منها أقل من الطاعة التامة، لقد وهبتك العرش حقا ولكنه أصبح عرشك الآن، عليك أن تملأ بطنها سريعا، هذا هو ما وجدت من أجله النساء، استخدم أي أسلوب تريده، لا تبال باعتراض أو ألم أو قسوة، استخدم القسوة كلما أردت، الفرعون يجب أن يكون قاسيا دائما..

بدأ «حور محب» يجهز البلاد للحرب من جديد، نزع الفلاحون أرديتهم الزرقاء، وقصت أعواد الغاب من على حافة الأنهر لتتحول إلى أذرع للرماح، وتم خلط الحديد بالنحاس ليعاد صبه سيوفا ورءوسا للحراب، وصودرت صوامع الغلال ودنان الزيت وخيوط الكتان، واجتمعت النسوة في المعابد ليحكن ثياب الجنود، غادرت الوادي سكينته، وغدا سوف يستصرخ المحاربون طالبين عون كل الآلهة، قبل أن يتوجهوا للشمال، غادر الجيش المدينة، آلاف الفلاحين تحولوا إلى جنود، قبضوا على الرماح والدروع، وركب

المحترفون منهم العجلات الحربية، مروا أمامه وهو واقف في شرفة القصر وبجانبه الملكة «عنخ إسن».

كان يشعر بالخوف منها ومن بقية المدينة، يتوقع الموت لو أنه رفع صوته ولو قليلا، كيف يمكن أن يفرض سيطرته على هؤلاء الكهنة الذين يتحكمون في كل شيء، وكيف يستطيع أن يكون آمنا وسط ممرات القصر المعتمة والمليئة بالفخاخ، خلف كل ممر عدو كامن، ولكن العدو الرئيسي كان في غرفة النوم، الغرفة التي لم يجد فيها مكانا حتى الآن، كان عليه أن يبدأ منها.

كانت تجلس في فراشها، تحيط بها الجواري ومن يدهن جسدها بالزيوت والعطور والعسل، نفس الوصفة التي كانت تستخدمها الملكة «تي»، لم تبال به عندما دخل الغرفة ووقف في وسطها، فوجئت به يرفع صوته ويأمر كل الجواري بالخروج، خرجن مسرعات، تقدم منها وأمسك بذراعها، خمشت وجهه بأظفارها كقطة هائجة، دفعها بعنف نحو الفراش، ضربته بقبضتها في صدره، فتح ساقيها بقوة، جذبت شعره، فنزع الغطاء الذي يغطي صدرها، حاولت أن تدفعه ولكنه دس جسده بين فخذيها، فعلا ذلك في صمت، فقط صوت أنفاسهما اللاهثة، نظرت إلى عينيه مباشرة ثم كفت عن المقاومة، كان صدرها بارزا ومشرئبا، وبطنها الناصع يعلو ويهبط، تركته يفعل ما يريد، يلهث ويتفصد عرقا ويحرك أصابعه دون هدى، اختفت نظرة الغضب من على وجهها وتحولت إلى نظرة ساخرة، لم تقاومه، ولم تسهل عليه الأمر، ظل يحاول، يتشبث بساقيها ويضغط بطنها، وتحول لهاثه إلى حشرجة حيوانية، وهي تتأمله بنفس النظرة الساخرة والابتسامة الفاترة، وعندما توقفت محاولاته أخيرا قالت له:

- والآن.. انهض من فوقي أيها الفرعون الشجاع..

كان يختنق، طرقات القصر خانقة وبلا نهاية، أخذ يعدو بحثا عن النهر، عن نسمه نقية تجفف عرقه، ظل يتخبط في كل الممرات الجانبية حتى بدت صفحة النهر سوداء وصامتة، دون ذرة من الهواء، جلس على الدرج المؤدي إلى الماء، كان الشاطئ الآخر بعيدا ومظلما ومهجورا، لو أنه يستطيع الفرار إليه، هناك يمكن أن يجهش بالبكاء دون أن يراه أحد، أحس بوقع خطوات، وجد صفا من الحراس الأربعة يقفون خلفه، يحمون ظهره، تركوه فقط عندما ذهب إلى جناح الملكة، ولكن ما إن ظهر في العلن حتى أصبح تحت ملاحظتهم مباشرة، تماما كما أمرهم «حورمحب»، صرخ:

- أريد أن أذهب إلى الضفة الأخرى.

قال أحدهم على الفور: سنحضر القارب الملكي في الحال.

هوت المجاديف على سطح النهر تشق ظلمة الموج، كان صدره ثقيلا والشاطئ الآخر لا يريد أن يقترب، وأنوار القصر خلفه، لا تريد أن تختفي، كان كل ما كان يتمناه أن تخفي الظلمة ما على وجهه من انفعالات، ظل القارب يتأرجح على وجه النهر حتى لامس طين الشاطئ، نهض المراكبي بسرعة، هبط من المركب وأحنى ظهره أمامه حتى يخطو الفرعون فوقه ويهبط إلى الرمل، كان «توت» يرتعد ولكن الأرض كانت ثابتة، ربما أكثر من أي مكان آخر، في هذا المكان صمت وظلمة أكثر من أي مكان آخر، أشار للحراس فظلوا بجانب الشاطئ يراقبون أي حركة على الماء، ظل المراكبي العجوز فقط هو الذي يسير خلفه على مسافة، قال:

- ما هذا المكان؟

قال المراكبي العجوز في دهشة:

- إنه وادي الملوك يا مولاي، هنا يرقد كل الملوك العظام وهم في طريقهم إلى العالم الآخر.

من بعيد تعالت أصوات الذئاب، اخترق الصوت مسام جسده، تذكر طعم اللبن القديم وهو يسيل على شفتيه، يوقظ في داخله الجوع والرغبة والحاجة إلى الدفء، ينفض من جسده خدر القصور والأسرة الوثيرة، تعالت الأصوات كأن الذئاب قد شمت رائحته، قال المراكبي في خوف:

- فلننصرف يا مولاي، إنها تتكاثر..

لم يتحرك من مكانه، رأى عيونها تومض في الظلام، وظلال أجسادها المرنة تتقافز وسط صخور الجبل الذي كان يطل عليه مثل قرن حيوان، مد يده وخلع كل ما يثقل جسده من ثياب وقلائد، انطلق معها في صراخ مرتفع، لقد عاد لعالمها مرة أخرى، عليه أن يترك جسده لأنيابها ومخالبها، تحرك محاولا أن يتلامس مع أجسادها، ولكن المراكبي أخذ يبكي ويستصرخ الحراس، لم يجرؤ أحد على أن يلمسه، أسرع الحراس الأربعة بخطوات سريعة، وقفوا صفا بينه وبين الصخور، رفع أحدهم يده وقال متوسلا: ..مولاي.. كان «توت» يأخذ أنفاسه في صعوبة وهو على وشك البكاء، كانوا يقفون حاجزا بينه وبين الحرية التي يسعى إليها، يبقونه فوق عرش لا يحبه وزوجة لا يملك إلا أن يكرهها، لم يكن هناك بد من أن يستدير، يتعثر في الرمل، يوشك أن يهوي في كل خطوة يخطوها،

وهم سائرون خلفه، لم يجرؤ أحد على لمسه حتى ارتمى أخيرا في القارب.

عاد إلى الشاطئ الغربي مرة أخرى ولكن في ضوء النهار، كان يبدو أقل وحشة رغم صخوره المتجهمة، مثقلة بتوابيت الموتى، كان الحراس بصحبته وكذلك كهنة آمون، ساروا خلفه وهو يبحث وسط الرمال، يحاول أن يتذكر المكان الذي وقف فيه ليلا، يتعرف على شكل الصخور، يكتشف آثار المخالب على الأرض، يشم رائحة البول الذي تتركه دائما في الأماكن التي تخصصها، وأخيرا أشار إلى المكان وهو يخاطب الكاهن الأكبر:

ـ أريد أن ابني مقبرتي في هذا المكان...

نظر إليه الكاهن في دهشة، قال:

ـ مقبرة.. أليس هذا مبكرا بعض الشيء..؟!

رد توت في صوت باتر: غدا يبدأ العمل.

وبالفعل بدأ العمل في اليوم التالي، كان عدد الرجال قليلا، معظم البيوت كانت خالية منهم، والنساء وحيدات، أسرتهن باردة، ولكنه لا بد من وجود عمال من أجل إطاعة الفرعون، بدئ في حفر النفق الأول الغائر في باطن الأرض، ووقف يراقبهم وهم يخرجون الأتربة وقطع الصخور، كانت هذه هي حجته ليبقى أطول وقت ممكن في الشاطئ الآخر، تواصل العمل طوال النهار وتواصل ليلا على ضوء المشاعل.

توالت أخبار الحرب الدائرة في الشمال، كل خمسة عشر يوما

يأتي رسول معفر بالرمل وملوث بالدم، المعارك متواصلة، تقدم وتراجع ولكن القتلى لا يكفون عن السقوط، ولا تكف السفن عن حمل المؤن إلى الشمال محملة بالقمح والشعير والملح والعسل والبصل والإبحار شمالا، ومع توالي الرسل كانت قبائل الشمال قد تراجعت عن حدود مصر وانتقل القتال إلى أرض كنعان، ولكنه لن يتوقف إلا إذا تم دفع الأعداء الحيثيين خلف نهر الشمال، هذا هو حاجز الأمان بالنسبة لمصر.

كانت الدولة تدار بطريقة ما، صفوف من الكتبة والموظفين الذين يتحدثون بالعديد من اللغات يقومون بكل المهام، لم يكن الفرعون الصغير يعرف شيئا تقريبا، وعندما يسأل كانت الإجابات تأتي إليه غامضة ومليئة بالتفاصيل غير المفهومة، ولكن المقبرة لم تتوقف عن الامتداد في جوف الأرض، حفرة سوداء جدرانها من الصخر الناتئ، حين ينظر إلى جوفها المظلم يشعر بأنها تناديه، تعود أن يسهر وحيدا ليسمع صوت الذئاب، وكانت المشاعل تبقى مضاءة طوال الليل، يتسلل إلى القصر المظلم، ويدخل وحيدا إلى فراشه، يستلقي مفتوح العينين، لعل الكوابيس تكف عن مهاجمته، والذئاب لا تكف عن العواء في رأسه، يتخيل نفسه وقد اكتسى جلده بالشعر، وأنيابه تنمو ومخالبه تصبح أكثر حدة، في تلك الليلة، فتح عينيه مفزوعا، وجد أنوار الفجر تطل من خلف الأستار، رأى وجه «عنخ إسن» بوضوح وهي تطل عليه، لم تكن غاضبة ولا متحفزة، شعرها محلول تحيط خصلاته بوجهها من كل جانب، ترتدي غلالة رقيقة يظهر ثدياها من خلفها بوضوح، ولم تكن تبالي بإخفائهما، سمعها وهي تهمس في صوت خافت، يشبه صوتها في طفولتها البعيدة، قالت له:

المدوي، كانا طوال هذه الأشهر قد تخيلا أنهما ملكان حقيقيان، لكن «حورمحب» جاء وأعادهما إلى مكانتهما طفلين صغيرين، قال:

ـ أعلن لك انتصارنا يا مولاي..

لم يكن يبدو عليه ذلك، وإذا كان هذا النصر قد تحقق فقد كان ثمنه باهظا، لم يجرؤ «توت» على الكلام أو السؤال عن أي تفاصيل، ظل يحدق فيه جامد الوجه، وقال «حورمحب»:

ـ دمرنا مستعمراتهم وأجليناهم عن أرض كنعان ودفعناهم إلى ما وراء النهر، وقد تعهد ملك الحيثيين ألا يحاول التحرش بنا من جديد، وأرسل ابنه ليكون رهينة لدينا حتى نتأكد من وفائه بوعده.

أشار بيده للخلف وهتف: تقدم يا تيفور..

تقدم شاب نحيف، عاري الصدر متهدل الشعر، وقف أمامهما وهو يرتعد، تأمله «توت» في حيرة، كان شعره مائلا للصفرة، وعيناه باهتتين تثيران الخوف، يحاول أن يخفي شراسته البدائية خلف قناع من الخضوع، ويبقي فمه مغلقا حتى لا تظهر أنيابه، كانت أظفاره طويلة ومتسخة، وكانت قدماه الحافيتان غليظتين ولا تتناسبان مع جسده النحيف، كأنه كان يعدو لمسافات طويلة، تأمله «عنخ إسن» أيضا بنفس الحيرة، عيناه زرقاوان وغريبتان، كأن فيهما بحرا صغيرا، خصلات شعره متهدلة على كتفيه العريضتين، وكانت ساقاه قويتين بالفعل كساقي مصارع، يستطيع أن يحملها على كتفيه إذا أراد، ويمضي بها بعيدا، كان الصمت طويلا، وبحث «توت» عن صوته طويلا قبل أن يقول:

ـ أهنئك أيها المحارب الشجاع، ولكن ماذا نفعل بهذه الرهينة؟ هل نقتله أم نضعه في السجن..؟

قال «حورمحب»: مولاي، إنه رهينة لدينا، أي إيذاء له يعني أننا سنعاود الحرب من جديد، يجب أن نكرمه ونحافظ على حياته..

قال توت بلا مبالاة: حسنا.. فليقم في أحد الأجنحة الملحقة بالقصر، لا نريد إثارة غضب البرابرة..

أخذ الخدم الشاب وذهبوا به بعيدا، وتابعته «عنخ إسن» بعينيها حتى اختفى عن الأنظار، ثم بدأ «حورمحب» يحكي عن وقائعه ويقدم غنائمه، كان من الواضح أنه انتصر بالفعل، انتزع من معابدهم تماثيل الإله ست إله الظلام الذي يعبدونه، وحصل على بيارقهم المصنوعة من جلد الحيوانات المصبوغة، واستولى على دروع قادتهم المصنوعة من الحديد، وسلب الذهب الموجود في خزائنهم، بل وأمر جنوده باغتصاب كل نسوتهم حتى يولد أطفال أصولهم مصرية لا يعلنون الحرب على موطن آبائهم مرة أخرى.

بعد عودة «حورمحب» لم تعد هناك حاجة تقريبا للفرعون الجالس على العرش، تقلصت أعداد طلاب الحاجات والمتوسلين والمتزلفين، بدأت الدولة المنهكة تحاول أن تستعيد أنفاسها، بدأ «حورمحب» في حل الجيش وصرفه، كان على الجنود أن يسلموا حرابهم وسيوفهم ويعودوا مرة ثانية لقراهم الجائعة، ارتفعت الفئوس وهوت على الأرض تقلبها وتطهرها من الجذور الميتة، دارت الشواديف ترفع الماء من حافة النهر إلى الترع التي سدتها الأعشاب البرية، تنفست الحقول من جديد، وارتعدت التربة وهي

- ماذا بك؟.. لماذا تسعى للموت بهذا الشغف؟

حدق فيها مدهوشا، كانت تتكلم في رقة وإشفاق، لم يتعود عليهما، لم يتصور أيضا أن تميل عليه بهذا القرب، تكاد تلتصق به، دون خوف أو حذر، قالت:

- هل أنا السبب في كل هذا؟!

قال في صوت مكتوم: كنت أعتقد ذلك..

- ماذا إذن؟

- الرجل الذي ختناه، الإله الذي تخلينا عنه.. هذا هو السبب الذي لم أكن أدري به، هذه هي اللعنة التي أصابتني وأصابتك..

كانت تتأمله بوجه مذهول، قالت:

- ولكنه عرشنا..

قال: من أجل هذا العرش تخلينا عن كل شيء، وخجلنا من أشياء لم يكن علينا أن نخجل منها..

كانت كلماته حزينة ومؤلمة، ولكنها حقيقية، لعلها لم تكن تنفر منه، بقدر ما تنفر من نفسها، كان كلاهما ينفر من نفسه، التصقت به للمرة الأولى وهي ترتعد، قالت:

- مهما كان الأمر، لا تتركني وحدي، هذه المدينة تخيفني.

ربت عليها فاحتضنته بقوة، كانا قريبين لدرجة لا تسمح لها بخمش الأوجه، أو تبادل الكلمات، كان الاثنان يرتعدان، أحاط شعرها الكثيف بوجهه، همست في أذنه:

- مارس معي الحب الآن، أنا راضية بكل ما تعطيني إياه..

أشرق عليهما نور الصباح وهما نائمان متلاصقان شاعران بالدفء، تبدد البرد الذي كانا يعانيان منه منذ أن جاءا لهذه المدينة، كانت ما تزال جائعة، ولكنها اكتفت بهذا القدر من الدفء والمؤانسة، لم يمنعه هذا من عبور النهر يوميا لمتابعة تقدم العمل في المقبرة، امتدت في جوف الأرض، غرفا وممرات، كهف مخفي مهيأ لإقامة الموت، اختفت الجدران الرملية الكئيبة خلف طبقة من الجص الأبيض، طبقة ناعمة وناصعة خففت قليلا من كآبة الجوف المظلم للمقبرة، بعد ذلك سيأتي الفنانون لنقش جدران المقبرة.

لكن غياب الجيش استطال، وزادت كآبة البيوت المليئة بالنسوة، اقترب وقت الفيضان ولم تجد الأرض من يضع في أعماقها البذور، وعندما غمرتها المياه وانحسرت لم ينبت إلا الحشائش والمزروعات البرية، كان يجب أن يعود الجيش باكرا قبل أن يحين موعد الفيضان ويلوح شبح الجوع ولكن الجنود ظلوا غائبين خلف الأفق، تضاءل عدد الرسل الذين يتوافدون من الشمال وأصبحت أخبارهم متضاربة، توغل الجيش كثيرا وراء القبائل المتوحشة، ولكن هل وصل إلى النهر الذي كان يسعى إليه؟

عاد الجيش أخيرا، و«حورمحب» غاضب كالإعصار، معفر بالرمال، مليء بالجروح، بعضها ما زال ينز دما، وكان جيشه مجهدا، انخفض عدده إلى النصف تقريبا، يحدقون فيما حولهم بعيون زائغة من شدة الجوع والإنهاك، ولكن «حورمحب» حين وقف أمام الفرعون، بدا قويا وواثقا بنفسه كالعهد به دائما، جلس «توت» على العرش والملكة بجانبه، كانا يرتعدان وهما يسمعان صوته القوي

تستقبل الفراش الجديد، ولكن الحرب التي كانت ابتعدت كانت ما زالت قائمة داخل قصر الملعون. كان «توت» قد أصابه جفاف مفاجئ، اكتشف ذات ليلة أنه عاجز عن الانتصاب ورغم محاولات وتأوهات «عنخ إسن» فقد عجز عن التجاوب معها، كانت أصوات أقدام «حور محب» تجوب طرقات القصر في كل وقت ودون سبب، لم يحاول أن يعود إلى فراشها مرة أخرى وتزايدت رغبته في الذهاب للشاطئ الآخر...

ظلت المقبرة تنمو مثل أفعى تزحف تحت الأرض، و«عنخ إسن» تجلس وحيدة طوال اليوم وكثيرا من ساعات الليل، تحيط بها ثرثرة الجواري التافهة، ومداهنات نساء الطبقة الراقية في طيبة، لم تعد صديقات المدينة القديمة يأتين إليها، ظللن مختبئات داخل بيوتهن يعانين من خجل طاغ، وكانت «عنخ إسن» تحس بالوحدة القاسية، عندما سمعت صوت جاريتها «آمنت» وهي تقول:

ـ يا له من حيوان جميل..!

نهضت ووقفت بجانبها، رأته وهو يتجول في حديقة القصر مثل حيوان مأسور، كان جسده نحيفا ولكنه مشدود العضلات، جلده لامع ومغطى بالعرق، لم يتعود بعد على طقس «طيبة» الحار، يرفع يده لأعلى ويشهق كأنه يبحث عن نسمة نقية من الهواء، تأملته وهي ترتعد، شعرت بالتوحد معه، كانت مثله تماما، انتزعت من أهلها، تركت خلفها أمها وإخوتها وقبر أبيها الذي لا تعلم مكانه، أصبحت أسيرة هذا القصر الخانق، تمنت أن تهبط إليه وتلمس جسده، تعطيه نوعا من المؤانسة، حتى يدرك أنه ليس وحده في هذه الأرض الغريبة،

كانت «آمنت» تقف بجانبها، يفوح منها عطرها المميز، كانت فتاة جميلة من أحد بيوت أشراف طيبة، والعطر الذي تضعه هو عطر جدتها «تي» الذي أصرت كل نساء طيبة على وضعه بعد رحيل الملكة، قالت «عنخ إسن»:

ـ إنه ليس حيوانا.

ـ إنه بري وخطر، كانت أمي تحذرني دوما من الرجال ذوي العيون الباهتة، الجميع يخافون منهم..

ـ ربما هو الذي يخاف من الجميع، لو غضب عليه «حور محب» فسوف يقتله في لحظات..

أحست «عنخ إسن» بالشفقة تملأ قلبها عليه، رهينة بائس في بلد غريب لا يعرف لغته ومهدد بالموت في كل لحظة، أحست بالجوع والرغبة في صوت «آمنت» التي لم تستطع أن تخفي رعدتها، لفتت نظرها إليه من دون أن تدري، وجدت الحل للملل لأيام الغياب التي يقضيها زوجها في الضفة الأخرى، حرصت على أن تكون وحدها، كانت تصرف «آمنت» قبل موعد ظهوره اليومي في الحديقة، تقف خلف الأستار حتى تراقبه ساهمة، لم تدر إن كان قد أحس بوجودها أم لا، لم يكن يكف عن الحركة في الحديقة، بدا كأنه يقوم بتمرينات حربية، يبارز أشخاصا وهميين، ويقذف الرمح على أشياء لم توجد، يمارس عاداته البرية حتى لا يلين جسده ويستكين للراحة، تراقبه على مدى ساعات طويلة وهي عاجزة عن أن ترفع عينيها من عليه وجسدها يرتعد كأنها تصل إلى ذروة من جانب واحد.

بعد أيام من المراقبة، لا تدري عددها، فوجئت به يقترب من

نافذتها، توقعت أن يدور حول نفسه ويبتعد، ولكنه واصل التقدم، وقف في الأسفل ورفع رأسه متوجها إليها، شعرت بأنفاسها وهي تتلاحق، لم يكن هناك جدوى من الاختباء خلف الأستار، كان يعلم بوجودها، ولا بد أنه لاحظها منذ فترة، رفعتها ووقفت في مقابلته، كان صدرها يعلو وينخفض، شممت رائحة عرقه بوصفها رائحة برية، ظل يتأملها بعينيه الغريبتين، كانت تلك الزرقة الغريبة التي تجعل نظراته غير مؤكدة، لم تتكلم، ولكنه تحدث بلهجة مصرية متعثرة:

ـ أنت الملكة.. أليس كذلك؟.. ما زلت أتذكر وجهك..

كان جسدها يرتجف ولكنها قالت في دهشة:

ـ أنت تتكلم بالمصرية..

ـ أجل.. تعلمتها من الجواري والوصيفات..

كانت على نفس دهشتها وسذاجتها، قالت:

ـ الجواري.. متى حدث ذلك؟

ـ طوال الوقت.. إنهن يتسللن إلى غرفتي في كل ليلة..

شهقت، حدقت في جسده، كان ناصعا، اكتسب بعضا من سمرة الشمس، ولكن ذلك لم يذهب بنصاعته، يبدو قويا، مليئا بعصارات الشباب أكثر مما ينبغي، الجواري العاهرات، عرفن الطريق إلى فراشه من دون أن تخبرها إحداهن بذلك، هل اتفقن على ذلك، أم أن كل واحدة منهن اقتنصت متعتها بطريقتها الخاصة؟ قال:

ـ لماذا تراقبينني طوال الوقت؟ لماذا لا تأتين للحديث معي؟ أنا أيضا أمير.. وأبي ملك..

بدأ ثلاثة من الحراس يقتربون منه قادمين من نهاية الحديقة، رأتهم يسيرون نحوه وقد شهروا رماحهم، قالت في خوف: سيقتلونك، التفت للخلف ورآهم، لم يبد عليه الخوف، ثم يتحرك من مكانه أمام نافذتها، قال: لن يجرءوا.. أنا رهينة.. واصل الجنود الاقتراب من دون أن تخفف درجة تحفزهم، قالت في فزع: سيقتلونك لأنك جرؤت على التحدث معي، اقترب الحراس، داروا حوله ووجهوا رماحهم على عنقه، خيل إلى «عنخ إسن» أن أطرافها المدببة قد انغرست في جلده بالفعل، صرخت بأعلى صوتها:

ـ توقفوا.. ابتعدوا عنه..

خفض الحراس رماحهم وحنوا رءوسهم، كانت ترتجف وهو ما زال يتطلع إليها، يحدق في عينيها مباشرة، دون مبالاة بالحراس والرماح، هتفت به: اذهب.. ولكنه ظل واقفا متحديا، أعجبها ذلك، ولكنها نظرت إليه في صرامة، بدأ يتراجع من دون أن يدير لها ظهره، وظلت هي واقفة تراقب خطواته خوفا من أن يلحق به الحراس ويؤذوه، التفتت إلى الحراس الذين مازالوا خافضي الرءوس وقالت بحنق واضح:

ـ لا تتحرشوا به مرة أخرى، انصرفوا..

لم تستطع أن تتمالك نفسها طوال اليوم، ظلت تحس بحرقة في أعماقها، وظل الفرعون غائبا طوال اليوم والليل، وعندما جاءت «آمنت» التفتت إليها في حدة وهي تهتف فيها:

ـ ذلك الأمير الرهينة.. هل تعرفين مكان غرفته..؟

نظرت إليها «آمنت» في فزع، احمر وجهها بشدة، تراجعت وقالت:

- مولاتي.. أنا..

ولكن «عنخ إسن» صرخت فيها بصوت حانق:

- عليك اللعنة..! لا تقولي إنك لم تذهبي إليه.

ولم تدر الوصيفة لماذا هي غاضبة لهذه الدرجة..

على الضفة الأخرى، كان العمل ما زال دائرا في المقبرة، ولم يملك «حورمحب» إلا الإعجاب بهندستها والكيفية التي تمتد بها تحت الأرض، كان قد حضر بنفسه لرؤيتها، هبط والفرعون على الممر المؤدي للأسفل، سارا فيه إلى الغرفة الأمامية، كانت أكبر غرف المقبرة، سيوضع فيها كل مايخص الفرعون من أغراض يمكن أن يستعين بها في العالم الآخر، دخلا من باب يؤدي إلى غرفة الدفن، أصغر قليلا، سيوضع فيها التابوت وبقية كنوز الملك، ودخل «حورمحب» خلفه إلى كل مكان حتى الملحق الصغير الذي ستوضع فيه أسلحة الملك، لم يبد على وجهه أي تعبير، ولكنه قال له:

- ستكون مقبرة، تفوق أيا من مقابر الفراعنة العظام..

كانا يعرفان أنه لا يستحق مقبرة من هذا النوع، ولكن «حورمحب» أمر بفتح خزائن الدولة وإخراج الذهب اللازم لصنع تابوته وقناعه وعربته الملكية، كأنه يعطيه مكافأة على خيانته للإله القديم والفرعون القديم.

ظلت «عنخ إسن» واقفة في غرفتها، تحس ببرد وصمت قاسيين،

جلست على الفراش الخالي، لم تستطع النوم ولا الجلوس، هبطت الدرج سريعا، داست على العشب المبلل، سيراها الحراس بالتأكيد لكنهم لن يجرءوا على الاقتراب منها، دخلت إلى المبنى الحجري الذي كان مختفيا خلف دغل من الأشجار، سارت لاهثة في الممر الحجري، لم تهتم بالعبيد الذين كانوا يخرون على الأرض عندما يرونها، كان جسدها ينتفض ولا شيء قادر على إيقافه، وصلت للمكان الذي ينام فيه، كان عاريا تحت ضوء القمر مستغرقا في النوم، لم يكن بجانبه أحد، مصادفة نادرة، ارتمت عليه، نهض مفزوعا، ولكنها تشبثت به، كان قد تعود على هذه الإغارات الليلية، وأجساد النساء الجائعة المرتجفة، لا يبالين بتعريف أنفسهن، ولكنه هذه المرة تعرف على وجهها تحت ضوء القمر، أدرك حجم الورطة التي أصبح فيها، ولكنها جذبته وهي تدمدم كحيوان أمضه الجوع، كان فراشه مليئا بروائح كثيرات من النسوة، حتى عطر «آمنت» كان موجودا، أثارها ذلك أكثر، تأوهت وهي تكتشف أن جسده كان مختلفا، فتيا وقويا وصلب العضلات، يتحرك فوق جسدها في ثقة من يدرك ماذا يفعل، ويعرف كل مفاتيح جسدها، وأكثر الأماكن حساسية وإثارة، أفلتت منها صرخة منتشية، غمرتها موجة عارمة لم تشعر بها من قبل، ظل جسدها ينتفض دون توقف، دون أن يعطيها الفرصة لتسترد أنفاسها.

التقطت «آخت إسن» أنفاسها وهي جالسة بجوار النافذة وكان ضوء القمر ينعكس على وجهها المغطى بالعرق، كان يهتف في حيرة:

- لم أتصور أن تأتي إلى بقدميك.

تأملت جسده الذي يلمع في ضوء القمر، الجسد الوحيد الذي منحها نشوة لم تشعر بها من قبل، لا مع ربيب الذئاب، ولا عشرات العبيد والحراس، لا أحد جعل أعضاءها على وشك التفكك بهذا الشكل، قال:

ـ لو كنت أشرت إلي، كنت تخطيت الحراس وسرت على الحراب حتى أجثو تحت قدميك.

أمسكت رأسه، تأملت عينيه الباهتتين وضعتهما على صدرها، ارتجفت وهي تحس بأسنانه تنغرس في ثدييها، شهقت في ألم: لا أريدك أن تجثو أمامي، أريدك أن تكون الملك.. ملكي.

فكرة مجنونة لم تكف عن التفكير فيها منذ الليلة الأولى، وكانت تتأكد منها في كل مرة تعبر فيها مرج العشب المبلل وهي جائعة، وهي تستحم في عرقها على فراشه الضيق الخشن، وهي عائدة منتشية ومشبعة، لم تعد تشم في فراشه غير رائحتها، كانت تنسج تفاصيل تنفيذها كلما استلقى «توت» نائما بجسده النحيف المائل للسواد، يتنفض كأنه يعاني من كوابيس لا تنتهي، ولكن الفكرة كانت مجنونة لدرجة أن «تيفور» فقد انتصابه من شدة الفزع، نهض من الفراش وستر جسده العاري الجميل الذي كان يتباهى به، قال:

ـ أنا غريب هنا، لن يتقبلني أحد...

ـ عندما أختارك سيتقبلونك، أنا التي وهبت لزوجي العرش وما زلت قادرة على أن أهبه لك، أنا بنت إيزيس، من يجلس على فخذي يصير فرعونا.

كان صوتها صلبا وباترا، يختلف عن جسدها الشره الذي لا يشبع، كانت إلهة بالفعل واسعة العيون، مدببة الرموش، ولا أحد يستطيع كبح رغبتها أو كسر إرادتها، كان الجميع يعرفون بعلاقتهما، يرصدون رحلاتها الليلية، ويسمعون تأوهاتها، ولكن هناك فرقا بين أن يكون وسيلة لمتعتها، وبين أن يحاول الصعود إلى العرش، قال:

ـ وماذا عن الفرعون الموجود الآن على قيد الحياة.. زوجك؟

ـ هذا هو ما يجب أن ندبره معا، إنه لا يصلح للعيش في هذه الحياة، في كل ليلة ينتقل إلى الضفة الأخرى.. إلى عالم الموتى، ويجب أن يبقى هناك.

في تلك الليلة عاودت اعتلاء جسده بعنف ورغبة، وعلى الرغم من أنه كان يرتعد لم تتركه، وجد جسدها الحل الذي بحثت عنه طويلا، توصلت إليه بنفس الطريقة المجنونة والخارقة التي فكر بها أبوها عندما قرر أن يحطم كل الآلهة القديمة ويتبع آلهة جديدة.

كان لا بد لها من أن تسابق الوقت حتى تضع الجميع أمام الأمر الواقع، تستغل سلطتها كملكة وتدبر كل شيء بعيدا عن أعين الجميع، بعيدا عن الفرعون، وعن «حورمحب»، خصوصا «حورمحب»، كان لا بد من ذهب كاف حتى يغض الحرس الذين يرصدون حركة «تيفور» أعينهم عنه، وحتى يسهل حرس النهر مهمة العبور للشاطئ الآخر، ويجد «المراكبية» مسارات لا يكتشفها حرس النيل، لم يعرف أحد خطتها الحقيقية ولا ما هي غايتها، كل واحد فقط عرف الدور الصغير الذي قبض الثمن من أجله.

انتظرت الليلة التي يكتمل فيها القمر، وتستيقظ فيها أرواح الذئاب

القديمة وينادي بعضها بعضا، ويتواصل العواء طوال الليل بين عالم الأحياء وعالم الموتى، رأت «توت» وهو يستعد للعبور إلى البر الغربي، انتابتها لحظة من التردد والهول مما تفكر فيه، تعلقت في رقبته، أحس بجسدها متوترا ومرتجفا وهي تحاول أن تلصق نفسها به، هتفت بحرقة:

ـ لا تتركني الليلة، ارقد بجانبي، افعل بجسدي ما تريد، أو لا تفعل شيئا، المهم أن تبقى معي..

ولكن خلاياه هو أيضا كانت مشرئبة، تتوق للحظة التي تستيقظ فيها حواسه وغرائزه القديمة، شاهد القمر من خلال النافذة يطل عليه شاحبا ومستديرا، تحيط به هالة من أرواح الأسلاف، تناديه أن ينضم إليها، تركها وهبط مسرعا حيث كان القارب في انتظاره، وكان النهر مظلما وباردا.

كان الأمر يمضي كقدر محتوم، هل كانت تحاول منعه أم تحرضه على النزول، سمعت صوت خطوات آتية نحو غرفتها هل غير «توت» رأيه وعاد فجأة؟ ولكن «حور محب» كان هو الذي دخل الغرفة دون استئذان، وقبل أن تغطي جسدها، من غيره كان يجرؤ على ذلك؟ وقف أمامها مربد الوجه غاضبا، أحست بغصة باردة تهبط في قلبها، تراجعت أمام نظراته وهي تقول:

ـ مولاي الفرعون ليس هنا.

قال بصوته العميق:

ـ أجل، أعرف ذلك، جئت من أجل الحديث إليك، من أجل أن أعرف مايدور بينك وبين الرهبنة..

التفتت إليه في حدة، نفضت من نفسها ما تشعر به من خوف، قالت:

ـ لن تجرؤ على المساس به..

قال: سأنقل هذا الرجل بعيدا، سأضعه في السجن، سأقتله إذا لزم الأمر..

قالت بصراحة:

ـ هذا هو الرجل الذي أستحقه، منذ البداية وهذا الغلام البري لا ينفعني، إنه أضعف من أن يكون متكئا على جسدي!

حدق فيها مذهولا، خيل إليه أنه يرى أخناتون مرة أخرى وهو يعلن تمرده على كل شيء، قال:

ـ لست أفهم ماذا تعنين أيتها الملكة؟

قالت وقد وصلت الأمور إلى نهايتها:

ـ أنا التي وهبت العرش للفرعون وأنا قادرة على أن أهبه لهذا الرجل.

تمتم حور محب من بين أسنانه:

ـ هذا لن يحدث أبدا، لن أهزم البرابرة في الشمال وأدعهم يهزمونني في طيبة، هذا لا يكون..

انصرف من أمامها.. رأته وهو يعبر العشب الأخضر متجها إلي حيث يسكن «تيفور»، هل يستطيع أن يمنعه؟ هل يمكن أن يلحق الأذى به؟

* * *

..... هذا الصباح كان «هوارد» يبدو متأنقا وسعيدا فوق العادة، لم يبال بنظراتها الساهمة ووجهها الذي لم يذق النوم، قال:

- اليوم سيصل اللورد «كارنرفون»، سيعبر من البر الشرقي هو وابنته حتى نقوم بافتتاح المقبرة، لا أعتقد وأنت في حالتك هذه تستطيعين مقابلة أحد..

لم تنظر إليه،أحست بحرقة في قلبها، منذ أن اكتشف هذا الدرج اللعين وهو لا يبالي بها، كل همه أن يخبر اللورد العجوز بأنه وجد شيئا قد يكون اكتشافا مذهلا، لم يكن قد تقدم أبعد من الباب الخارجي والسرداب، لم يعرف إن كانت المقبرة ـ المختبئة خلف جدار من طين ـ خالية أم أن الملك ينتظره بداخلها، قاوم فضوله، وأقام الحراسة ليلا ونهارا على المكان، وأوصى رجاله بعدم الكلام، خلال كل هذه الأيام لم يرها، كان متوترا لدرجة أنه لم ير سوى نفسه.

لم تسأله «عائشة» كثيرا ولكنها أدركت أنها وقعت في المحظور، أعطته طوق نجاته على حسابها، ها هو ذا الآن يعود لاسترضاء اللورد العجوز وابنته الشاحبة،لن يراها بعد الآن، ولن يحس بالخطر الذي يحيق بها وهذا الوادي الغاضب يحاصرها.

نظرت أمامها، غابت الشمس فجأة وأصبح النهر داكنا، رأت الذئاب وهي واقفة أمامها، استيقظت في النهار وتجمعت لتقف أمامها بشكلها المخيف، أفواهها مفتوحة وألسنتها متدلية وعيونها أكثر لمعانا في ضوء النهار، لا بد أن اللورد وابنته الشاحبة يهبطان على البر الآن، يتجهان نحو المقبرة، ويعلنان موت الملك، موت كل شيء، الذئاب تتحرك في اتجاهها، لا تخاف من شيء ولا يوقفها شيء،

تحيط بالبيت من كل ناحية، تتذكر النظرة القاسية التي رأتها على وجه أمها، تدرك أنه لاجدوى من الصراخ، ولايوجد طريق للهرب.....

* * *

..... تقدم «توت» وسط عواء الذئاب، كانت تنتشر في كل مكان، تتقافز فوق التلال. أصبحت شديدة القرب منه، يراها بوضوح وتشم هي رائحته، وكان الحراس الأربعة يقفون بعيدا عنه، بالقرب من الشاطئ، وهم يرتجفون، كان «توت» القديم يستيقظ من جديد، لا يجب أن يكون في هذه المدينة، ولا أن يعبد هذا الإله يجب أن يقاوم «حورمحب»، يزيل النقوش التي أصبحت تحتل جدران مقبرته على رغمه، ويمحو صور هذه الآلهة التي يكرهها ولا يدعها تستولي على مصير حياته الثانية، تبعث أصوات الذئاب بنبضات حية، تمد جسده بطاقة إضافية، عليه أن يسترد مكانته، ويثبت للجميع أنه ليس خائنا، وليس محبا لآمون، ولا يدين بالفضل لـ «حورمحب»، سيعلن تمرده على كل شيء، لعله يسترد رجولته الضائعة.

لمح ظل شبح يتحرك بالقرب من باب المقبرة، يختفي خلف إحدى الصخور، هل هو أحد الحراس أم لص مقابر، لم يعد خائفا، كان في هذه اللحظة يستطيع مواجهة الجميع، لن يجرؤ أحد على أن يمس فرعون مصر، ولكنه أحس بضربة هائلة ترتطم بمؤخرة رأسه، سمع صوت تهشم شيء ما، دارت الصخور، وابتعدت النجوم، وكان هناك ألم لا يمكن احتماله، ثم ساد الظلام فجأة.....

* * *

«..... لم أصدق أن اللورد «كارنرفون» استطاع أن يهبط كل

الدرجات المؤدية لفتحة المقبرة، كانت الليدي تمسك بذراعه وهما يخطوان فوق الركام، توقفا ينظران إلي وهما يلهثان، لايصدقان أنني سوف أهبهما أخيرا شيئا ذا قيمة، تقدمت منه ومددت يدي وأخذته من ذراعه، ساعدته على الاستواء فوق الممر المنحدر، وقفت «الليدي» في مكانها مترددة، تقدمت منها، رفعت عينيها كأنها تراني للمرة الأولى، مدت يدها إلي وأنا غير مصدق، أمسكت بها وقدتها ببطء، كانت باردة تماما، ترمقني في شك واضح، كان الرجال الذين حفروا المكان يطلون علينا من أعلى، وجوههم معفرة بالتراب ورائحة العرق، ولكن دورهم قد انتهى، كانت تضع يدها على طرف أنفها الدقيق، ولكنها تركت يدها في يدي حتى أصبحت بجانب أبيها، تخلت عن شحوبها بعض الشيء واكتسبت حمرة محتقنة، أشرت إلى الخرطوشة التي تحمل اسم الملك، شرحت لهما معنى النقوش الهيروغليفية، واصلنا السير للداخل، بدأ الهواء يصبح حارا وخانقا، توقف اللورد أكثر من مرة ليلتقط أنفاسه، توقفنا أمام الحائط المسدود، الذي يفصلنا عن الزمن الآخر بكل ما فيه من خداع وأسرار، كانت أنفاس الرجال في الأعلى تتردد عالية، لم يجرؤ أحد منهم على الاقتراب، من بعيد تناهت أصوات خافتة، تشبه صوت عواء الذئاب لولا أننا في وضح النهار، أمسكت معولا صغيرا كنت قد وضعته خصيصا بجانب الجدار، هويت به في ضربة أولى..ثم ثانية.. كان الجدار مجرد حاجز طيني هش، خلفه فراغ.. مقبرة الملك التي لم تكتشف بعد، انفتحت أمامنا ثغرة صغيرة، اندفع منها هواء ثقيل الرائحة، مشبع بروائح العفونة والقطران والكافور، هواء عريق ظل راكدا لقرون طويلة، أمسك اللورد بصدره وأخذ يسعل في شدة،

أمسكت الليدي بيده وأخذت تربت عليها، مرة أخرى عادت ترمقني بنظرة قاسية، توقف مرور الهواء أخيرا.. سبحت في الجو حشرات طائرة لونها أشهب، تفتتت حين واجهت الهواء الخارجي، تماسك اللورد ونصب قامته، كنت أريده أن يقوم بالنظر من خلال الفتحة، ولكنه أشار إلى أنه غير قادر على ذلك، لم أجرؤ على طلب ذلك من «الليدي»، أوقدت المصباح الكهربائي ووجهته من خلال الفتحة للداخل، رأيت لمحة كالحلم، بريقا من سراب ذهبي، يتوهج رغم العتمة المتراكمة منذ أن ولد الزمن، قال لي اللورد بصوت مجهد:

ـ هل ترى شيئا..؟

قلت: أجل..أرى أشياء رائعة...».

عن المؤلف

محمد المنسي قنديل قاص وروائي مصري من مواليد مدينة المحلة الكبرى عام ١٩٤٦، وتخرج في كلية طب المنصورة عام ١٩٧٥، وعمل في ريف محافظة المنيا والتأمين الصحي في القاهرة قبل أن يتفرغ للكتابة. حصل وهو مازال طالبا بكلية الطب في عام ١٩٧٠ على الجائزة الأولى في القصة من نادي القصة، وحصل على جائزة الدولة التشجيعية للآداب في عام ١٩٨٨ عن مجموعته القصصية «من قتل مريم الصافي؟» كما فازت روايته «قمر على سمرقند» بجائزة ساويرس للآداب عام ٢٠٠٦ وصدرت مؤخراً باللغة الإنجليزية.

صدر له العديد من المجموعات القصصية، مثل «احتضار قط عجوز» و«بيع نفس بشرية» إضافة إلى رواية «انكسار الروح»، كما أن له ثلاثة كتب تحتوي على قصص مستوحاة من التراث والعديد من الكتابات في أدب الأطفال وأدب الرحلات، وأنجز للسينما أيضا عددا من السيناريوهات.



"محمد المنسي قنديل صاحب واحد من أعذب الأساليب العربية وأنصعها.."

محمد المخزنجي

تدور أحداث هذه الرواية الشيقة والممتعة للكاتب محمد المنسي قنديل في مصر في مطلع القرن العشرين، حيث يحكي لنا عن عائشة، الفتاة الجميلة التي عاشت الحب وعانت من النبذ والخديعة، ورحلتها الطويلة، من أعماق الصعيد، إلى عوالم القاهرة الخفية، إلى مقابر وادي الملوك في طيبة.

وعلى خلفية هذه الفترة الخصبة – وشبه المجهولة – من تاريخ مصر والتي امتلأت فيها البلاد بمحاولات إحياء الروح المصرية نرى تشكل حياة عائشة ومخاوفها وتجربتها لاكتشاف ذاتها.

محمد المنسي قنديل قاص وروائي مصري من مواليد مدينة المحلة الكبرى. تخرج في كلية طب المنصورة عام ١٩٧٥ وعمل في ريف محافظة المنيا والتأمين الصحي في القاهرة قبل أن يتفرغ للكتابة. حصل وهو ما زال طالبًا بكلية الطب في عام ١٩٧٠ على الجائزة الأولى في القصة من نادي القصة، وحصل على جائزة الدولة التشجيعية للآداب في عام ١٩٨٨ عن مجموعته القصصية "من قتل مريم الصافي؟"، كما فازت روايته "قمر على سمرقند" بجائزة ساويرس للآداب عام ٢٠٠٦.

